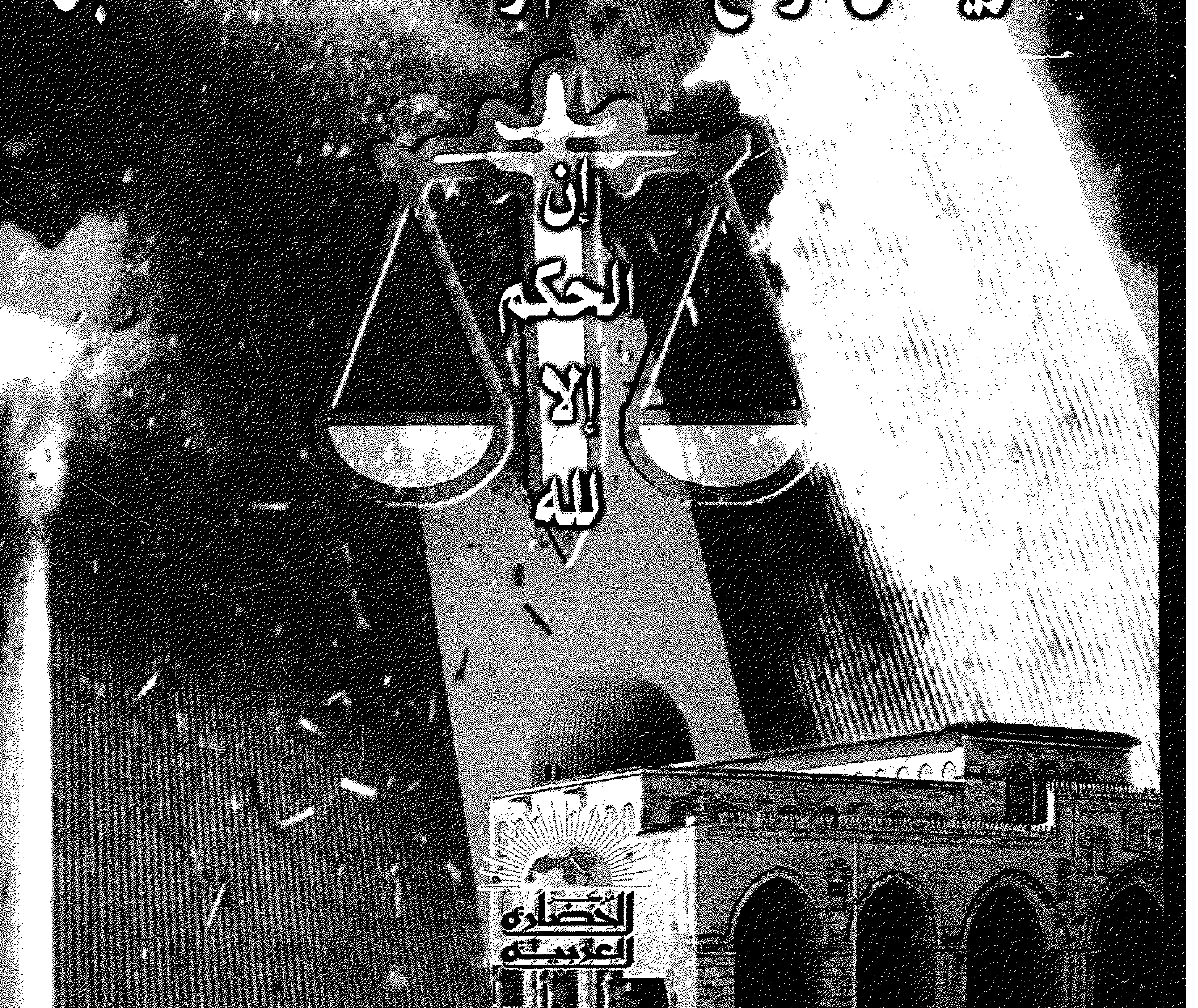
محمد إبراهيم مبروك

الإسلام والغرب الأمريكى

بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار

نظرية فى دوافع الصدام واحتمالات المستقبل



الإسلام والغرب الأمريكى
بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار

نظرية فى دوافع الصدام
واحتمالات المستقبل



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨ ، ف : ٣١٤٨٠٤٢

محمد إبراهيم مبروك

الإسلام والغرب الأمريكى

بين حتمية الصدام وإمكانية الحوار

نظرية
فى دوافع الصدام
واحتمالات المستقبل



الكتاب : الإسلام والغرب الأمريكى
بين حتمية الصدام
وإمكانية الحوار
نظرية فى دوافع الصدام
واحتمالات المستقبل

الكاتب : محمد إبراهيم مبروك

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٣٠١٩
الترقيم الدولى، I.S.B.N.977-291-370-4

الغلاف
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد مكاوى
سيد عبد الفتاح حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر



إهـداء

إلى كل أعداء القهر فى العالم

مقدمة

ليست لدىّ الرغبة فى أن أكتب مقدمة لهذا الكتاب لأننا نعيش بالفعل فى بؤرة موضوعه ولا نحتاج إلى مقدمات، وكذلك حفاظًا على الحياد العلمى؛ فقد كتبت هذا الكتاب بروح المفكر أو الفيلسوف فى ظل أحداث يتعرض لها العالم الإسلامى يتصدع لها قلب المؤمن؛ حيث بلغت به حداً من المهانة لم يتعرض لها منذ سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية على يد المغول، بل أراه تجاوز ذلك.

فالعالم الإسلامى الذى كان يسقط فى الشرق كان ينهض فى الغرب، أما بالنسبة لما يحدث الآن فالسقوط شامل والمهانة مريعة والهامات الصغيرة التى ترتفع فى شموخ هنا وهناك هى فى مرمى الخطر الوشيك لذبحها مما يبعث على الجنون أو الانفجار ويخرج بنا عن إطار الروح العلمية التى يجب توفرها للنظرية المطروحة فى هذا الكتاب، ولهذا احتفظنا بطوفان الغضب فى القلب ونحن نتابع عملنا فى هذا الكتاب أثناء هذه الأحداث، ولا نريد أن نفتح له مجرى فى هذه المقدمة لأننا لن نستطيع التحكم فيه عند ذلك.

وقد يكون الجدير بالإشارة إليه هنا هو أن الأطروحة الأساسية لهذا الكتاب بدأت تتبلور منذ أواخر الثمانينيات، وكنا قد انتهينا لتونا من كتابنا (أمريكا والإسلام النفعى «البراجماتى»)، فبدا لنا واضحًا مع متابعتنا للبدايات الأولى لانهيار الاتحاد السوفيتى حتمية مآل الصراع الحضارى العالمى إلى الاستقطاب العدائى الشديد بين الإسلام والغرب الأمريكى، وتحدثنا عن ذلك فى مقالات وندوات ومؤتمرات وأعددنا المواد الأولى لهذا الكتاب منذ أكثر من عام، وكتبنا من بين ذلك أن بؤرة الصدام ستكون فى وسط آسيا وفى أفغانستان تحديداً، ولهذا فقد احتفظنا بجزء مما كتبناه فى هذا الموضوع كما هو وذلك فى الجزء الخاص بطالبان والمُلا عمر.

والجدير بالإشارة إليه أيضًا هو التعبير عن دهشتنا من مدى الزيف البالغ الحادث فى تلك الحوارات المدعاة بين الغرب والإسلام والتى يُدعى فيها للحديث عن الإسلام فى مقابل مفكرى الغرب المتغربون من العلمانيين عندنا أو رجال المؤسسات الحكومية من أنظمة الدول الإسلامية الخاضعة للغرب. أى أن الغرب يحادث ذاته باسم الحوار بين الغرب والإسلام.

وقد يفاجأ البعض بتوجهات الأفكار الواردة فى هذا الكتاب ليس فقط من حيث مدى تعارضها مع التوجهات الغربية المشاعة ولكن من حيث مدى موافقتها لها أيضًا فى بعض الجوانب ، ويأتى هذا لكون أن العمل القائم فى هذا الكتاب يخرج عن دائرة الأفكار المقررة سلفًا - التى تشحذ جهود الكتاب لتقريرها مرة أخرى - إلى فضاء البحث الفكرى المضنى الذى يريد الوصول إلى الحقيقة مهما كان اصطدامها مع كل ما هو شائع أو غير مسموح به .

بقى أن نشير إلى أن خطة الكتاب تتحدد فى تناول العلاقة بين الإسلام والغرب ودوافع الصدام بينهما من المنظور الغربى ثم من المنظور الإسلامى بعد ذلك ، ثم يلحق ذلك نظريتنا عن الموضوع والتى تمثل المضمون الأساسى لهذا الكتاب الذى تعد كل فصوله التالية بمثابة تفصيل وتفسير لهذه النظرية وشواهد لها .

وليست لدىَّ أية رغبة فى أن أكتب أى شىء بعد ذلك يتعلق بالمقدمة .

محمد إبراهيم مبروك

القاهرة فى ٨/٣/٢٠٠٢

٠١٠١٤٩٠٤٩٩

١

دوافع الصدام بين الغرب والإسلام

من المنظورين الغربي والإسلامي

تمهيد :

قبل أن ندلف مباشرة إلى نظريتنا في تفسير دوافع الصدام بين الغرب والإسلام نحاول أن نتلمس أولاً المحاولات التي قامت بصدد هذا الموضوع من المنظور الغربي وكذلك من المنظور الإسلامي.

تفسير دوافع الصدام من المنظور الغربي

سنوجز هنا بعض الدوافع التي استخلصها المفكرون الغربيون في تفسيرهم لدوافع الصدام بين الغرب والإسلام كالتالي:

الإرث التاريخي:

يذكر هنتنجتون أن بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون يقولون: «إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أية مشكلة وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين الإسلاميين». ثم يعلق على ذلك فيقول: «أربعة عشر قرنًا من التاريخ، تقول عكس ذلك. العلاقات بين الإسلام والمسيحية سواء الأرثوذوكسية أو الغربية كانت عاصفة غالبًا كلاهما كان عدواً بالنسبة للآخر. صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحيين»[1].

ويحاول هنتنجتون نفسه تفسير ذلك فيقول: «أسباب هذا النمط من الصراع لا تكمن في ظاهرة انتقالية مثل العاطفة المسيحية في القرن الثاني عشر أو الأصولية الإسلامية في القرن العشرين إنها تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين المؤسستين عليهما.

الصراع كان من ناحية نتيجة الاختلاف، خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة متجاوز ويربط بين الدين والسياسة، ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر كما كان الصراع نابعًا من أوجه التشابه بينهما ـ كلاهما دين توحيد ويختلف عن الديانات التي تقول بتعدد الآلهة، ولا يستطيع أن يستوعب آلهة آخرين بسهولة وكلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية «نحن» و«هم»، كلاهما يدعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، وكلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم الالتزام بهداية غير المؤمنين وتحويلهم إلى ذلك الإيمان الصحيح»[2].

ولا بد أن نذكر هنا أن المسلمين عامة لا يرون في المسيحية التثليثية دين توحيد.

---

(١) صدام الحضارات: ص ٣٣٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٤٠ : ٣٤١.

ويشرح برنارد لويس أستاذ الدراسات الإسلامية بأوربا وأمريكا مراحل الصراع بين الحضارتين فيقول : «استمر الصراع بين هذين النظامين المتنافسين لمدة أربعة عشر قرناً، لقد بدأ مع الأيام الأولى للإسلام فى القرن السابع واستمر عملياً حتى يومنا الراهن، وقد اشتمل على سلسلة طويلة من الهجومات والهجومات المضادة، أعمال الجهاد والحملات الصليبية، الفتوحات والفتوحات المضادة، وطوال السنين الألف الأولى كان الإسلام متقدماً وكانت النصرانية فى حالة تراجع وتقهقر مما عرضها للخطر وانتزع الدين الجديد أراضى المسيحية فى الشرق وشمال أفريقيا واجتاح أوربا حاكماً لفترات فى صقلية وأسبانيا والبرتغال وحتى أجزاء من فرنسا، ولاقت محاولات الصليبيين ليستعيدوا الأراضى التى خسروها فى الشرق فشلاً ذريعاً وعادوا مدحورين حتى إن الأراضى التى فقدها المسلمون فى جنوب غرب أوربا عوضوها بإسهاب بالتقدم فى جنوب شرق أوربا ووصلوا مرتين إلى أبواب فيينا.

ولكن طوال الثلاثمائة عام الأخيرة منذ اندحار الحصار التركى الثانى لفيينا عام ١٦٨٣ وبروز الإمبراطوريات الأوروبية الاستعمارية فى أوربا وأفريقيا تراجع الإسلام إلى الوضع الدفاعى»(١).

ويذهب إيان ليسر إلى أن هذا الإرث التاريخى من العداء أصبح عنصراً ثابتاً فى التحليلات الغربية المعاصرة للصراع بين الإسلام والغرب حيث «ظل الخطر الإسلامى على مدى ألف عام تقريباً، المشكلة الاستراتيجية الأساسية التى تواجه الأوربيين ابتداء من شبه جزيرة أيبريا وحتى النمسا والبلقان، بل وما بعدهما إذا ما وضعنا فى الاعتبار روسيا وفترة خضوعها تحت نير التتار.

وإذا استرجعنا الأحداث الآن نجد أن من الصعب تصور المدى الكامل وإمكانات هذا الخطر الذى بدأ محسوساً بوضوح فى ضوء الاعتبارات المحلية الاستراتيجية المهمة والأساسية، إن هزيمة المغاربة فى بواتييه Poatieys عام ١٧٣٢ وهزيمة الأتراك فى ليبانتو Lapanto عام ١٥٧١ ثم بعدها فى فيينا عام ١٦٨٣ قد حققت وضعاً معترفاً به باعتبارها لحظات حاسمة فى الصراع بين الإسلام والغرب للسيطرة على أراضى أوربية، وموضوعياً تكمن أهمية هذه الانتصارات الغربية فى تصورها «كأحداث متواكبة ودون إغفال المزايا الجغرافية والتكنولوجية والعسكرية ومزايا التنظيم السياسى التى ربما أفادت وعملت لصالح أوربا.

وقد تزايد التفوق الأوربى باطراد مع الزمن وساد تصور قوى ومستمر أوقاتاً ما بأن مصير

---

(١) جذور السخط الإسلامى، ضمن أبحاث الإسلام الأصولى فى وسائل الإعلام الغربى، من وجهة نظر أمريكية بالاشتراك مع إدوارد سعيد: ص ١٥.

أوربا بات معلقًا في الميزان. إن صورة الأتراك على أبواب فيينا منذ القرن السابع عشر أصبحت عنصراً ثابتًا وملازمًا فى التحليلات الغربية المعاصرة للانقسامات التى عادت إلى الحياة من جديد بين المسلمين والمسيحيين»[1].

من جهة أخرى ـ بحسب ما يرى فريد هاليداى أستاذ العلاقات الدولية فى مدرسة لندن للاقتصاديات ـ فإن هذا الإرث التاريخي من العداء يتم الاستعانة به لتعبئة التأييد الشعبى وإضفاء الشرعية على التصرفات الغربية المضادة للعالم الإسلامى حيث يقول: «تاريخ النزاع بين عالم الغرب المسيحى وعالم الإسلام يمتد عبر ألف عام وقد استحكم هذا النزاع منذ غزوات أيبريا فى القرن السابع وعبر الحروب الصليبية التى بدأت فى القرن الخامس عشر عبر النزاعات مع الإمبراطورية العثمانية التى استمرت من القرن الخامس عشر حتى الانهيار النهائى لهذا التحدى الإسلامى فى عام ١٩١٨.

ورغم أن القوى الإسلامية قد طُردت بعد استعادة إسبانيا فى ١٤٩٢ فقد ظل الخصم العثمانى طويلاً حتى هذا القرن تاركًا ندوبًا عميقة فى البلاد السلافية الجنوبية وفى المناطق السلافية الشمالية، وقد يكون «النير التترى» قد طوح به فى القرن السادس عشر لكن النزاع مع الدول الإسلامية المستقلة فى آسيا الوسطى والقوقاز ومع الإمبراطوية العثمانية ذاتها ظل لازمة من لوازم السياسة الروسية.

وعند انهيار النظم القائمة وهياكل الدولة فى البلقان فى السنوات التى أعقبت عام ١٩٨٩ وجدت الأفكار المعادية للأتراك والمعادية للإسلام تعبيراً عنها عند أولئك الذين يريدون أن يعبئوا قدراً من التأييد الشعبى ويضفوا مشروعية على تصرفاتهم»[2].

حدود الإسلام الدموية:

ويرى الغربيون أن الإسلام بذاته دين حربى تدفع عقيدته إلى الجهاد وقتال الكفرة ويقسم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب ومن ثم فإن حدود الإسلام هى حدود دموية. يقول هنتنجتون: «إن غالبية صراعات خطوط التقسيم قد حدثت على امتداد الحدود الملتقية عبر آسيا وإفريقيا والتى تفصل بين المسلمين وغير المسلمين، وعلى المستوى الأكبر والكونى للسياسة العالمية نجد أن الصراع الرئيسى بين الحضارات هو ذلك القائم بين الغرب والباقى، بينما على المستوى

(١) الإسلام والغرب، بالاشتراك مع جراهام فولر ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر: ص ٢٨: ٢٩.
(٢) الإسلام وخرافة المواجهة «الدين والسياسة فى الشرق الأوسط»، ترجمة محمد مستجير، مكتبة مدبولى ص ١٢٩، ١٣٠.

الأصغر والمحلى نجد أن الصراع القائم هو صراع بين الإسلام والآخرين، فالعداوات الحادة والصراعات العنيفة متغلغلة بين الشعوب الإسلامية المحلية والشعوب غير الإسلامية»[١].

ليس الأمر يقف عند ذلك ولكن واجب جنود الله من المسلمين بحسب رؤية برنارد لويس هو إرسال أعداء الله إلى الجحيم «صراع الخير والشر في الإسلام اكتسب بسرعة أبعاداً سياسية بل وعسكرية، فمحمد على سبيل التذكير لم يكن فقط رسولاً أو معلماً على شاكلة غيره من مؤسسي الأديان فهو أيضاً قائد الحكومة والمجتمع وكان حاكماً مقاتلاً ومن ثم فإن كفاحه استلزم دولة وقوات مقاتلة. فإذا كان المقاتلون في سبيل الإسلام - الحرب المقدسة في سبيل الله - يقاتلون من أجل الله فإن ذلك يستتبع القول إن خصومهم يقاتلون ضد الله، وبما أن الله هو المهيمن ومصدر السلطان من حيث المبدأ وهو أيضاً القائد العلوى للدولة الإسلامية والنبى (وخلفاؤه من بعده) وكلاء مباشرون عنه فإن الله إذن هو راعى الجيش وقائده. والجيش هو جيش الله والأعداء هم أعداء الله فواجب جنود الله إذن هو إرسال أعداء الله بأقصى سرعة ممكنة إلى حيث سيتولى بنفسه معاقبتهم وتأديبهم. أى إلى الآخرة.

ومن الواضح انسجام هذا الأمر مع الرؤية الإسلامية للتقسيم الأساسى للبشرية، فمعظم، وربما كل، المجتمعات الإنسانية لها طريقتها الخاصة للتمييز بين أنفسها والآخرين بين الأنا والآخر بين أتباع الجماعة وسواهم الأقارب أو الجيران أو الأغراب. هذه الطريقة فى التحديد والتعريف بغرض التمييز لا تحدد فقط الخارج بل أيضاً وبشكل خاص تساعد على تحديد وتوضيح مفهومنا عن أنفسنا من الرؤية الإسلامية التقليدية التى بدأت أعداد كبيرة من المسلمين بالرجوع إليها. العالم كله ينقسم إلى فريقين دار الإسلام حيث تسود الشريعة والعقيدة الإسلامية والباقى فى دار الكفر أو دار الحرب التى من واجب المسلمين فى النهاية أن يضموها إلى الإسلام.

ولكن الجزء الأكبر من العالم لا يزال خارج الإسلام وحتى داخل البلدان الإسلامية، وتبعاً لرؤية المتشددين الإسلاميين فإن العقيدة الإسلامية ضعفت والشريعة الإسلامية عطلت، لذا فإنه من الواجب حرب نفس العدو الكافر»[٢].

نفس الأمر يؤكده جراهام فوللر حيث يذهب إلى أن «مفهوم الجهاد فى الإسلام يعنى التزاماً دينامياً ثابتاً يوجب على المسلمين النضال دائماً وأبداً من أجل العمل على توسيع نطاق العقيدة ولا يزال هذا هو رأى بعض الإسلاميين المتطرفين حتى اليوم»[٣].

---

(١) صدام الحضارات: ص ٤١٤.

(٢) الإسلام الأصولى (مرجع سابق)، ص ١٣.

(٣) الإسلام والغرب: ص ١١٦.

وينتقل فريد هاليداى بالقضية إلى طور آخر، فالمسألة لا تقف عند الغرب فقط بالنسبة لمن يبررون العداء للإسلام عند الحدود الدموية للإسلام وأن العالم الإسلامى هو عالم عدوانى، ولكن هو عالم يصطنع العداءات الخارجية ويروج لها ليبرر عدوانيته «أن العالم الإسلامى هو العدوانى فى واقع الأمر وأنه كان كذلك دائماً ويستحق ما أنتجه من معارضة، وتستند فكرة أن المسلمين «يستحقون» أو يستثيرون بشكل ما ما يواجهونه من نقمة إلى حجتين معززتين الأولى نفسية هى: أن زعم المسلمين وجود تهديد عدائى منتشر هو مثال للإسقاط أى لأن ينسب إلى الآخر العالم غير المسلم شىء هو فى الواقع نتاج للعالم المسلم وبعبارة أخرى أن تأكيد الإسلام المتكرر للخطر والفساد وما إلى ذلك إنما يعكس عدوانية المسلمين لا عدوانية خصومهم. والحجة الثانية أكثر غيبية ومعاصرة وهى أن المرء لن يجهد طويلاً فى البحث لكى يجد فى تصريحات القادة المسلمين بالتحديد تلك الادعاءات التى يزعمها المعادون للمسلمين عن المواجهة والمنافسة وعدم التوافق، وقد وجدت مثل هذه التصريحات طيلة التاريخ الإسلامى وهى البضاعة الرابحة للإسلاميين وتشهد بذلك حالة سيد قطب فى حديثه عن شرور الجاهلية الغربية والخمينى عن فساد الغرب»[1].

شعور المسلمين بفقدان العزة ومرارة الهزيمة:

من الطبيعى ألا يكون سهلاً على أبناء أعظم حضارة فى التاريخ والتى امتد نفوذها لأكثر من ألف سنة أن يقبلوا ببساطة زوال مجدهم وهيبتهم ليس هذا فقط بل مهانة تقليص سلطات الإسلام داخل حدوده ذاتها، ولكن كيف يتعاطى الغربيون مع هذا الشعور؟.

بحسب ما يذهب إليه برنارد لويس فإنه «منذ وقت طويل وجد الغرب عصياناً متنامياً ضد هذا التسلط الغربى ودافعاً لإعادة تأكيد القيم الإسلامية وإحياء المهابة الإسلامية، لقد عانى المسلم من مراحل متعاقبة من الهزيمة.

أولى هذه الهزائم فقدانه الهيمنة على العالم لصالح القوة المهاجمة لروسيا من جهة والغرب من جهة أخرى، وثانيتها كانت تقليص سلطانه داخل بلاده ذاتها من خلال الأفكار الأجنبية الغازية والقوانين وطرق الحياة الأجنبية بل وأحياناً الحكام والمستعمرين الأغراب وتدخل العناصر غير الإسلامية. ثالث الهزائم وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير كانت تحدى سيادته فى عقر داره من النساء المتحررات والشباب المتمردين.

لقد كان كل ذلك شيئاً لا يمكن تحمله وكأن أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه أن ينفجر الغضب

---

(١) الإسلام وخرافة المواجهة، ١٩١

ضد هذه القوى المخالفة الكافرة العصية على الفهم التى عملت على تدمير هيئته ومزقت مجتمعه، وأخيراً انتهكت حرمة بيته كما أنه كان من الطبيعى أن ذلك الغضب ينبغى أن يوجه فى المقام الأول ضد ذلك العدو الذى ناصبه العداء لألف سنة وكان طبيعياً أيضاً أن يستمد قوته من العقائد والولاءات القديمة»[1].

ومع كل ما سبق فمازال الغربيون يرون أن الإسلام نفسه لم يهزم أو كما يقول إدوارد سعيد: «غير أن الصعوبة الكبرى بالنسبة للإسلام تكمن فى أنه على النقيض من الصين والهند لم تتم أبداً تهدئته أو هزيمته حقًا ومازال الإسلام أو شكل ما من أشكاله لأسباب كانت على الدوام تبدو كأنها تتحدى أذهان وفهم الباحثين يواصل اجتياحه لأتباعه الذين يعاندون القبول بالواقع أو على الأقل ذلك الواقع الذى يتضح فيه تفوق الغرب»[2].

وينظر هنتنجتون للموضوع من منظور آخر هو إشكالية عدم قابلية المسلمين للهضم فمصادر الصراع بين المسلمين وغير المسلمين «تتضمن ما يقوله رجل الدولة بالإشارة إلى بلاده وتتضمن أن الدول الإسلامية لها مشكلات مع الأقليات غير الإسلامية تشبه تلك التى عند غير الإسلامية بالنسبة للأقليات المسلمة. الإسلام عقيدة أكثر استبدادية حتى من المسيحية، الإسلام يمزج بين الدين والسياسة ويضع فاصلاً حاداً بين أولئك الذين فى دار الإسلام وأولئك الذين فى دار الحرب ونتيجة لذلك فإن الكونفوشيوسيين والبوذيين والهندوس والمسيحيين الغربيين والمسيحيين الأرثوذكس يجدون صعوبة أقل فى التكيف والعيش معًا عما يجده أى منهم فى التكيف والعيش مع المسلمين»[3].

وبتعبير أكثر صراحة عن الموضوع يقول برنارد لويس: «يبدو أن الشىء السيئ فعلاً وغير المقبول هو هيمنة الكفرة على المؤمنين «الحقيقيين» أى أولئك أتباع الإيمان الحقيقى فبالنسبة للمتدينين يبدو أنه من المناسب والطبيعى أن يحكموا هم الكفرة لا سيما أن ذلك يوفر فرصة حماية الشريعة الإلهية كما أن هذا الأمر يعطى لأولئك الكفرة الفرصة والحافز فى وقت واحد ليعانقوا الإيمان الحقيقى أما أن يحكمهم أولئك فيعتبر تجديفًا وأمراً فيه غرابة باعتباره يقود إلى إفساد الدين والأخلاق فى المجتمع وإلى الاستهتار بالشريعة الإلهية بل إلى تعطيلها»[4].

ويواصل برنارد لويس حديثه عن أثر هذا الشعور بالعزة والكرامة عند المسلمين فى معاداة الغرب فيقول:

---

(١) الإسلام الأصولى: ص ١٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٦١.
(٣) صراع الحضارات: ص ٤٢٨.
(٤) الإسلام الأصولى: ص ٢٣.

«هناك شيء ما، في الثقافة الدينية الإسلامية ألهم حتى أولئك الناس الأكثر تواضعًا وسذاجة، شعوراً بالكرامة والاحترام والتعالى تجاه الآخرين بشكل نادر جداً قل أن نجحت الحضارات الأخرى فى تحقيقه ولا يزال هذا الإحساس بالكرامة والشموخ تجاه الآخرين يعطي - خاصة فى لحظات الجيشان والتمزق حينما يثور الغضب - الوسيلة لخليط ممزوج من الكراهية والمقت الذى يدفع حتى الحكومات العريقة والمتحضرة وحتى المتحدثين باسم ذلك الدين العظيم ليناصروا أعمال الخطف والاغتيال ويحاولوا أن يجدوا فى سيرة نبيهم استحسانًا وسوابق لأعمال كهذه، إن غريزة الجماهير الفطرية فى عزو المنابع الجوهرية لهذه التغييرات العتيقة والمفاجئة إلى الغرب وفي عزو سبب تمزق حياتهم القديمة إلى الهيمنة الغربية والتأثير الغربى والمثال والقدرة الغربيين، هذه الغريزة ليست بالتأكيد أمراً زائفًا، وباعتبارها الوريث الشرعى للحضارة الغربية والقائد الأوحد المميز للغرب فإن الولايات المتحدة ورثت وأصبحت القبلة التى توجه ضدها تلك الكراهية وذلك الامتعاض المكبوتان»[١].

البترول وإيران:

الحظر العربى على البترول عام ١٩٧٣ وقيام الثورة والإيرانية كانا عاملين هامين فى إثارة المخاوف الغربية. وهو ما يقول عنه جراهام فوللر: «الحظر العربى على النفط فى عام ١٩٧٣ وأزمة إمدادات البترول ١٩٧٣ - ١٩٧٤، ١٩٨٠ - ١٩٨٢ إذ أثارت هذه مخاوف الغرب من ضعفه الهيكلى إزاء سلاح قطع الإمدادات نتيجة عدم الاستقرار الإقليمى أو نشاط سوفيتى والملاحظ أن العامل الإسلامى كان غائبًا إلى حد كبير فى كلتا الحالتين ولم تكن الصورة الغالبة هى صورة مسلمين متعصبين فقراء ينادون بسقوط الغرب بل صورة «شيوخ النفط» الأثرياء يقبضون على الاقتصادات الصناعية وعلى كثير من اقتصادات العالم الثالث للحصول على المزيد كفدية والتصرف فى ثرواتهم من دولارات البترول بطريقة تثير الاضطراب»[٢].

وكذلك فإن «صورة إيران الثورية التى دعمتها تطورات أخرى مثل قضية سلمان رشدى تطغى على الكثير من الجدل الدائر الآن فى الولايات المتحدة بشأن ظهور وصعود الإسلام السياسى، كذلك فإنها تجعل من الصعب على الأمريكيين أن يتخيلوا قيام علاقات مع نظام حكم إسلامي لا يرى الولايات المتحدة فى دور الشيطان الأعظم»[٣].

---

(١) الإسلام الأصولى: ص ٢٩.
(٢) الإسلام والغرب، ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٦.

ويقول إدوارد سعيد عن ذلك أيضاً: «في محاولة لإبراز المصادر البديلة للطاقة وإثبات تلك الصورة عند الأمريكيين قامت شركة أديسون المتحدة ـ نيويورك في صيف ١٩٨٠ بنشر دعاية تلفزيونية مثيرة أو عرضت لقطات حية لعدد من الشخصيات الرفيعة المستوى التي يمكن التعرف إليها على الفور من أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط أوبك من أمثال زكي عبده اليماني والعقيد معمر القذافي وشخصيات عربية أخرى أقل شهرة ترتدى العباءات تتداخل بينها صور ولقطات حية لشخصيات حية ترتبط في ذهن المشاهد بالنفط تطغى على جميع الصور الأخرى ولقطة للخميني ولم يذكر اسم أية شخصية من أصحاب الصور غير أن الإعلان يخبرنا منذراً أن هؤلاء الرجال يسيطرون على مصادر النفط بالنسبة لأمريكا ولا يورد الصوت الوقور الجاد المرافق للصور أي ذكر لهوية هؤلاء الأشخاص أو مراكزهم أو أصولهم مما يترك انطباعاً في نفوس المشاهدين بأن هؤلاء ما هم إلا جماعة من الأشرار وضعوا الأمريكيين بأسرهم في قبضة متوحشين ساديين لا ضابط لهم وكان كافياً أن يظهر أولئك الأشخاص بالصورة التي بدوا فيها في الصحف والتلفزيون حتى يتولد في نفوس المشاهدين الأمريكيين مزيج من مشاعر الحقد والخوف والذعر»[١].

ويذهب هاليداى إلى أن: «العداء الاستراتيجي للمسلمين يرجع إلى أوائل السبعينيات وهو في المقام الأول نتيجة لارتفاع أسعار الأوبك في عام ١٩٧٣ فرغم أن هذه الزيادات لم تكن نتيجة ائتلاف إسلامي موحد «فالأوبك» تضم «فنزويلا» فقد أثارت رد فعل شمل العداء للمسلمين وما يرتبط به من عداوة عنصرية للعرب والإيرانيين وكان هذا صحيحاً بوجه خاص من الولايات المتحدة حيث تعرض ما كان يعد من قبل نظاماً اقتصادياً مستقلاً للمرة الأولى لشكل من أشكال الضغط الأجنبي صوِّر على أنه ابتزاز وتهديد ثم جاءت الثورة الإيرانية، وبالنسبة للولايات المتحدة بوجه خاص أزمة الرهائن التي أكدت صورة الإسلام المتعصب الإرهابي وكم تميز هذه البلاغيات بين الفرس والعرب[٢].

ويؤكد هنتنجتون نفس الأمر فيقول: «إن الإحياء الإسلامي هو نتيجة انهيار قوة وهيبة الغرب.. فمع فقدانه لسطوته فقدت مثله ومؤسساته بريقها، وبتحديد أوضح فإن الطفرة النفطية التي حدثت في السبعينيات حفزت على الصحوة الإسلامية وزودتها بالنقود، هذه القفزة زادت لدرجة كبيرة من ثروة وقوة كثير من الدول الإسلامية ومكنتها من أن تعكس اتجاه علاقة السيطرة والتبعية التي كانت بينها وبين الغرب وكما لاحظ «جون ب. كيلي» في

(١) الإسلام الأصولي، ص ٣٣، ٣٤..
(٢) خرافة المواجهة، ص ٢١٦.

ذلك الوقت هناك بلا شك شعور مضاعف بالرضا لدى السعوديين لإنزالهم عقوبات بالغربيين، إنهم لا يعبرون بذلك عن قوة واستقلالية السعودية فقط ولكنهم يظهرون حيث هم مصرون على أن يظهروا احتقارهم للمسيحية وتفوق الإسلام عليها.

إن تصرفات الدول الإسلامية الغنية بالنفط إذا وضعت فى إطارها التاريخى والدينى والعرقى لا تصل إلى أقل من محاولة واضحة وقوية لإخضاع الغرب المسيحى للشرق المسلم»[١].

موقف الغرب من إسرائيل :

لم يتجاهل المفكرون الغربيون دور الموقف الغربى من إسرائيل فى تأجيج الصراع بين الغرب والعالم الإسلامى ولكن على أسس متباينة إلى حد كبير من وجهة النظر الإسلامية، يقول هاليداى فى ذلك: «ما من علاقة أكثر تعقيداً أو إثارة للجدل من العلاقة بين العالم الإسلامى والعالم اليهودى وفى المقام الأول بسبب ما حدث منذ هجرة اليهود الواسعة إلى إسرائيل فى أواخر القرن التاسع عشر وإقامة دولة إسرائيل فى ١٩٤٨ وتبدو مذبحة تسعة وعشرين مسلماً أثناء صلاتهم فى مسجد الخليل على يد المستوطن الإرهابى الإسرائيلى باروخ جولدشتاين فى فبراير ١٩٩٤ مجرد تتويج لهذا التناحر وهنا فى المقام الأول تسود الصور عن عداء أبدى غير تاريخى فى كلا الجانبين.

وبالنسبة للمسلمين تبدو الصورة واضحة بما يكفى فالقرآن نفسه يقرر أن اليهود أعداء الإسلام وهذا ما أكدته إقامة دولة إسرائيل واحتلالها للأراضى العربية بل كذلك للمدن وأماكن العبادة الرئيسية فى العقيدة الإسلامية، فلا عجب فيما يبدو أن يكون الإسلاميون بل فى الواقع المسلمون قد رأوا فى الصهيونيين طيلة عقود عنصراً رئيسياً فى المؤامرة المعادية للإسلام وفى إسرائيل كياناً أقيم على نزع ملكية المسلمين وقهرهم»[٢].

أما جراهام فوللر فيذهب إلى أنه: «على الرغم من أن قيام إسرائيل لم تقبله بعد جميع الدول الإسلامية باعتباره أمراً واقعاً فإن القضية لا ينظر إليها العالم الإسلامى على أنها مجرد صراع بين طرفين على نفس الحلبة، ذلك أنهم ينظرون إلى إسرائيل فى إطار الدول المشاركة فى الحروب الصليبية وعلى أنها جرى فرضها فرضاً فى نفس الساحة وأسسها مرة ثانية المواطنون الغربيون وقوى الغرب وفرضوها على العالم الإسلامى، إنهم إذا شئنا الدقة لا ينظرون إليها نظرتهم إلى الاستعمار الغربى الذى قد ينقضى أمره مع الزمن ليعود

(١) صراع الحضارات، ص ١٩١، ١٩٢.

(٢) خرافة المواجهة: ص ٢٢٢ : ٢٢٣.

المستعمرون إلى أوطانهم، إنهم ينظرون إلى قيام إسرائيل باعتباره حالة من بين حالتين اثنتين فقط في التاريخ الحديث قصد فيها الغربيون دولة من دول العالم الثالث وأقاموا فيها إقامة دائمة وسط حضارة وثقافة مغايرتين نزحتا بعد ذلك من موطنهما.

والحالة الثانية هي جنوب أفريقيا ولكن حتى في جنوب أفريقيا فإن هيمنة الرجل الأبيض التي طال زمانها توشك أن تكون من ذكريات الماضي ويقضي الأساس المنطقي لهذا التفكير بأن الاستعمار مآله عمليًا أن ينتهي بينما إسرائيل هي المخفر الغربي في قلب العالم الإسلامي، فهذه الدولة مدينة بوجودها للغرب ذلك لأن اضطهاد الغرب ليهود أوروبا هو الذي أفضى إلى خلق الأيديولوجيا الصهيونية.

كذلك فإن المحرقة الأوربية التي ارتكبتها أوربا ضد اليهود كانت سببًا مباشراً لهرب اليهود إلى الأراضي العربية الأمر الذي انتهى بتأسيس الدولة اليهودية ومنذ ذلك التاريخ تلقى الدولة اليهودية الناشئة الدعم المباشر والمطرد من جانب الغرب بما في ذلك كميات هائلة من المال والسلاح، وأصبح وجودها الآن واقعًا لا رجوع عنه.

ويؤكد المسلمون أيضًا أنهم عاشوا تاريخيًا في سلام مع اليهود طوال غالبية التاريخ الإسلامي وأن الإمبراطورية العثمانية هي التي قبلت اليهود الإسبان على إثر طردهم من إسبانيا عقب عام ١٤٩٢ وتوسعت إسرائيل مع الزمن كأمر واقع فرضته على الضفة الغربية وعلى جنوب لبنان وأثار هذا التوسع من جديد مخاوف من نزعة توسعية إسرائيلية كامنة للتوسع في المنطقة، خاصة بعد أن ثبت إغفال الغرب عمليًا لغالبية قرارات الأمم المتحدة التي تدين إسرائيل.

وفي نظر كثيرين من المسلمين أن أسباب الشكوى تفاقمت بسبب سلسلة الحروب العربية الإسرائيلية التي أثبتت دائمًا تفوق إسرائيل العسكري بفضل استخدام منجزات الغرب أسلحة وتكنولوجيا وعقيدة عسكرية ألحقت بالعرب هزائم مذلة وساد اعتقاد بأن التفوق العسكري الإسرائيلي الدائم على جيرانها العرب هو هدف صريح للسياسة الأمريكية في ظل جميع الإدارات الأمريكية دون اعتبار للأحداث أو لسياسات إسرائيل، ومن ثم فإن مسألة إسرائيل بعيداً عن جوانبها الخاصة بالأراضي واللاجئين تحمل إرثًا تاريخيًا ووجدانيًا كبيراً يتجاوز حدود المنطقة المباشرة وتمتد لتشمل العالم الإسلامي الذي يراها واحدة من أكبر أسباب شكوى المسلمين من الغرب»[١].

---

(١) الإسلام والغرب، ص ٥٢، ٥٣.

وبصيغة قاطعة يقول برنارد لويس: «إن السبب الذى يقدم باستمرار كمبرر للمشاعر المعادية لأمريكا بين المسلمين اليوم هو الدعم الأمريكى لإسرائيل»[١].

الاقتصاد وصندوق النقد ومساندة الأنظمة الظالمة:

يتحدث جراهام فوللر عن أثر سياسات الغرب الاقتصادية فى إثارة عداء المسلمين للغرب فيقول: «ويستشهد بصندوق النقد الدولى تخصيصاً أنه يفرض قرارات اقتصادية جامدة ومحددة على الحكومات واقتصادات الكثير من دول العالم الثالث دافعاً بها فى اتجاه سياسات تقشف هى كارثة سياسية تهدد الاستقرار الاجتماعى الأوسع نطاقاً وتبدأ هذه السياسات باستقطاع الدعم المقدم إلى السلع الأساسية مثل الخبز وزيت الطعام والسكر وتؤثر هذه الاستقطاعات بعمق على الفقراء وترى شعوب المنطقة أن الإصلاح الاقتصادى أو سياسة الانفتاح والخصخصة لا تفعل شيئاً سوى أنها تفتح الباب لنمو فئة قليلة ومحدودة من أغنياء التجار الجدد وتزيد الهوة بين الأغنياء والفقراء وتخلق حالة من التضخم المتعاظم بما له من آثار مفجعة على الطبقات الدنيا والوسطى التى تعيش على حد الكفاف»[٢].

أما برنارد لويس فيقول عن ذلك: «ويسمع غالباً من المشاكسين المسلمين من يعزو مشاعر العداء للأمريكيين إلى الدعم الأمريكى لأنظمة الحكم المكروهة التى تبدو رجعية بنظر المتشددين وفاسقة بنظر المحافظين وفاسدة ومستبدة باتفاق الفريقين. هذه التهمة تحظى ببعض المعقولية ويمكن أن تساعد فى تفسير كيف أن حركة ذات توجه داخلى أساساً وغالباً معادية للقومية لابد أن تكون معادية للقوة الأجنبية»[٣].

انتهاء الحرب الباردة:

يشير «هاليداى» إلى دور انتهاء الحرب الباردة فى تأجيج الصراع بن الغرب والإسلام فيقول: «ويلقى هذا القلق التاريخى من الإسلام الدعم من مصدر آخر تماماً هو انتهاء الحرب الباردة فهناك من يزعمون فى كل الغرب والعالم الإسلامى أن انتهاء الحرب الباردة وهى نزاع بين غرب ديمقراطى رأسمالى وشرق ديكتاتورى يسيطر عليه السوفيت، قد استدعى خلق أو بعث النزاع القديم المفترض بين الغرب المسيحى والعالم الإسلامى وقد استندت بعض تحليلات حرب الخليج إلى هذه القضية والقائلة بأن الغرب قد خاض الحرب مع صدام حسين

---

(١) الإسلام الأصولى، ص ١٩، ٢٠.
(٢) الإسلام والغرب: ص ٩٩، ١٠٠.
(٣) الإسلام الأصولى، ص ٢٠، ٢١.

وصوره كعدو بديلاً لنزاع الحرب الباردة مع روسيا وامتداداً لذلك اعتبر القلق الأوربى الغربى (الخطر الإسلامى) عموماً بما فى ذلك قضية الهجرة إلى أوربا الغربية بديلاً أيديولوجيا للحرب الباردة وما سببته من مواجهة بين النظم، وفى هذا المنظور يزعم أن النزاع مع العالم الإسلامي يعكس حاجة داخلية في المجتمع الغربى إلى وجود (آخر) مهدد لكنه تابع، ويربط العداء التقليدى القائم على الدين للمجتمع الإسلامى الذى يرجع إلى الحروب الصليبية بضرورة تأكيد الهيمنة فيما بعد الشيوعية»(١).

الإيديولوجية:

أما عن دور الاختلاف الإيديولوجي بين الغرب والإسلام فيقول عنه برنارد لويس: «صراع الأصوليين ضد عدوين: العلمانية والحداثة، الحرب ضد العلمانية هى حرب متعمدة وصريحة، وهنالك الآن سيل طافح من الأدبيات التى تدين العلمانية باعتبارها شراً رجيماً وقوة وثنية جديدة فى العالم الحديث، وهذه الأدبيات تنسب العلمانية بصيغ مختلفة إلى اليهود والغرب والولايات المتحدة، أما الحرب ضد الحداثة فهى فى غالبيتها ليست واضحة ولا صريحة وهى موجهة ضد كل ذلك التغير الذى أصاب العالم الإسلامى فى القرن الماضى وألحق الأذى بالبنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية للبلدان الإسلامية، وهكذا ساهمت الأصولية الإسلامية فى تأجيج امتعاض وغضب الجماهير ضد تلك القوى التى استهترت بقيمتها وبولاءاتها التقليدية المتوارثة وبالمحصلة سلبتها إيمانها وطموحها وكرامتها بل وحتى سلبتها أسباب رزقها»(٢).

ويقول فوكوياما: «إن الإسلام يشكل إيديولوجية متسقة ومتماسكة شأن الليبرية والشيوعية وأن له معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية داعياً إليه البشر كافة باعتبارهم بشراً لا مجرد أفراد فى جماعة عرقية أو قومية معينة. وقد تمكن الإسلام فى الواقع من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى وشكّل بذلك خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية حتى فى الدول التى لم يصل فى إلى السلطة السياسية مباشرة»(٣).

---

(١) الإسلام وخرافة المواجهة: ص١٣٠.
(٢) الإسلام الأصولى، ص ٢٨، ٢٩.
(٣) نهاية التاريخ: ص ٥٦.

أما جرهام فوللر فيقول عن ذلك: «والمسلمون اليوم مواجهون مرة أخرى بحملة غربية جديدة، هى هذه المرة عن طريق القيم العالمية وحقوق الإنسان وتطبيق الليبرالية السياسية وبناء مجتمعات مدنية، وإن كثيراً من المسلمين ينظرون لأسباب مفهومة بعين الشك إلى هذه العملية التى تعيد إليهم ذكريات خاصة عن شيء سبق أن ألفوه، فالغرب فى نظرهم سعى لكى يفرض قيمه فى القرن الثامن عشر بالحديث عن انتشار المسيحية وفى القرن التاسع عشر بالحديث عن الرسالة التحضرية وعبء الرجل الأبيض. واليوم يرى مسلمون كثيرون مسألة حقوق الإنسان والتطبيق الديمقراطى وصندوق النقد الدولى بمثابة أحدث المخططات التى يلتمس بها الغرب فرض نظامه على العالمين الإسلامى والثالث، ومرة أخرى باسم القيم العالمية والأحق أن نقرأها المصالح الغربية»(١).

وبالنسبة لهنتنجتون فإنه يعرض القضية كالتالى: «يمثل التنوع أو الاختلاف الحضارى تحدياً للاعتقاد الغربى والأمريكى بخاصة فى عالمية الثقافة الغربية، هذا الاعتقاد يتم التعبير عنه على نحو وصفى وعلى نحو معيارى فى نفس الوقت؛ وصفيًا يرى أن كل المجتمعات تريد أن تتبنى القيم والمؤسسات والممارسات الغربية وإذا ظهر أنه لا توجد لديها هذه الرغبة وأنهم يريدون أن يكونوا ملتزمين بثقافاتهم التقليدية، فلابد أن يكونوا ضحايا وعى زائف يشبه ذلك الذى أوجده الماركسيون بين البروليتاريا التى كانت تؤيد الرأسمالية، ومعياريًا فإن المعتقدات الغربية العالمية تفترض أن شعوب العالم بأسره لابد لها أن تعتنق القيم والمؤسسات والثقافة الغربية لأنها تجسد أرقى فكر ولأنها أكثرها استنارة وليبرالية وعقلانية وحداثة وتحضراً»(٢).

ويقول فى موضع آخر: «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام فهو حضارة مختلفة شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته، المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية الأمريكية ولا وزارة الدفاع، المشكلة هى أن الغرب حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متطورة فإنها تفرض عليه التزاماً بنشر هذه الثقافة فى العالم»(٣).

ويقول فريد هاليداى عن نفس الموضوع: «احتلت البلدان الإسلامية فى الشرق الأوسط فى الجدال الدولى حول حقوق الإنسان الذى تطور فى العقدين الماضيين مكانًا عامًا وخاصًا

---

(١) الإسلام والغرب، ص ٥٠، ٥١.
(٢) صدام الحضارات: ص٥٠١
(٣) المرجع السابق، ص ٣٥٢.

فى آن واحد فهى من ناحية تعتنق أفكاراً واضحة تتقاسمها مع بلدان العالم الثالث والبلدان غير الغربية الأخرى ومن ناحية أخرى حددت موقفًا خاصًا من حقوق الإنسان مستمداً من الطابع الخاص لمجتمعاتها ومعتقداتها، وهكذا ففى مؤتمر الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان فى فيينا فى يونيو ١٩٨٣ وفى المؤتمرات الإقليمية التى سبقته انضمت الدول الإسلامية ـ بما فيها دول الشرق الأوسط ـ إلى الدول الآسيوية فى انتقاد الأمم المتحدة والسياسة الغربية على ازدواج معاييرها وانتهاكها للسيادة وتجاهلها للحقوق الاقتصادية وفرضها لقيم (غربية).

لكن البلدان الإسلامية قدمت كذلك فى فيينا (إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان فى الإسلام الذى طرح أصلاً فى المؤتمر التاسع عشر لوزراء الخارجية الإسلامية فى أغسطس ١٩٩٠) ويتعلق هذا الموقف الإسلامى النوعى فى الجدال الدولى حول حقوق الإنسان بقضية ماذا يشكل (الحق) وهى ترتبط باستنباطه من قانون إلهى لا من قانون بشرى أو طبيعى ويعدون القضايا الأكثر تحديداً، وهناك أربعة مواضيع ذات أهمية خاصة هى حقوق المرأة وحقوق غير المؤمنين وحقوق من يعتبرون مرتدين ومسألة العقوبات»[1].

ويتساءل جراهام فوللر عن العلاقة بين التغريب والتحديث فيقول: «ولكن السؤال: هل معنى التحديث هو التغريب؟ كيف السبيل لأن تبقى الأسس الثقافية والأخلاقية للحضارة الإسلامية سليمة دون تغيير مع قبول الجوانب المادية للغرب التى توجب فى النهاية استيراد ذات الأسس الفلسفية للثقافة المنتجة لهذه الإنجازات المادية؟ وهل التحديث يعنى خضوعًا ثقافيًا كاملاً للغرب؟ هل يستلزم التحديث الاستسلام لفقدان الأسس الأخلاقية الشكلية التى تعبر فى نظر كثيرين من المسلمين والآسيويين عن حالة تدهور النظام العام فى الغرب وتجسده فى الجريمة والعقاقير المخدرة والعنف والتفكك الأسرى وافتقاد القيم العامة؟ هل بالإمكان أن نأخذ الأفضل فى عملية تحديث الغرب ونترك الأسوأ؟ كيف يتسنى لثقافة ما الحفاظ على ذاتيتها وهى أعز مرتكز ثقافى لأى مجتمع»[2].

الاستشراق والإعلام والدراسات الغربية

ويتحدث إدوارد سعيد عن الاستشراق والإعلام الغربى فى صنع المزيد من الوعى الزائف المتبادل بين الجانبين فيقول: «فى نهاية القرن الثامن عشر على أقل تقدير سيطر على ردود الفعل الغربية نحو الإسلام نوع من التفكير المختزل والبسيط فى جوهره وهذا النوع من

---

(١) خرافة المواجهة، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٢) الإسلام والغرب، ص ٥٧.

التفكير لا يزال إلى يومنا هذا نملك القدرة على تسميته بالاستشراق»[١].

ويشرح ذلك في موضع آخر فيقول: «هناك في وعي الجمهور الثقافي ذلك الموقف القديم من الإسلام والعرب والشرق بشكل عام وهذا الموقف أسميه الاستشراق وصورة الإسلام هي واحدة ثابتة لا تتغير من أية زاوية نظرت إليها، ومهما تكن المادة التي تعرضها، يستوي في ذلك الكتب المدرسية المقررة في مادة التاريخ والأشرطة الهزلية والمسلسلات التلفزيونية والأفلام الكوميدية والروايات الحديثة التي نالت ثناء النقاد كرواية ف. س. بنبيول وتستمد مادتها من المفهوم القديم للإسلام ولذلك يكثر رسامو الكاريكاتير من تصوير المسلمين كموردي نفط وإرهابيين وغوغاء متعطشين للدماء وتجد إضافة إلى ذلك أن الهامش المتاح للتعاطف مع الإسلام هو هامش ضيق جداً سواء في ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام أو في نطاق البحث والنقاش حول غير الغربيين بشكل أخص.

والمجال يضيق بالحديث أو حتى مجرد التفكير المتعاطف مع الإسلام، ناهيك عن محاولة عرضه أو عرض أي شأن إسلامي عرضاً متعاطفاً ولو طلبنا تسمية اسم كاتب إسلامي حديث، فمن المرجح أن يورد أغلب الناس اسم جبران خليل جبران الذي لم يكن مسلماً، أما الخبراء الأكاديميون المختصون بدراسة الإسلام فقد تناولوه ضمن إطار أيديولوجي مصطنع أو إطار مليء بالانفعالات العاطفية والتحيز الدفاعي بل الاشمئزاز، وقد جعلت هذه الخلفية وهذا الإطار فهم الإسلام أمراً عسيراً المنال، ولو أجرينا تقويماً للدراسات المتعمقة والمقابلات التي قامت بها وسائل الإعلام حول الثورة الإيرانية في ربيع عام ١٩٧٩ لما لاحظنا إلا توجهاً أو ميلاً ضعيفاً جداً للقبول بالثورة نفسها على أساس أنها أكبر من مجرد هزيمة للولايات المتحدة الأمريكية، وهذا بالفعل شيء حقيقي أو انتصار للظلمة على النور»[٢].

ويضيف في موضع آخر فيقول: «لا نبالغ بالقول إن العرب والمسلمين تتم تغطيتهم الإعلامية أساساً بوصفهم موردي بترول أو إرهابيين محتملين، أما تفاصيل الحياة العربية - الإسلامية والكثافة الشعورية الإنسانية وزخمها النابض فلم يدخل إلا النزر اليسير منها حتى في وعي أولئك الذين احترفوا تغطية العالم الإسلامي والإبلاغ عنه»[٣].

ويتساءل إدوارد سعيد: «لماذا الدراسات الشرق أوسطية؟ ولحساب من يتم إجراؤها؟ إن إلغاء الوعي المنهجي ينسجم كل الانسجام مع قوى في السوق [والتي تمثلها الحكومات

---

(١) الإسلام الأصولي، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦، ٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٨.

والشركات العملاقة والمؤسسات] فالأمر ببساطة أن المرء لا يطرح السؤال لماذا هو يفعل ما يفعله إن كان الزبائن المحتملون المعجبون أو على الأقل المحتمل قبولهم ورضاهم متوفرين؟ والأدهى من ذلك أن الباحث عن التفكير يكون منطلقاً من الإقليم والناس الذين تجرى حولهم الدراسات ومتخذاً منهم أطراً لبحثه.

فالإسلام إن كان هو موضع الدراسة وموضوعها الأساسى لا يكون محاوراً بل يكون سلعة وتكون المحصلة الإجمالية نوعاً ما من الثقة المؤسساتية غير الجديرة فعلاً بالاعتماد»[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١١١.

تفسير دوافع الصدام من المنظور الإسلامى

أعترف أنه من الناحية البحثية فقد أرهقنى كثيراً البحث عن مادة علمية للإسلاميين تدرس دوافع الصدام بين الإسلام والغرب، وهو الأمر الذى يكشف لدرجة كبيرة مدى تقاعس الحركة الإسلامية فى المجال الفكرى إلى الدرجة التى لم تتوفر معها دراسات جادة عديدة فى موضوع خطير مثل هذا. ومن ناحية أخرى فإن هذا النظر إلى هذه الدوافع على الرغم من التقارب فى نتائجه فإنه يتشكل إلى درجة كبيرة بحسب الاتجاهات التى تقف وراءه.

ونحن نعرض هنا للرؤى المختلفة لأبرز هذه الاتجاهات مركزين على تمايز هذه الاتجاهات وليس الثقل السياسى أو الجماهيرى لها.

رؤية الإخوان للغرب

سنعتمد فى تحديد رؤية جماعة الإخوان المسلمين للغرب على اثنين من أقطابها؛ الأول هو العالم الشهير الدكتور يوسف القرضاوى والذى يعد المرجع الدينى للجماعة، والآخر هو الدكتور كمال الهلباوى المتحدث باسم الإخوان فى أوروبا الغربية. وإن كان كلاهما لا يعبران عن الموقف الرسمى للجماعة الذى يمثله القادة السياسيون:

أولاً: الدكتور يوسف القرضاوى:

فى معرض كتابه (المسلمون والعولمة) يتحدث الدكتور يوسف القرضاوى عن الغرب الأمريكى فيقول:

«لقد كانت أزمة الخليج التى جرب فيها النظام العالمى الجديد - بقيادة الرئيس الأمريكى جورج بوش - قوته وقدرته على التخطيط والتنفيذ (ضربة معلم) حقاً.

بضربة واحدة استطاع أن يجرب أسلحته الجديدة فى الميدان وأن يتخلص من أسلحته القديمة فى أرض غير أرضه وأن يدمر أقوى قوة عربية عسكرية بطلب من العرب أنفسهم وبأموالهم فكل ما ينفقه على حسابهم، وأن يستخرج فوائضهم الاقتصادية ليصرفوها فى هذه الحرب حتى أمسوا مدينين بعد أن كانوا دائنين، وقد كسب النظام العالمى أيضاً أنه مزق المنطقة تمزيقاً لا نظير له لم يقف عند حد الأنظمة بل مس ذلك الشعوب أيضاً وأعاد جيوشه

وقواته المسلحة إلى المنطقة بعد أن كانت قد تحررت منها نهائياً وبعد أن رفض أهل المنطقة من قبل عودتها بأى شكل من الأشكال.

لقد كانت حرب الخليج كارثة حقاً بكل المقاييس، وأحسب أنها أضرت المنطقة كلها - على الأقل - نصف قرن من الزمان حتى يمكنها أن تستعيد قوتها ووحدتها وثقتها بنفسها.

وأثبت النظام العالمى (العولمى) الجديد قدرته مرة أخرى فى الحروب الأهلية بين شعوب يوغسلافيا فى حرب البوسنة والهرسك مع الصرب وحرب كوسوفو مع الصرب وتزعم قوى الغرب أنها تعمل على إشاعة الديمقراطية الليبرالية فى العالم وترعى حقوق الإنسان وتحامى عن المضطهدين والمعذبين فى الأرض.

وهذا صحيح بالنسبة لغير المسلمين أما بالنسبة للمسلمين فهم يؤيدون الديكتاتوريات المتسلطة و الديمقراطيات الزائفة ديمقراطية (التسعات الأربع المشهورة ٩٩ر٩٩٪).

لهذا ساند الغرب السلطة العسكرية فى الجزائر بعد أن وصل الإسلاميون إلى الأغلبية الساحقة فى انتخابات حرة نزيهة أجرتها حكومة ليست إسلامية.

ونراهم يباركون حكماً متسلطاً فى تونس يزج بمعارضيه فى السجون ويخرس كل لسان يقول: لِمَ؟ بله أن يقول: لا.

ويشد أزر الذين يسيرون فى ركابه مؤيدون لمسيرة السلام المزعومة مع إسرائيل.

ويقف ضد كل قوة تتمرد على الخضوع له وتقدر أن تقول له بملء فيها: لا. كما رأينا فى موقفه مع إيران ومع السودان.

ورأينا أمريكا تضيق ذرعاً بباكستان حين ملكت القنبلة النووية فى حين ملكتها كل القوى فى العالم على اختلاف دياناتها: الهندوسية فى الهند، والبوذية فى الصين، واليهودية فى إسرائيل، والأرثوذكسية فى روسيا، والكاثوليكية فى فرنسا، والبروتستانتية فى أمريكا وبريطانيا، فلماذا لا تملكها باكستان الإسلامية؟».

أما بالنسبة للاقتصاد الغربى الذى تمثّل فى المرحلة الأخيرة فى اقتصاد العولمة فيقول عنه الدكتور القرضاوى: «إنه اقتصاد غير عادل وغير أخلاقى وإنه يقوم على استلاب جهود الضعفاء لمصلحة الأقوياء سواء كانوا أفراداً أو شعوباً ودولاً.

وهو إن اقتضته ضرورة التوسع أن ينقل وحدات إنتاجية فى أقطار شتى فى العالم - وفق مصالحه وأولوياته - لا يوزع مكاسبه وفوائده بالتساوى بين المشاركين فى عمليات الإنتاج بل يكون نصيب الأسد أبداً لدولة «المركز» والقليل مما يبقى لدول «الأطراف».

اقتصاد العولمة - فى مجال الإنتاج - لا يعنى بما تحتاج إليه الشعوب من سلع وخدمات بل

يعني بما يعود عليه من أرباح. ولذا قد يقيم مصنعاً لأدوات الزينة في بلد يفتقر أهله إلى الحاجات الأساسية بل إلى الضروريات الأولى.

إنه ينشئ مصانع للكوكاكولا والبيبسي كولا ويعمل - بطرقه السيكولوجية والإعلامية - لتعويد الناس عليها إلى حد الإدمان والناس في حاجة إلى تطوير أدوات الزراعة أو إلى التصنيع الزراعي قبل حاجتهم إلى «البيبسي» أو «البيتزاهت» أو «الهامبورجر».

اقتصاد العولمة هو امتداد لاقتصاد الاستعمار القديم الذي فرض علينا أن نكون «سوقاً مفتوحة» له، هو ينتج ونحن نستهلك، وأن نشترى منه مقومات حياتنا حتى القمح أو الخبز أو الأرز الذي نعيش به ويسميه الناس في بلادنا «العيش» أي الحياة، وحتى السلاح الذي ندافع به عن أنفسنا».

ويقول القرضاوي عن العولمة الثقافية: «إن (العولمة الثقافية) تريد أن تسلخنا من جلدنا، وأن تنزعنا من هويتنا، أو تنزع منا هويتنا، وأن تنفق في أمتنا بضائعها الفكرية، و(معلباتها) الثقافية الملوثة بالإشعاع، والحاملة للموت والدمار.

ولكن الذي نعجب له، ونستغربه، ويصيبنا بالدهشة بل الحيرة، هو موقف فئة محدودة منا (من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا) يبررون قبول هذه (العولمة الثقافية) التي تروجها أمريكا، ويبررون معها (التطبيع الثقافي) الذي تريد ربيبتها إسرائيل تسويقه في المنطقة العربية والإسلامية، التي أرادوا إلغاء اسمها وعنوانها هذا لتسمى (الشرق أوسطية)».

ويتحدث عما يسميه عولمة الدين فيقول: «وهناك سعي حثيث لعولمة الدين، عن طريق نشر العقيدة المسيحية في العالم، أو ما يسمى بصريح العبارة (تنصير العالم) وهو ما تهدف إليه الكنائس المسيحية، سواء الكاثوليكية منها أو البروتستانتية.

وبهذا يفرض الغرب (إمبريالية دينية) على العالم، بعد أن ولى عهد الإمبريالية الاستعمارية والعسكرية والسياسية القديمة، التي لم تعد مقبولة اليوم، وإن بدت - كما أوضحنا - في استعمار العولمة الأمريكية الجديدة».

ثانياً: كمال الهلباوي:

كتاب كمال الهلباوي (السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط) هو أحد الكتب النادرة ذات الشأن للحركة الإسلامية الذي ينصب مباشرة على تناول الموقف الغربي من الإسلام وإن كان يركز على البعد السياسي بوجه خاص ولكنه يعبر مع ذلك عن خبرات صاحبه العميقة بالعالم الغربي الذي قضى فيه شطراً كبيراً من حياته.

يقول الهلباوى فى هذا الكتاب :

«يتنقل الإنسان المسلم الزائر فى بلاد الغرب - أمريكا وغيرها - محلياً بالطائرات أو القطارات أو السيارات العامة والخاصة، دون سؤاله عن جواز سفره أو بطاقته الشخصية أو خطاب الكفيل أو المضيف ودون سؤاله عن الإذن أو التصريح بخطبة الجمعة أو العيدين، أو أن يحاضر فيها دون الحاجة إلى إذن من وزارة الداخلية ولا تصريح من المفتى أو السلطات الدينية التى أصبحت كهنوتية الطريقة فى بعض بلدان العالم الإسلامى مثل ما كانت عليه الكنائس والمعابد فى أوربا فى قرون سابقة.

ونحن ندرك أن هذا الخلط يحدث نتيجة النظرة الجزئية السطحية الهامشية غير المتعمقة مثل النظرة المحلية إلى أزمة الخليج، حتى عند بعض من حملوا لواء الدعوة الإسلامية وكانوا من أبرز رجال الحركة الإسلامية فى الشرق أو فى الغرب لعقد أو أكثر. ويحدث هذا الخلط نتيجة عدم الاهتمام بالتفكير الاستراتيجي أو تربية الشباب عليه فى ا لمدارس والمنازل وغيرها من أجهزة الإعلام، ويحدث نتيجة بقية من جاهلية تتمثل فى شكل القوميات والوطنيات غير الصحيح.

وسأقدم هنا بعض الصور عن المنهج الديمقراطى الأمريكى فى محاربة الإسلام والهجوم عليه ونقضه، وتناقض هذا المنهج مع نفسه داخلياً وخارجياً :

يرى الغرب عموماً وقادته خصوصاً ومفكروه - على وجه أخص - أنه بعد هزيمة الشيوعية لم يبق إلا الإسلام عقيدة وشريعة - أى نظاماً متكاملاً - يمكن أن يتحدى النظم الوضعية بما فى ذلك النظام الديمقراطى رغم العداء القديم بين الغرب والإسلام، وهؤلاء القادة والمفكرون مصيبون فيما ذهبوا إليه لأنهم يدركون طبيعة هذا الدين أكثر من بعض بنيه بل ومن بعض العاملين فى ميدان الدعوة الإسلامية للأسف الشديد. لذلك يركز الغرب على إبراز هذا المعنى، إلا المنصفين منهم وهم قلة لا يكاد يظهر لها أثر فى هذا الخضم الهائل من تيار الانحراف الفكرى والقيمى المدعوم بتقنية علمية توارى سوءاته، ومن قبيل ذلك مقولة جيفانى دى ميكليس وزير خارجية إيطاليا سكرتير عام المجتمع الأوروبى - حتى قبل حرب الخليج - فى النيوزويك (عدد ٢ يوليو ١٩٩٠) الذى يرى ضرورة تقوية حلف الناتو حتى بعد هزيمة دول حلف وارسو وإلغاء الحلف نفسه لمواجهة الخطر المستقبلى وهو الإسلام، ومن قبيل ذلك أيضاً محاضرات برناردلويس العديدة فى الجامعات الغربية فى صيف عامى ١٩٨٩ / ١٩٩٠م التى توضح هذا المعنى وتؤكده «إذ لم يعد إلا الإسلام يحتاج إلى مواجهة بقوة بعد هزيمة الشيوعية».

ومن صور محاربة الإسلام والمسلمين التى قد لا يفطن إليها الكثير :

* طرح الديمقراطية الغربية بمفهومها الغربى العلمانى المتكامل والترويج فى بعض بلاد

المنطقة لها بدلاً من الشورى حتى انخدع بها بعض المفكرين المسلمين الذين يرون إمكانية الأخذ بها وسيلة، ولا يدركون حقاً أنها منهج حياة غربى إذا أخذناها بخيرها وشرها إذ لا يمكن فصل الحرية «كقيمة عظيمة» عن بقية سمات هذه الديمقراطية لتماسكها حتى أصبحت قيمة غربية متكاملة مثل برامج الحاسب الآلى أو الصفقات التجارية أو الأفلام الدعائية التى تقدم مفهوماً متكاملاً إما أن تأخذها كلها أو تتركها برمتها، لا حسب إرادتك بل حسب تماسك هذا النهج وترابط جزئياته وصلاحية البيئة الغربية لذلك، وأيضاً بسبب بعد المنهج الإسلامى عن قبول الترقيع [من المهم ملاحظة مدى التناقض بين حديث الهلباوى عن الديمقراطية الذى نوافق عليه تماماً وبين حديث القادة السياسيين للإخوان عنها الآن] وإن بدت هذه الديمقراطية أفضل بكل المعايير من الديكتاتورية والاستبداد السائد فى بلاد المسلمين اليوم.

* طرح مفهوم حقوق الإنسان حتى ينسى الناس المفهوم الإسلامى لحقوق الإنسان وهو أشمل مما فى الديمقراطية – والمفهوم الإسلامى لتكريم الإنسان يتمثل فى الآية الكريمة (ولقد كرمنا بنى آدم) – ومن ثم يرد الناس هذه القضايا الإنسانية إلى نظم وضعية ولا ترد إلى المنهج الربانى فى تكريم الإنسان.

هذه صور خادعة، وهناك صور عديدة أخرى بارزة توضح محاربة الغرب للإسلام والمسلمين، فلا يغرن القارئ هذه الحريات التى يمارسها الغرب فى دياره، ولا ينبغى أن تغرنا فى الغرب خاصة هذه المساجد أو المراكز الإسلامية والمدارس الخاصة ومراكز البحوث والدراسات فى الغرب، وحرية الأئمة والخطباء فى الحديث، فأحاديثهم محصورة فى دوائر مغلقة، أما قنوات التلفاز والإذاعة ووسائل الإعلام والمدارس والكنيسة... الخ فى المجتمع فهى جديرة بمسح آثار الأئمة والخطباء إن لم يكن فى جيل واحد فقد يحدث هذا فى عدة أجيال إلا أن يتغمدنا الله برحمته.

* التأثير الأمريكى الحالى على تركيا الإسلامية: ومن ذلك زرع القواعد العسكرية والتسهيلات التى تستخدم ضد المسلمين فى العالم العربى من تركيا بعد أن كانت دولة الخلافة، ثم محاولات الغرب وخاصة أمريكا واليهود طمس كل أثر أو معلم للخلافة الإسلامية، وكثرة البدائل التى يستخدمونها فى ذلك حتى إذا ذهب حزب أوزال من السلطة كان ديميريل، وهكذا تدور دولة الخلافة فى حلقة مفرغة ومن ثم يعانى الإسلاميون الأتراك أكبر المعاناة فى الحفاظ على كيانهم والنفاذ من بنود الدستور الجائر وما فيه من نصوص صريحة ضد الإسلام والمسلمين.

* الضغوط على الدول التى تتجه للإسلام أو حتى مجرد المناداة بتطبيق الحدود الشرعية أو

تلك الدول التى تزدهر فيها الحركة الإسلامية نوعاً ما. وتمارس أمريكا فى ذلك صوراً عديدة تتنوع ما بين ضغوط اقتصادية، وسياسية، وإعلامية وعسكرية وغيرها، ومن هذه الدول مصر - الأردن - السودان - الجزائر - اليمن - تونس - باكستان وأفغانستان، فضلاً عن فلسطين المحتلة. ومجال تفصيل ذلك يحتاج إلى بحث آخر يخصص لهذا الغرض يقوم به المعهد أو غيره من المؤسسات أو الباحثين.

* هدم صورة الثورة الإسلامية فى إيران والضغط عليها وتشويهها منذ قيامها لأنها صرحت بأنها ثورة إسلامية - سواء اتفقنا معها أو اختلفنا فى بعض القضايا، وقد عقدت المخابرات الأمريكية عدة ندوات لدراسة الإسلام منها ندوة فى جامعة هارفارد قال فيها أحد مديرى المخابرات الأمريكية: «لقد انزعجت أمريكا كثيراً وبخاصة بعد الثورة فى إيران لأن الهياكل القائمة على العالم الإسلامى قد أصبحت عرضة للتيارات الإسلامية وأن الطبقات المتغربة والطبقات الوسطى المتعلمة بدأت تفقد قيمتها فى معظم العالم الإسلامى ولا نعرف ماذا نفعل بهذا الخصوص».

وكما سعت أمريكا من قبل إلى استغلال بعض علماء الدين التقليديين وخاصة فى الخليج فى هذا الأمر وإيجاد المبررات لدعم صدام حسين فى حربه ضد إيران وإبراز المعركة على أنها معركة بين السنة والشيعة حتى فى وسائل الإعلام الغربية التى لا تؤمن لا بالسنة ولا بالشيعة.

* الضغط لحل القضايا الإسلامية سياسياً إذا كان هناك نصر عسكرى للمسلمين مثل ما حدث فى أفغانستان التى حققت نصراً عسكرياً على السوفيت لا شك فيه، وصمدت وهى الدولة الفقيرة التى تعد من أكثر دول العالم الثالث فقراً وتخلفاً ضد دولة عظمى، بل تفتتت هذه الدولة العظمى بعد نهاية حرب الأفغان لأسباب عديدة، لا يمكن - بعد فضل الله ونصره - إلا أن يكون من بينها أو بسببها هذه الحرب الجهادية الطويلة والثبات والصمود الذى بدأه ذلك الشعب الكريم (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين).

* إبعاد الإسلام والمسلمين عن مناطق النفوذ والمصالح الأمريكية فى العالم العربى، وما حدث فى الخليج من تصفيات، وبخاصة فى الرجال، جزء من هذا المخطط وإن ذلك ليس إلا استمراراً للحروب الصليبية.

* تدريب أجهزة الأمن فى بلادنا ودفعها لاضطهاد العناصر الإسلامية والوطنية المخلصة حتى تخلو البلاد للسيطرة الأجنبية وتقديم أصحاب الولاء ولو مع الغباء.. والتخلص من أصحاب المواهب والقدرات العالية أو اضطرارهم للهجرة والحياة خارج بلادهم.

* التنسيق مع القوى الأخرى لمحاربة الإسلام: وتصريحات الرئيس الأمريكى نيكسون العديدة وتاتشر ودفعهم لحكام المنطقة لمواجهة الصحوة الإسلامية خير مثال على ذلك «سيناريو استيلاء الأصوليين على السلطة فى السعودية» (انظر كتاب قوات الانتشار السريع).

* زيادة الصلة بين الحركة المسيحية النصرانية الأصولية وبين اليهود حيث أعلن كارتر عن ولادته من جديد كمسيحى يؤمن بأن تأسيس إسرائيل هو تحقيق للنبوءات التوراتية.

* التركيز على إبراز النصرانية، ومن ذلك تصريح جورباتشوف أثناء زيارته للبابا إذ يشيد بأن أمه عمدته عندما كان صغيراً. وترى الحركة المسيحية الأمريكية أن دعم إسرائيل قضاء إلهى وأن إقامة المعبد اليهودى فى القدس ضرورة أخرى قبل عودة المسيح.

وهكذا فإن بروز الحركة المسيحية الأصولية من داخل الكنيسة الأمريكية بما لها من تأثير فى السياسة العامة الأمريكية جاء «كعامل جديد لهم فى السياسة الأمريكية ولخدمة المصالح اليهودية».

* إغراق دول العالم الثالث فى الديون ومعظمها من دول العالم الإسلامى (حيث بلغت ديون العالم الثالث أكثر من (١٢٩٠) بليون دولار) مما يمكن البنك الدولى وصندوق النقد الدولى من السيطرة على هذه الدول وتوجيه القيادات السياسية فيها رغبة أو رهبة، هوادة أو قسراً. علماً بأن بعض دول العالم الإسلامى «من الخليج» تودع أو تستثمر ما بين ٨٠٠ - ١٠٠٠ بليون دولار فى العالم الغربى بقيادة أمريكا.

* إثارة الحروب والفتن: وقد بلغت هذه الحروب ١١٨ حرباً بعد الحرب العالمية الأولى وقتل أكثر من ثلاثين مليون نسمة معظمهم من العالم الإسلامى والعالم النامى عموماً، ولم ينج الشرق الأوسط من هذه الحروب.

ويجدر بالقارئ أن يدرك النقاط الآتية لاستيعاب ماهية النظام العالمى الجديد فى ملامحه وتطلعات من فرضوه.

أولاً: إن التغييرات التى حدثت فى العالم نتيجة الصراع البارد بين الكتلتين خلال الخمسين سنة الماضية، تغييرات هائلة، ويعود جزء كبير منها إلى قوة تماسك وتقارب التكتل الصليبى الصهيونى ضد الأيديولوجية الشيوعية فى سباق محسوبة خطواته وباستخدام بعض إمكانات الدول الإسلامية كذلك، كما فصلناه فى مكانه من هذا الكتاب، واستخدام جميع الإمكانات الفكرية والبشرية والمادية المتاحة وذلك بقيادة الأمريكان. وقد ربح فى هذا الصراع - بلا شك - الطرف الصليبى.

ثانياً: لقد تبلورت معالم النظام العالمى الجديد وهو النظام الذى يفرض نفسه بالضرورة بعد كل تغيير عالمى بارز.

والجديد فى محتوى هذا النظام أمران هما:

١- أن تنفرد قوة واحدة بقيادة العالم وتسخره لخدمة مصالحها ومصالح الغرب والصهيونية العالمية وتسعى به ومن خلاله لتدمير قدرات الأمة الإسلامية وإمكاناتها أو تسخيرها بالكامل لصالحها.

٢- أن تجاهر أنظمة عربية - طالما لبست رداء الإسلام - بالسير فى ذيل هذا النظام وخدمته وخدمة أهدافه علناً على غير رغبة من شعوب الأمة، وتجد هذه الأنظمة من يبرر لها فعلتها ممن رفعوا راية الجهاد ضد الصليبية والصهيونية سلفاً، فإذا بهم يرون خطر هذه الحركات وهماً، وفى مقدمة هؤلاء «المفكرين» الذين تدثروا بدفء عباءة الفكر الإسلامى زمناً طويلاً - الدكتور إسماعيل الشطى، ناهيك عن العلمانيين.

ثالثاً: إن النظام العالمى الجديد بهذا الشكل يصبح الوجه الآخر لعملة واحدة هى: قطارالغرب الذى تقوده أمريكا وتصبح له مستلزمات داخلية ومستلزمات خارجية (أى محلية ودولية) وهذه المستلزمات هى تقريباً الأسس والخواص التى تتلون بها السياسة الأمريكية ومن أهمها:

١- التخطيط لمستقبل العالم (البشرية) بشكل لا يسمح لأمريكا أن تنهار كما انهارت بقية النظم الوضعية، وهى فى هذا الصدد تريد قانوناً موحداً للعالم، شعاراته براقة، وأشكاله جذابة ولكنه ذلك القانون الجديد الذى يقوم على الهوى وحب النفس والشهوات والحريات والمصالح الشخصية التى لا حدود لها ولا ضوابط، والمبادئ التى تخدم تلك المصالح كأن لسان حالها يقول: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد).

٢- لن تهدأ ثائرة لأمريكا حتى يصبح العالم بلا عقيدة ولا أيديولوجية إلا تلك التى يرونها، وحيث انزاحت الشيوعية عموماً من الطريق فلم يبق فى طريق أمريكا إلا «الإسلام» عقيدة وشريعة وطبعاً مع من يحمله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم).

٣- ترسيخ القواعد والتسهيلات العسكرية الأمريكية وذلك من خلال اتفاقيات علنية واضحة حتى يعتادها الناس فى الأمة ويقبلون بها، وهو ما حدث فى الكويت أخيراً من طلب تلك القواعد الأمريكية وبإقرار من المجلس الوطنى الكويتى، وحتى من قطاعات عريضة من الإسلاميين الذين تهيأت نفوسهم كثيراً أثناء أزمة الخليج لقبول كثير مما كانوا يرفضونه قبل

الأزمة وكانوا يقفون في وجهه من قبل، بل ومن المحزن المؤلم أن بعضهم أصبح يقبل أى شيء وكل شيء في سبيل الكويت وشرعية الكويت وحدودها الواهية الضعيفة.. إلخ ويزعم الانتماء إلى الأمة الوسط ويخطب عن الأمة الوسط ويستشهد بتاريخ الأمة الوسط. ولم يبق اليوم أى بلد من بلدان الخليج إلا وفيه قواعد وتسهيلات عسكرية إذ توجد ٢٤ قاعدة في الخليج منها ١٢ في السعودية وحدها.

٤- هزيمة نفسية لأبناء هذه الأمة الذين يحملون هذا الدين الإسلامي العظيم حتى لا يجد الاحتلال الأمريكي صدوداً أو نفوراً أو مقاومة من أى شكل كان. وعندما نقول الاحتلال لا ينبغي أن يغضب أحد من الواقع. فلقد ذكر جيمس إيكنز James Akinz في مجلة الـ For-eign Affairs هذا الأمر بوضوح في مقاله في العدد الذى صدر في صيف ١٩٩١م بعنوان (الجزيرة العربية الجديدة New Arabia) حيث قال في صفحة ٤٨ - السطر السادس والسابع والثامن - ما ترجمته: «وعلاوة على ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تحتل كلا البلدين (يعنى السعودية والإمارات) ولن تستطيع الدولتان الاستغناء عن هذا عسكرياً في المستقبل المنظور». وفي آخر الصفحة نفسها يقول: «ويمكن حل مشكلة ميزان المدفوعات الأمريكي بصفقة خاصة، إما أن تدفع أمريكا بموجبها أقل بكثير عن أسعار الأوبك أو يدفع السعوديون عنها المبالغ المطلوبة، وسيكون من الصعب على السعوديين أن يرفضوا».

رابعًا: يتكلم جيمس إيكنز عن معرفة بالواقع في المنطقة ومعرفة بالأمريكان وبالسعوديين، هذه المعرفة نتجت عن عمله كسفير لأمريكا في السعودية ومسئول في الخارجية الأمريكية لفترات طويلة، وهو الآن مستشار أمريكي في الشئون السياسية والاقتصادية الدولية وباحث مجد في خدمة بلده، ولا ينبغي أن يغضب منا أحد فقد استشهدنا بمقولات «الأصدقاء» الذين هبوا «لنجدة» أهل الخليج من منطلق «الشهامة الأمريكية» بعد أن ضاعت «الشهامة العربية» فضلاً عن كثير من «القيم الأمريكية» بعد أن ضاعت «القيم» الإسلامية في هذه البلاد. وهذا المأخوذ من كلام هؤلاء «الأصدقاء» ينبغي أن يفلت من عين نظرية التفسير التآمرى التي يروج لها الدكتور إسماعيل الشطي ومن هم على شاكلته، بصورة مكثفة.

خامساً: النظام العالمي الجديد يعني فرض الحلول السياسية والعسكرية والاقتصادية التي يراها الأمريكان مناسبة لمشاكلهم ولمشاكلنا المتعددة بعد تهيئة الرأى العام في بلادنا للهيمنة الأمريكية، بل يعني تهيئة مشاكل جديدة ثم السعي لحلها حتى يظل الاحتلال الأمريكي لبلادنا مطلوباً ومحبوباً.

سادساً: النظام العالمي الجديد يعني حماية إسرائيل وضمان توسعتها.

رؤية السلفيين للغرب

يتمحور اهتمام السلفيين بوجه عام على الاستيعاب المتعمق للعلوم الأصولية، بيد أنه فى العقدين الأخيرين برز جيل جديد من علماء السلفيين الشباب آل على نفسه حمل مسئولية استيعاب الفكر المعاصر أيضاً والاجتهاد فى تقديم الرؤية السلفية للواقع ومن ثم فقد بزغت من خلال هذا الجيل حركة فكرية سلفية جديدة بعد عقود طويلة من انقطاع العلاقة بين الرؤية السلفية والفكر.

من ناحية أخرى فقد وجد هذا الجيل نفسه مسئولاً عن توجيه الأحكام الشرعية المتعلقة بمتغيرات الواقع منذ التدخل الأمريكى فى حرب الخليج الثانية على وجه الخصوص بصفته يمثل الصفوة المتخصصة من السلفيين فى مثل هذه الأمور.

ومن أبرز علماء هذا الجيل الذين يتطابق فكر الكاتب معهم فى جوانب كثيرة: د. سفر الحوالى - الشيخ فهد سلمان العودة - الشيخ ناصر العمر - الشيخ عبدالوهاب الطريرى وغيرهم. ويعبر هذا الجيل بوجه عام عن تقدم حركة الفكر الإسلامى فى السعودية وشبه الجزيرة العربية أيضاً خصوصاً إذا قارنا بين هؤلاء العلماء السلفيين والعلماء السلفيين المناظرين لهم فى الدول الأخرى كمصر وسوريا واليمن.

ونقدم هنا بعض ظلال رؤية السلفيين للغرب على لسان د. سفر الحوالى والتى جاءت فى معرض حديثه للعلماء السلفيين عن موقفه من التدخل الأمريكى فى حرب الخليج الثانية وذلك نقلاً عن كتابه (كشف الغمة)، يقول د. سفر الحوالى: «غير خافٍ عليكم ما نزل بأمة الإسلام من فاجعة وكارثة لن ينساها التاريخ إلى قيام الساعة تلك التى ابتدأت ظاهراً بغزو الجيش البعثى العراقى للكويت ثم تداعى أمم الغرب النصرانية وتوابعها على المنطقة جميعها وإنزال عشرات الألوف من الجيش الأمريكى وغيره فى الرياض وجدة والطائف وينبع وعسير فضلاً عن المنطقة الشرقية والشمالية وتطويق المنافذ البحرية لجزيرة العرب جميعها بذريعة الحصار الاقتصادى للعراق.

وقد هالنى هذا الأمر كما هال كل مؤمن لا سيما والحق أننى كنت أتوقع شيئًا من هذا منذ قيام ما سمى «الوفاق الدولى من الشرق والغرب» واتحاد أوروبا الصليبية تحت راية واحدة وحذرت منه فى أكثر من محاضرة متمثلاً بحديث زينب بنت جحش رضى الله عنها فى الصحيحين: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب».

ثم جاءت المصيبة أكبر مما توقعت وأعظم مما أنذرت وأحسب أن جزيرة العرب منذ أن خلق الله صحراءها وحفها ببحارها لم يدهمها مثل هذا البلاء قط فإنا لله وإنا إليه راجعون وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* إن فكرة الوفاق الدولي ليست وليدة العصر الحاضر (أي مؤتمر مالطة كما يقال) بل هي نموذج معاصر للأحلاف الأوربية في مطلع العصر الحديث (القرن ١٧ و١٨) هذا إن لم نقل إن أصلها هو التحالف الغربي الكبير في الحملات الصليبية الأولى، والواقع أن جوهر القضية في هذه التحالفات قديمها وحديثها واحد وهو أن مصلحة الغرب تقتضي تناسي خلافاته الداخلية والتوحيد لمقاومة الخطر الخارجي الذي يعد الإسلام رأس الحربة فيه. فقد تحالفت أوربا المتناحرة ضد الدولة العثمانية فيما سمي (الحلف المقدس) كما ظلت تركيا - رغم أنها دولة أوربية من جهة الموقع - خارج الاتفاقيات الدولية الأوربية إلى عهد قريب لسبب واحد هو أنها مسلمة، ومنذ أسابيع فقط سئل الرئيس التركي أوزال عن سبب عدم قبول تركيا عضواً في الوحدة الأوربية رغم أنها عضو في حلف الناتو - فأجاب بأن السبب هو أن الغرب لا يزال ينظر إلى تركيا باعتبارها دولة إسلامية!!.

إن الحرب العالمية الأولى انتهت كما هو معلوم بالنقاط الأربع عشرة للرئيس الأمريكي «ولسن» التي أصبحت أساس مبدأ عصبة الأمم والتي بمقتضاها اتفق الغرب على وضع العالم الإسلامي تحت الوصاية الدولية، أي تحت السيطرة الغربية، مع أن الأجزاء المهمة منذ كانت، قد وضعت من قبل تحت سيطرة الغرب باسم «الحماية»، ومنها عدن والكويت ومشيخات الخليج وبقيام الحرب العالمية الثانية انهارت عصبة الأمم كما انهارت القوة الاستعمارية التقليدية وبرزت قوتان جديدتان هما أمريكا وروسيا واحتفظ الطواغيت الكبار بحق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن الدولي كما يسمى!!..

وكان أيضاً التنافس الحاد بين القوتين في السيطرة على العالم وخاصة المناطق الحيوية منه (ومنها بالطبع العالم الإسلامي الذي تفككت مجتمعاته ودوله ومنظماته مزعاً بحسب التبعية لأي من المعسكرين) وكان السباق الهائل على امتلاك أشد الأسلحة فتكاً ودماراً لكن دون مواجهة عسكرية شاملة، وهذه المرحلة التي سميت «مرحلة الحرب الباردة»، وقد حدثت أزمات كثيرة كادت أن تجعلها ساخنة «مثل أزمة كوبا» إلا أن التفكير في الوفاق واقتسام مناطق النفوذ ظل ينمو باستمرار وخاصة من الجانب الأمريكي الذي كان يعلم أن القوة العسكرية هي كل ما يملكه الخصم من أسباب القوة وعندما برزت الصين لتكون القوة الثالثة في العالم سارعت أمريكا إلى مد الجسور إليها وكان الوفاق السريع بينهما الذي قسم الكتلة

الشيوعية وكان الرئيس نيكسون مهندسه (وبوش سفيراً له فيها).

لقد تساقطت أنظمة المعسكر الشرقى كما يتساقط ورق الشجرة الجاف عند هبوب الرياح وتهاوت صروح الأنظمة التسلطية فى أكثر العالم، وبشكل درامى مثير تم الإعلان عن حل حلف وارسو والسعى ليكون الغرب كله حلفاً واحداً نواته حلف الناتو وبسرعة أيضاً سحبت القوات من أوربا الوسطى وظهرت آثار ذلك سريعاً على العالم الثالث حيث شهدت كل مناطق الصراع النهاية نفسها أو هى فى الطريق إليها (أنجولا - أثيوبيا - السلفادور - نيكاراجوا - كمبوديا - كوريا - لبنان، وأخيراً نذكر أفغانستان التى لها وضع متميز ومع ذلك فمن المتوقع أن تتم التسوية قريباً). والمشكلة الوحيدة التى لم تحل هى مشكلة الصراع العربى الإسرائيلى وليس ذلك لأن الوفاق أهملها أو تناساها فهى لب المشكلات ومحور القضايا كلها ولكن لحساسيتها البالغة - كما يعبرون - ومن هنا اقتضى الأمر أن يكون الإخراج من نوع خاص جداً كما سنرى.

* إن الوفاق الغربى لم يسقط من حسابه تلك القوى الإقليمية الصاعدة بل حسب لها بكل دقة وهو مؤمن أن سيطرته الأبدية لن تتم إلا بإجهاض هذه القوى، ولكن كيف يتم ذلك؟ هذا هو لب المشكلة ولو عرفنا ذلك لعرفنا إلى أين ستنقل القوات المسحوبة من أوربا وأين ستتحول القواعد المغلقة فى خطوط المواجهة والصراع بين الحلفين المندمجين؟

لا شك أن من بين القوى التى يحسب الغرب حسابها «الصين واليابان والهند وكوريا وأستراليا.. ولكن ما مدى خطورة هذه الدول على الغرب؟ وبعبارة أخرى أليس من الممكن استدراجها للانضمام إلى التحالف الغربى وإعطاؤها مكاسب محدودة؟ وإذا كان هذا الأمر وارداً بل واقعاً فأين هى إذن القوى المتوقع تمردها ونفوذها؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال لابد من التنبيه إلى معادلة مهمة وهى:

إنه إذا كان بديهياً أن مصدر قوة الغرب وغيره هو امتلاك السلاح النووى فإن هذا هو أيضًا مصدر مشكلة الغرب تجاه القوى الإقليمية..!!

أى أن القوى النووية بقدر ما تردع العدو عن مهاجمة صاحبها تردع صاحبها أيضاً عن استعمالها، وهكذا تم الوفاق الغربى فى ظل التكافؤ فى تملكها، أما حين تدور المعركة بين طرفين أحدهما نووى والآخر مغامر من العالم الثالث فإن الحسم سيكون لصالح الأقدر منهما على استخدام الأسلحة التقليدية والأكثر عزماً وتدريباً..". إلخ؛ لأن اللجوء إلى الخيار النووى هو بمثابة انحدار علمى!!..

قد لا تكون هذه المعادلة صادقة ١٠٠٪ ولكنها حق إلى حد كبير، ومن هنا لم يخف الغرب أن أخطر ما يواجهه هو القوى الإقليمية ذات التسلح التقليدى الكبير وخاصة إذا حكمتها زعامات متطرفة ذات طموح عال أو عداوة تاريخية للغرب!!..

وعندما يتحدث الغرب بصراحة أكثر يقول إن أخطر منطقة تواجهه هى منطقة الشرق الأوسط وإن أخطر منافس لمستقبله هو الصحوة الإسلامية.

* كان موضوع هذه الرسالة كما رأيتم بيان الواقع لا بيان الحكم الشرعى الذى أختاره وأرجحه فيه - مع أن كل ناظر منصف يعلم أننى متابع فى رأيى للأرجح من كلام الأئمة السابقين والقول الوحيد لمشايخنا ومنهم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز فى كتابه نقد القومية العربية، وفضيلة الشيخ صالح الفوزان فى كتابه «الولاء والبراء» فضلاً عن فتاوى علماء الدعوة رحمهم الله جميعاً.

وكل علمائنا المعاصرين فيما أعلم يحرمون استقدام الكفار إلى جزيرة العرب عمالاً مستأجرين فكيف إذا كانوا حماة مستكبرين؟ ولا ريب عند كل مسلم أن الله تعالى إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ليحارب المشركين لا ليحارب بهم وأمره أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وهذا هو الأصل القطعى فى المسألة.

وكل نص جزئى يخالفه فلدينا جوابه ولله الحمد، ومع ذلك فقد كررت القول ومازلت أقول بالفرق بين الفتوى من الناحية الفقهية الخالصة أى حكم الاستعانة بالمشركين أياً كان القول فيها وبين تنزيلها على الواقع أعنى تجويز استقدام نصف مليون صليبى ويهودى إلى العرب وهو ما نخشى - عياذاً بالله - أن يتحول إلى استكانة لأعداء الله لا استعانة بهم وقد بدت بوادر ذلك تلوح.

فقد يتفق من يقول بجواز الاستعانة المشروطة ومن يقول بالتحريم مطلقاً ومن يجيز ذلك للضرورة على أن الواقع ليس استعانة أصلاً وذلك بناء على معرفة الحال وتبين مناط الحكم وهو ما أرجو أن تكون الرسالة قد أعطت صورة وافية عنه والأمر إليكم بعد ذلك.

أما ما لا أعفى علماءنا منه بحال فهو بيان السبب الحقيقى لهذه المصيبة كما بين الله فى كتابه وجرت به سنته فى خلقه قديماً وحديثاً أن ما أصابنا لم يكن إلا بما كسبت أيدينا، واقترفنا من ذنوب وعصيان وخروج عن شرع الله ومجاهرة بما حرم الله وموالاة أعداء الله وتهاون فى حق الله وتقصير فى دعوة الله، اشترك فى ذلك الحاكم والمحكوم والعالم والجاهل والصغير والكبير، والذكر والأنثى، على تفاوت فيما بينهم، إلا من رحم الله ممن هم قائمون

باحق عرضة للبلاء غرض للسهام من عالم وداعية وناصح.

لقد ظهر الكفر والإلحاد في صحفنا وفشا المنكر في نوادينا ودعي إلى الزنا في إذاعتنا وتلفزيوننا واستبحنا الربا حتى أن بنوك دول الكفر لا تبعد عن بيت الله الحرام إلا خطوات معدودات.

أما التحكم إلى الشرع - تلك الدعوى القديمة - فالحق أنه لم يبق للشريعة عندنا إلا ما يسميه أصحاب الطاغوت الوضعي الأحوال الشخصية وبعض الحدود التي غرضها ضبط الأمن (ومنذ شهر لم نسمع شيئاً منهم عن حد أقيم)، ومع ذلك وضعنا الأغلال الثقيلة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصفدنا الدعوة والموعظة بالقيود المحكمة وهذا من استحكام الخذلان وشدة الهوان ومن يهن الله فما له من مكرم.

وهكذا جنينا ثمرة الصراع الذي استغرق تاريخنا المعاصر كله بين مبدأين متناقضين هما:

١- مبدأ دولة العقيدة التي تجعل الجهاد غايتها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفتها.

٢- مبدأ دولة الرفاهية التي تجعل الشهوات الدنيوية غايتها والتغريب وسيلتها.

وحين انحازت فلسفة التنمية وخططها إلى الأخير منهما ولم يبق للأول إلا شعارات إعلامية وهياكل تقليدية تتآكل مع الزمن كان لابد أن تقع السنة الربانية: «سلط الله عليكم ذلاً لا يرفعه حتى ترجعوا إلى دينكم» ووقعت النازلة فارتجف منا كل قلب وذهل كل لب بعد أن كنا منصورين بالرعب واستيقظنا فإذا جيشنا الذي كان أيام سيادة المبدأ الأول (قبل سبعين سنة) أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ مجاهد وعجزت أمهر الاستخبارات العالمية عن اختراقه لا يتجاوز اليوم خمس ذلك العدد وبينهم كثير من متبعي الشهوات ومضيعي الصلوات وأصبحنا نستجدي لحمايتنا أمم الأرض كافرها ومسلمها حتى دويلات أفريقيا الفقيرة.

هذا مع ما كنا فيه أيام الجهاد من الفقر والعوز اللذين كانا مضرب المثل في حين أن جيشنا الحديث ينفق عليه منذ ثلاثين سنة على الأقل أكثر من ثلث ميزانيتنا الضخمة وربما سمعتم ما قيل من أن ميزانية الجيش السعودي خلال هذه السنين أكثر من ميزانية دولة إسرائيل كلها، ومع ذلك فلدى الدولة اليهودية مليون مقاتل وعشرون مفاعلاً نووياً وقد ضربت تونس وبغداد وأوغندا وهددت بضرب إسلام أباد واحتلت جيوشها خمسة أضعاف مساحة بلدها الأصلي.

أفيكون المغضوب عليهم أحرص على الموت وأخلص لدينهم وأمتهم وأحفظ لأموالهم منا؟!».

رؤية الجهاديين

ليس بين أيدينا رؤية تنظيرية للجهاديين عن دوافع الصدام بين الإسلام والغرب ولكننا سنعمل على التماس ذلك من خلال بياناتهم ومقالاتهم التى تنشر عبر الإنترنت ومثال ذلك ما جاء فى مقال لهم عن الدور الأمريكي فى تحرير كوسوفا حيث يقولون عن ذلك: «يقوم الغرب بالدور الذى يريد بالقدر الذى يريد لتحقيق الهدف الذى يريد فهو لا يتحرك عادة فى أول الأمر بل بعد أن يترك القوى المعادية للمسلمين تمارس إجرامها وتقتل الآمنين والمدنيين وتدمر المنشآت والمساجد والمدارس وتحرق المصانع والمزارع ولاتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .. وبعد ذلك يتدخل النظام العالمى .

وأعتقد أن تدخله لم يكن لسواد عيون المسلمين بقدر ما كان لتمزيق دولة يوغسلافيا لحاجة فى نفسه . ولهذا لم تر أمريكا ولا حلف الناتو حركوا ساكنًا فى حرب روسيا لجمهورية الشيشان الإسلامية . وما حدث فيها من مجازر وتذبيح للمدنيين وتجاوز لكل حقوق الإنسان .

على حين ترى أمريكا والغرب ضغطوا على إندونيسيا من أجل استقلال (تيمور الشرقية) من إندونيسيا ، وأهلها إندونيسيون ولغتهم الإندونيسية، ولكن عمل (التنصير) فيهم عمله حتى كسب أغلبية فيهم».

وجاء على لسان أحد قيادات الجماعة الإسلامية فى حوار معه قوله: «إن الدور الأمريكى فى دعم الكيان الصهيونى لا يخفى على أحد من أبناء أمتنا المسلمة فهم الذين أنشأوا هذا الكيان كرأس حربة فى قلب أمتنا ليمزقوها ويستعبدوها، وينهبوا خيراتها وهم الذين أمدوا هذا الكيان بكل ما يحتاج إليه من رجال وعتاد وأموال ودعم سياسى، لذلك يجب أن يعى أبناء الأمة أنه لا فرق بين الكيان الصهيونى والولايات المتحدة الأمريكية، وأنه لا فرق بين رصاصة تنطلق لتقتل أمريكيًا أو أخرى تنطلق لتقتل يهوديًا وأنه لا فرق بين دولار يدفع لشراء بضاعة أمريكية أو دولار يدفع لشراء بضاعة صنعت فى شركات يهودية تواجدت فى أرضنا المحتلة فى فلسطين أو فى أى مكان آخر من العالم، وأنه لا فرق بين يهودى يتنقل آمنًا فى ربوع أوطاننا الممتدة وبين أمريكى ينتقل آمنًا فى ربوع أوطاننا الممتدة أيضًا . إنه يجب علينا جميعًا أن نعى قول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين)».

موقف حزب التحرير

ورد فى أحد دراسات حزب التحرير عبر الإنترنت الحديث التالى عن العلاقة بين الإسلام والغرب الأمريكى :

«الحملة الأمريكية العالمية لجعل الرأسمالية مبدأ لكل أمم وشعوب الأرض ، فإنها لا تواجه أية مقاومة إلا في العالم الإسلامى . وذلك لأن باقى أمم وشعوب الأرض إما أنها تعتنق الرأسمالية أصلاً ، كما هو شأن أميركا وأوروبا الغربية وفروعها فى كنذا وأستراليا ونيوزيلاندة ، وإما أنها تخلت عن الاشتراكية وبدأت صياغة حياتها على أساس الرأسمالية ، كما هو حال روسيا وباقى دول ما كان يعرف بالمعسكر الشرقى ؛ وإما أنها لاتزال ترفع شعار الاشتراكية شكلاً ولكنها لا تؤمن بها وتتحول تدريجيًا ودون إعلان إلى الرأسمالية ، مثلما هو حاصل فى الصين وكوريا الشمالية وفيتنام وكوبا ؛ أو أنها أمم وشعوب ليس لديها مبدأ أصلاً ولا تجد فى الرأسمالية خصمًا عقيديًا ، كما هو الحال بالنسبة لأمم وشعوب أمريكا اللاتينية ، ومعظم أمم وشعوب الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا .

وحدها الأمة الإسلامية بين أمم العالم غير الرأسمالى التى لديها مبدأ تعتنقه ، رغم أنها لا تعيش عليه ولا تحمله للعالم فى الوقت الحاضر .

ولهذا ، فإن الحملة الأمريكية لعولمة الرأسمالية لا تواجه مقاومة حقيقية إلا فى العالم الإسلامى .

ومع أن الدول القائمة فى العالم الإسلامى كلها لا تطبق الإسلام - وإن ادعى بعضها تطبيقه - وتطبق الرأسمالية بشكل ممسوخ ، إلا أن الأمة الإسلامية ، التى لم تنته بهدم دولة الخلافة ، أخذت منذ بداية خمسينيات هذا القرن تتحسس طريقها للنهوض على أساس الإسلام ، وبدأت تتحرك لبناء حياتها على أساسه ، متطلعة لإنقاذ العالم به ، رغم ما هى فيه من تجزئة ، أحدثها الكفار قبل هدم الخلافة وبعده ، ورغم أن حكامها عملاء للكفار ، يحرسون أوضاع الكفر التى أقامها الغرب فى بلاد المسلمين ، ويسهرون على خدمة مصالح الغرب وتوطيد نفوذه ، ويسيرون فى كل سياساتهم الداخلية والخارجية وفق توجيهاته وأوامره .

وبالرغم من أن نهضة الأمة لم تكتمل بعد ، وتسير ببطء شديد نتيجة لما يلاقيه العاملون لها من بطش الحكام العملاء وتنكيلهم ، ولما أشاعه هؤلاء الحكام من أجواء القمع والإرهاب ، وبسبب خطط الكفار التى ينفذها هؤلاء العملاء ضد شعوبهم لإبقائها ترزح تحت نير الكفر ،

إلا أن الغرب الكافر ، وعلى رأسه أمريكا ، يخشى اكتمال نهضة الأمة ، وعودة المسلمين أمة من دون الناس ، تعيش ضمن كيان واحد هو دولة الخلافة ، التى ستستأنف حمل رسالتها للعالم ، لإنقاذه مما يتردى فيه من شقاء واضطراب وانحلال نتيجة لهيمنة الرأسمالية وقيمها المادية النفعية عليه ، مما حوله إلى غابة لا أمان فيها ولا اطمئنان ، رغم كل المنجزات العلمية والمدنية التى وصلت إليها البشرية .

فالغرب الكافر لا يزال يذكر كيف حول الإسلام العرب من قبائل متناحرة تعيش فى هامش التاريخ إلى أمة متميزة ذات حضارة ، أشرق العالم بنورها ، وتمكنت خلال فترة زمنية قصيرة من أن تصبح سيدة العالم ، وظلت كذلك حوالى عشرة قرون ، نشرت خلالها العدل والأمن والقيم السامية والرخاء فى كل مكان رفرفت فوقه رايات الخلافة .

ولذلك فهو يخشى أن تعيد الأمة الإسلامية الكرة ، وتقضي على نفوذه ومصالحه ليس فوق أرضها وحسب ، بل وفى كل أرجاء المعمورة .

وفى ضوء إدراك أمريكا والغرب لهذه الحقيقة ، فإن الحملة الأمريكية تستهدف الأمة الإسلامية بالدرجة الأولى رغم عالمية هذه الحملة .وإنه وإن كان لهذه الحملة دوافع أخرى من بينها الجشع الرأسمالى وطمع أمريكا والغرب فى ثروات بلاد المسلمين ، وما تتمتع به هذه البلاد من مزايا جغرافية استراتيجية، وكونها سوقًا كبيرة لمنتجات الغرب ومصدراً للمواد الخام الضرورية لصناعاته ، إضافة إلى ما فيها من احتياطيات نفطية هائلة حيوية لحياته - إلا أن الدافع الرئيس لهذه الحملة هو الخطر الكامن فى الأمة الإسلامية على مصالح هذا الغرب ونفوذه الدولى ، بل وحتى وجوده ذاته، عندما تستيقظ الأمة الإسلامية وتنهض ، وتحمل رسالتها للعالم .

ركائز الحملة الأمريكية

وتعتمد أمريكا فى حملتها الموجهة للعالم الإسلامى على ركائز عديدة: أولاها وزنها الدولى ونفوذها فى العالم الإسلامى ، وخاصة بعد حرب الخليج الثانية ، وما تمخضّت عنه من ترسيخ نفوذ أمريكا فى المنطقة الإسلامية بأسرها . وبفضل هذا الوزن وهذا النفوذ صارت الدول القائمة فى العالم الإسلامى أكثر استجابة للضغوط الأمريكية ، ولخطط أمريكا التى تستهدف القضاء على الإسلام بحمل المسلمين على اعتناق الرأسمالية .

وثانية هذه الركائز زعامة أمريكا للدول الرأسمالية التى تحرص على إشراكها فى هذه الحملة ، وتسخير نفوذها وعملائها فى العالم الإسلامى لإنجاحها ، خاصة وأن هذه الدول لا تختلف عن أمريكا فى اعتبار الإسلام خطراً عليها وعلى نفوذها ومصالحها هى الأخرى.

وثالثة هذه الركائز ما تسمى بالشرعية الدولية وأداتها المتمثلة بالأمم المتحدة وميثاقها ، والمؤسسات والمنظمات التابعة لها ، والتى تسخرها لتنفيذ خططها ، وإضفاء الشرعية الدولية على الإجراءات التى ترى ضرورة لاتخاذها ، سواء كانت هذه الإجراءات سياسية، أو اقتصادية، أو عسكرية، أو غيرها.

ورابعة هذه الركائز وسائل الإعلام العالمية ، التى تستغل أمريكا هيمنتها هى وحلفاؤها عليها ، لتجعل منها سلاحًا من أفتك الأسلحة التى تستخدمها فى حملتها ، حيث تستعملها فى الترويج للشعارات التى ترفعها فى هذه الحملة ، كما تستعملها لتشويه صورة الإسلام، واستعداء العالم على المتمسكين به بوصمهم بالأصولية والتشدد والتطرف والعنف والإرهاب. ولا يخفى ما لهذا السلاح من أثر خطير ، خاصة بعد أن حولت ثورة الاتصالات التى شهدها النصف الثانى من هذا القرن العالم إلى قرية صغيرة ، لا يكاد يوجد فيها بيت واحد إلا ويدخله الإعلام المقروء أو المسموع أو المرئى .

ولعل أبشع هذه الركائز وأخطرها (..........) ومن حولهم من المرتزقة المنافقين والانتهازيين النفعيين ، ومن يؤازرهم من المطبوعين بثقافة الغرب الكافر ، والمفتونين بطريقته فى العيش ، بل وحتى من بعض من يتظاهرون بالحرص على الإسلام ، سواء كانوا من علماء السلاطين أو من يقدمون للناس على أنهم مفكرون إسلاميون ، أو من رجال بعض الحركات الإسلامية ، الذين ما هم فى الحقيقة إلا علمانيون ينادون بفصل الدين عن الحياة .

ويخدم هؤلاء جميعًا الحملة الأمريكية لتحويل المسلمين عن دينهم للرأسمالية بشتى السبل والوسائل : بالتضليل الإعلامى ، وتحريف مفاهيم الإسلام وأحكامه ، وبتطبيق أنظمة الكفر وسن التشريعات والقوانين اللازمة لهذا التطبيق ، وبربط الدول القائمة فى العالم الإسلامى بمعاهدات واتفاقات وقيود متنوعة لإبقائها تحت نفوذ الكفار وسيطرتهم ، إلى جانب أداء دورهم فى تنفيذ خطط الكفار لإفقار الأمة بهدف قتل قيم الإسلام فيها ، إلى جانب البطش بالواعين المخلصين من أبناء الأمة لإسكاتهم وإشاعة أجواء القمع والإرهاب بين الناس ، حتى لا يجرؤ صوت على الجهر بالحق ، ليسهل لهم إذلال الأمة وحملها على الاستخذاء للكفر والكفار .

هذه هى أبرز الركائز التى تستند إليها أمريكا فى حملتها ضد الإسلام والمسلمين ، بهدف القضاء على الإسلام عن طريق حمل المسلمين على اعتناق الرأسمالية . وتتجلى هذه الحملة فى شعارات أربعة هى فى حقيقتها جوهر الرأسمالية : الديموقراطية ، والتعددية ، وحقوق الإنسان ، وسياسات السوق .

وقبل التعرض لهذه الشعارات ونقضها تفصيلياً لابد من بيان فساد الأساس الذى انبثقت عنه.

وهذا الأساس هو العقيدة الرأسمالية، عقيدة فصل الدين عن الحياة .

فهذه العقيدة ليست نتيجة لعملية عقلية أو حتى منطقية ، بل هى حل وسط بين فكرتين متناقضتين : الفكرة التى كان ينادى بها رجال الكنيسة فى أوروبا طوال ما يُسمى بالقرون الوسطى من إخضاع كل شيء فى هذه الحياة للدين ، والفكرة التى نادى بها بعض المفكرين والفلاسفة من إنكار وجود الخالق .

ففكرة فصل الدين عن الحياة حل وسط بين الجانبين . والحل الوسط يمكن أن يتصور بين أمرين متفاوتين ، ولكن لا يمكن تصوره بين متناقضين . فإما أن هناك خالقًا خلق الإنسان والكون والحياة ، وعندها يُبحث عما إذا كان هذا الخالق قد وضع للإنسان نظامًا يسير عليه فى هذه الحياة ، وسيحاسبه على تقيّده بهذا النظام بعد الموت ، وإما أنه ليس هناك خالق ، وعندها لا يفصل الدين عن الحياة بل يُنبَذ منها .

أمّا أن يقال لا أهمية لوجود الخالق من عدمه ، فذلك أمر لا يُقنع العقل ولا تَطمئن له النفس .

وهكذا فإن مجرد كون العقيدة الرأسمالية خُلاصة حل وسط فيما لا يصح أن يكون فيه حل وسط، هذا وحده كافٍ لنقض هذه العقيدة، سواء عند من يؤمن بوجود الخالق أو ينكِر وجوده .

غير أن الدليل العقلى القطعى يوصل إلى أن هناك خالقًا خلق الإنسان والكون والحياة ، وأن هذا الخالق وَضَعَ للإنسان نظامًا يسير عليه فى حياته ، وأنه سيحاسبه على تقيدّه به بعد موته .

ومع ذلك فليس مجال البحث هنا وجود الخالق ، ولا النظام الذى وضعه للإنسان ، وإنما ينصب البحث على العقيدة الرأسمالية وبيان فسادها . وهذا يكفى للتدليل عليه كون هذه العقيدة حلاً وسطًا بين متناقضين ، وكونها غير مبنية على العقل .

ونقض العقيدة الرأسمالية كافٍ وحده لنقض المبدأ الرأسمالى ككل ، لأن ما بُنى على فاسد فهو فاسد . وهذا يعنى أنه لا داعى للبحث فى تفاصيل الأفكار الأساسية للمبدأ . غير أنه نظراً لما لبعض هذه الأفكار من رواج عالمى ، ولِما لها من تقبُّل لدى بعض المسلمين ، ولكونها تشكل شعارات الحملة الأمريكية فى هجمتها الشرسة على الإسلام والمسلمين ، صار لابد من التعرض لها ، وبيان فسادها ، وتناقضها مع الإسلام ، مما يعنى حُرمة أخذ المسلمين لها ، ووجوب نبذها والتصدى لكل من يُرَوّج لها .

رؤية الثورة الإيرانية

الإيرانيون متقدمون فكرياً لمدى كبير مقارنة بالحركات الإسلامية فى الدول الأخرى. ومن الطبيعى أن يكونوا أكثر المسلمين وعياً بهذا الجانب بالذات (الصراع مع الغرب) نظراً لصدامهم القائم مع الغرب منذ قيام الثورة وحتى الآن وإن تكن مواقفهم السلبية تجاه الأحداث الأخيرة كشفت عن موقف تعصبى لا يقل فى شىء عن موقف خصومهم من غلاة السلفيين ولكن الأهم من ذلك أنه يكشف عن تحول فى السياسة الخارجية الإيرانية يقبل المناورة مع الأمريكيين والغرب وإن يكن لا يدلل كثيراً عن تراجع قادة الثورة عن موقفهم العدائى من الغرب الأمريكى النابع من وعيهم العميق بطبيعة العلاقة بين الإسلام وهذا الغرب الأمريكى ودوافعها الرئيسية.

ونورد فى الصفحات التالية رؤية اثنين من أهم قادة الثورة الإيرانية عن طبيعة هذه العلاقة ودوافعها:

أولاً: رؤية الإمام على خامنئى:

يقول الإمام على خامنئى مرشد الثورة الإيرانية: «الاستكبار العالمى والدول الاستعمارية ادخرت منذ البداية حتى اليوم النظام الغاصب الإسرائيلى لتستعمله وسيلة ضغط على الدول العربية ثم الإسلامية فى المنطقة وهى عازمة على أن تحافظ على هذا الخنجر المسموم باستمرار عند خاصرة العالم الإسلامى. والشيطان الأكبر اليوم يمسك بمقود هذا الكلب المدرّب.

من هنا فلا عجب أن يرتكب الصهاينة انتهاكاً مستمراً للقوانين الدولية، وانتهاكاً مستمراً لحقوق الإنسان وبأفظع صوره، واعتداء متواصلاً على البلدان الجارة، وعمليات إرهاب وخطف فاضحة، وأن يتزودوا باستمرار بالأسلحة الذرية، وأمثالها من الممارسات التى لو صدرت أية واحدة منها عن أى بلد لا يرتبط بأمريكا ارتباط السيد بالمسود، لحولوها إلى طامة كبرى.. لا عجب أن يرتكب الصهاينة كل هذا ثم يكون موضع قبول ولا يواجه أى اعتراض من شبكات الإعلام الاستكبارية فى العالم وخاصة إعلام الشيطان الأكبر.

بهذا يتضح أن الكيان الصهيونى الغاصب يشكل اليوم أكبر خطر على حاضر العالم الإسلامى ومستقبله، والمسلمون هم الذين يتحملون مسئولية معالجة هذا الخطر ودفع هذا الظلم الفادح.

ليعلم الإخوة والأخوات فى جميع العالم أن الجزء الأعظم من الضغوط الشرقية والغربية المشتركة على إيران الإسلام، سواء فى سنين الحرب المفروضة أو قبلها وبعدها، كان ينطلق من

خيال باطل يتجه نحو إنزال الهزيمة بالجمهورية الإسلامية فى إيران لكى يصوروا فشل تجربة الحركة الإسلامية أمام المسلمين فى العالم، ويطفئوا نور الإسلام الذى أضاء فى قلوبهم بعد انتصار الثورة الإسلامية فى إيران، ثم بعد ذلك ليصدوهم عن بذل طاقاتهم فى هذا الطريق المبارك. واليوم فإن إعلام الأبواق الاستكبارية الذى يحاول أن يصور الثورة الإسلامية فى إيران بالركود والتوقف والوصول إلى طريق مسدود، ويصور نظام الجمهورية الإسلامية بالإعراض عن خط الثورة والإمام العظيم - رضوان الله عليه - وبالمهادنة مع أمريكا الغادرة ليس له سوى هذا الهدف. إن هذه هى نفس الأبواق التى وجَّهت مراراً خلال حياة الإمام الراحل قدس سره إلى إيران الإسلام - وهى ألد أعداء العدو الصهيونى - تهمة العلاقة بإسرائيل وشراء الأسلحة منها وبيع النفط إليها. وبفضل الله ومنّه لم تستطع أية واحدة من هذه المساعى الاستكبارية العملية منها والإعلامية أن تحقق أهدافها. الأمل الذى شع بانتصار الثورة الإسلامية ومواقفها الحاسمة الصلبة المقاومة على دنيا الإسلام وعلى قلوب المسلمين، قد آتى أكله وأسفر عن انطلاق حركات شعبية عظيمة تطالب بالحكومة الإسلامية فى عدد من البلدان الإسلامية.

العدو يسعى بافتعال الأجواء وأحابيل الإعلام إلى أن يحذركم من اسم الحكومة الإسلامية والنظام الإسلامى، ولعل بعض البسطاء يرون أن من الأفضل عدم ذكر اسم الحكومة الإسلامية فى التصريحات العلنية تجنباً لإغارة حساسية أمريكا والدول الغربية. وتوصيتى هى اجتناب هذا التفكير المصلحى المخالف للمصلحة الإسلامية اجتناباً تاماً. صرِّحوا بهدفكم فى إقامة النظام الإسلامى وحاكمية الإسلام والقرآن دون أى انفعال وكرّروا ذلك فى كل الظروف، ولا تطمعوا العدو فيكم بالعدول عن اسم الإسلام المقدس، ولا تجعلوا الهدف وراء ستائر من الإبهام والغبار.

سابقًا عانت الجماعة المسلمة دائماً من النفاق أكثر مما عانته من الكفر الصريح. واليوم فإن خطر الإسلام الأمريكى أى ما يطرح باسم الإسلام ليكون فى خدمة الطواغيت وفى اتجاه الأهداف الأمريكية وأهداف سائر المستبكرين، لا يقل عن خطر الأجهزة العسكرية والسياسية الأمريكية بل يزيد عليه. فاحذروا من هذا الإسلام الأمريكي، سواء تلبسوا بلباس علماء الدين أو كانوا من السياسيين، واتهموهم فى حديثهم وإشارتهم وجهتهم، ولا تعمدوا إلى الاستعانة بهم إطلاقاً.

إن القوى المتسلطة العالمية قد اتخذت موقفاً أكثر صراحة فى عدائها للإسلام والأهداف الإسلامية. ومن المؤكد أن أحد الفصول الهامة فى النظام الدولى الجديد المقترح من قبل أمريكا للعالم بعد سقوط الشيوعية هو حذف الإسلام ومجابهة النمو المتزايد فى الحركات الإسلامية.

ومن يتابع تصريحات حكام النظام الأمريكى ومواقفهم بشأن الإسلام والنهضات

الإسلامية المعاصرة، وبشأن البلدان والشعوب التى تنشد الإسلام وتدعى أو تأمل إقامة النظام الإسلامى، يلمس عمق الحقد الدفين تجاه الإسلام والنظام الإسلامى.

الاتصالات المكثفة التى تجريها أمريكا وعملاؤها مع البلدان المستقلة الفتية فى آسيا الوسطى من أجل إرعابهم من الاتجاهات الإسلامية ومما يسمونه بالأصولية.. وموقفهم العدائى تجاه الصحوة الإسلامية فى كل مكان ومن أبرز ذلك موقفهم من الحركة السياسية المنتصرة لمسلمى الجزائر.. وسلوكهم المتحايل الغادر تجاه الشعب العراقى ودفع هذا الشعب إلى الوضع المؤلم المفجع الحالى.. ولجاجهم فى الخصومة مع حكام السودان لا لشىء إلا لتوجههم الإسلامى.. وعشرات النماذج الأخرى فى أرجاء العالم، تشكل بمجموعها شواهد لا تقبل الانكار على علانية حقد أمريكا وغيرها من القوى السلطوية على الإسلام واليقظة الإسلامية وعلى عودة المسلمين فى العالم إلى هويتهم الإسلامية»(١).

ثانياً: الرئيس السابق هاشمى رافسنجانى:

أما الرئيس السابق هاشمى رافسنجانى فيقول: «الهجوم الرئيسى الذى يشنه الاستكبار يستهدف العالم الإسلامى، فهم لا يرون فى المسيحية والبوذية والهندوسية وفى أفكار من هذا القبيل خطراً وحركة جدية فى مقابل الاستعمار، لأن هذه الأديان فارغة ولا تحتوى على أى مضمون، أما اليهودية فهى بذاتها غارقة فى الماديات والصهيونية تعد رفيق الاستكبار الرئيسى فى هذه العملية، والخطر الرئيسى الذى يهدد هؤلاء هو العالم الإسلامى الذى يضم أكثر من مليار إنسان مع بحر من المعارف وهو الذى يتعرض لهجومهم.

والغربيون يهاجمون الإسلام فى كتبهم واصفين إياه بدين السيف لكى يضعفوا عن هذا الطريق أفكار المسلمين الذين يتوقون للحرية، ويطرح الغربيون قضية حقوق المرأة والحجاب والعروبة وأمثالها كأسلحة يضعفون بها أفكار المسلمين عامة والشبّان منهم بالخصوص، ولو ضعفت الأسس الاعتقادية للناس فلن يبقى بعد ذلك مكان للبنى الفوقية الأخلاقية، لذلك نراهم يواصلون هذا العمل بشدة، وربما سمعتم بالقصة الشهيرة حول رئيس الوزراء الإنكليزى الذى اعترف فى البرلمان الإنكليزى بصراحة قائلاً: «مادام القرآن يحكم المسلمين فإن دعائم حكمنا عليهم ستبقى مزعزعة»، هذا الكلام تجسيد لنمط تفكيرهم حيث جاء على لسان أبرز مسئول فى سياستهم الخارجية وفى برلمان انجلترا».(٢).

---

(١) حديث العزة، من خطب الجمعة لخامنئى الموجهة إلى كل العالم.

(٢) العدالة الاجتماعية فى الإسلام (من خطب رافسنجانى): ص١٢٢: ١٢٣.

رؤية المسيرى للغرب

قد يكون المفكر الإسلامى الوحيد الذى يملك رؤية تحليلية متكاملة للغرب هو الدكتور عبدالوهاب المسيرى لكن هذه الرؤية تنطلق من منظور فلسفى عام وليس من منظور العلاقة بين الإسلام والغرب.

وانحياز المسيرى للإسلاميين أو انضمامه لهم فى رواية أخرى هو انحياز متأخر نسبياً فى مسيرته الفلسفية ومن ثم لم يتمخض عنه حتى الآن سوى رؤاه الفلسفية الخاصة الكامنة وراء أطروحاته النقدية للحضارة الغربية. ومع ذلك تظل رؤيته التحليلية للغرب هى أحد أفضل النتاجات الفكرية الإسلامية التى يمكن الاعتماد عليها كأرضية أساسية فى تحديد معالم العلاقة بين الغرب والإسلام على وجه الخصوص، ولهذا يكون من المهم إبراز تلك الرؤية فى معرض حديثنا عن المنظور الإسلامى لدوافع الصدام مع الغرب.

ويجب الإشارة هنا إلى أن موقف المسيرى من الغرب لم يختلف كثيراً عن موقفه الناقد له قبل وبعد انحيازه للإسلاميين وهو موقف شديد القتامة قد تأثر فيه كثيراً بخلفياته الماركسية وإنما الانتقال الذى حدث فى البدائل الكامنة وراء موقفه النقدى والتى تحولت من الإنسانية إلى الإسلامية. وبوجه عام فإننا نرى أن خطاب المسيرى النقدى للغرب الأمريكى قد يكون أشد الخطابات خطراً عليه فى المنطقة كلها خصوصاً إذا اكتشفت الحركة الإسلامية أهمية هذا الخطاب فى المرحلة القادمة.

يقول المسيرى فى بعض كتاباته المتقدمة عن الغرب الأمريكى:

«هذا العالم البراجماتى الهادئ العملى، إن هو إلا عالم نيتشوى داروينى يمور بالتغير الذى يعمى الأبصار ويجرف كل شىء فى طريقه إلا العبقرى - إنه ولا شك عالم البقاء للأكثر عبقرية أو للأصلح.

ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن هذا هو جوهر رؤية جيمس للإنسان، فحسب تصوره، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفترس أبناء نوعه، إذ إن الإنسان قد تكيف وإلى الأبد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طالت أن تمحو من الوجدان الإنسانى الرغبة فى الحرب. «لقد ولدنا كلنا لنحارب» بل إن الحرب هى الطبيعة البشرية فى ذروتها. والمجتمع سيصاب حتماً بالعفن دونها، دون ذلك «البذل الصوفى للدم» كما يسميه جيمس، وما سمو العقل بين سائر البشر إلا نتيجة الرغبة فى السيطرة، أن تذبح الآخرين أو تُذبح. يا إلهى! ماذا

حدث للهدوء البراجماتي المرن العملي - والذى يتباهى به البراجماتيون ويتفاخرون؟ لقد ظهر نيتشه وداروين «والسفك الصوفى للدماء»، نعم «الصوفى» فى كتابات البراجماتى، كما لو كنا فى عالم بدائى رهيب - عالم روسو بعد أن سقطت أقنعته المتحضرة. نقول نيتشه وداروين ولكن فى تصورى أن داروين هو البنية الكامنة الحقيقية والتعبير الفلسفى عن رؤية نيتشه وجيمس، فداروين، أو لكى نتوخى الدقة، الداروينيون حينما ينظرون إلى ظاهرة الإنسان، فهم لا يضفون عليها أية خصوصية، وإنما يرون الإنسان على أنه كائن طبيعى تنطبق عليه كل القوانين، شأنه فى هذا شأن أى كائن آخر دون أى تمييز خلقى أو تاريخى أو جمالى - والقانون الذى يحكم الجميع هو قانون «البقاء للأصلح».

وقد ورث نيتشه هذا المفهوم وطوره وجعله أساس تطور المجتمع الإنسانى وليس الوجود الطبيعى وحسب.

وجيمس ينتمى لهذا النمط من المفكرين البورجوازيين الذين يضعون الإنسان أمام خلفية طبيعية، مسقطين الخلفية التاريخية تماماً، أو إذا أبقوها فهى تظل على مستوى الحد الأدنى أو القشرة أو من قبيل الديكور وليس إلا»(١).

ويقول فى موضع آخر: «ويؤكد كالن محرر مختارات جيمس وتليمذه الصهيونى أن موقف جيمس من الواقع بل والوجود الأمريكى ككل يشبه موقف الرائد الأمريكى من عدة وجوه، فالشعب الأمريكى يستجيب للواقع استجابة حرة لم تقررها من قبل عادات اجتماعية أو أية عادات خاصة استجلبوها من أوربا معهم، فهم قد طرحوا هذا التاريخ جانباً ليدخلوا فى علاقة مع عالم لم يسبق له مثيل، عالم محفوف بالمخاطر ولا يمكن التنبؤ به، الدخول فى تجربة لا تعرف نتائجها مقدماً - ها هو جوهر تجربة الرجل الأبيض فى أمريكا. إن الرجل الأبيض فى أمريكا هو الرجل البراجماتى بالدرجة الأولى والسوبرمان الحق والكاوبوى الذى لا يهاب شيئاً ويبنى بيته بجوار البركان كما يخاطر بكل شىء فيفقد كل شىء أو يربح كل شىء - الصدفة والحرية المطلقة مرة أخرى (وليس الحرية النسبية المقيدة من خلال معرفة قانون الضرورة).

ولكننا لو تعمقنا قليلاً فى هذه البنية الداروينية النيتشوية لنصل إلى أساسها الاقتصادى لوصلنا إلى شخصية التاجر، فالرائد هو التاجر الأعظم الذى يتاجر بكل شىء ويخاطر بكل شىء حتى حياته وجسده»(٢).

أما فى كتاباته الأخيرة فإن المسيرى يقدم فى حديثه عن الأمركة رؤية عامة لموقف الغرب

(١) الفردوس الأرضى: ص٤١ : ٤٢.

(٢) المرجع السابق: ص ٤٥.

الأمريكي من العالم يمكن إيجازها كالتالي :

«الأمركة» هي «صبغ مجتمع أو فرد بالصبغة الأمريكية وإشاعة نمط الحياة الأمريكية» . وهو مصطلح لم يجد طريقة بعد إلى مصطلحات علم الاجتماع ، ويوجد مصطلح طريف قريب منه للغاية هو مصطلح «الكوكلة» أو«الكوكاكوليزيشن» والكوكاكولا هنا رمز نمط الحياة الأمريكية ، وانتشارها هو رمز تدويل الأمركة ، وقد قال أحدهم إن الأمر ليس كوكلة وحسب وإنما هي «كوكاكولونيالية» بدلاً من «كولونيالية» . أي أن الكوكلة هي الاستعمار في عصر الاستهلاكية العالمية ، وهي استعمار لا يلجأ للقسر وإنما للإغواء .

والمجال الدلالي لكلمة «أمركة» أو«كوكلة» يتداخل مع كلمة «علمنة» باعتبار أن العلمنة هي عملية فرض الواحدية المادية بحيث يتحول العالم بأسره (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استهلاكية لا قداسة لها ولاخصوصية ولا مرجعية لها سوى المرجعية الكامنة في المادة . وإذا كانت العلمنة هي عملية ترشيد للإنسان من الداخل والخارج في إطار مفهوم الطبيعة / المادة، فإن الحضارة الأمريكية كانت مرشحة لأن تكون حضارة علمانية نماذجية للأسباب التالية :

١ـ فصلت الولايات المتحدة الدولة عن الكنيسة وهمشت الدين تماماً بحيث أصبح شأناً من شئون الضمير منذ بداية تاريخها ، فالدستور ينص على ذلك . وفي عام ١٨٤٠ اعترض المواطنون في ولاية نورث كارولينا على إشارة حاكم الولاية للثالوث المسيحي في دعاء عيد الشكر ، وتم استبعاد أية إشارات دينية من الحياة العامة .

٢ ـ لم تسيطر الرموز المسيحية على الولايات المتحدة ، ولم تختلط بالرموز القومية إلا لفترة قصيرة من تاريخها ، وقد تم علمنة الرموز تماماً حتى وصلنا إلى مرحلة أصبح من المستحيل على المسيحيين أن يبنوا تماثيل صغيرة تبين منظر مولد المسيح في الحدائق العامة باعتبار أنها ملكية عامة ، ومن ثم فهي خاضعة للدستور الأمريكي الذي يفصل الدين عن الدولة .

٣ ـ تم فصل أية مطلقات أخلاقية في الولايات المتحدة من البداية عن كثير من نشاطات الإنسان ، إذ ساد تماماً الاقتصاد الرأسمالي الحر الذي يستند إلى آليات السوق والبيع والشراء.

كان من الممكن حصار هذا الاتجاه المتطرف نحو العلمنة وتحييده لو كانت توجد تقاليد حضارية وتاريخية سابقة تولد ضرباً من التركيب وتفرض قدراً من الثنائية . ولكن الولايات المتحدة كانت بالفعل «صفحة بيضاء» أو «أرضاً عذراء» بلا ذاكرة تاريخية من السهل أن يتبلور

فيها النموذج العلماني بواحديته المادية ليقترب من اللحظة النماذجية (لحظة الصفر العلمانية) دون مقاومة تذكر من أية تقاليد أخلاقية أو حضارية أخرى ، ودون أية عوائق فكرية تقف فى طريقه .

١- بدأت الولايات المتحدة كتجربة حضارية من نقطة الصفر ، فقد رفضت التراث الأوروبى (الذى هرب منه المستوطنون) وطرحت رؤية مشيخانية سياسية معادية للتاريخ .

٢ - دستور الولايات المتحدة يصدر عن مُثلُ عصر الاستنارة والإعتاق والعقلانية المادية والتجريب ، والإيمان بأن المصدر الوحيد للمعرفة هو الحواس والعقل وبأن العالم بأسره خاضع للقانون الطبيعى وبأن التقدم اللانهائى المستمر أمر حتمى ، وهذه كلها أفكار معادية للتاريخ.

٣ - هدف الإنسان فى التصور الأمريكى هو البحث عن السعادة (واللذة) وأن الإنسان هو المواطن الذى عرف باعتباره دافع ضرائب ، وهو تصور معاد تمامًا للتاريخ والتركيب .

٤ - الولايات المتحدة الأمريكية نشأت كمجتمع استيطانى من النوع الإحلالى (كالدولة الصهيونية) والمبنى على افتراض أن الأرض خالية من السكان (أرض بلا شعب) وهو ما كان يعنى ضرورة إبادتهم ، وبالفعل قام المستوطنون بإبادة معظم سكان أمريكا الشمالية من الهنود ، وقضوا على أى تراث تاريخى أو حضارى محلى .

٥ - كل عملية استيطانية تفترض عمليتى ترانسفير : نقل سكان من وطن أصلى (أوروبا) ونقل السكان الأصليين إلى وطن آخر (وهو فى هذه الحالة الدار الآخرة) . وفى حالة الولايات المتحدة ، كانت عملية الترانسفير الأولى للمادة البشرية الجديدة تأخذ شكلين :

أ - اختطاف مادة بشرية سوداء من أفريقيا واقتلاعها من جذورها ونقلها إلى الأرض الجديدة لتصبح مادة استعمالية وطاقة عضلية صرفة بلا ذاكرة تاريخية أو تراث .

ب - نقل عناصر مهاجرة من أوروبا أساسًا (ومن بعض الحضارات الأخرى) ، والعناصر المهاجرة هى عادة عناصر حركية تبحث عن الحراك الاجتماعى دون تقيد كبير بأى مطلقات ، وتترك وراءها ذاكرتها التاريخية لتبدأ من جديد (من نقطة الصفر) فى الوطن الجديد ، وهى عناصر بشرية تحلم بالعودة الرحمية للفردوس الأرضى ونهاية التاريخ ، وبالعيش فى مجتمع تسيطر عليه قيم الراحة والاستمتاع الفورى دون أى إحساس بالذنب أو بالثنائيات أو المطلقات التقليدية . والولايات المتحدة ، هذه الأرض العذراء ، كانت بمثابة الرحم الأكبر لهم.

٦ - لم تعرف الولايات المتحدة فى تاريخها القصير إلا نمطًا اقتصاديًا واحدًا هو الرأسمالية

المبنية على التنافس والفردية والقيم البراجماتية والداروينية والنيتشوية ، فهى لم تعرف نظامًا اقطاعيًا سابقًا ، على قمته طبقة أرستقراطية تدين بالولاء لبعض المقولات غير المادية ، مثل المكانة والفروسية والأريحية والجماعية والاهتمام بالزراعة ، باعتبارها عملاً نبيلاً ، واحتقار التجارة والبزنس business .

٧ ـ تشجع الخلفية البروتستانتية للحضارة الأمريكية (والتى لا يسبقها تراث كاثوليكى) على الفردية وإنكار أهمية الجماعة والخلاص الشخصى ، وعلى تمجيد قيم المنافسة ومراكمة الثروة .

٨ ـ وإذا كانت السوق هى الإطار الأساسى للحضارة فى الولايات المتحدة ، فإن المصنع هو الجانب الآخر ، خصوصًا بعد تطوير خط التجميع ، فالمصنع يقوم بعلمنة العمل والإيقاع الإنسانى تمامًا ولا يعترف بأية خصوصيات ، ويذهب ماكس فيبر إلى أن الترشيد الكامل هو تحويل العالم إلى حالة السوق والمصنع وقد وصلت الولايات المتحدة إلى هذه المرحلة بطريقة نماذجية تقريبًا .

٩ ـ مجتمع الولايات المتحدة ، برغم أنه مجتمع يتباهى بالتعددية والتنوع والانفتاح ، فإنه يؤدى (فى نهاية الأمر) إلى طمس المعالم المختلفة للهويات وإلى دمجها فى هوية علمانية ديمقراطية واحدة ، فهذا المجتمع تسوده أسطورة علمانية ومعيار قبول اجتماعى علمانى عقلانى واحد ، وهو معيار يسمح للجميع بالانتماء شريطة أن يتخلوا عن خصوصيتهم الدينية والإثنية ، أى عن القسط الأكبر من هويتهم لتحل محلها هوية قومية واحدة ، وكلما ازداد تخليهم عن هويتهم ازدادت أمامهم فرص الحراك الاجتماعى ، فما يسود المجتمع ليس تنوعية حقة وإنما وحدة عقلانية علمانية عميقة وتنوعية إثنية سطحية ، وهذا هو جوهر «الأمركة» وقد ترجمت هذه الأفكار إلى فكرة بوتقة الصهر التى يقفز فيها المهاجرون وينسون تاريخهم وتراثهم وهويتهم ويتم دمجهم والقضاء على ما قد يكون قد بقى فيهم من رواسب تاريخية أو تراثية قديمة ، ثم يخرجون من البوتقة مواطنين أمريكيين كاملين ، عقولهم صفحة جديدة بيضاء ، مثل صفحة لوك الشمعية .

١٠ ـ ولكن الصفحة لم تكن بيضاء تمامًا فبوتقة الصهر تفترض مركزية الواسب wasp (اختصار عبارة «وايت أنجلو ساكسون بروتستانت white anglo saxon protestant) أى بروتستانتى أبيض من أصل أنجلو ساكسونى يتحدث الإنجليزية ، وهى فكرة سادت فى المجتمع الأمريكى حتى منتصف الستينيات ، حيث كان يفترض أن يتأقلم المهاجر تمامًا وينسى هويته ليصبح أمريكيًا قلبًا وإن أمكن قالبًا أيضًا .

ومن هنا ، كانت مشكلة السود الذين لم يكن بوسعهم تغيير لون جلدهم ، وحينما انحسرت أسطورة بوتقة الصهر وظهرت استحالة تنفيذها ، حلت محلها أسطورة أكثر تركيبًا وإن كانت لا تقل عنها أحادية ، إذ إنه أصبح من الممكن الاحتفاظ بالميراث الإثنى أو حتى الدينى القديم فى الحياة الخاصة أو حتى العامة مادام أن ذلك لا يتعارض مع الولاء الأساسى للدولة (ذلك المطلق الذى يلتف حوله العلمانيون) ولا مع مقدرته على الأداء الكفء فى الحياة العامة ، الأمر الذى يعنى أن الدين والإثنية ينكمشان ولا يتجاوزان بأية حال رقعة الحياة الخاصة وهكذا ، تُعامل الإثنية ذاتها معاملة الدين ، أى يتم الاعتراف بها مادامت أمرًا خاصًا تمامًا . ولا تصلح لا الإثنية ولا الدين أن يكون دليلاً أو أساسًا أو إطارًا لسلوك الإنسان فى الحياة العامة .

١١ ـ اتسعت رقعة الحياة العامة فى أمريكا بشكل هائل ، وهى حياة تهيمن عليها الحكومة والاحتكارات ووسائل الإعلام التى تشيع قيمًا مادية نفعية صارمة لا تتسامح البتة مع أية مطلقات إنسانية أو أخلاقية أو دينية . وهى مؤسسات من القوة بحيث إنها تصل إلى الفرد فى حياته الخاصة وفى عالم أحلامه ورغباته .

١٢ ـ يوجد فى الولايات المتحدة دولة قومية مركزية قوية قادرة على الوصول إلى كل أرجاء الرقعة التى تحكمها . ويقال إن طبيعة أمريكا الشمالية المنبسطة ، وكذلك عدم وجود حواجز طبيعية (جبال وغيرها) ، سهلت عملية المركزية هذه .

١٣ ـ تتبع هذه الدولة نظامًا تعليميًا قويًا قادرًا على صياغة المواطنين وعلى ترشيدهم وتلقينهم القيم العلمانية فالكتب المدرسية لا يمكن لها أن تشير إلى أى قيم دينية ، فهذا مخالف للدستور ، ولكنها تشيع القيم النسبية . ومؤخرًا بدأت كتب المطالعة تتحدث عن الشذوذ الجنسى (أو الجنسمثلية) باعتباره شكلاً من أشكال الاتصال المشروع .

كل هذه العوامل أدت إلى ظهور مجتمع علمانى نماذجى أو شبه نماذجى وإلى ظهور فكر علمانى صرف ومن هنا ظهور الداروينية الاجتماعية والبراجماتية وخلاف ذلك ، ثم هيمنتها على المجتمع الأمريكى وهى فلسفات علمانية شرسة جوهرها إنكار أية كليات أو مرجعيات متجاوزة أو ماهيات ثابتة بحيث يصبح العالم حلبة صراع بين بشر نيتشويين (سوبر من : فوق البشر) يبطشون بالآخرين (ويفرضون إرادتهم على الواقع وعلى الآخرين) وبشر خائفين (سبمن : دون البشر) عليهم التكيف مع الأمر الواقع الذى خلقته إرادة الأقوياء بدون أى تجاوز أى أن ما يظهر هنا هو نماذج بشرية الواحدية المادية المتمركزة حول الذات أو حول الموضوع . ثمة تلازم وربما ترادف بين العلمانية والإمبريالية . وليس من قبيل الصدفة أن

أكثر الدول علمنة في العالم هي أيضًا قائدة الإمبريالية الغربية . والواقع أن تصاعد معدلات العلمنة يعني تصاعد معدلات الرغبة في الغزو وفي حوسلة العالم (الإنسان والطبيعة) وتوظيفه . وانتشار ظاهرة الأمركة في العالم يرجع إلى تزايد الهيمنة العسكرية والحضارية الأمريكية . ولعل من أكبر آليات العلمنة في العالم الآن السينما الأمريكية .

ونحن نزعم أن المنظومات المادية تحوي دائمًا تناقضًا أساسيًا ، فهي تبدأ بتأكيد الخاص والمباشر والملموس ثم تتجه تدريجيًا نحو القانون المادي العام المجرد والمبدأ الكامن وراء كل الظواهر (وهو تناقض كامن أيضًا في كل المنظومات الحلولية الكمونية في تأرجحها بين نزعة تأليه الكون (كوزميك Cosmic) ثم إنكاره أكوزميك Acosmic) .

ولكن هذه المنظومات تؤكد أيضًا أهمية الإنسان (الاقتصادي والجنسي) الطبيعي (العام) وتكتسب شرعيتها أمام جماهيرها من خلال منظومات كمونية تنكر التجاوز . ولذا وبالتدريج ، تظهر أجيال جديدة لا تهتم كثيراً بالزخارف القومية أو بالطريق الخاص ، وتتحرك مثل حركة المادة تمامًا نحو الطبيعي والعام والنمطي وغير المتجاوز . ويبدأ الحديث عن الإشباع الاقتصادي والجنسي خارج إطار أية منظومات متجاوزة ، فتسقط الخصوصية القومية ويسقط الإنسان القومي الخاص ويظهر الإنسان الطبيعي العام الذي لا يبحث إلا عن راحته أو الإشباع الفوري . والمنتجات الحضارية الأمريكية تتسم بالمواصفات اللازمة التي تُشبع رغبات الإنسان الطبيعي العمومي الأممي . ولعل الدارس لليابان . يعرف ماذا يحدث لها ، فبعد أجيال من الحديث عن الشنتو والبوذية واحتفال الشاي والكيمونو والكابوكي والنوه والهايكو ، وبعد سنين طويلة من التمسك بأهداب الخصوصية اكتسحت الحضارة الأمريكية الأجيال الجديدة فيلبسون التيشيرت ويشربون الكوكاكولا ويأكلون الهامبورجر ويرقصون الديسكو ويجرون عمليات جراحية على عيونهم حتى لا تكون ضيقة مثل عيون الآسيويين ! وقل نفس الشيء عن الدولة اليهودية التي يستند سبب وجودها إلى تحقيق الهوية اليهودية الافتراضية . هذه الدولة اكتسحتها تمامًا النزعة نحو الأمركة وإن كانوا يدعون أن هناك هوية يهودية . ولذا بدلاً من أن يأكلوا من ماكدونالدز ، فإنهم يأكلون ماكديفيد ، ويا لها من هوية ! وانتشار الأمركة في العالم هو تعبير عن هذا الانتقال من مرحلة الخصوصية إلى مرحلة العمومية في المجتمعات القومية العلمانية . ويجب أن نسارع بالإضافة إلى أن هذه الأمركة ليست مؤامرة أو حتى مخططًا وإنما هي نسق حضاري (أو شبه حضاري) لا يحطم الحضارات الأخرى وحسب ، بل ويحطم الخصوصية الأمريكية والحضارة الأمريكية ذاتها . فالهامبورجر ليس طعامًا أمريكيًا والديسكو ليست موسيقى أمريكية وإنما هي أشكال

حضارية ظهرت مع انتقال الحضارة العلمانية الأمريكية من مرحلة الخصوصية إلى مرحلة العمومية . وهو انتقال يؤدى إلى تحطيم الخصوصيات الأمريكية (حضارة الساحل الشرقى - حضارة وسط أمريكا - حضارة الجنوب .. إلخ) وهى حضارات محلية فى غاية الثراء كلها آخذة فى التآكل السريع بتأثير عمليات الأمركة العلمانية .

لهذا يمكننا القول بأن الأمركة مترادفة في واقع الأمر مع العولمة والكوكبة التى تزيل الحواجز بين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان والأشياء ؛ ليظهر الإنسان الطبيعى الذى لا خصوصية له ولا هوية .. والله أعلم[1] .

---

(١) ما سبق يمثل اختصارًا لأحد فصول موسوعة المسيرى عن العلمانية .

٢

نظرية
فى دوافع الصدام واحتمالات المستقبل

تمهيد :

إن دوافع الصدام بين الإسلام والغرب الأمريكي هي جميعًا - بحسب ما نرى - ليست إلا تجليات الصراع الكوني بين الرؤية الإسلامية للوجود والرؤية المادية البراجماتية له حيث إن كل منهما يعوق الآخر في اتساقه الكوني مع رؤيته الخاصة فلن تكون هناك إمكانية للحوار بين الطرفين إلا بالتخفيف من حدة الدوافع المؤدية للصدام أو زوال بعضها على أقصى تقدير لأن زوالها جميعًا يمثل استحالة فلسفية وتاريخية ويتناقض من المنظور الإسلامي مع سُنة الله في الكون .

ثمة مخادعة كبيرة تتم الآن من حيث توصيف الصراع القائم بالفعل بين الإسلام والغرب الأمريكي يتم ترويجها من جانب الطرف الأخير.

تلك المخادعة هي القول بأن هذا الصراع الذي احتدم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بأشكاله المختلفة - وليس مجرد الحرب القائمة - هو بمثابة حرب على التطرف والإرهاب وليس حرباً على الإسلام ذاته كما يقول الساسة الغربيون تخديراً لعقول المسلمين وضماناً لاستمرار غفلتهم وتفكك وحدتهم، يعاونهم في ذلك أتباعهم من العلمانيين عندنا الذين يعز عليهم أن يكون للإسلام دور فاعل في الصراع العالمي لأن هذا بذاته يسقط مشروعية وجودهم وما يدعونه من مشروع بديل لفراغ إسلامي مزعوم في الجانب الحضاري حيث يعملون على إيهام الناس بأن الإسلام مجرد دين روحي لا علاقة له بالشئون الدنيوية.

ومع ذلك فثمة خطأ بالغ أيضًا على الجانب الإسلامي بالنسبة إلى المسألة حيث ينظر الإسلاميون عادة إلى الصراع القائم الآن بين الإسلام والغرب من منظور الإرث التاريخي على أنه بمثابة استمرار للصراع بين الإسلام والغرب الصليبي.

وعلى ضوء الأسس السابقة يتم تفسير دوافع الصراع بين الجانبين واحتمالات المستقبل. ولأننا نخالف تلك الأسس فإننا نخالف النتائج المترتبة على ضوئها بالنسبة للدوافع والاحتمالات التي يقوم عليها هذا الصراع ولكي نستطيع أن نقدم نظريتنا في ذلك علينا أن نحلل أولاً المقومات البنيوية للجانبين كما هي الآن وليس كما كانت عليه في مرحلة سابقة من مراحل التاريخ وبذلك نستطيع أن نتبين النتائج المترتبة على العلاقة القائمة بين هذه المقومات.

ولأن المقومات البنيوية لحضارة ما لا تقوم إلا على أساس التراكم التاريخي لتلك الحضارة فإننا سنتتبع السياق التاريخي للتطور الحضاري للجانبين وسيكون تركيزنا في ذلك على الجانب الغربي على وجه الخصوص حيث إنه الجانب الأكثر قابلية للتغير، أما الإسلام فبصفته ديناً فإن من طبيعته الثبات ومن ثم فإن من سنتابع مسيرة تطورهم الفكري هم الإسلاميون أنفسهم لأنهم الطرف الأساسي المنوط بالصراع على الجانب الإسلامي كما سنبين فيما بعد.

وبمتابعة مسيرة تطور الحضارة الغربية نجد أن التناقض بين الدين والعقلانية يجد جذوره في الحضارة الإغريقية القديمة التي تعد الحضارة الغربية امتداداً حقيقياً لها، فلم يكن بالديانة

الإغريقية القائمة على الميثيولوجيا البشرية ما يغرى العقول اليونانية - التى تم تطويرها عبر منحنى حضارى كونى اتجه فى ذلك الحين من النيل والرافدين إلى أرض اليونان الفتية - (١) باحترامها والإنصات إليها، فالصورة التى رسمها هوميروس على سبيل المثال لآلهة اليونان تجعلهم ذوى طبيعة محدودة ومدنسة وفى حالة صراع دائم مع البشر الذين يكادون أن يتساووا معهم.

ومن ثم اضطلع الفلاسفة بتوجيه المسار العقلى والإنسانى لتلك الحضارة وكانت الريادة فى ذلك لأرسطو وأبيقور على وجه الخصوص فإذا كان أرسطو قد قام بعزل الإله فى فلسفته فإن أبيقور قد وظَّفه لمصلحته الخاصة فى فلسفته المادية القائمة على اللذة. ومن ناحية أخرى فإن التأثير القوى لأرسطو على الصفوة المفكرة فى اليونان كان يقابله تأثير شامل لأبيقور على مختلف طبقات المجتمع وهو ما يشهد له شعبيته الشديدة فى ذلك العصر واستمرار تأثيرها على امتداد التاريخ.

وقبل هذا وذاك كان الفلاسفة السفسطائيون قد أشاعوا شكوكهم بين الناس فى الله والحق والفضيلة والوجود ذاته، وقد نجم عن هذا الفصام النكد بين الدين والعقل فى الحضارة الإغريقية تميز هذه الحضارة بالمنهج العلمانى فى التفكير والذى مؤداه الاقتصار على العقل البشرى وخبراته فى إدراك الحقائق وتصريف شئون الحياة. وهو الأمر الذى يعنى فى نفس الوقت إقصاء الدين تماماً عن مجالات المعرفة وإدارة شئون العالم.

وقد ورثت الحضارة الرومانية الفكر الإغريقى عن الحضارة اليونانية وورثت عنها أيضًا ذلك الصراع الدائم مع الشرق. وهو فى الحقيقة صراع تقليدى مثله فى ذلك مثل كل الصراعات بين الحضارات القديمة وإنما اتسم هنا بكونه بين غرب وشرق لأن أشهر الحروب اليونانية القديمة حرب طروادة والتى تعود لأكثر من ألف عام قبل الميلاد كانت بين الغرب الأوروبى والشرق الآسيوى. وإذ ما غدت كل الشعوب الأوروبية واقعة تقريباً تحت السيادة اليونانية فإن الطبيعة الجغرافية تجعل من أى صراع مع أوروبا صراعًا بين الشرق والغرب حيث إنه لم يكن يحيط بأوروبا من جهة الغرب حين ذاك سوى المحيط الأطلنطى أو ما كان يسمى ببحر الظلمات. ثم تأكد ذلك بعد الصراع بين الإغريق والفرس ثم الرومان وقرطاجنة (ذات الأصول الفينيقية على السواحل السورية) ثم الروم والفرس ثم الروم والإسلام.

ولقد نشب الصراع بين المسيحية منذ ظهورها وبين العقائد الرومانية القديمة والذى نتج عنه فى النهاية بعد قرون طويلة من الحرب والمساومة مزيج عقائدى مزدوج يتمثل فى

---

(١) وإلى مناطق أخرى بالطبع مثل فارس القديمة.

المسيحية الثالوثية وطقوسها وسلطاتها البابوية وأجهضت الفرق الرافضة لهذا الهجين الثالوثى من المسيحيين الأوائل والذين كان أبرزهم فريق الأيروسيين الذين انضم أتباعهم إلى الإسلام فيما بعد. ومع ذلك فقد منح هذا المزيج الأوروبيين بعداً إيجابياً يتمثل فى الوحدة الروحية الدينية التى شملت القارة جميعاً وفرض عليهم من ناحية أخرى تاريخاً طويلاً من التمرد على لا معقوليته وما اتسم به من استبداد وفساد.

ومثل الإسلام منذ ظهوره الطرف المضاد لأوروبا فى صراعها التقليدى مع الشرق ونجح فى الاستيلاء على ممالكها فى آسيا وأفريقيا بل وانتزاع جانبها الشرقى بعد ذلك. وباءت محاولاتها المتعددة فى استرداد هذه الممالك مرة أخرى فيما سمي بالحروب الصليبية بالفشل الذريع. وقد تسبب كل ذلك فى شعور دائم من المرارة والحقد والكراهية والانتقام ترسب فى الوعى الغربى، ووجد صداه فى تلك الصورة الشائهة عن الإسلام وعقائده وأهله لدى الغربيين بوجه عام.

ومع ذلك فقد أمد الإسلام بعقلانيته الفريدة وعقيدته البسيطة الخالية من الكهنوت - والتى تدور حول مبدأ التوحيد - العقول الغربية المفكرة بروح العقلانية والحرية والتمرد وساعد ذلك على انطلاق خطواتها الأولى فى اتجاه التقدم العلمى والتحرر السياسى والنقد العقلى لعقائد الكنيسة فى نهاية العصور الوسطى وقد تمت مواجهة ذلك بأقصى درجات البطش والتنكيل الأمر الذى فجر الثورات المتتالية على الكنيسة مع بداية عصر النهضة وما صاحب ذلك من مواصلة التقدم العلمى وظهور المنهج التجريبى فى أوربا.

وقد تمثل ذلك فى اتجاهات ثلاث تعكس نشاطات القائمين عليها. اتجاه إنسانى جسده الأدباء والفنانون، واتجاه دينى جسده زعماء حركة الإصلاح، واتجاه عقلى جسده العلماء والمفكرون بالإضافة إلى اتجاه رابع يتم تجاهله على الدوام وهو اتجاه الموحدين الغربيين الذين انضم بعضهم إلى الإسلام بالفعل.

ونجحت حركة الإصلاح الدينى بزعامة مارتن لوثر وكالفن فى التقليص من سلطات الكنيسة وإرغام البابوات على تقويم سلوكهم والتخفيف من طقوس كهنوتهم - خصوصًا عند الكالفينية - ولكنها احتفظت مع ذلك بنفس العقائد المسيحية الثالوثية وأضافت إليها أيضًا بعداً جبرياً يكرس وعياً اصطفائياً لأتباعها وإقصائياً للآخرين، ويناظر الفكر اليهودى فى هذا الاتجاه وذلك من خلال الاعتقاد بأن البروتستانت قوم اختارهم الله للنجاة منذ الأزل وأن غيرهم قوم حكم الله عليهم بالجحيم منذ الأزل، وهذا ما يفسر تقارب أتباع المؤسسين الأوائل لأمريكا من المتطهرين البروتستانت البيورتانيين مع اليهود على وجه الخصوص.

وفى ظل اضطهاد الكنيسة المستمر للعلماء والمفكرين فى عصر النهضة اتخذت الحركة العقلية فى أوروبا منحى متطرفاً اتجه بها إلى الإلحاد التام وليس مجرد التمرد على الجمود الكنسى واضطهاد البابوات وذلك لأن هذا الاضطهاد المستمر للعلماء والمفكرين قرن التحرر العقلى عند هؤلاء باتخاذ الجانب المناوئ للدين عموماً والمتمثل فى الإلحاد، وبات مستقراً فى الضمير الغربى منذ ذلك الحين تناقض الفكر والعلم مع الأديان عموماً وهكذا ورَّثت المسيحية الثالوثية الغربية عداء العلماء والمفكرين لها إلى الإسلام نفسه.

وبذلك تمت استعادة الفكر الإغريقى العلمانى من جديد فى عصر النهضة خصوصاً فى جانبه المادى الإلحادى (ديمقريطس - أبيقور) الذى وجد صداه بعد ذلك فى كتابات رواد المذهب المادى فى عصر التنوير (القرنان السابع عشر والثامن عشر) (هوبز - لوك - هيوم) وانتشر وذاع من خلال ديدرو وفولتير ودالمبير. وبانتشار الفكر التنويرى فى أمريكا بعد الغزو البيورتانى لها بثلاثة قرون تمت بلورة الصيغة الأمريكية للفكر العلمانى الاستنارى الغربى والمتمثلة فى الفلسفة البراجماتية بحل تناقضات التيارين الرئيسيين للفلسفة الغربية (المثالى والمادى) وذلك ارتكازاً على السوفسطائية والأبيقورية، من خلال محورة الكون حول المنفعة واللذة وجعلها المحك الرئيسى للحكم على الحقائق وهو الأمر الذى يضمر داخله موقفاً عبثياً يتم إلهاؤه على الدوام بالسعى المتواصل نحو المتعة واللذة. مما يجعل الكون كله مادة استهلاكية لحياة البراجماتيين وتؤول أعمار كاملة من حياة البشر إلى مجرد لحظات من المتعة لدى هؤلاء.

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ينتقل مركز الثقل الغربى إلى أمريكا ومن ثم قيادة الفكر البراجماتى الأمريكى للفكر الغربى بوجه عام وتحول الغرب التقليدى إلى الغرب الأمريكى وهو الأمر الذى تم تعميمه على العالم كله بسقوط الاتحاد السوفيتى حيث غدت الأمركة نظاماً عالمياً جديداً لا يجد مارقاً يتحداه سوى الإسلام.

ولأن البراجماتية تعنى إحلال المصالح الخاصة محل المبادئ والقيم فإنها صنعت بذلك مجتمع النخب العالمية الذى يعنى تحالف النخب المسيطرة سياسياً واقتصادياً على شعوب العالم وتغدو العولمة الراهنة تبشيراً زائفاً بتعميم نموذج الاستهلاك الغربى لدى شعوب العالم الفقيرة، ولما كانت موارد العالم أجمع لا تكفى لتلبية تعميم ذلك النموذج فإن لهاث تلك الشعوب وراء تحقيق ذلك النموذج الاستهلاكى يؤول فى النهاية إلى طاقة دفع لتغذية النخب البراجماتية المسيطرة على العالم.

وهو الأمر الذى يعنى أن النخب السلطوية فى الغرب الأمريكى تعمل على مساندة الأنظمة

المستبدة والفاسدة الحاكمة للشعوب المستضعفة فى العالم وتمارس ضغوطها من خلال الجات والبنك الدولى وصندوق النقد فى فرض سياسات لا تفعل شيئاً سوى فتح الباب لازدياد غنى الأغنياء وازدياد فقر الفقراء الأمر الذى يصنع القناعة لدى شعوب العالم الثالث وفى مقدمتها شعوب العالم الإسلامى أن الغرب مسئول عن قهرهم السياسى ومعاناتهم الاقتصادية.

ولأن الإسلام فى ذاته يمثل أيديولوجية استنهاضية للفقراء والمستضعفين فى الأرض فإن تلك الممارسات الغربية تدفع الأمور فى اتجاه الصدام الحتمى.

ومن ناحية أخرى فقد بدا يتكشف للعالم الإسلامى نتيجة لتبنى الغرب الأمريكى الدائم للكيان الصهيونى المغتصب للمقدسات الإسلامية فى القدس وفلسطين أن دور الغرب الأمريكى فى هذا الصراع هو دور مباشر وأن العلاقة التى تربطه بهذا الكيان ليست علاقة انحياز أو مساندة أو دعم كما هو رائج فى الأجهزة الإعلامية العربية نفسها ولا حتى علاقة تحالف وإنما هى علاقة عضوية ينوب فيها هذا الكيان عن الغرب الأمريكى فى تحقيق مصالحه فى المنطقة وكسر أنف العالم الإسلامى الذى طالما تطاول على الغرب فى العصور الماضية وأن الصهيونية الإسرائيلية ما هى إلا توظيف براجماتى للأساطير اليهودية القديمة بهدف الإحلال المادى الغربى فى ا لمنطقة وإكسابه الشرعية الدائمة. ويتكشف لمفكريه أيضاً أن الدور الرهيب المزعوم للوبى اليهودى فى الغرب الأمريكى يقتصر فى النهاية على تذكيره بما يؤديه الكيان الصهيونى من إنابة له فى تحقيق أهدافه ومن الطبيعى أن يكون كل ذلك دافعاً للعالم الإسلامى إلى الصدام الحتمى مع الغرب الأمريكى.

و هذا الدافع هو أوضح الدوافع العاملة على الصدام بالنسبة لجماهير العالم الإسلامى على وجه الخصوص ولهذا فهو الدافع الأول للصدام لتلك الجماهير من هذا المنظور.

وفى ظل اطراد سيطرة الغرب الأمريكى على العالم فإن تجسد الإسلام فى نظام اجتماعى شامل يمثل أقصى درجات الإعاقة لتحقيق مصالحه فضلاً عن أن ذلك قد يكون نواة لخطر أكبر وهو خطر نهوض العالم الإسلامى من جديد فى وحدة متكاملة تعبد شبح المخاوف القديمة من الانتصارات الإسلامية على الغرب والتى قد تستعاد فى وجود قوة إسلامية كبرى يكون لها التنافس مع الغرب الأمريكى على قيادة العالم فى أدنى تقدير.

ومن ثم فإن إعاقة قيام الحكم الإسلامى من جانب الغرب الأمريكى تمثل محور النزاع الرئيسى بينه وبين الإسلاميين المتيقظين لوحدة الارتباط العضوى بين الإيمان والحكم فى الإسلام وبالتالى لا يقبلون التنازل عن إيمانهم بأى شكل من الأشكال إرضاءً لهذا الغرب الأمريكى أو رضوخاً له.

وفى ظل استخدام الغرب الأمريكى المتصاعد لآليات القهر فى إعاقة قيام هذا الحكم الإسلامى فإن ذلك يؤدى إلى استقطاب متطرف فى التوجهات الحركية للإسلاميين ذاتهم بين طرفين أحدهما يرضخ للمساومة بل واتخاذ نفس الأساليب البراجماتية فى التفكير والسلوك بينما يتجه الآخر إلى تصعيد الصدام باستخدام نفس أدوات الغرب الأمريكى، بل واستخدام نفس أساليبه غير المشروعة المعادية للإنسانية جمعاء والتى تتجاوز قواعد المنظومة الإسلامية ذاتها فى الصراع والمواجهة، فاتخاذ الغرب الأمريكى القهر كوسيلة لإعاقة الحكم الإسلامى هو حتمية لاتخاذ الإسلاميين وسائل القهر فى سبيل تنفيذه مما يعنى أن هذا الطريق الغربى يمثل إنتاجًا حتميًا للإرهاب والإرهاب المضاد.

وعلى مسار آخر فإنه إذا كانت البراجماتية هى عملية انتقال بارعة من المذهبية الفلسفية إلى التبرير الفلسفى لكل ما هو قائم على أنه هو ما تفرضه الاحتياجات الإنسانية وعلى أنه الوحيد الذى يتلاءم مع افتراضها المسبق لمحدودية قدراتنا المعرفية فإنها فى الوقت نفسه تمثل تعبيراً حقيقيًا عن النسق الفكرى الذى انتهت إليه الحضارة الغربية فى أقصى نموها المادى. والذى يعنيه ذلك أن البراجماتية فلسفة تحايل وتكيف مع الواقع المُعاش. إلا أنه من نفس مضمون العجز الفلسفى الكامن فى الفكر العلمانى فى أقصى تطوره الذى انطلقت منه البراجماتية انطلق اتجاه آخر يزاحم الفكر البراجماتى فى العالم الغربى هو الاتجاه الذى تعبر عنه فلسفة ما بعد الحداثة. وهى فلسفة تعبر عن الاستسلام لما يترتب عن ذلك العجز الفلسفى من انقسام وتشتت وعبث ونسبية مطلقة وفقدان للقيمة والجدوى.

ومن ثم فإننا نكون أمام موقفين إدراكيين لبلوغ النسق الفلسفى الغربى العلمانى مرحلة العجز الكامل عن الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنسانى بعد إجهاده تمامًا عبر مسيرة تطوره الحضارى: الأول موقف تحايلى يقدم الإلهاء الحسى المتواصل بديلاً عن البحث الفلسفى، وبذلك يتم تكريس الوعى الغربى فى اللهاث وراء رغبات تتجدد على الدوام ولا يمكن تلبيتها أبداً وذلك هو الموقف البراجماتى.

وموقف جاد صريح مع النفس يعترف بذلك العجز ويسلم به بما يحمله ذلك من تشرذم وتشظى ولا جدوى وانهيار وذلك هو الموقف الما بعد حداثى. والموقف الأخير هو الموقف الأقرب من جدية العلماء والفلاسفة والعقول المفكرة الغربية على وجه العموم.

وهذا يعنى أنه مع الافتراض الطبيعى بوجود قلقين فى هذا الموقف المابعد حداثى فإن ذلك يدفعهم إلى البحث عن الحقيقة فى نسق آخر غير النسق العلمانى. وإذ كان النسق الإسلامى هو النسق الوحيد المنافس للنسق العلمانى فإن الموقف الما بعد حداثى بما يمثله من نقطة نهاية للنسق

العلمانى قد يكون هو المعبر الذى تنتقل من خلاله العقول الغربية المفكرة إلى النسق الإسلامى.

وليس شرطًا أن تصل هذه العقول تمامًا إلى الموقف الما بعد حداثى حتى تنتقل إلى الإسلام ولكن المهم أن العقول الغربية الجادة ستجد فى هذا الموقف الما بعد حداثى حائط الصد الأخير الذى يؤدى الارتطام به إلى الارتداد عن النسق العلمانى الغربى بكامله والبحث عن بديل فكرى آخر فى غير هذا النسق. وهو ما يدفع تلك العقول إلى التماس هذا البديل الآخر فى الإسلام لكونه هو النسق الوحيد الذى يجمع ما بين العقلانية والروحانية فى نفس الوقت. وهذا هو ما يحدث فى الحقيقة بالفعل حيث يتقدم الإسلام كعقيدة تقدمًا رهيبًا فى الغرب مجتذبًا فى ذلك على وجه الخصوص عقوله المفكرة من العلماء والمفكرين والفلاسفة حتى ذهب أحد هؤلاء إلى القول بأن الإيمان بالإسلام هو الطريق الطبيعى للمفكر الأوروبى، وبذلك فإن الإسلام كعقيدة بحتة يمثل خطراً أيديولوجيًا على الهوية الغربية نفسها وهو الأمر الذى يمثل دافعًا من دوافع الصدام من المنظور الغربى.

وبذلك نستطيع القول إن الصدام بين الإسلام والغرب الأمريكى هو صدام حتمى، طالما استمرت دوافعه التى نحددها من جهة الإسلاميين فى إعاقة الغرب الأمريكى لقيام الحكم الإسلامى وتبنيه للكيان الصهيونى المغتصب للأراضى الإسلامية المقدسة فى القدس وفلسطين، والنهب الاقتصادى المنظم لموارد المستضعفين فى الأرض وفى مقدمتهم شعوب الدول الإسلامية من خلال فرض ومساندة الأنظمة الفاسدة والمستبدة على وجه الخصوص وما ينتج عن ذلك من مظالم ومآسٍ، والاعتقاد الخاطئ بأن هذا الغرب القائم يمثل امتداداً عقائدياً للغرب الصليبى القديم.

أما دوافع الصدام من جهة الغرب الأمريكى فهى خطر قيام الحكم الإسلامى، والخطر الإيديولوجى الذى يمثله الإسلام على الغرب، والتهديد الإسلامى لإسرائيل، والرغبة الدفينة فى الانتقام من الإسلام الذى مازال يسيطر على ممتلكات العالم الغربى القديم، أى أنه مازال منتصراً على الحضارة الغربية فى هذا الجزء من العالم.

وإن كانت هذه الدوافع جميعًا - بحسب ما نرى - ما هى إلا تجليات الصراع الكونى بين الرؤية الإسلامية للوجود والرؤية المادية البراجماتية له حيث إن كل منهما يعوق الآخر فى اتساقه الكونى مع رؤيته الخاصة فلن تكون هناك إمكانية للحوار بين الطرفين إلا بالتخفيف من حدة الدوافع المؤدية للصدام أو زوال بعضها على أقصى تقدير لأن زوالها جميعًا يمثل استحالة فلسفية وتاريخية ويتناقض من المنظور الإسلامى مع سُنة الله فى الكون.

وقد يكون ذلك بتخلى الغرب الأمريكى عن وسائل القهر فى سعيه لإعاقة الحكم

الإسلامي والانفصال عن الكيان الصهيوني في صراعه مع العالم الإسلامي والاكتفاء بقدر أقل من نهب موارد العالم والتوقف عن المساندة العسكرية على الأقل للأنظمة المستبدة والفاسدة المسيطرة على دول العالم الفقيرة. وأن يتوقف الإسلاميون من جهتهم عن النظر إلى الغرب من منظور الإرث التاريخي على أنه العدو الصليبي الحتمي وأن الصراع بينهم وبينه صراع ديني إسلامي مسيحي، وأن يعوا طبيعة الاستخدام الذرائعي للمسيحية من جانب النخب البراجماتية في الصراع، وأن يقروا في نفس الوقت بالإنجازات الحضارية والإنسانية للعقلانية الغربية على الرغم من تناقضهم مع توجهها العلماني واعين للدور الإسلامي التاريخي في تلك الإنجازات ومن ثم تفهم عدم حتمية رفض تمثلها إسلامياً بكل عناصرها وأنها في الغالب الأعم قابلة للفك والتركيب وأخذ ما يوافق منظومتنا الإسلامية واستبعاد الآخر وأن المسألة لا تتعلق بالمصطلحات وإنما في المعاني التي تقف وراءها، واستيعاب أن ما تقدمه تطبيقات الغرب العملية لإنجازاته الحضارية في المجال الإنساني في بلاده من تهيئة الفرصة للدعوة الإسلامية هو أكبر مما تسمح به أنظمة أغلب الدول الإسلامية ذاتها على الرغم مما يشوب هذه التطبيقات من قصور وتناقض مع قواعدها النظرية، وهو الأمر الذي يسقط وجوب الصدام مع الغرب انطلاقاً من إعاقة الدعوة إلى الله في بلاده.

ومع ذلك فإن ما يبدو في الأفق بالنسبة للرؤية المستقبلية هو استمرار تصاعد استخدام الغرب الأمريكي لأساليب القهر في معاداته للإسلاميين اعتماداً على القوة.

وتنامي الاقتناع بمسئولية الشعوب الغربية عما يفعله قادتها من مآسٍ وبشاعات في بلاد المسلمين، ومن ثم تأكد وجوب استخدام كل الوسائل المتاحة في معاداة الغربيين كافة حكومات وشعوباً لدى فريق هام من الإسلاميين لا يُشترط انتماؤه إلى تيار محدد، ومن ثم مواجهة العالم لنوبات مستمرة من الفعل والفعل المضاد تعرض مستقبل البشرية كله للخطر.

ولأن بروز التمايز هو ناتج مواجهة المخاطر فإنه سيتنامي أيضاً من الفريقين بين هول هذه المخاطر نفسها الرؤى الجادة التي تتوجه أبصارها إلى ما يمكن أن يؤول إليه المصير الإنساني مباشرة ومن ثم الدفاع المشترك عن الصالح العام لمستقبل البشرية جمعاء والقتال ضد كل وسائل القهر حتى يمكن الحوار والتفاهم والتعايش المشترك. لكن العالم سيدفع ثمناً باهظاً حتى يصل إلى الاستقرار عند ذلك الصالح العام.

٣

المقومات البنيوية للحضارة الغربية

تمهيد:

الرأى السائد لدى الباحثين أن المقومات البنيوية للحضارة الغربية هى الحضارة الإغريقية والديانتان اليهودية والمسيحية ونحن نرى فى هذا الرأى تعميماً لا يكشف طبيعة ومدى العوامل الفاعلة فى توجهات تلك الحضارة ويفترض كونها كياناً ثابتاً لا يعتريه التبدل والتحول ومن ثم سوف نمضى عبر هذه الصفحات نستكشف مقومات هذه الحضارة منذ بدايتها الأولى فى التاريخ وعلى امتداد مراحل تطورها وحتى الآن مبرزين تباين الآثار الفاعلة لتلك المقومات المختلفة فى كل مرحلة من مراحل تطور هذه الحضارة.

الحضارة اليونانية

أولاً: حضارة بحر إيجا :

يذكر المؤرخون عادة أنه بينما كانت هناك حضارة مستقرة فى كل من وادى النيل بمصر وما بين النهرين فى العراق منذ حوالى أربعة آلاف عام قبل الميلاد كانت باقي أودية الأرض تعيش فى حالة بدائية لا ترتقي لمستوى الحضارة وهذا القول ينطبق بالذات على الحضارة فى أوربا حيث تلت الهند والصين المنطقتين المذكورتين ومضت آلاف السنين حتى بدأت تتبلور حضارات حقيقية فى أوروبا[1] .

أما البواكير الأولى للحضارة وإن تكن المعلومات عنها مازالت غامضة للغاية فلم تظهر فى أوربا تحديداً ولكن فى جزيرة كريت وتلك هى حضارة بحر إيجا .

ولكى نتحدث عن حضارة بحر إيجا «علينا أن نذكر أننا نقدم بهذا العمل على مغامرة تاريخية لا تؤمن مغبتها وللخيال فيها شأن كبير لأنه هو المصدر الذى نستمد منه الصلات الحية التى تسد الثغرات وتربط المادة العلمية الضئيلة المشتتة التى يحركها المؤرخون حركة اصطناعية بعد أن ماتت منذ زمن طويل»[2] .

وأغلب ظن المؤرخين أن هذه الحضارة استمدت مقوماتها من الحضارة المصرية وأن هناك أبنية ضخمة تعبر عن عظمة هذه الحضارة أهمها قصر مينيوس الذى يظن أنه أقيم قبل ألفى سنة من الميلاد ثم أعيد بناؤه فى القرن السابع عشر قبل الميلاد . وأن الإلهة الأم للكريتيين تظهر فى بعض الأحيان وهى تضم بين ذراعيها طفلاً قدسياً هو فلكانوس وهى الصورة التى تعكس إلهة المصريين إيزيس وابنها حورس فى جزيرة كريت ، وفى فن الخزف والتصوير نجد بين مصر وكريت «تشابهاً جعل اشبنجلر يعتقد أن الحضارة الكريتية ليست إلا فرعاً عن الحضارة المصرية»[3] .

---

(١) راجع هـ . ج . ويلز ، موجز تاريخ العالم : الفصل الأول، ول ديورانت ، قصة الحضارة : مج ١ ج ٢ ص٩ ، ١٠ ، بريتراندرسل . حكمة الغرب : ج ١ ص ٢٢ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : مج ٣ ج ٢ ص ٢٠

(٣) المرجع السابق : ص ٤٣ .

وما يهمنا هنا هو الحياة العقلية لهذه الحضارة فنجد الآلهة اليونانية (وتلك الصلة الأساسية بين أوربا وتلك الحضارة) كانت تعيش بحسب الأساطير الإغريقية على الأرض الكريتية. فالملك مينوس الذى كان يعيش فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد حين أغضب بوسيدون إله الإغريق الرهيب سلط على زوجته ثوراً مقدساً (الميناثور) حملت منه. ثم لا يجد المؤرخون حديثاً عن هذه الحضارة التى تختفى بعد مينوس فينتقل حديثهم بعد ذلك إلى طروادة التى تقع فى الطرف الشمالى الغربى من آسيا الصغرى. ويعتبر اليونان المتأخرون «أن طروادة مدينة آسيوية وأن حاضرها الذائع الصيت هو أول الأحداث المعروفة من النزاع بين الساميين والآريين، وبين الشرق والغرب.

وفى مواجهة هؤلاء الطرواديين يظهر اليونان الآخيون الذين يبرزون على السطح منذ النصف الثانى من القرن الرابع عشرقبل الميلاد. وكانوا يسكنون جنوب تساليا وغدوا زعماء اليونان فى ذلك الوقت. أما بقية بلاد اليونان فبحسب الأساطيرفإن «زيوس غضب على الجنس البشرى لما كان يقترفه من مظالم فسلط عليه طوفاناً جائحاً لم ينج منه إلا رجل واحد هو ديوكاليون وزوجته بيرا فى فلك أو صندوق استقر على جبل بارنسس»[١].

وتناسلت من هلن بن ديوكاليون جميع القبائل اليونانية واشتق من اسمه اسم هذه القبائل مجتمعة. وكان هلن جد أخيوس وأيون اللذين تناسلت منهما القبائل الآخية والأيونية»[٢].

وأنشأ مدينة أثينة أحد أحفاد القبائل الأيونية فى أواخر القرن الرابع عشر. وفى نفس الزمن تقريباً قامت فى شمال أثينا حاضرة أخرى هى طيبة التى يقال إن كادموس أحد أمراء المصريين هو الذى أقامها.

ويظل تاريخ هذه البلاد هو تاريخ الأساطير، فمن بين أشراف طيبة كان رجل يسمى أمفتريون متزوجًا من امرأة فاتنة تدعى ألكمين وزارها زيوس (إله اليونان الأكبر) وزوجها غائب فى حرب من الحروب واستولدها البطل اليونانى هرقل (الذى سيصبح فيما بعد إله اليونان الشهير). ثم يدخل هرقل فى صراع مع الإلهة هيرا التى أثار حنقها مافعله الإله زيوس فأرادت الانتقام من ولده، فتسلط عليه هيرا نوبة من الجنون فيقتل أبناءه على غير علم منه فيذهب إلى مهبط الوحى فى دلفى فيشار عليه أن يخدم ملك آرجوس اثنى عشر عاماً يصبح بعدها مخلداً.

ويصف ديورانت حياة اليونانيين الآخيين فى هذه البدايات الأولى لحضارتهم فيقول:

---

(١) يذكر المؤرخون أن قصة نوح يكاد يوجد مثيل لها فى كل تواريخ الشعوب.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة: مج ج٢ ص ٧٩.

«كانت الحياة في نظر الرجل الآخى قليلة القيمة لا يعد سلبها من الأمور الخطيرة ، وكانت لحظة من السرور كفيلة بردها إلى من قضى عليه بفقدها وإذا ما غلبت مدينة على أمرها قتل رجالها أو بيعوا بيع الرقيق ، واتخذت النساء خليلات إن كن حساناً ، أو رفيقات إن لم يكنّ كذلك .

وكانت القرصنة من المهن المحترمة وكان الملوك أنفسهم ينظمون حملات مغيرة تنهب المدن والقرى وتتخذ أهلها عبيداً ... وملاك القول أنه لم تكن ثمة مدينة من المدن آمنة من هجوم القراصنة المفاجئ عليها دون أن تعمل من جانبها ما يستفزهم أو يبرر هجومهم . ويتصف الآخيون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير ، يتصفون فضلاً عن هذا بالكذب والخداع دون حياء ... ولسنا ننكر أن غير أديسيوس (بطل الأوديسة الشهير) من الآخيين لا يضارعونه في الغدر والخيانة ولكنهم لا يمتنعون عن ذلك لأنهم لا يريدون أن يغدروا أو يخونوا ، بل هم يحسدون أديسوس ويعجبون له ويرونه أنموذجًا للخلق الطيب والشاعر الذى يصوره يعده بطلاً من كل الوجوه»[١] .

وننتقل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد مع حرب طروادة التي يحددها المؤرخون ما بين ١١٩٩ و١١٩٤ ق . م وليست المسألة في دافع من وراء هذه الحرب هو اختطاف باريس لهلن كما تقول الأساطير الإغريقية فكما يقول هيرودت : هل من الناس من يصدق أن الطرواديين يحاربون عشر سنين من أجل امرأة واحدة ؟.

وإن كنا من جانبنا نرى أن التاريخ قد قال لنا إن ذلك أو مثله قد حدث كثيراً فإن ديورانت يذهب إلى أن «الذى لا شك فيه أن حقيقة أمرها وجوهرها لم تكن إلا نزاعًا بين طائفتين تتنازعان السيطرة على مضيق الهسبنت والأراضي الغنية المحيطة بالبحر الأسود ، وكانت بلاد اليونان بأجمعها وغرب آسيا على بكرة أبيها ترى أنها نزاع حاسم واحتشدت أمم اليونان لمساعدة أجممنون ، كما أرسلت شعوب آسيا الصغرى العون بعد العون لطروادة»[٢] .

والمهم في هذه الحرب أن الآلهة الإغريقية جميعًا ـ بحسب كلام هوميروس[٣] الذى يبدو أن المؤرخين لا يملكون غيره عن تفاصيل هذه الحرب - كانوا يشتركون فيها : زيوس وهرقل ومارس وبوسيديون وهيرا وأثينا . وتلك الأخيرة كانت لها مع أديسوس بطل الأوديسة قصة تطول .

---

(١) قصة الحضارة : مج ٣ ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٦ .

(٣) راجع الإلياذة والأوديسة وهما الملحمتان اللتان يتحدث فيهما هوميروس عن أحداث هذه الحرب والأولى تتحدث عن مرحلة الهجوم والثانية تتحدث عن مرحلة العودة .

ثم تنتهى هذه الحرب الأسطورية بهجوم قبائل الدوريين الهمجية وتدميرها لبلاد اليونان حوالى عام ١١٠٤ قبل الميلاد .

ويعود بزوغ الحضارة فى المدن اليونانية مثل اسبارطة وأثينا وكورنثه فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد بظهور الملوك الأقوياء وإصدارهم الشرائع الحاكمة وأهمها شرائع صولون عام ٥٩٤ ق . م التى تعد أهم الشرائع فى تاريخ أثينا والتى حاول فيها أن يصنع نوعًا من التوازن بين الأغنياء والفقراء فى المدينة ولابد أن نذكر هنا أنه قد «كان معظم اليونانيين يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من مصر . وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال كادموس ودانوس جاءوا مصر أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينقية وكريت وقد انتعشت التجارة المصرية وبعث الفن المصرى من جديد فى عهد الملوك الساويين (٦٦٣ - ٥٢٥) ق . م وفتحت الثغور الواقعة على نهر النيل لتستقبل التجارة اليونانية لأول مرة فى التاريخ . وزار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين أمثال طاليس وفيثاغورس وصولون وأفلاطون وديمقريطس فأعجبوا أشد الإعجاب بعظيم حضارتها وقدمها»[١] .

ثانيا : مسيرة الفلاسفة الإغريق

وفى ميلتس إحدى المدن الإثنى عشر للشريط الساحلى المسمى فى العالم القديم بأيونيا كان يتلاقى فى هذه المدينة التجارية رجال جاءوا من مائة دولة متفرقة وكانوا ذوى نشاط عقلى بعثه فيهم التنافس التجارى حيث تتلاقى الآراء والعادات والعقائد المتباينة وينشأ من اختلافها احتكاك يؤدى إلى التنازع ومن ثم إلى المفاضلة فالتفكير ، فتمحو الخرافات بعضها بعضاً ويبدأ التفكير المنطقى السليم خصوصًا أن هؤلاء الرجال يكونون قد تحرروا من أسر التقاليد لطول غيابهم عن أوطانهم وهياكلهم ومذابح آلهتهم «وكان أهل ميلتس أنفسهم يسافرون إلى المدن البعيدة حيث تفتحت عيونهم على حضارة ليديا وبابل وفينيقية ومصر ، وبهذه الطريقة وغيرها من الطرق دخل علم الهندسة المصرية وعلم الفلك البابلى العقل اليونانى»[٢] .

طاليس

وأول العلماء والفلاسفة الذين يذكرهم التاريخ اليونانى هو طاليس الملتيسى الذى ولد

---

(١) ول ديورانت . قصة الحضارة : مج ٣ ج ٢ ص ١٢٩ : ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

حوالى ٦٤٠ ق . م والثابت أنه تلقى معظم تعليمه فى مصر ونقل عنها العلوم الهندسية وكان يذهب إلى «أن مبدأ الأشياء جميعًا يعود إلى الماء» [١] . ومن أهم مقولاته الفلسفية قوله : إن أصعب الأشياء أن تعرف نفسك . وبدأ من بعده عصر ازدهار العلوم الطبيعية والفلسفية فى اليونان .

هرقليطس

ومن أهم الفلاسفة الأيونيين الفيلسوف هرقليطس (٥٣٦ - ٤٧٠) لما كان له من تأثير على امتداد تاريخ الحضارة الغربية وكان من أهم أفكاره «فكرة الصيرورة الدائمة حيث يقول : «أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين فإن مياهًا جديدة تجرى من حولك أبداً» [٢] . وبهذا المعنى «أنكر هرقليطس أى ثبات أو خلود وأكد أن الكون متغير متحول دائمًا فلا شىء يدوم على حال معين لحظتين متتابعتين فالصيرورة أو التغير الدائم هو الحقيقة الواحدة» [٣] .

وذهب هرقليطس إلى أن أصل الكون هو النار (المبدأ الواحد) والكون موجود منذ الأزل لم يخلقه إله أو بشر إنما نشأ بذاته فكل شىء يخرج من النار وإلى النار يعود «وكما أن الروح لسان عابر من لهب الحياة المتغير إلى أبد الدهر فكذلك الله هو النار الخالدة الأبدية ، هو طاقة العالم التى لا تفنى أبدًا» [٤] .

وأخطر أفكاره هى «وحدة الأضداد واعتماد المتناقضات بعضها على بعض وائتلاف النزاع» فكما يقول : «الله هو الليل والنهار والشتاء والصيف والحرب والسلم والتضحية والجوع» ويقول أيضًا : «الخير والشر واحد» وكذلك «الحياة والموت شىء واحد وكذلك اليقظة والنوم والشباب والشيخوخة لأن الأضداد كلها مراحل فى حركة متقلبة» [٥] .

أما أهم آرائه الفلسفية فهو موقفه من الديمقراطية فهو يرى «أن الديمقراطية نظام خاطئ ومن أقواله فى هذا المعنى أن الفاسدين كثيرون والصالحين قلائل» و«عندى أن رجلاً واحداً خير من عشرة آلاف إذا كان هو أحسنهم» [٦] .

ويتحدث ول ديورانت عن أثر هذه الفلسفة فى الفلسفة الحديثة فيقول : «وقد مهدت هذه

---

(١) بريتراندراسل . حكمة الغرب : ج ١ ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٣) د . عبد الوهاب المسيرى - موسوعة العلمانية (كتاب لم ينشر) .

(٤) ول ديورانت . قصة الحضارة : مج ٣ ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٥) المرجع السابق : ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٦) المرجع السابق : ص٢٦٣ .

الفلسفة إلى حد ما لفكرة القانون الطبيعي فى الفلسفة الحديثة ... وانتعشت وحدة الأضداد انتعاشًا قويًا فى فلسفة هيجل واستردت فكرة التغير فى فلسفة برجسون ما كان لها من قوة»[١].

ديمقريطس

أما زعيم المذهب المادى فهو الفيلسوف ديمقريطس (٤٧٠ - ٣٦١ ق . م) الذى يقال إنه طاف فى بلاد الشرق وأبدع فى العديد من العلوم والفنون من الطب إلى الطبيعة إلى الفلسفة وهو بالرغم من اعتماده على الحواس إلا أنه يرى أن الصفات الثانوية التى نضيفها على الأشياء مثل اللون والرائحة والطعم كائنة فينا نحن أو فى عملية الإدراك نفسها وليس فى تلك الأشياء الموضوعية فبغير الآذان لا يكون لماء النهر هديراً .

ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ، أما المعرفة العامة فلا سبيل إليها بالبحث والتفكير والعالم كله يتكون من جواهر فردية تختلف فى شكلها وحجمها ووزنها وينتج عن اتحاد هذه الجواهر التى تسيطر عليها الضرورة مختلف الأشياء التى نعرفها «وكل شيء فى حالة امتداد وحركة فحسب ولم يستثن النفس الإنسانية من ذلك بل ولم يستثن الآلهة»[٢]. «بيد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التى تتكون منها النفس هى أكثر أجزاء الجسم نبلاً وأعظمها إثارة للدهشة والرجل العاقل ينمى فكره ويحرر نفسه من الانفعالات والخرافات والمخاوف»[٣].

وعلى الرغم من فلسفة الرجل المادية الواضحة فقد كان لابد له أن يكسوها - كما هو يحدث عادة لدى الفلاسفة الماديين - غطاءً أخلاقياً بل وروحيًا أحيانًا فيذهب ديمقريطس إلى أن اللذائذ المادية لا تشبع صاحبها إلا زمنًا قصيراً لكن الإنسان ينال سروراً أدوم إذا حصل على سلام النفس وصفائها.

وهكذا يفعل - بحسب ما يرى ديورانت - ما فعله من بعده الضالون فى إنجلترا فى عصر الملكة فيكتوريا فيقيم على ميتافيزيقاه الشائنة صرحًا من المبادئ الخلقية الخلابة الظاهر[٤].

وما نستطيع قوله هو أن فلسفة ديمقريطس أثرت تأثيراً واضحًا فى كل الفلسفات المادية التى تلتها ومن ثم فإن هذا التأثير امتد إلى الفلسفة الغربية الحديثة التى اصطبغت به بوجه عام.

---

(١) المرجع السابق : ص٢٦٩.

(٢) د . عبد الوهاب المسيرى - موسوعة العلمانية (مرجع سابق) .

(٣) ول ديورانت - قصة الحضارة : مج ٤ ج ١ ص ٢٠٣ .

(٤) المرجع السابق : ص ٢٠٤ .

ثالثاً: السوفسطائيون

إذا تحدثنا عن السوفسطائيين فكأننا ندخل مباشرة إلى مفاهيم الفكر الغربى المعاصر، فإذا كان الاتجاهان الأساسيان المسيطران على هذا الفكر من وجهة نظرنا هما الفكر البراجماتى والفكر المابعد حداثى فإن جانباً كبيراً من الأسس الفلسفية لهذين الفكرين يجد جذوره فى فكر السوفسطائيين .

فهؤلاء «قد أنكروا الحق والباطل والخير والشر والعدل والظلم وسخروا قدرتهم الجدلية فى إثبات الشىء ونقيضه على السواء وإيراد الحجج الخلابة فى مختلف المسائل والمواقف فلا يوجد شىء هو واحد فى ذاته وبذاته ولا يوجد شىء يمكن أن يسمى أو يوصف بالضبط ... لأن كل شىء فى تحول مستمر»[1] .

وليس هناك ما يسمى حقاً إلا فى وقت معين وظروف معينة وعلى هذا فإن رأى كل إنسان صحيح بالنسبة إليه ولا يمكن البت بين الناس على أساس الحقيقة «فلا عجب إذن أن نجد السوفسطائى تراسيماخوس يعرّف العدالة بأنها مصلحة الأقوى»[2] .

ولقد كان بروتاغوراس (أشهر الفلاسفة السوفسطائيين) معاصراً لديمقريطس وأعظم نفوذاً منه أثناء حياته ولقد أحدثت زيارته لأثينا حماسة بالغة واهتياجاً كبيراً وهذا يكشف عما يمكن أن يكون لمثل هذه الأفكار من أثر على امتداد الحضارة الغربية .

والإحساس لدى بروتاغوراس هو السبيل الوحيد إلى المعرفة ولا توجد حقيقة تعلو على العقل لا يدركها الإحساس والحقيقة المطلقة لا يوجد لها وجود وإن كل ما يوجد هو الحقائق التى يعتنقها بعض الناس فى ظروف خاصة، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة فى اعتقاد أشخاص مختلفين أو فى أزمنة مختلفة، والحقيقة كلها والخير والجمال أمور نسبية وشخصية . والإنسان هو معيار كل شىء (وقد استند على هذه العبارة تحديداً الفيلسوف شيلر فى فلسفته البراجماتية) فهو الذى يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة . ويقول عن الآلهة : «من حيث الآلهة فلست أدرى أهى موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شبهاً وثمة أشياء كثيرة تقف فى سبيل هذه المعرفة فالموضوع غامض وحياتنا الفانية قصيرة الأجل»[3] .

---

(١) يوسف كرم – تاريخ الفلسفة اليونانية : ص ٤٠

(٢) بريتراندرسل – حكمة الغرب : ج ١ ص ٩٢ .

(٣) ول ديورانت – قصة الحضارة : مج ٤ ج ٢ ص ٢١٤ .

وكان من الطبيعي أن ترتاع الحكومة الأثينية لمثل هذه الأفكار[1] (والتي قدمت نفسها بعد ذلك في أطر مغلفة من خلال الفكر الغربي المعاصر) فقررت نفي بروتاغوراس وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته وأحرقت كتبه في السوق العامة وفرّ هو إلى صقلية ولكنه غرق في الطريق .

وواصل غورغياس هذه الثورة التشككية وحاول أن يثبت في كتابه (في الطبيعة) ثلاث قضايا مروعة وهي :

أنه لا وجود لشيء خارج الحواس، وأنه لو وجد شيء خارج الحواس لما أمكن معرفته لأن المعرفة جمعيها تصل إلينا من خلال الحواس . ولو أن شيئًا خارج دائرة الحواس أمكن معرفته فإن معرفته لا يستطاع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس.

ويبدو أن هذا الفيلسوف كان في حياته من أكثر الفلاسفة اتساقًا مع فلسفته لأن ول ديورانت ينقل لنا عن حياته أنه «بعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها [حيث كان الفلاسفة السوفسطائيون يتلقون أغلى الأجور في مقابل تعليم الفلسفة لتلاميذهم] هدته حكمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته»[2] .

أما تراسيماخوس فإنه يعرِّف العدالة بأنها «مصلحة الأقوى»[3] وسوف نجد لهذا الكلام صدى لدى نيتشه بعد ذلك وكان من الطبيعي أن يكون لأفكار السوفسطائيين أثر مدمر للدين والقواعد الأخلاقية في المجتمع اليوناني حيث عجلوا من سير حركة الانحلال ومن انهماك الناس في السعي وراء اللذة وجمع الأموال «وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعة في عصر الاستنارة في فرنسا إذ انقضوا على الماضي الميت انقضاضًا .. فاكتسحوه أمامهم دفعة واحدة»[4] .

وهذا الذي حدث طبيعي جداً لأنه إذا كانت المعرفة والحقيقة نسبية فلا توجد معرفة مشتركة ولا توجد بالتالي قوانين أخلاقية موضوعية يقتنع الناس بوجوب الخضوع لها . وليست هناك عدالة عامة ومن ثم فعلى الإنسان القوى أن يخرج على القانون لو استطاع ذلك والخلاصة «أنهم نجحوا في دفع كل المقومات المادية إلى نتائجها المنطقية العدمية»[5] .

---

(١) انظر نقدنا لمثل هذه الأفكار في ثنايا نقدنا للبراجماتية في الفصل الخاص بها .

(٢) قصة الحضارة : مج ٤ ج١ ص ٢١٥ .

(٣) بريتراندرسل - حكمة الغرب : ج ١ ص ٩٢ .

(٤) ول ديورانت - قصة الحضارة : مج ٤ ج ١ ص ٢٢٠ .

(٥) د . عبد الوهاب المسيرى - موسوعة العلمانية : مرجع سابق

وكان يجب أن نطيل فى شرح هذا المذهب ونتائجه نظراً للتوافق الكبير بينه وبين الأفكار الفلسفية الغربية المعاصرة .

سقراط

القيمة الأساسية لفكر سقراط هو أنه قام بالتصدى للسوفسطائيين وأنه قدم أراءه الفلسفية للبسطاء فى الشوارع معتمداً على توليد الأفكار من الحوار والجدل وبالإضافة إلى ذلك أنه قدم فلسفة أخلاقية فاضلة للمجتمع اليونانى يبدو أنها لم تكن تتناسب معه ولهذا أمروا بإعدامه .

والمشكلة بالنسبة لحياته هى كما يقول بريتراند رسل : «إنه ربما كان الفيلسوف الوحيد الذى يعرف الجميع اسمه على الأقل على أننا لا نعرف عن حياته الكثير»[1]. وبحسب الروايات القائمة فإنه ينقل عن سقراط أنه كان يردد دائماً أنه يتلقى وحياً من الله [2]، وقد اتهم أمام قضاء أثينا بأنه «ينكر آلهة المدينة ويقول بغيرهم ويفسد الشباب»[3].

ولقد رفض سقراط الأديان القائمة والتقاليد المرئية وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعد هذه الأديان إلى حكم العقل وكان يرى أن المعرفة هى أسمى الفضائل والرذيلة جميعها هى الجهل ... والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه والناس لا يفعلون قط ما يعرفونه أنه خطأ، أى مضاد للعقل ضار بهم، وأسمى أنواع الخير السعادة وخير سبيل للوصول إليها هو المعرفة .

وكان يرى أن الديمقراطية سخف وعبث حيث يقول إكسانوفون على لسان سقراط : «من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ فى الناى أو أى صانع على الإطلاق مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا» [4].

ولا يعنى ذلك أن سقراط كان مناصراً للاستبداد فهو يرى أن الاستبداد وسلطات المال لا يقل شرهما عن شر الديمقراطية «والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرستقراطى الذى تقصر فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم والذين يدربون بما تتطلبه من

---

(١) حكمة الغرب : ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) ذهبنا فى كتابنا حقيقة العلمانية إلى أنه على فرض صدق هذا القول عن سقراط وتضارب الروايات الصحيحة عن حياته فإن ذلك قد يؤدى إلى احتمال كون سقراط أحد الأنبياء الذين حرفت رسالتهم وشوهت سيرتهم .

(٣) يوسف كرم – الفلسفة اليونانية : ص٥٥ .

(٤) نقلاً عن ول ديورانت – قصة الحضارة : مج ٤ ج١ ص ٢٣٦ .

الواجبات»[١] .

ويبدو أن الأثر الواضح لفكر سقراط فى الحضارة الغربية هو المساهمة بتنشيط العقل الفلسفى فى طور ازدهار الفلسفة الإغريقية فى القرن الرابع قبل الميلاد والحيلولة دون تدهور الروح العقلانية تحت تأثير الضربات الموجعة للفكر السوفسطائى دون أن يعكس ذلك تبنى الفلاسفة اللاحقين لسقراط لأفكار محددة تعبر عنها فلسفته .

أفلاطون

وعلى هذا الأساس فإن أهم إنجازات سقراط هو أنه قد خلف لنا تلميذه أفلاطون . ويعد أفلاطون المؤسس الأول للفلسفة المثالية ولا يعنى ذلك انعدام بعض ملامح تلك الفلسفة لدى من سبقوه من الفلاسفة .

وقد بلغ أثر أفلاطون فى البنية العقلية والروحية للحضارة الغربية أوجه فى عصر الإيمان المسيحى حيث حدث نوع من التزاوج بين فلسفته وبين الديانة المسيحية عبر الصيغة المتطورة لأفكاره فى الفلسفة الأفلاطونية المحدثة واستمر ذلك إلى مستهل البواكير الفلسفية الأولى عصر النهضة فى القرن الثانى عشر حيث تم الاستعاضة عنه بأرسطو . بيد أنه ظل منذ ذلك العهد وحتى الآن الملهم الأول للفكر الفلسفى المثالى .

ويرفض أفلاطون قول السفسطائيين إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وإن الفرد هو مقياس الأشياء جميعها ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أى إنسان عن العالم مساوياً فى قيمته لما يقوله أى نائم وأى مخبول أو أى فرد .

«والعالم ليس كما يبدو لحواسنا ، فعالم الحس المتغير عالم الكثرة والتنوع فى الأفعال والمواقف والأشخاص عالم لا وجود حقيقى له ومقيد بالزمان والمكان فهو مجرد ظل . والعالم الحسى هو ظل عالم المثل الكاملة والأفكار ، ويمكن رده بأسره إلى هذا المبدأ الواحد ، وهو عالم متجرد من الزمان والمكان غير المرئى ولكنه عالم مفهوم معقول لا يدركه غير العقل توجد فيه الأفكار المثالية المجردة الثابتة المستقلة عن إدراكنا (ويقال لها لوجوس أو الحكمة الإلهية أو عقل الإله)»[٢] .

والله هو المحرك الأول أو روح العالم «يحرك كل شىء وينظمه حسب القوانين والأشكال الأزلية وهى الأفكار التى لا تتبدل ... فالمادة ليست حقيقة أساسية بل هى مجرد مبدأ من

---

(١) ول ديورانت – نفس الصفحة.

(٢) د . عبد الوهاب المسيرى – موسوعة العلمانية : مرجع سابق .

القصور الذاتي وإمكانياته تنتظر أن يعطيها الله الروح، والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الأشياء جميعها .وهي قوة حيوية خالصة مجردة من الجسم وخالدة وقد وجدت قبل الجسم وجاءت معه من حلولها في أجسام سابقة بذكريات كثيرة إذا أيقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة ولنضرب لذلك مثلاً الحقائق الرياضية فهي بأجمعها حقائق فطرية بهذه الطريقة وكل ما يفعله التعليم هو أنه يوقظ ذكريات الأشياء التي عرفتها الروح في خيالاتها الكثيرة الماضية»[1].

ويعزو مؤرخو الفلسفة عداء أفلاطون الشديد للديمقراطية لنشأته الأرستقراطية المتأصلة ولإعجابه الشديد بأحد الملوك، وكان يفضل عليها حكومة من الفلاسفة .

أفلوطين

ولكي نستبين أن نستبين أثر أفلاطون في المسيحية الثالوثية فإننا سنقفز عدة قرون إلى أفلوطين في القرن الثاني الميلادي والذي وجد فيه زعماء المسيحية مثل القديس أوغسطين السند الفلسفي لمعتقداتهم .

فأفلوطين يكاد يعترف متفضلاً بوجود المادة ولكنه يذهب إلى أن «المادة في حد ذاتها هي إمكانية الشكل غير المتشكلة ، وكل تشكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخلية أي النفس . والطبيعة هي مجموع الطاقة أو النفس التي تنتج كلية الأشكال في العالم والحقيقة الدنيا لا تنتج الحقيقة العليا ، أما الكائن الأعلى فهو النفس (يقصد النفس الكلية) فينتج الأدنى أي الصورة المجسدة»[2].

ولكي نفهم ذلك لابد أن نذكر أنه يرى أن كل موجود يصل إلى كماله يلد «فالموجود الكامل دائماً يلد موضوعاً سرمدياً.. يلد موجوداً أدنى منه ولكنه الأعظم بعده . هذا الأعظم بعده هو العقل الكلي الذي هو كلمة الواحد وفعله وصورته»[3] وهذا العقل الكلي يلد النفس الكلية «والنفس الكلية كلمة العقل وفعله كما أن العقل الكلي كلمة الواحد وفعله»[4] والواحد يلد العقل الكلي بكونه يرى باتجاهه إلى ذاته وهذه الرؤية هي العقل الكلي . والعقل الكلي يلد النفس الكلية (التي هي ماهيات الأشياء) بكونه يتأمل جميع

---

(١) ول ديورانت – قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(٢) ول ديورانت – قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص٣٠٣ .

(٣) يوسف كرم ـ الفسلفة اليونانية: ص ٢٩١ .

(٤) المرجع السابق: ٢٩٢ .

الأشياء التي في قدرة الواحد .

فالإله بحسب ما يرى أفلوطين «هو ثالوث من الوحدة والفكر والنفس» [١] .

وهكذا جد القديس أوغسطين في أفلوطين بغيته المقدسة لديه .

أرسطو

ونستطيع القول إن أرسطو تلميذ أفلاطون ظل أحد رواد الفكر الفلسفي في أوروبا حتى اعتناق الدولة الرومانية الرسمي للمسيحية في أوائل القرن الثالث الميلادي ثم انتقلت من بعض تلامذته من فلاسفة المشرق إلى أوروبا مرة أخرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

وقد ارتبط الفكر الفلسفي في عصر النهضة بالثورة على أرسطو تلك الثورة التي اكتملت تماماً في عصر التنوير ، وقد سبق ذلك الثورة عليه في المشرق الإسلامي على يد الغزالي وابن تيمية بقرون طويلة . ومع ذلك فمن الملاحظ أنه لم يكن لفكر أرسطو تأثيراً جماهيرياً في المراحل التي طغت فيها ريادته لدى المفكرين ، فلقد كانت الأبيقورية والرواقية (والتي اصطبغت بالمسيحية بعد ظهورها) أكثر تأثيراً لدى هؤلاء الجماهير .

ويبدو أن تلاميذه من فلاسفة المشرق كان لهم فضل كبير في إعطائه تلك المكانة البارزة في التاريخ الفلسفي .

أما أثر أرسطو في الفكر الفلسفي المعاصر (من حيث القدرة على الفاعلية العملية في توجيه الجماهير) فلا أحتاج إلى جرأة كبيرة إذا قلت إنه لا شيء على الإطلاق .

والإله عند أرسطو «إله ثابت أزلي غير جسمي وهو المحرك الأول وهو لا يتحرك بالضرورة وإلا انقسم إلى جزء محرك وجزء متحرك ، وهو تحقق الصورة الوحيد هو الفكر المحض ، فهو فكر لا يفكر إلا في الفكر وهو كامل تمام الكمال ، فهو هدف المعرفة الأوحد وتتجه إليه الموجودات بأفعالها فهو موضوع تفكيرها وعشقها» [٢] .

ويعجب الإنسان من إمكانية المواءمة التي حدثت بعد ذلك بين إله أرسطو وإله المسيحية الثالوثية . ولكن أهم ما يتميز به أرسطو هو نظرته العلمية إلى الطبيعة واهتمامه بالاستدلال المنطقي وإن كانت النتائج التي توصل إليها في الطبيعة ثبت خطؤها جميعاً على حد قول بريتراندرسل [٣] . وأفكاره في المنطق وجهت إليها ضربات عديدة على يد الغزالي وابن تيمية

---

(١) ول ديورانت – قصة الحضارة : مج ٤ ج ١ ص ٣٠٢ .

(٢) د . عبد الوهاب المسيري – موسوعة العلمانية : مرجع سابق .

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتابنا ابن رشد وفيلم المصير .

ثم على يد ديكارت وفرنسيس بيكون بعد ذلك .

أما موقفه من الديمقراطية فقد كان يرى «أن الحكم يتطلب كفاية خاصة ودراية خاصة وليس في مقدور من يعيش عيشة الصانع البسيط أو الخادم الأجير أن يحصل على التفوق المطلوب .. أى على الخلق الطيب والتدريب وصحة الحكم على الأمور»(١) .

وكان يقسم الناس على أساس كونهم سادة وعبيداً والمرأة مخلوق أدنى من الرجل. ولعل أثره الباقي فى الحضارة الغربية هو نظرته المفرطة في العنصرية. وهو الذى حث تلميذه الإسكندر الأكبر على غزو الشعوب الأخرى وحكمها حتى ولو أدى ذلك إلى إبادتها فقد كان يرى أن «اليونانيين أعلى بطبيعتهم من البرابرة ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون الأجانب عبيداً»(٢) .

أبيقور الموجه الرائد للفكر الغربى القديم والمعاصر

قد يعجب القارئ حين يقرأ لأبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) أن يجد أفكاره متماثلة فى الواقع المعاصر أشد التماثل ولذلك فهو يضطلع بأهمية خاصة جداً مقارنة بجميع الفلاسفة الآخرين على السواء . فإذا كانت بعض ملامح الفكر البراجماتى قد بدت فى أفكار السوفسطائيين فإن أبيقور وليس الأمريكى وليم جيمس يعد هو المؤسس الحقيقى للفكر البراجماتى .

ومنذ اللحظة الأولى كان لأبيقور تأثير رهيب على الجماهير حتى إن أهل إحدى المدن قد جمعوا له مبلغا كبيرا اشتروا به بيتا وحديقة فى أثينا ليتخذ من هذه الدار مدرسة ينشر من خلالها فكره فى عاصمة الفلسفة فى ذاك الحين «وما من شك فى أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره ثيودورس القورينى والذى كان يخطب فى أثينا داعياً إلى الخروج على الدين والأخلاق جهرة وفى صراحة جعلت الجمعية توجه إليه تهمة الإلحاد. وكان درساً لم ينسه أبيقور قط»(٣) .

ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم أو أجناسهم فكان يقبل بين تلاميذه العاهرات والزوجات ، والأرقاء والأحرار «وأضحت العاهر ليونتيوم عشيقته وتلميذته ، ووجدت فيه رفيقاً شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة القانونية المرسومة وولدت منه طفلاً واحداً وبتأثيره ألفت عدة كتب» (٤) . وكان أصدقاؤه «من الكثرة بحيث تضيق بهم مدن بأكملها»(٥) .

---

(١) ول ديورانت - قصة الحضارة : مج ٤ ج ١ ص ٥١١ .

(٢) هـ. ج. ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : مج ١ ج٢ ص ٣٩٦ .

(٣) ول ديورانت - قصة الحضارة : مج ٤ ج ١ ص ٥١١ .

(٤) المرجع السابق : ص١٦٧ :١٦٨ .

(٥) المرجع السابق : ص١٦٨ .

وكان يدعو الناس لتعلم حياة اللذة السهلة وهو يقول : «لا يبطئن الشاب فى التفلسف ولا يكلنَّ الشيخ من التفلسف فإن كل سن ملائمة للعناية بالنفس ، وإن القول بأن ساعة التفلسف لم تحن بعد ، أوانه فات»(١) .

وقد بدأ أبيقور بتقرير المبدأ القائل إن هدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف وخاصة من خوف الآلهة ، وهو يكره الدين لأن الدين فى رأيه يقوم على الجهل ويزيده ويظلم الحياة بما يبثه فى النفس من رهبة جواسيس السماء على حد تعبيره .

وعندما رأى نفور اليونانيين من رأيه فى كون الآلهة ليست هى التى أنشأت العالم وليست هى التى ترشده وتسيره قال لهم : «فإن كان هذا لا يرضيكم فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا فى أن الآلهة بعيدة عنكم بعداً لا تستطيع معه أن تضركم أو تنفعكم ذلك أنها لا تستطيع أن تراقبكم أو أن تحكم على أعمالكم أو أن تقذف بكم إلى الجحيم أما الآلهة الخبيثة أو الشياطين فهى أوهام تعسة تصورها لنا أحلامنا»(٢) .

ويجمع أبيقور فى جملة واحدة الكثير من المسائل التى ناقشها لوك وليبتنز بعده بألفى سنة حين يقول : «إذا لم تأت المعرفة من الحواس فمن أى طريق آخر تأتى إذن ؟ وإذا لم تكن الحواس هى الحكم الأخير فى الحقائق فكيف نجد هذا الحكم فى العقل الذى لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس ؟» (٣) .

ومع هذا فالحواس لا تمدنا بمعلومات دقيقة عن العالم الخارجى فهى لا تمسك إلا بالذرات التى يقذفها لكل جزء من سطحه والتى تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله . والإحساسات عنده صادقة على السواء أما خطأ الإحساس فليس يقع على الإدراك بل فى الحكم الذى يضيفه العقل إلى الإدراك وتناقض الحواس لا يقع بين الإحساسات لأن لكل إحساس مجاله الخاص وإنما هو يقع بين الأحكام التى تضاف إليها .

وعلى رغم أن العقل نفسه هو نوع آخر من المادة عند أبيقور ولكنه يذهب إلى أننا مع هذا علينا أن نقبل ماندركه إدراكاً مباشراً من أننا أحرار فيما نريد وإلا كنا ألاعيب على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها وخير لنا أن نكون عبيداً للآلهة التى يقول بها الخلق على أن نكون عبيداً للأقدار التى يقول بها الفلاسفة (وسيقول وليم جيمس رائد البراجماتية الأمريكية بعد ذلك بأكثر من ألفين ومائتى عام : علينا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله) .

---

(١) يوسف كرم - الفلسفة اليونانية : ص٢١٥ .

(٢) نقلاً عن ول ديورانت : قصة الحضارة : مج ٤ ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

وغاية الحياة هى اللذة ومتى تقرر أن اللذة غاية لزم أن الوسيلة إليها فضيلة وأن العقل والعلم والحكمة تقوم فى تدبير الوسائل وتوجيهها إلى الغاية المنشودة وهى الحياة اللذيذة السعيدة فليس من الحق وصف اللذة بأنها جميلة أوقبيحة شريفة أو خسيسة فإن كل لذة خير وكل وسيلة إلى اللذة خير كذلك.

وبحسب أبيقور «ليس فى الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان وهما : اللذة خير والألم شر، واللذة الجنسية فى ذاتها مشروعة وستجد لها مكانًا فيها غير أنه لما كانت هذه اللذات قد تؤدى إلى عواقب وخيمة فإنها فى حاجة إلى جهاد حصيف فطين لا يستطيعه إلا صاحب الذكاء»[١].

أى أن الأمر فى التعامل مع اللذات المادية لابد أن يعتمد على المكر والحيلة حتى لا يتعرض الباحث عنها للمخاطر .

وأبيقور يستبقى الفضائل المعروفة فى حدود ما يتفق مع المنفعة ويكفل الطمأنينة (وكم هو عزيز لفظ الطمأنينة هذا على وليم جيمس) .فأهمية الشجاعة «ترجع لأنها تجعل الألم فى سبيل اللذة والتسليم بما لا مفر منه ، والصداقة نافعة لذيذة . فالحكيم يتعهدها كوسيلة للسعادة ولكنه يتجنب الحب [موقف متوقع من هذا الشيطان][٢] لأنه مصدر اضطراب للنفس . كذلك لا يتزوج الحكيم فى الأكثر لما يجر الزواج من شواغل متعددة أما العدالة فموضوعها ألا يضر بعضنا بعضًا مخافة رد الفعل وبقول أكثر صدقًا فإن علينا أن نقبل القانون لنحتمى من العدوان لا أكثر فإذا رأينا فى الخروج على القانون منفعة لنا وإذا أمكننا أن نخرج عليه دون أن ينالنا أذى قلنا ذلك ونحن بمأمن من حكم الضمير[٣].

ومع كل ما سبق فهو يميل إلى إحراز اللذة المتعقلة، فهى فى ذاتها فى رأيه أكثر لذة من الاستغراق فى الملذات كما أنها تجعلنا فى مأمن من التعرض للمخاطر أو الوقوع فى الألم «انظر إلى القليل الذى تحتاجه القناعة الحكيمة إنها لا تحتاج إلا إلى الهواء الطلق وأرخص الطعام ومأوى متواضع وفراش وقليل من الكتب وكل شىء طبيعى يسهل الحصول عليه والعديم النفع وحده هو الكثير النفقة»[٤].

لكن هذه اللذة المتعقلة التى يبدو أن أبيقور يقول بها (وهو ما يتسق أكثر مع مذهبه

---

(١) المرجع السابق: ص٢٧١ . .

(٢) دائماً وعلى امتداد صفحات الكتاب ما بين المعكوفين للمؤلف.

(٣) راجع يوسف كرم – الفلسفة اليونانية: ص٢١٩ : ٢٢٢ .

(٤) ول ديورانت – قصة الحضارة: مج٤ ج٢ ص١٧٢.

لتغليف باقي آرائه الأخرى دفعًا للمخاطر) لا يعقل إلا أنها سوف تتحول لدى الأتباع إلى لذة فاجرة، وهذا ما حدث بالفعل فقد مضت عصور كاملة من الحضارتين اليونانية والرومانية اتصفت بالأبيقورية أغرق الجماهير فيها أنفسهم فى اللذة. وكان للتأثير الساحر لأبيقور أن أحد الشباب حين سمعه خر راكعًا وبكى وحياه بأنه إله.

واستطاع أبيقور أن يخترق كل العصور وينتصر على كل الفلاسفة حتى برز بوجهه كأقوى ما يكون فى العصر الحديث فى صيغته البراجماتية التى استطاعت أن تسقط كل الفلسفات المنافسة لها فى العقود الأخيرة .

والحق يقال، إن هذه الفلسفة تملك من الحجة والبريق والجاذبية مايؤهلها لأن تكون المنافس الوحيد للعقيدة الإسلامية على امتداد التاريخ . فإذا تحرر الإنسان من سيطرة الأوهام والتقاليد واحتكم إلى العقل وخبرة الواقع فقط فليس أمامه سوى أن يكون مسلمًا أو أبيقوريًا أو فى الصيغة الحديثة إما أن يكون مسلمًا أو براجماتيًا وهذا ما آل إليه بالفعل تاريخ الصراع الإنسانى فى الواقع المعاصر حيث يبلغ الاستقطاب مداه للأثر العملى لفكر كلا المذهبين فى ذلك الصراع بين الإسلاميين والأمركة العالمية .

وإذا نظرنا إلى الأبيقورية بمنظور دينى إسلامى فإننا قد نرى فيها أن الشيطان نفسه هو الذى أوحى لأبيقور بتلك الفلسفة ثم عاد ولاح من جديد لوليم جيمس وأوحى إليه بالبراجماتية(١) .

تناقض عقائد الإغريق مع الأخلاق والعقلانية

والتناقض بين الدين والعقلانية يجد جذوره فى الحضارة القديمة التى تعتبر الحضارة الغربية امتداداً طبيعياً لها، فلم يكن بالديانة القديمة المستمدة من الأساطير الإغريقية القديمة ما يغرى العقول اليونانية الكبيرة إلى الإنصات إليها.

وما تذكره الأساطير من أفعال غير محترمة لتلك الآلهة ما كان ليجعلها جديرة بالاحترام بله التقديس فالسطو والخطف والاغتصاب والخيانة هى أمور لصيقة بها وهو الأمر الذى كان له انعكاسه على الضمير الإنثرابولوجى الغربى، فاسم القارة نفسه (أوروبا) مأخوذ عن إيروبا ابنة ملك مدينة صور التى رآها زيوس (كبير الآلهة لديهم الذى لا تنتهى فضائحه) فهام بها حباً، ولكى يفوز بها تقمص شكل ثور وديع وراح يقفز حولها، وهى تمشى على

---

(١) سيكون نقدنا للبراجماتية فيما بعد متضمناً نقدنا للأبيقورية

الساحل الفينيقى حتى تمكن من إغرائها بالركوب فوق ظهره وقفز فى الماء حاملاً حبيبته إلى كيريت، وهناك أنجب منها ثلاثة ذكور، وبلوتو (إله العالم السفلى) يختطف الإلهة كورى ويغتصبها فى مملكته تحت الأرض.

وكما يقول بريتراند راسل: «فإن مجمع الآلهة فى جبل الأولمب هو حشد صاخب من السادة الذين يعيشون حياة خشنة قاسية، والعقيدة الدينية كما تبدو فى ملحمة هوميروس تكاد تكون بلا فاعلية»[1].

ويتحدث الأستاذ يوسف كرم عن آلهة الأولمب فيقول: «نحن هنا فى أحط دركات التشبيه وبإزاء أوقح أشكال الاستهتار. نرى العاطفة الدينية ضعيفة إلى حد العدم، والمبادئ الخلقية مقلوبة رأساً على عقب»[2].

---

(١) حكمة الغرب: ج١ ص:٢٧.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ص: ٣، ٤.

أثر اليهودية والمسيحية فى الحضارة الغربية

أولاً: اليهودية

لا تقدم الكتب التى بين أيدينا شيئاً عن أى تأثير للفكر اليهودى فى الفكر الفلسفى للحضارة اليونانية بل على العكس من ذلك فإن أثر الفكر الإغريقى فى الفكر اليهودى واضح صريح.

فإذا التجأنا إلى موسوعة الدكتور عبدالوهاب المسيرى وجدناه يقول: «إن بطليموس الثانى (٢٨٣ - ٢٤٥ ق.م) دعا إلى ترجمة العهد القديم فيما يُعرف بالترجمة السبعينية. وهذا يعنى أن الفلسفة اليونانية كانت قد اكتملت قبل أن يطلع اليونانيون على الفكر اليهودى»[١].

أما عن أثر الفكر الإغريقى فى الفكر اليهودى فيقول المسيرى عن ذلك: «ويظهر عمق أثر الحضارة اليونانية فى كتابات يوسيفوس وفيلون وغيرهما من المؤلفين اليهود ... وقد ظهر أدب هلينى يهودى اعتذارى خارج فلسطين بهدف التقريب بين اليهودية والهلينية ويدافع عنها أمام هجمات دعاة الهلينية (الحضارة اليونانية) وخصوصاً أن اليونانيين كانوا لا يعرفون سوى القليل عن اليهود أو اليهودية. وفى مجال تحسين صورة اليهود ذهب فيلون فى وصف تعاليم موسى إلى أن معلميه المصريين علموه الحساب والهندسة والموسيقى والفلسفة (وهى نفسها المواد التى يدرسها الملك الفيلسوف حسبما جاء فى كتابات أفلاطون) فى حين تعلم من معلميه اليونانيين بقية المقررات المدرسية مثل النحو والبلاغة والمنطق»[٢].

ومن المهم للغاية أن نعرف تواريخ الكتب اليهودية التى تظهر فيها أفكار شديدة الشبه بالأفكار اليونانية كى نعرف أى منهما هو الذى أثر فى الآخر.

يقول ول ديورانت مشيراً إلى العصر الهلنستى (أى عصر التمازج بين اليونان والشعوب التى أخضعها الإسكندر): «إلى ذلك العصر تنتمى طائفة من أجمل أجزاء التوراة فقد ألف

---

(١) د. عبدالوهاب المسيرى - موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية مج٤ ص١٧.

(٢) المرجع السابق. ص٢٠٨.

شاعر يهودى (أو ألفت شاعرة يهودية) قبيل اختتام القرن الثالث (أى بعد عصر ازدهار الفلاسفة الإغريق بحوالى قرن ونصف) نشيد الإنشاد الجميل ففى هذا النشيد كل ما حواه السفر اليونانى من سافو إلى ثاوقريطس من روعة فنية و لكن فيه فوق هذا ما لا يمكن العثور عليه عند أى مؤلف من مؤلفى ذلك العصر: فيه قوة الخيال، وعمق فى الشعور وإخلاص مثالى حوى من القوة ما يكفى للترحيب بجسم الحب وروحه.. وقد كتب اليهود الهلينستيون وقتئذ بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية - روائع خالدة كأسفار الجامعة، ودانيال وأجزاء من الأمثال والمزامير والجزء الأكبر من الأسفار الأيكريفية، كتبوا بعضها فى أورشليم ومعظمها فى الإسكندرية وبعضها الآخر فى غيرهما من مدائن شرق البحر الأبيض المتوسط، وكتبوا تواريخ كسفر الأخبار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت. وأناشيد للأسر كسفر طوبيت»[١].

وأسفار الأيكريفيا (ومعناها الحرفى الخفية) فى العهد القديم هى الأسفار التى استبعدت من النص اليهودى للعهد القديم الموحى، ولكن اشتملت عليها النسخة الكاثوليكية للكتاب المقدس، أى الترجمة اللاتينية التى قام بها القديس جيروم للنصوص العبرية واليونانية وأهم هذه الأسفار سفر الحكمة وسفر المكابيين الأول والثانى.

ونستطيع أن نكتشف مدى أثر الفكر الإغريقى فى هذه الأسفار من خلال ذكر هذا المثال لسفر الجامعة الذى جاء فى بدايته:

«قال الجامعة: باطل الأباطيل الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس. دور يمضى ودور يجىء والأرض قائمة إلى الأبد. والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق. الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال. تذهب دائرة دوراً وإلى مدارتها ترجع الريح. كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس ملآن. إلى المكان الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة. كل الكلام يقصر. لا يستطيع الإنسان أن يُخبر بالكل، العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع. ما كان فهو ما يكون والذى صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد. إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد. فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا. ليس ذكر للأولين. والآخرون أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكرٌ عند الذين يكونون بعدهم.

أنا الجامعة كنت ملكاً على إسرائيل فى أورشليم ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما يُحمل تحت السموات. هو عناء ردىء جعله الله لبنى البشر ليعنوا فيه.

---

(١) قصة الحضارة، مج٤ ج٢ ص٩٣.

رأيت كل الأعمال التى عُملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح. الأعوج لا يمكن أن يقُوم والنقص لا يمكن أن يجبر. أنا ناجيت قلبى قائلاً ها أنا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم وقد رأى قلبى كثيراً من الحكمة والمعرفة ووجهت قلبى بمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح. لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علماً يزيد حزناً»[١].

وللمتأمل فى هذا السفر أن يلحظ أصداء الفلسفة السوفسطائية فى تلك الروح العبثية التى تتردد بين جنباته وهو ما سوف يتردد مرة أخرى فى الفلسفات المابعد حداثية فى الفكر المعاصر.

ويذهب هـ. ج. ويلز إلى أن ليس لليهودية أثر يذكر فى الحضارة الرومانية لانغلاقها الشديد على نفسها والعداء المستمر بين اليهود والرومان.

ونستطيع القول إننا لا نلاحظ تأثيراً مباشراً للفكر اليهودى فى التشكيل العقلى للحضارة الغربية إلا من خلال تبنى المسيحية للعهد القديم. بيد أنه يبرز بشدة تأثير الفكر اليهودى فى هذه الحضارة من خلال التأثر الشديد للمذهب البروتستانتى بهذا الفكر وهذا ما سوف نشرحه فى موضعه.

(١) الأصحاح الأول من سفر الجامعة.

ثانياً: المسيحية

بحسب ما يعرض له المفكرون الغربيون فقد تكون المسيحية الثالوثية هي أصعب إشكالية تعرض لها العقل الإنساني (والغربي بالذات) في التاريخ البشرى كله.

وتبدأ هذه الإشكالية بوجود السيد المسيح نفسه فيشير ول ديورانت إلى أن «أقدم إشارة غير مسيحية هي التي وردت في كتاب (قدم اليهود) ليوسفوس (٩٣م)[١]: «وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع وهو رجل من رجال الدين إذا جاز أن نسميه رجلاً، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة ويعلم الناس ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط وقد اتبعه كثيرون من المسيحيين وكثيرون من اليونان. لقد كان هو المسيح».

قد تنطوى هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح ولكن هذا الثناء العظيم الذى يثنى به على المسيح يهودى يريد به الزلفى للرومان أو اليهود - وكانا كلاهما يناصبان المسيحية العداء في ذلك الوقت - نقول: إن هذا الثناء لمما يبعث الريبة في هذه الفقرة، ولذلك يرفضها علماء المسيحية ولا يكادون يشكون أنها مدسوسة على يوسفوس. وفي التلمود إشارات إلى يسوع الناصرى ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد لأصداء الأفكار المسيحية»[٢].

ويقول هـ. جـ. ويلز: «يكاد يكون المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن شخصية يسوع محصوراً في الأناجيل الأربعة»[٣].

وعلى ذلك فإن ول ديورانت يذكر أن هناك بعض المفكرين الغربيين يشكون في كون المسيح قد وجد أصلاً فيقول عن ذلك: «لقد كان بولو نجبروك والملتفون حوله وهم جماعة ارتاح لأفكارهم فولتير نفسه يقولون في مجالسهم الخاصة: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق، وجهر فلني بهذا الشك نفسه في كتابه خرائب الإمبراطورية الذى نشره في عام ١٧٩١. ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨ بفيلاند العالم الألماني *لم يسأله القائد الفاتح* سؤالاً في السياسة أو الحرب، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح؟»[٤].

(١) مما هو جدير بالملاحظة أن ول ديورانت ينوه في أول القسم الخاص بالمسيحية بكتابه: أن كل التواريخ ما قبل عام ١٥٠م مشكوك فيها.
(٢) قصة الحضارة: مج٥ ج١.
(٣) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص٦٩٠.
(٤) قصة الحضارة: فصل المسيح مج٦ ج١.

أما بالنسبة لموقفنا نحن المسلمين من السيد المسيح فإننا نستمد يقينيته من القرآن نفسه ونحمل له كل الحب والولاء كواحد من أعظم الأنبياء على الإطلاق. ذلك هو عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. ونرى من ناحية أخرى أن القرآن أضفى على شخصية السيد المسيح قدراً كبيراً من المصداقية لدى الشعوب الأخرى. ونرى في أمه مريم، العذراء الفريدة التي فضلها الله على نساء العالمين.

والإشكالية الثانية تتعلق بصحة تواريخ الأناجيل ومدى نسبتها إلى أصحابها.

يقول هـ. جـ. ويلز: «الأناجيل الأربعة كلها كانت بالتأكيد موجودة بعد وفاة المسيح [رفع المسيح بالنسبة للمسلمين] بعشرات السنين.. ويظن الكثيرون أن الأناجيل الثلاثة الأولى متى ومرقص ولوقا مستمدة من بعض الوثائق الأقدم منها»(١)

أما ول ديورانت فيقول: «إن الأربعة أناجيل التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني»(٢).

ويقول في موضع آخر: «وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠م ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها، والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم»(٣).

ويقول في موضع آخر: «يتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس في الزمن على سائر الأناجيل وعلى تحديد تاريخه بين ٦٥، ٧٠م»(٤).

ويقول عن هذا الإنجيل في موضع آخر: «ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحي قبل عام ١٥٠ إلا في كتابات بيباس الذي كتب في عام ١٣٥ يقول: إن يوحنا الأكبر - وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال: إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس»(٥).

ثم يذكر في موضع آخر أن إنجيل متى هو أقدم الأناجيل كلها حيث يقول: «وتقول الرواية

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص٦٩٠.
(٢) قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص٢٠٦
(٣) المرجع السابق: ص٢٠٧
(٤) المرجع السابق: ص٢٠٨.
(٥) المرجع السابق: ٢٠٧.

المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها ويعتقد إيرونيوس أنه كتب في الأصل باللغة العبرية - أى الآرامية ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية. وإذا كان يبدو لنا أنه في هذه الصورة الأخيرة يردد أقوال إنجيل مرقس وأنه ينقل في أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أتباع متى وليس من أقوال «العشار» نفسه وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامى ٨٥ - ٩٠م»[١].

والإشكالية الثالثة هى صحة ما جاء فى هذه الأناجيل والتناقضات فيما بينها. يقول هـ. ج. ويلز:

«ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز. فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع... ومذبحة الأطفال الذكور فى بيت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنذر والهرب إلى مصر إنما هى أمور يظنها كلها كثير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة.. وكذلك الشأن فى مسألة النسب المتناقضة التى أوردها متى ولوقا والتى يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود كأنما كان شرفاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه [نعترض كمسلمين على استخدام هذه الصيغة فى حق نبى الله داود]. وإدخال هذه الأنساب أشد إمعاناً فى الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابناً ليوسف بتاتاً، إذن قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية»[٢].

ويقول ول ديورانت: «ملاك القول أن ثمة تناقضاً كبيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً فى صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقديم أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها... ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الآدميين من ضعف وعيوب ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح»[٣].

---

(١) وعند الباحثين المسلمين فإن محمد عطا الرحيم يذهب إلى أنه «من نتائج اجتماع نيقية أنه تم اختيار أربعة أناجيل من ثلاثمائة إنجيل فى ذلك الوقت كأناجيل رسمية للكنيسة وصدرت الأوامر بحرق الأناجيل المكتوبة بالعبرية. وصدر مرسوم بإعدام أى شخص يحتفظ بأى من الأناجيل غير المعتمدة» (عيسى المسيح والتوحيد: ص٤). ويذكر الكاتب من بين هذه الأناجيل إنجيل برنابا وإنجيل هرمس الراعى وهما إنجيلان ينطقان بالتوحيد وكانا منتشرين قبل مجمع نيقية عام ٣٢٥. وراجع أيضاً الكثير عن تواريخ تلك الأناجيل (محاضرات فى النصرانية) للإمام محمد أبو زهرة.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص٦٩١.

(٣) قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص٢١٠.

ويقول موريس بوكاى: «إن اللمحة العامة التى أعطيناها عن الأناجيل والتى استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص تقود إلى اكتساب مفهوم أدب مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل كما تقول ألفاظ الحكم الذى أصدره المعلقون على الترجمة المسكونية للكتاب المقدس»(١).

ويقول فى موضع آخر: «بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ونعنى بها شجرة أنساب المسيح وذلك لأن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى نص إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض»(٢).

أما بالنسبة لأعمال الرسل فيقول ول ديورانت عن ذلك: «والمتفق عليه بوجه عام أن هذا السفر هو والإنجيل الثالث من وضع مؤلف واحد، ولكن ليس ثمة ما يماثل هذا الإجماع على أن كاتب السفرين هو لوقا صديق بطرس الذى لم يكن من اليهود. وإذا كان سفر الأمثال لم يرد فيه شيء عن موت بولس، فإن النسخة الأصلية منه تكون قد ألفت حوالى عام ٦٣ ليحاول بها صاحبها تسكين عداء الرومان للمسيحية ولبولس، ولكن المرجح أن الكتاب قد ضمت إليه أجزاء أخرى كتبها مؤلف آخر جاء بعد مؤلفه الأول. ويكثر فى هذا السفر ذكر خوارق الطبيعة، ولكن قصته الأساسية يمكن اعتبارها تاريخاً صحيحاً وقد ضمت فى القرن الثانى عدة «أعمال» و«رسائل» مختلفة مشكوك فيها حذفت من الكتاب المقدس تحتوى على عدد من القصص الخرافية تروى حياة الرسل بعد المسيح. وكانت هذه «الأعمال» بمثابة الروايات الخيالية التاريخية لذلك العصر، ولم تكن بالضرورة محاولات يقصد بها الخداع والتمويه. وقد رفضتها الكنيسة المسيحية، ولكن أتقياء المسيحيين آمنوا بها، وخلطوها خلطاً متزايداً بالتاريخ الصحيح.

وينزع النقاد إلى الاعتقاد بصحة معظم ما جاء فى رسالة بطرس الأولى وهى إحدى الرسائل السبع الورادة فى العهد الجديد معزوة إلى الرسل الإثنى عشر، وننزع لذلك إلى القول بأن صاحب رسالات يوحنا هو نفسه صاحب الإنجيل الرابع الذى لا يزال مؤلفه مثاراً للنزاع. أما باقى الرسائل فيرفضونها لأنهم يشكون كثيراً فى صحتها»(٣).

أما الإشكالية الرابعة فهى بالإضافة إلى كونها لا تقل فى خطورتها عن الإشكاليات السابقة إلا أنها تتميز عنها بالغرابة الشديدة وهى اختلاف مقررات وتعاليم الأناجيل مع

---

(١) ، (٢) الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث.

(٣) قصة الحضارة: مج ٦ ج١.

مقررات وتعاليم الكنيسة. فليس فى الأناجيل مبدأ التثليث أو ألوهية الروح القدس أو ألوهية السيدة مريم أو عقيدة الخطيئة الأولى أو القربان المقدس أو حتى الكنيسة ذاتها فضلاً عن الصلوات والرهبنة وأحكام شهيرة مثل إباحة لحم الخنزير.

يقول هـ. جـ. ويلز: «من الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التى تؤلف المبادئ المسيحية الطقوسية لا يقوم إلا على سند محدود جداً. إذ لا يوجد فى هذه الكتب - كما قد يرى القارئ بنفسه - ما يدعم ويؤيد كثيراً من تلك المبادئ التى يرى معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام للخلاص. فإن سندها من الأناجيل غالباً ما يكون سنداً غير مباشر ويعتمد على الإشارة. ولا بد إذن من تصيد ذلك السند تصيداً وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة وفيما عدا بعض فقرات تدور حولها المنازعات يعسر عليك أن تجد كلمة تنسب فعلاً إلى يسوع فسر فيها مبادئ الكفارة والفداء أوحض فيها أتباعه على تقديم القرابين أو تناول سراً مقدساً (وهى أعباء وظيفة رجال الكهنوت). وسنرى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيما بعد العالم المسيحى بأسره. وليس هناك دليل واضح على أن حوارى المسيح اعتنقوا ذلك المبدأ[1] كذلك لا يبرز هو دعواه أنه «المسيح» ولا يضفى على اشتراكه مع الله فى الربوبية أى ثوب بارز ربما أحسسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفيه لو أنه كان يراه أمراً فى الدرجة الأولى من الأهمية»[2].

ويقول ول ديورانت: «كانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية ثم أصبحت فى تعاليم بولس نصف يونانية. وأضحت فى المذهب الكاثوليكى نصف رومانية ثم عاد إليها العنصر اليهودى والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتى»[3].

---

(١) نلاحظ بالنسبة للكثير من المفكرين الغربيين الحاليين أنهم لا يؤمنون بمبدأ التثليث سواء كانوا علمانيين أو مسيحيين.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص٦٩٢.

(٣) قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص٢٤٨. ومن المفكرين المسلمين يقول محمد عطا الرحيم: «كنتيجة لانعقاد مجمع نيقية تم التخلص من ثلاثمائة إنجيل عن حياة المسيح بعضها كان شاهد عيان لها وكانت وقائع مجمع نيقية توحى بأن الكنيسة البولسية كان لديها كل الأسباب التى تدعو إلى تغيير الأربعة أناجيل التى بقيت، وتختلف مخطوطات العهد الجديد التى كتبت بعد مجمع نيقية عن تلك التى كتبت قبله، ومن المعلوم أنه قد تم منع نشر بعض لفائف البحر الميت التى لا تتفق مع مخطوطات العهد الجديد التى كتبت بعد انعقاد المجمع. وتعترف الكنيسة ذاتها بعدم مصداقية الأناجيل ولذلك لا تتفق الفلسفة الروحية للمسيحية اليوم مع ما كتب فى الأناجيل، والكنيسة اليوم ترتكز دعائمها على عقيدة الخطيئة الأولى والتكفير والفداء وألوهية المسيح وألوهية الروح القدس ومبدأ التثليث ولم تكن أى من هذه العقائد مذكورة فى الأناجيل، ولم يدع إليها المسيح بل كانت نتاج البدع التى جاء بها بولس وتأثير الفلسفة والثقافة اليونانية ولم يصاحب بولس السيد المسيح». عيسى المسيح والتوحيد: ص٢١٥.

دعوة المسيح كما جاءت في الأناجيل الأربعة

والسؤال الآن: كيف تم ذلك؟

إن خلاصة ما توحي به الأناجيل الأربعة أن المسيح كان يدعو الناس إلى الزهد في ملكوت الأرض من أجل أن يجدوا خلاصهم في ملكوت السماء «مملكتي ليست من هذا العالم» ومن ثم فيجب أن يطهروا قلوبهم من الأنانية والقسوة والفجور «ملكوت الله داخلكم». وأنه ما جاء ليبطل شرائع الأنبياء من قبله وإنما جاء ليكملها «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض وإنما لأكمل» ورأى أن الدين ليس في المبالغة في مظاهر التقى الخارجية ومن ثم الانزلاق إلى النفاق والرياء في الوقت الذي يفقد فيه الحرص على استقامة القلوب «الكتبة والفريسيون ... يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الأول في الولائم، والمجالس الأولى في المجامع.. لكن ويل لكم أيها الكتبة الفريسيون... أيها القادة العميان.. أيها الجهال والعميان!.. تركتم أثقل الناموس والحق والرحمة والإيمان... تنمقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة!... تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاقاً.. إنكم أبناء قتلة الأنبياء، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم! أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم؟ إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله».

وقد اتسمت دعوته بالرحمة والرأفة والرقة الشديدة «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر». دون أن يعني ذلك الضعف في مواجهة الشرور «ما جئت لأضع سلاماً وإنما لأضع سيفاً». وهو ماجعله يغضب لتلويث الهيكل بأعمال التجارة وقام بقلب مناضد الصيارفة وتجار الحمام وأخرجهم منه هو وأتباعه بالقوة.

وكان ينحاز للفقراء والمستضعفين انحيازاً رهيباً إلى الدرجة التي أعلن فيها أن دخول الجمل من ثقب الإبرة أسهل من دخول الأغنياء الجنة «ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله. مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله». وعندما سأله شاب غني عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال: «بع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، و... اتبعني».

وباستثناء بعض الآيات المحدودة في الأناجيل فإن كل أقوال المسيح وأفعاله لا تعني إلا كونه

نبياً مرسلاً من السماء. أما حديثه عن الله بصفة الأب فهذا أقرب ما يكون إلى المجاز لأنه فى هذه الأناجيل نفسها يصف الصالحين بأبناء السماء «ولم يقل (فى الأناجيل الثلاثة المتشابهة: متى، ومرقس، ولوقا) إنه هو والأب إله واحد أو يسوى نفسه به فقد سأل أتباعه: «لماذا تدعوننى صالحاً؟ ليس صالحاً إلا واحد وهو الله)»[1].

ويعلن السيد المسيح أن دعوته خاصة ببنى إسرائيل «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة».

وبالأناجيل أيضاً قول المسيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله» لكن هذا القول جاء فى سياق مختلف فالقصة تأتى هكذا «ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسيين والهيروديسيين لكى يصطادوه بكلمة. فلما جاءوا قالوا له: يا معلم، نعلم أنك صادق ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس بل بالحق تعلم طريق الله، أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا؟ نعطى أم لا نعطى؟ فعلم رياءهم وقال لهم: لماذا تجربوننى؟ ائتونى بدينار لأنظره، فأتوا به فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ فقالوا له لقيصر. فأجاب يسوع وقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله» وهى القصة التى يعلق عليها هـ. ج. ويلز قائلاً: «وهى قصة لو نظرنا إليها على ضوء سائر ما علَّمه، لم تبق لقيصر إلا الشىء القليل من نفوس الناس أو مما يمتلكون»[2].

من مسيحية الأناجيل إلى مسيحية الكنيسة (المسيحية والدولة الرومانية)

هناك مسألتان فى تطور المسيحية من مسيحية الأناجيل إلى مسيحية الكنيسة يتناولهما المفكرون الغربيون كأنهما مسلمتان من المسلمات.

المسألة الأولى هى حالة التوفيق التى صنعها بولس بين المسيحية والوثنية الرومانية.

والمسألة الثانية هى التوفيق الذى حدث بين المسيحية وبين فلسفة أفلوطين وهو التوفيق الذى أشاد به مبتهجاً القديس أوغسطين.

وبدايةً ينقل ول ديورانت عن بولس قوله: «استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس.. صرت للكل كل شىء لأخلص على كل حال قوماً وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه»[3].

ولقد ورثت الدولة الرومانية الدولة اليونانية وورثت معها ديانتها وفلسفتها وعداءاتها

---

(١) ول ديورانت - قصة الحضارة: مج٦ ج١ ص٢٣٢.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص ٦٩٧.

(٣) قصة الحضارة: مج٢ ج١ ص٢٦٣.

فتحول زيوس إلى جوبيتر بالإضافة إلى مارس وهرقل وانضمت إليهما آلهة الشعوب الأخرى التى انضوت تحت سيادة الدولتين مثل مثراس من فارس وإيزيس من مصر وورثت عنهما الفلسفتين الرواقية والأبيقورية فكان للأولى السيادة داخل الدولة الرومانية فى مرحلتها الأولى التى اتسمت بالنظام والصرامة والقسوة وكان للأخيرة السيادة داخلها فى مرحلتها الثانية التى اتسمت بالترف والانكباب على الملذات ثم الفوضى.

الدولة الرومانية والصراع بين الغرب والشرق

ورثت أيضاً الدولة الرومانية عن الدولة اليونانية الصراع الدائم مع الشرق. وهذا الصراع فى الحقيقة صراع تقليدى مثله فى ذلك مثل كل الصراعات بين الحضارات القديمة مثل الصراع بين مصر وبابل أو بين أى منهما وقبائل الحيثيين. وإنما اتسم الصراع هنا بكونه بين غرب وشرق لأن أشهر الحروب اليونانية القديمة حرب طروادة كانت بين الغرب الأوروبى والشرق الآسيوى كما ذكرنا من قبل.

وإذ ما غدت كل الشعوب الأوروبية تقريباً واقعة تحت السيادة اليونانية فإن الطبيعة الجغرافية تجعل من أى صراع مع أوروبا الموحدة هو صراعًا بين الغرب والشرق فحيث إنه لم يكن هناك حينذاك أمريكتان بالنسبة للعالم القديم فما كان يحيط أوربا من ناحية الغرب سوى المحيط الأطلنطى أو بحر الظلمات كما كان يطلق عليه فى العالم القديم.. إذن فلم يكن هناك قوة يمكن أن تتصارع معها أوروبا الموحدة إلا من جهة الشرق فكان الصراع بين الإغريق والإمبراطورية الفارسية ثم كان الصراع بين روما وقرطاجنة (على ساحل تونس الحالية) ذات الأصول الفينيقية (ساحل لبنان وسوريا).

وقد امتد هذا الصراع حوالى قرن من زمان وكان هانيبال قائد قرطاجنة بطله الأعظم الذى انتهى على يد سبيو الرومانى فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد. ثم انتهى الصراع بالقضاء على قرطاجنة عام ١٤٦ قبل الميلاد وتدميرها تماماً وحرق أرضها حتى تفقد القدرة على المقاومة مرة أخرى وهذا ما يطلق عليه سياسة الأرض المحروقة وهو ما تغنى به الشاعر المصرى أمل دنقل فى قصيدته الشهيرة (أغانى سبارتاكوس الأخيرة) حيث يقول:

قرطاجة بالنيران تحترق.

قرطاجة كانت ضمير الشمس قد تعلمت معنى الركوع.

وصدق دنقل تماماً حين قال: تعلمت معنى الركوع. فيبدو أن الغرب لم يرتض بعد ذلك من خصومه سوى هذا المعنى (الركوع).

ثم تمثل الصراع بين الشرق والغرب بعد ذلك فى الصراع بين الروم والفرس ثم جاء الإسلام بعد ذلك فورث الطرف المناقض للغرب فى ذلك الصراع المستمر بين الغرب والشرق.

اضطهاد الرومان للمسيحية والمتغيرات المسيحية العقائدية

تم اضطهاد رهيب للمسيحيين لا داعى للخوض فى تفاصيله هنا ولكن الخلاصة أن هذا الاضطهاد بلغ من الدرجة أنهم كانوا يلقون بأجساد المسيحيين للوحوش ويبدو أنه قد حدث أنه قام من يحاول العمل على التخلص من هذا الاضطهاد.

يقول ول ديورانت: «لقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض فى أقوال المسيح. وكانت العوامل التى أوحت إليه بالأسس التى أقام عليها ذلك اللاهوت هى انقباض نفسه، وندمه، والصورة التى استحال إليها المسيح فى خياله، ولعله قد تأثر بنبذ الأفلاطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شراً وخبثاً، ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس: أما هذه الأسس فأهمها أن كل ابن أنثى يرث خطيئة آدم، وأن لا شيء يُنجيه من العذاب الأبدى إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته وتلك فكرة كانت أكثر قبولاً لدى الوثنيين منها لدى اليهود ولقد كانت مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة منذ زمن بعيد تؤمن بأوزوريس، وأتيس وديونش التى ماتت لتفتدى بموتها بنى الإنسان وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس (المنجى) تطلق على هذه الآلهة. وكان لفظ كريوس (الرب) الذى سمى به بولس المسيح هو اللفظ الذى تطلقه الطقوس اليونانية – السورية على ديونيش الميت المفتدى»[1].

ولم يكتف بولس بذلك بل أضاف: «إن الأشغال الطيبة وإطاعة كل ما جاء فى أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها ٦١٣ أمراً لا يكفيان للنجاة، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لا تستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان أو أن تطهر النفس من الذنوب لقد اختتم عهد الناموس»[2].

ويقول هـ. ج. ويلز عن بولس أيضاً:

«من الواضح جداً أنه تأتى المثرائية إذ هو يستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المثرائية ويتضح لكل من يقرأ «رسائله» المتنوعة جنباً إلى جنب مع الأناجيل أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فيما نقل عن يسوع من أقوال وتعاليم ألا وهى فكرة الشخص الضحية الذى يقدم قرباناً لله كفارة عن الخطيئة، فما بشر به يسوع كان ميلاداً جديداً للروح

---

(١) قصة الحضارة: مج ٦ ج١ ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) المرجع السابق: ص٢٦٥

الإنسانية. أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة، ديانة الكاهن والمذبح وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله»[1].

ولأن موضوع المتغيرات التاريخية في العقيدة المسيحية بالغ الخطورة والحساسية فإننا لن نتدخل هنا في الحديث عنه بل سنترك ذلك لاثنين من أهم المؤرخين والمفكرين الغربيين وهما هـ. ج. ويلز وول ديورانت.

ويشرح هـ. جـ. ويلز المتغيرات التي حدثت في العقيدة المسيحية في القرون الأولى فيقول:

«وفي أثناء ذلك الأمد غير المحدد كان يحدث فيما يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أي التوحيد والمطابقة بين الآلهة المختلفة) بين النحلة المسيحية والعقيدة المثرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب، ونحلة سيرابيس إيزيس حورس. ويبدو أن المسيحيين اقتبسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر للتعبد بدلاً من يوم السبت اليهودي، كما استعاروا فكرة الإكثار من استعمال الشموع في الحفلات الدينية، وأسطورة أداء العبادة بواسطة الرعاة (أعني القسس) كما اقتبسوا أيضاً فيما يرجح تلك الفكرات أو العبارات التي لاتزال تمتاز بها إلى يومنا هذا بعض الشيع والتي تتكلم عن «الاغتسال في دم المسيح» وعن كون المسيح تضحية بالدم ذلك أنه لزام علينا أن نتذكر أن الموت صلباً لا يكاد يهرق من الدم أكثر مما يريقه الشنق فتصوير يسوع في صورة المريق دمه من أجل البشرية إنما هو في الحقيقة من أشد العبارات بعداً عن الدقة، ونحن وإن تذكرنا أنه لقي التعذيب والتنكيل وأنه ألبس تاجاً من الأشواك وأن جنبه قد طعن بحربة فإنا لانزال أبعد ما نكون عن «نبع يفيض دماً» بيد أن المثرائية، وكانت ترتكز حول بعض الخفايا التي عفى عليها اليوم النسيان تتخيل مثرا وهو يضحي بعجل مقدسٍ ويلوح أن جميع المقاصير المقدسة المثرائية تزدان بصور المثرا وهو يذبح ذلك العجل، الذي ينزف دمه نزفاً عظيماً من جرح في جنبه. ومن ذلك الدم نشأت حياة جديدة.

وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل في دم عجل التضحية وبذلك «يولد من جديد». وكان عند انخراطه في النحلة لأول مرة يدخل تحت سقالة يذبح العجل عليها، فيسيل عليه دمه، ويخيل إلينا أنا نعالج ها هنا استمراراً لسفك الدماء البدائي للتضحية عند وقت البدار، وهي فيما يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعابد.

على أن ما أسهمت به نحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد، إذ كان طبيعياً أن يجد المسيحيون في شخصية حورس (الذي كان ابناً

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية: ص٧٠٦.

لسيرابيس فى نفس الوقت) شبيهاً مرشداً لهم فيما يبذلون من جهود عنيفة لتفهم ما خلفه لهم القديس بولس من خفايا .

وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بين شخصية مريم وإيزيس، ثم السمو بها إلى مرتبة شبه قدسية ـ بالرغم مما سبق أن اقتبسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته ـ خطوة طبيعية جداً كذلك، وكان طبيعيا كذلك للمسيحية أن تقتبس وهى لا تكاد تعى، الطرائق العملية للديانات الشائعة فى ذلك الزمان. فاتخذ قساوستها طريقة الرءوس الحليقة والزى الخاص بالكهنة المصريين لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلى لتمييز القسس.

وتتابعت البدع واحدة فى إثر الأخرى. وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك الإضافات المألوفة»[١].

أما ول ديورانت فيقول عن هذه المتغيرات :

«إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها، ذلك أن العقل اليونانى المتحضر عاد إلى الحياة فى صورة جديدة فى لاهوت الكنيسة وطقوسها وأصبحت اللغة اليونانية التى ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب والطقوس المسيحية وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ويوم الحساب وأبدية الثواب والعقاب وخلود الإنسان فى هذا وذاك، ومنها الأفلاطونية الحديثة واللا أدرية وطمست معالم العقيدة المسيحية.

ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التى نسجت على منوالها ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس. وربما كانت تراقيا هى التى بعثت للمسيحية بطقوس ديونيش وموت الإله ونجاته. ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام وعصور الأرض واللهب الأخير الذى سيحرقها وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور. فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً يضىء فى الظلمة لم ندركه» ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثرائية والقربان المقدس فى القداس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذى ابتدعه ليضل به ضعاف العقول.

وقصارى القول : إن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم»[٢].

وليس لنا تعليق على كل ما سبق.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج١ ص٧٠٦، ٧٠٨.

(٢) قصة الحضارة : مج٦ ج١ ص٢٧٥، ٢٧٦.

الثورات الأولى على المسيحية الثالوثية: إيريوس وقسطنطين

ادعت كنيسة روما أن لها سلطة الإشراف على كل الكنائس فى العالم لأنها كنيسة القديس بطرس الذى مات في روما. ورفض بطاركة الكنائس الشرقية هذا الادعاء واستمرت الصراعات بينهما زمناً طويلاً حتى تدخل الإمبراطور قسطنطين لحسم هذه المشكلة ومشاكل كثيرة غيرها بين زعماء المسيحية فى ذاك العصر.

لكن المشكلة الأكبر التى واجهت المسيحية فى هذه الفترة وما قبلها هى الخلاف حول طبيعة العقيدة ذاتها و تبنت الكنيسة الرومانية عقيدة التثليث وانضوت تحتها أغلب الكنائس وتبنت نفس الموقف بيد أن الثورات على هذه العقيدة من جهة العلماء والقساوسة تتابعت بعد ذلك وكان أبرزها جميعاً ثورة إيريوس (٢٥٠ - ٣٣٦م) الليبى المولد الذى كان يرأس كنيسة بوكاليز فى الإسكندرية و قبل أن نعرض لتلك الثورة ذات الأثر الخطير فى التاريخ سنشير إلى بعض الثورات التى سبقتها.

• إيرانيوس (١٣٠ - ٢٠٠ قبل الميلاد)

كانت المسيحية الأنطاكية وقت ولادة إيرانيوس قد انتشرت فى شمال إفريقية وإلى حدود إسبانيا وجنوب فرنسا ولقد ذكر إيرانيوس لأول مرة عندما كان يحمل شكوى بالنيابة عن بوثينس أسقف ليونز إلى البابا أن يوقف اضطهاد المسيحيين الذين لا يؤمنون بمذهب البولسية.

ولقد سمع وهو فى روما أن كل المسيحيين المعارضين لهذا المذهب بما فيهم الأسقف بوثينس قد قتلوا وعند عودته تقلد منصب بوثينس كأسقف لمدينة ليونز.

وفى عام ١٩٠ بعد الميلاد كتب إلى البابا فيكتور أن يوقف المذابح ضد المسيحيين الذين يقتلون فقط لاختلافهم فى الرأى وتكررت القصة وقتل هو نفسه عام ٢٠٠ بعد الميلاد لتبنيه قضية المسيحيين الذين يخالفون البابا.

ولقد آمن إيرانيوس بإله واحد وأيد مبدأ بشرية المسيح ولقد انتقد بولس بشدة لكونه مسئولاً عن إدخال مذاهب الديانات الوثنية والفلسفة الأفلاطونية إلى المسيحية وكان يقتبس فى تأييده لذلك نصوصاً كثيرة من إنجيل برنابا.

وبعد أن قرأ مارينوس كتابات إيرانيوس أصبح مهتماً بهذا الإنجيل وهذا بدوره أدى إلى اكتشافه للمخطوطة الإيطالية من إنجيل برنابا فى المكتبة البابوية.

تيريتليان (١٦٠ - ٢٢٠ ميلادية)

كان تيريتليان يتبع الكنيسة الإفريقية وكان موطنه مدينة قرطاج وكان يؤمن بوحدانية الله ، وكان يعرف المسيح بمسيا اليهودى، وكان يعارض البابا كاليستس فى قوله إن أكبر ذنب يمكن أن يغتفر بعد أداء الكفارة الشرعية، وكان يؤمن باتحاد القلب مع الوجود ومن أقواله: «إن العامة تعتقد أن المسيح رجل وليس إلهاً».

وكان هو أول من أدخل كلمة التثليث إلى الكتابة اللاتينية الإكليركية عندما كان يجادل فى هذا المذهب الجديد القريب ولم تستخدم كلمة التثليث ولا مرة واحدة فى الكتب المقدسة.

أوريجن (١٨٥ - ٢٥٤ بعد الميلاد)

كان أوريجن مولوداً فى مصر أو ربما فى الإسكندرية ولقد بنى والده لينونيداس مركزاً تعليمياً ونصب كليمنت عالم اللاهوت الشهير مديراً له وتلقى أوريجن تعليمه هناك ولم تعترف الكنيسة البولسية بالمعتقدات التى كان يعتنقها لينو نيداس الذى كان يتبع المسيحية الرسولية ورفض أن يعترف بتفسيرات وبدع بولس وقتل عام ٢٠٨ ميلادية ولقد تأثر أوريجن بهذه الواقعة كثيراً جداً لدرجة أنه تمنى أن يقتل كشهيد ولكن والدته كانت تدافع عنه، ولما أحس كليمنت معلمه أن حياته فى خطر هرب من الإسكندرية ولما كان أبوه قد مات ومعلمه قد هرب أحس أوريجن وكأنه ينساق إلى الخطر وعندما تولى منصب المدير الجديد للمدرسة حصل على شهرة - كبيرة لعلمه وشجاعته.

وفى عام ٢٣٠ ميلادية عين قسيساً فى فلسطين ولكن الأسقف ديمويوس عزله ونفاه ولذلك لجأ إلى قيصرية عام ٢٣١ ميلادية وبنى مركزاً تعليمياً هناك سائراً فى ذلك على نهج والده وأصبحت هذه المدرسة مشهورة جداً.

فى عام ٢٥٠ ميلادية وضع فى السجن وخضع لتعذيب شديد نتج عنه وفاته عام ٢٥٤ ميلادية وكان سبب وضعه فى السجن أنه لم يعترف بمذهب التثليث وأنه كان يدعو لوحدانية الله.

ولقد آمن أوريجن أن الله عظيم وأن المسيح عبده ورسوله، وليس مساوياً له وكتب حوالى ٦٠٠ مبحث ورسالة ولقد وصفه المؤرخون بأنه من أكثر الشخصيات الإيجابية فى تاريخ الكنيسة فمنذ شبابه حتى ساعته الأخيرة كان يبدى شجاعة غير معهودة وكان صبوراً وواعياً وكانت عنده صفات المعلم الحقيقى ولقد أحبه كل الذين علمهم وكانت قدرته على التمييز وطاقته الخلاقة وسعة علمه شيئاً لا مثيل له بين المسيحيين.

ديودورس:

كان ديودورس أسقف طرسوس ويعتبر واحداً من أهم زعماء الكنيسة الإيطالية وكان يؤمن بأن الدنيا متغيرة وأن التغير ذاته هو حالة تشتمل على بداية وتحتاج لما يدعوها إلى الاستمرار وبالإضافة إلى ذلك نجد أن اختلاف الوجود والحكمة فى عملية التغيير ذاته ترمز إلى وحدة الوجود ووجود الخالق ذاته وعنايته بالخلق وهو الخالق الوحيد واعتنق ديودورس مبدأ بشرية المسيح المطلقة وأن له روحاً وجسداً آدميين[1].

آريوس وقسطنطين

انقسمت الدولة الرومانية بين قوادها فى مطلع القرن الرابع ورأى قسطنطين أن يستعين بالمسيحيين فى حربه ضد خصومه وعندما انتصر فى أحد معاركه تحت شارة الصليب رأى أنه مدان لهذه الديانة بالفضل وعندما وجد الخلافات المذهبية قائمة وتهدد وحدة الإمبراطورية دعى «أساقفة جميع الولايات لحضور مؤتمر عام فى نيقيا ، وفى مايو عام ٣٢٥ افتتح بنفسه رسمياً هذا الاجتماع الجليل (وهو أول المجامع المسكونية الكنسية) وأعرب عن أمله ورجائه فى أن تتم وحدة المسيحيين واجتماع كلمتهم»[2].

وكان آريوس يقول: «إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها. واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول ولكن آريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن. يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شيء أى من غير مادة الأب لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة»[3].

ويقدم يوسبيوس (٢٦٠ - ٣٤٠م) أبو التاريخ الكنسى والذى لعب دوراً هاماً فى اجتماع نيقية هذا الاجتماع بقوله: جلس الإمبراطور فى بهرة مجلس نيقيا على عرش من ذهب وإذ إنه كان رقيق الزاد من الإغريقية وجب علينا أن نفرض أنه اكتفى بملاحظة ملامح وسحنة وإيماءات المتناظرين وسماع نغمات أصواتهم وكان المجلس عاصفاً ولما قام آريوس المسن ليتكلم لطمه على وجهه شخص هو نيقولاس الميرى ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الخارج وقد

---

(١) راجع فى تاريخ الثوار السابقين: محمد عطا الرحيم - عيسى المسيح والتوحيد: ص٧٩ : ص٨٢.

(٢) م. ب تشارلز ورث - الإمبراطورية الرومانية: ص٢١٤.

(٣) ول ديورانت قصة الحضارة: مج ٦ ج١ ص٣٩٢.

وضعوا أصابعهم فى آذانهم فى رعب مفتعل من هرطقات الرجل الشيخ. وإن المرء ليلذ له أن يتصور الإمبراطور العظيم وهو فى أشد القلق على روح إمبراطوريته كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانقسامات، منحنياً نحو مترجميه يسألهم إيضاح تلك الضجة.

وتمخض هذا المجمع عن «بيان العقيدة النيقية» وهو بيان «ثالوثى» دقيق وناصر الإمبراطور هذه العقيدة الثالثوية ولكن لما حدث فيما بعد أن إثناسيوس اشتط فى الحملة على الأريوسيين أمر به فنفى من الإسكندرية ولما رغبت كنيسة الإسكندرية فى حرمان آريوس أجبرها على أن تعيده إلى حظيرتها»[١].

وأخيراً يعلق الفيلسوف جارودى على أفكار آريوس فيقول: «إنها تتيح لنا فقط أن نفهم لماذا كان انضواء هؤلاء الآريسيين (أتباع أريوس) فى ظل الإسلام سريعاً جداً فقد اعتنقوه عندما ظهر وهو الذى قام على أساس رفض ألوهية عيسى واتخذ من هذا الرفض نقطة مركزية فى جداله مع الكنيسة فى فلسطين وفى سائر البلاد التى كانت يوجد فيها الآريسيون أو ما شابههم (من النساطرة و البريسليين... إلخ) فالوحدانية فى الإسلام ولدى الآريسيين تنفى الثالوث كما تمت صياغته فى لغة الثقافة الإغريقية فى نيقية»[٢].

(١) نقلاً عن هـ. جـ. ويلز - معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج١ ص٧١٩، ٧٢٠.
(٢) فلسطين أرض الرسالات الإلهية: ص١٨٢

٤

الإسلام
وموقفه من العقل
والديانات السماوية السابقة له

تمهيد :

نستطيع القول بأن القرآن قد كشف عن وجود العلاقات المنطقية التي تحكم الكون، وأمر الناس بالبحث عنها وإدراك حقيقتها وجعل ذلك من مراتب العبادة لله سبحانه وتعالى.

الإسلام والعقل

العقلانية كطريقة للتفكير بوجه عام تعنى الحركة الاستدلالية التى ينتقل بها الذهن بفاعليته من مقدمة ما إلى نتيجة، أو من حقيقة ما إلى حقيقة تتولد عنها أو ترتبط بها ارتباطاً مطرداً.

وهى بذلك ترتبط فى الواقع الثقافى بعدة أمور أخرى، منها الموقف من حرية العقل والموقف من حقائق العلم والرؤية التحليلية للواقع الذى لا تتعامل معه من خلال فرضيات حتمية مسبقة.

ولقد كان موقف الإسلام من العقل والعقلانية على النقيض تماماً من موقف المسيحية الثالوثية بداية من العقيدة الأساسية التى يقوم عليها الدين الإسلامى وهى عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهى عقيدة واضحة أشد ما يكون الوضوح، بسيطة أشد ما تكون البساطة، محددة أشد ما يكون التحديد فهى لا تكاد تدور إلا على محور واحد هو الإيمان بالله وحده ونفى أى شركاء له ونفى أى وسائط بينه وبين البشر، وأنه وحده الذى تحق له عبودية الإنسان بما تشتمل عليه من حب وخضوع وذلك من خلال طاعة تعاليمه وتحكيم أوامره وهذا لا يكون إلا من خلال تطبيق رسالة رسوله إلى البشر محمد صلى الله عليه وسلم. والذى يقتضيه الإيمان بتلك العقيدة هو تحرير الإنسان من أوهام الخرافات والكهنوت والأوثان ومن أغلال الملوك والطواغيت والأعراف والتقاليد الأرضية.

والقرآن الكريم (الأساس المرجعى الأعظم لكل المسلمين) يطالب الإنسان بالاحتكام إلى العقل حتى إن «مادة (عقل) ذكرت فى القرآن أكثر من خمسين مرة، وتكرر السؤال الاستنكارى (أفلا تعقلون؟) ثلاث عشرة مرة وكأنه لازمة. ولو تتبعنا الكلمات الأخرى التى تدخل فى نفس الموضوع مثل: نظر وفكر وفقه وعلم وبرهان ولب، ونحو ذلك لوجدنا من الآيات الشيء الكثير جداً»[1].

بل إننا نستطيع القول بأن القرآن قد كشف عن وجود العلاقات المنطقية التى تحكم الكون، وأمر الناس بالبحث عنها وإدراك حقيقتها وجعل ذلك من مراتب العبادة لله سبحانه

---

(١) يوسف القرضاوى: بينات الحل الإسلامى.

وتعالى. وهذا ما يجعل كاتباً ماركسياً مثل مكسيم رودنسون يتحدث عن العقلانية فى القرآن فيقول[1]: «فى مقابلة العهدين القديم والجديد فإن العقلانية القرآنية تبدو صلبة كالصخر». وكما يقول العقاد عن الإسلام فى كتابه (التفكير فريضة إسلامية) إنه «دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع واعٍ للخطاب قابل للتعليم».

أما موقف الإسلام من العلم فإنه يتلخص فى تقريره أن الطريق إلى معرفة أسرار الوجود هو طريق الشهادة الكونية على أنه سبحانه وتعالى هو الحق. يقول الله سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم: **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾**.

ولذلك فإن جارودى يذهب إلى أن «مبدأ التوحيد - وهو حجر الأساس فى تجربة الإسلام لمعرفة الله - يلغى كل ما يفصل بين العلم والإيمان. وبما أن كل شىء فى الطبيعية هو دلالة على الوجود الإلهى، تصبح معرفة الطبيعة - مثلها فى ذلك مثل العمل - شكلاً من أشكال الصلاة وسبيلاً للتقرب من الله[2].

والقرآن الذى كانت أول كلمة أنزلت فيه «اقرأ» وثانى سورة فى النزول هى القلم، يصف الغافلين عن النظر والتفكر فى هذا الكون بأنهم **﴿ كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾**.

فالكون هو كتاب الله المفتوح، كما أن القرآن هو كتاب الله الموحى. والقرآن كثيراً ما يضرب الأمثلة فى تأسيس المعرفة اليقينية على الإدراك الحسى، فهو حين يرد على افتراءات المشركين يقول عنهم **﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾**. فهو قد نفى دعواهم لانتفاء المشاهدة، فمن أين إذن قد أتوا بتلك الدعوى؟ كما أن الله يقول لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: **﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾**.

وهذا الموقف من العقلانية فى التفكير هو الموقف الذى حرص على تأكيده أئمة ومفكرو الإسلام على امتداد التاريخ.

يقول الإمام ابن حزم عن منهجه فى كتابه التاريخى (الفصل فى الملل والأهواء والنِّحل)[3]: «إن إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس من قرب أو

---

(١) الإسلام والرأسمالية: نقلاً عن الدكتور يوسف القرضاوى، المرجع السابق.
(٢) الإسلام دين المستقبل.
(٣) جـ١، ص٣٦.

من بعد على حسب قيام البراهين التى لا تخون أصلاً مخرَّجة إلى ما أخرجت له، وألا يصح منه إلاما صححت البراهين المذكورة فقط. إذ ليس الحق إلا ذلك».

ويقول فى موضع آخر:

«إن الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس وهذا نفسه لا غيره الغرض فى الشريعة. هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالشريعة. اللهم إلا لمن انتمى إلى الفلسفة، بزعمه وهو ينكر الشريعة بجهله على الحقيقة بمعانى الفلسفة، وبعد عن الوقوف على غرضها ومعناها»[1].

أما الإمام الغزالى فيقول:

«النتائج اليقينية التى نستدلها من مقدمات يقينية إذا قيل لك خلافها حكاية عن أعظم خلق الله مرتبة وأجلهم فى النظر والعقليات درجة، بل لو نقل عن نبى صادق نقيضه، فينبغى أن يقطع بكذب الناقل أو بتأويل اللفظ المسموع عنه، ولا يخطر ببالك إمكان الصدق. فإن لم يقبل التأويل فشُكّ فى نبوة من حكى عنه بخلاف ما عقلته إن كان ما عقلته يقينا».

هل قرأت - معى - العبارة الأخيرة جيداً: «فشك فى نبوة من حكى عنه بخلاف ما عقلته إن كان ما عقلته يقيناً».

فيا ترى من أين أتى الإمام الغزالى بتلك الجرأة فى الشك فى نبوة نبى صادق حكى عنه بخلاف ما يعقل يقيناً؟.. لا شك أن الذى يتدبر القرآن جيداً يكتسب بشكل طبيعى تلك الجرأة، لأن القرآن فى خطابه إلى الناس يستدل على الحقائق الإيمانية بمبادئ العقل وحقائق الحس وخبرات التجربة.. أى أنه يؤسس إدراك الحقائق على اليقينيات العقلية والحسية.

ويقول الإمام ابن تيمية[2]: «إذا قيل تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعيًّا والآخر عقليًّا فالواجب أن يقا :ل لا يخلو، إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين وإما يكونا أحدهما قطعيًّا والآخر ظنيًّا.

أما القطعيان فلا يجوز تعارضهما: سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقليًّا والآخر سمعيًّا، وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل العقلى هو الذى يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة. وحينئذٍ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين - وهو محال - بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التى

---

(١) نقلاً عن مقدمة المحققين للكتاب د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبدالرحمن أبو عميرة.

(٢) درء التعارض بين العقل والنقل، جـ١ ص٧٧، دار الكتب العلمية، ببيروت.

يعتقد أنها قطعية فلا بد أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، وأن لا يكون مدلولاهما متناقضين. فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين.

وإن كان أحد الدليلين قطعيًّا دون الآخر، فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإنه الظن الذى لا يدفع اليقين.

وأما إن كانا جميعاً ظنيين: فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما. فأيهما نرجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا».

وفي إيجاز مبدع وحسم قاطع يقرر الإمام حسن البنا[1]: «إن الإسلام يحرر العقل ويحث على النظر في الكون ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء» و«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لا يختلفان في القطعي.. فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة. ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي».

وفي تحديد شديد يقول الإمام المودودى[2].

«وجملة القول إن هذا الدين لا يمكن لأحد أن يتبعه ويبقى ثابتاً مستقيماً في اتباعه إلا بقدر ما يكون له من العلم والبصيرة والنظر والفكر، لأنه بقدر ما ينال الكمال في هذه الجوانب ينال كمال درجاته عند الله».

ويقول في موضع آخر:

«ولكن ليس مدار الانتفاع من هذا الكتاب (يقصد القرآن الكريم) والبقاء على الصراط المستقيم واجتناب الضلالات في العقيدة والعمل إلا على نفس ذلك الشيء الذى أقيم عليه بناء الدين منذ أول يومه أى العلم والعقل»[3].

---

(١) مجموعة رسائل الإمام، والفقرتان من ركن الفهم في رسالة التعاليم، ص٣٩٣.

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ص ١١ - ١٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢.

الإنسان والمجتمع في الإسلام

والإنسان فى الإسلام لا يستطيع أن يختار شيئًا إلا إذا منحه الله القدرة على الاختيار، وعلى ذلك فإن مشيئته معلقة على منح المشيئة الإلهية هذه القدرة له. فإذا منحته المشيئة الإلهية القدرة على الاختيار كان ـ بتملكه تلك القدرة ـ حرًا فى اختيار الفعل الذى يريده سواء كان هذا الفعل خيرًا أو شرًا، فالمشيئة الإلهية هى التى تمنحه القدرة على الاختيار دون أن تتدخل فى نوع الاختيار ذاته، أى أن القدرة الإلهية هى التى تمنح الإنسان نطاق الاختيار فإذا اختار الإنسان طريق الهدى ففى نطاق المشيئة الإلهية وإذا اختار طريق الضلال ففى نطاق المشيئة الإلهية أيضًا.

وهذه العقيدة الإسلامية فى القضاء والقدر تبعث فى النفوس الثقة والمسئولية وتدفعها وتحفزها على انتهاج السلوك المستقيم وبذل الأسباب لارتقاء الصعاب وتنشيط الهمم على السعى والكسب وبلوغ المعالى وذلك لاعتقاد الإنسان فى إرادته الحرة على اتخاذ سلوكه وأفعاله، كما أنها تحمى الإنسان من اليأس والقنوط والإحباط إذا لم تساعده ظروفه على بلوغ أهدافه ومساعيه وذلك لإيمانه بأن ذلك مرتبط بمشيئة الله العلى القدير كما أنها تهدى الإنسان إلى السلوان والرضى بما قسمه الله من الأقدار وما وهبه إياه من الخيرات وما ابتلاه به من المصائب.

والمسلمون يؤمنون بأن الله لم يخلق الإنسان عبثًا.

يقول تعالى: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾.

وإنما للإنسان غاية محددة وهى الخلافة عن الله فى الأرض بإقامة عبوديته فيها وهو مسئول عن تلك الأمانة أمامه.

﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾.

والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بعدل الله وحكمته النافذة وتطلع نحو السمو والخلود وتحلل من ذلك العالم الزائل الفانى إنه اليوم الذى فيه ﴿ **تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾.

﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾.

وعلى ذلك فإن المسلم يحاول دائمًا أن يتحلل من كل القيود المادية التى تربطه بالأرض متشوقًا إلى الخلود فى الدار الآخرة التى هى خير وأبقى. **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين﴾.**

لكن المسلم لا يعمر آخرته بخراب دنياه ولا يعمر دنياه بخراب آخرته ولكنه يصلح دنياه بالعمل الصالح لآخرته، يقول تعالى: **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾**. ويقول الرسول ﷺ: «خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلاً على الناس». رواه الخطيب فى التاريخ .

إن المسلم يمشى على الأرض بثبات وقوة مجاهداً لإعلاء كلمة الله وإقامة خلافته فيها مستعمراً لخيراتها متفاعلاً مع واقعها مترفعًا عن زخارفها واعيًا لسنن الله الخالدة ومسترشداً بها.

ولأن الدنيا هى دار الفناء ولأن الآخرة هى دار البقاء ولأن الله قد وعد المؤمنين بالرضوان والنعيم المقيم ولأن ما قدر له الفناء مهما طال عمره ليست له أية قيمة بالنسبة لما وعد الله به من خلود أبدى لا نهائى فإن أفعال المسلمين كلها تتحدد بما يرفع من قدرهم ومنزلتهم فى تلك الدار الباقية الخالدة.

فالمسلم يعشق الحقيقة ويعشق الخلود ويعشق الجنة ويعشق الطمأنينة والسكينة والرضا، وغاية عشقه لقاء الله ورضوانه.

ولأن الله وحده هو مالك الوجود فهو وحده الذى يحكم وهو وحده الذى يشرع[1].

وهذه هى المرجعية الإسلامية التى تفصل الإسلام عن غيره من الأنظمة الوضعية وتصنع التناقض مع النظام العلمانى على وجه الخصوص ولكنها من ناحية أخرى تخالف الثيوقراطيات الدينية من خلال نظرية الخلافة التى تجعل المرجعية إلى الشريعة الإلهية المتمثلة فى الكتاب والسنة اجتهاداً بشريًا يقبل الصواب والخطأ، أى أفعالاً بشرية لا معصومية فيها فالكل يخطئ ويصيب إلا صاحب الرسالة الذى أكمل الله الدين على يديه ﷺ.

فالله هو الحاكم الأعلى والواضع الوحيد لأصول الحكم فى الإسلام، أما الحاكم البشرى فهو الخليفة أو الإمام الذى تنتخبه الأمة لكى يسوسها بما يتفق مع هذه الأصول ولذلك فإن هذا

---

(١) الفيلسوف روجيه جارودى: الإسلام دين المستقبل.

الحاكم يجب أن يكون أكثر المسلمين حرصًا واجتهادًا على تطبيق هذه الأصول على متغيرات الواقع، ومن هذا نفهم عدم التعارض بين كون حاكمية الأمة لله وحده وبين قابلية أحكام الحاكم البشرى للأخذ والرد وعرضتها للصواب والخطأ، لأن النقد الذى قد يقع على هذه الأحكام يقع فى الحقيقة على صحة اجتهاد الحاكم البشرى فى تطبيق أحكام السماء على متغيرات الواقع دون أن يمثل ذلك اعتراضًا أو نقدًا لأحكام السماء ذاتها.

وكل إنسان هو خليفة لله فى أرضه ومسئول عن تلك الخلافة والتى تعنى إعلاء كلمة الله وإقامة شرعه وتحقيق العبودية له.

ولهذا فالأمة الإسلامية جميعها مسئولة عن تحقيق خلافة الله فى أرضه وإقامة حكمه وعدله، فالحاكم الوحيد فى الأمة الإسلامية هو الله والأمة جميعها مسئولة عن تطبيق أحكام الله الحاكم الأعلى، أما الخليفة أو الحاكم البشرى للأمة فهو أكثر الأشخاص اجتهادًا وحرصًا على تطبيق هذه الأحكام ومن هذا الاجتهاد والحرص على تطبيقها يستمد سلطته وحكمه، وجماهير الأمة المسلمة المسئولة عن تطبيق أحكام الله هى التى تختار من أبنائها أكثرهم حرصًا واجتهادًا فى تطبيق هذه الأحكام، وهى التى تعزله عن سلطاته إذا تراخى أو أهمل فى تطبيقها، فالأمة كلها قيومة على أحكام الله وراعية لها ومسئولة عنها، وبهذا يكون القائم بكل أمور الحكم هو جماهير الأمة، أما الحكم نفسه فهو لله رب الوجود.. أى أن الشعب هو الذى يحكم نفسه ولكن بما أنزله الله من أحكام.

وكذلك فإن المشرع الوحيد هو الله، هو الواضع للأصول الثابتة فى التشريع وهو الذى شرع لمجتهدى الأمة الاجتهاد فى الفروع المتغيرة منه «وهى أغلب التشريع» لاستخلاص الأحكام الملائمة للواقع المتغير ولكن بشرط اتفاق هذه الاجتهادات مع مقتضيات الأصول.

ولأن الله هو مالك الوجود وحده فإن الملكية فى الإسلام ليست ملكية مطلقة، ولكنها ملكية تحمل صاحبها مسئولية كبيرة ووظيفة عظيمة وهى خلافة الله على هذه الأموال التى يمتلكها، وهذه المسئولية لا تحرم صاحبها من الانتفاع أو الاستمتاع بما يملك، وإنما تفرض عليه مجموعة من الالتزامات التى تستهدف الصالح العام للأمة كالرعاية لتلك الأموال والحفاظ عليها من التبديد أو التلف وحمايتها من الأعداء والاستثمار الدائم لها وتأدية حقوق الفقراء والمحتاجين فيها لأنه إذا جاع جائع فى الأمة فلا مال عند ذاك لأحد، وكذلك فإن على مالك هذه الأموال الالتزام بالتوجهات التى يوجهها له الخليفة الذى يمثل إرادة الأمة فى إدارة هذه الأموال، وذلك بهدف تحقيق الصالح العام من هذه الأموال.

والمجتمع الإسلامى مجتمع يقوم على فرضية المساواة المطلقة بين أبنائه أمام أحكام الله،

على حد قول الرسول ﷺ : «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». ولا تفاضل بين أبناء هذا المجتمع إلا بالتقوى لأن «كلكم لآدم وآدم من تراب» و«الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

ولكن هذه التقوى ليست ميزة أو حصانة أو خصوصية تحجب صاحبها عن تطبيق الأحكام الشرعية عليه أو ترفعه عن الخضوع لنفس الأحكام التى تطبق على غيره، هذا فضلاً عن كونها لا تمنحه أى قدر من الكهنوت أو الوصاية على المسلمين، فالإسلام بذاته حرب لا هوادة فيها على كل الأشكال الكهنوتية والطاغوتية، ولأن أهم ما تعنيه شهادة أن لا إله إلا الله هو إقرار الألوهية لله وحده والقضاء على كل الوسائط التى تحول بين الإنسان وربه وتحرير الإنسان من كل الوصاياوالتكهنات والتحكمات والقيود الجاهلية التى تحاول التدخل فى شكل وحقيقة العلاقة بينه وبين ربه.

إنه مجتمع يدعو رسوله ﷺ إلى أن يقتص منه من أثخن له ظهراً (لو كان هناك من أثخن له ظهراً)، ويتنازع فيه خليفته «على بن أبى طالب» مع يهودى على درع له فيحكم القاضى لليهودى لعدم وجود بينة مع الخليفة، وينزل القرآن على الرسول ﷺ ليبرئ بنى قريظة (أعدى أعداء الرسول) ويدين بيتًا من بيوت الأنصار (أى أنصار الرسول وأقرب المقربين إليه) بتهمة سرقة درع لأحد المسلمين، إنها المساواة الحقيقية، مساواة بين البشر من حيث كينونتهم كبشر «ولقد كرمنا بنى آدم»، ومن حيث وجودهم الفعلى كأناس يعاملون بعضهم بعضًا ومن حيث مراكزهم القانونية الحقيقية كرعايا خاضعين للشريعة والقانون، ومن حيث قيمتهم الاجتماعية التى تمنع أن يكون أى أساس للتفاضل بينهم غير تقوى الله عز وجل.

فهذه هى المساواة الحقيقية، وهذا هو العدل الحقيقى وليست المسألة مسألة توزيع حسابى متساوٍ للنقود والثروات دون أن يعنى ذلك مساواة حقيقية فى الحقوق والكرامة.

فالإسلام ينظر إلى الثروات على أنها إحدى القدرات أو الهبات التى ينعم الله بها على عباده مثلها فى ذلك مثل الصحة والقوة والذكاء والجمال والجاه والسلطان والعصبية وغير ذلك من النعم التى ينعم الله بها على عباده، ولأننا لا نملك توزيع هذه النعم والقدرات على البشر توزيعًا حسابيًا متساويًا يكون من الظلم المجحف توزيع الأموال على البشر توزيعًا متساويًا لأن ذلك سوف يؤدى إلى اختلال الميزان المتكافئ لمجموع هذه الهبات والقدرات والنعم.

ولكن الذى يهدف إليه الإسلام فى هذه الأمور هو تنظيم وتوجيه ومراقبة هذه القدرات بحيث لا يطغى إحداهاعلى الآخرى فكما أن الإسلام يحارب الكبر والعجب بالنفس والبطش

بالناس والدعوة إلى العصبيات فإنه يحارب أيضًا تركيز الثروات في يد قلة من الناس بينما يعاني باقي أبناء الأمة من الفقر والحرمان والجوع أو كما يقول القرآن عن المال «كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم»، ولذلك عمل الإسلام على ترشيد الانتفاع والاستغلال السليم لثروات أبنائه، حتى لا تكون الثروة دافعًا لطغيان الغني أو لبث الحقد في قلب الفقير.

ومجتمع المؤمنين مجتمع يسوده الصدق والحب والمودة والتآلف والتراحم وينهى فيه عن سوء الظن والتحسس والتجسس والتنافس والتحاسد والتباغض والتدابر والظلم والاعتداء والخذلان والاحتقار والرياء.. يقول الرسول ﷺ : «مثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثَل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

ويقول الرسول ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا». ويشير إلى صدره، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ،كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وفي هذا المجتمع الرشيد المتآلف تمتلئ صدور المؤمنين ثقة بالله وبالنفس وترتفع رءوسهم عزة وكرامة وشموخًا فهم أعزة أشداء على الكافرين أذلة على أمثالهم من المؤمنين رحماء فيما بينهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، ولهذا فهم في جهاد ورباط دائم إلى يوم القيامة.

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

الإسلام والأديان السماوية السابقة له

أقر الإسلام الأديان السماوية السابقة له واعتبر نفسه مكملاً لها، وكما جاء في القرآن الكريم بعد ذكره لسيدنا إبراهيم عليه السلام قوله تعالى:

﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين. ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يابنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحداً ونحن له مسلمون. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون. وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾. البقرة: ١٣٠-١٣٦

وقرر الإسلام أن التوراة التي أنزلها الله على موسى والإنجيل الذى أنزله على عيسى قد تعرضا للتحريف والتبديل والنقص والزيادة حتى صارا إلى ما هما عليه الآن.

والآيات التالية تبدأ بالحديث عن ذلك بالنسبة لبني إسرائيل ثم بالنسبة للنصارى حيث يقول القرآن: **«فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين. ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون»**. المائدة: ١٣، ١٤

أما موقفه من التوراة والإنجيل كما أنزلها الله فهو التصديق لهما والهيمنة عليهما بحكم كون الرسالة المحمدية هي آخر الرسالات وذلك كما تقول الآيات: **﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به**

فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون. وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم جميعًا بما كنتم فيه تختلفون ﴾، المائدة: ٤٤-٤٨

أما موقفه من المسيح وأمه مريم فقد وضعهما فى مكانه عالية للغاية.. فى أعلى مكانة يمكن أن يصل إليها الارتقاء فى العبودية لله، مع النفى التام لكونهما إلهين من دون الله، حيث يقول القرآن عن مريم والمسيح:

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين. ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون. إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين. قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾، آل عمران: ٤٢-٤٩

ويصف القرآن عبودية المسيح لله وغلو النصارى فيه، فيقول:

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أنى يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً. لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابًا أليمًا ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرا ﴾. النساء: ١٧١-١٧٣

وينفى الإسلام قتل المسيح وصلبه ويقرر أنه شبه لهم وأن الله رفعه إليه حيث يقول القرآن:

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينًا. بل رفعه الله

إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾. النساء: ١٥٧، ١٥٨

ويقرر الإسلام أن دعوته كما قامت على التوحيد والعقل والحقائق الأساسية للأديان السماوية السابقة له قبل تعرضها للتحريف فإنه أراد أن يحل الناس من الأثقال التي حملتها الأديان السابقة إياهم وما التبس بها من كهنوت وأحكام الأحبار والرهبان وذلك كما جاء في القرآن:

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾. الأعراف: ١٥٧

ليس هذا فقط بل إن الإسلام رأى في تدخل الأحبار والرهبان كوسائط كهنوتيين في العلاقة بين الناس وربهم وكذلك تشريعهم الأحكام لهم من عند أنفسهم هو تأليه لهم وإشراك بالله سبحانه وتعالى فقال في اليهود والنصارى: **﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾** . التوبة: ٣١

واتهم الكثير من هؤلاء بأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله واكتناز الذهب والفضة وذلك كما جاء في قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . التوبة: ٣٤

فإذا نظرت إلى مواقف الإسلام تلك من المسيحية على وجه الخصوص ستجد أنها تشكل أهم الركائز التي انطلقت منها الثورات التي تمردت على المسيحية الثالوثية والكنيسة البابوية بعد ذلك.

والقواعد الأخلاقية الأساسية التي تشتمل عليها شريعة الإسلام لا تختلف في شيء عنها في الأديان السماوية السابقة حيث إن أصل الدين واحد، وقد حدد الله وصاياه العشر في القرآن كالتالي:

﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم:

* **ألا تشركوا به شيئًا.**

* وبالوالدين إحسانا.

* ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم.

* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

* ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق

ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون.

* ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشدّه.

* وأوفوا الكيل والميزان بالقسط.

لا نكلف نفسًا إلا وسعها.

* وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى.

* وبعهد الله أوفوا.

ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون.

* وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله

ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . الأنعام: ١٥١ : ١٥٣

أما الخلاف بين شريعة الإسلام وغيرها من شرائع الأديان السماوية السابقة عليه فهو فى أحكام الشعائر بالأساس وجانب من أحكام المعاملات.

ومع ذلك يظل الإسلام دينًا بسيطًا واضحًا أشد الوضوح، محدود التكاليف، يسير التطبيق. فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال (فيما معناه): أرأيت إذا أقمت الصلاة وأديت الزكاة وصمت رمضان وحججت البيت إن استطعت إليه سبيلا وأحللت الحلال وحرمت الحرام. أأدخل الجنة؟.

قال :«نعم».

وقرر الإسلام أنه دين الفطرة وأن الأصل فى فطرة الإنسان التى يولد عليها الشهادة بوحدانية الله والبراءة من الذنوب ومن ثم فقد حرر الإنسان من خطيئة آدم التى حمله إياها ما سبقه من أديان: ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾» . الأعراف: ١٧٢

ويقول القرآن بشكل حاسم: ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ . المدثر: ٣٨

إذن فالإنسان برىء من الخطيئة فى المنظور الإسلامى ولا يحتاج إلى مخلص سوى إيمانه بوحدانية الله. ولكن إيمانه هذا لا ينعزل عن العمل بل هو مقترن به اقترانًا لازمًا، كما عرف الرسول ﷺ الإيمان بقوله: «هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

وهذا العمل هو مدار مسئولية الإنسان أمام الله يوم القيامة ولا شىء غيره **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾** . الزلزلة: ٧، ٨

وبناء على ذلك تتحدد قيمة الإنسان الحقيقية فى شىء واحد هو عمله، وبذلك يتحرر الإنسان من كل تقييم لوجوده يخرج عن نطاق إرادته التى هى محل هذا العمل. وبذلك أيضًا يتم تحرير الإنسان من كل التميزات التى صنعها البشر لإذلاله والحط من كرامته حتى يتمكنوا من الاستعلاء عليه وقهره واستغلاله سواء تمثل ذلك فى الرق أو اللون أو الطبقة أو الوضع المادى أو الاجتماعى.

ولأن الإسلام جاء للناس كافة وجعل معجزته القرآن، وذلك فى إعجاز الناس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، وهو الأمر الذى يعنى أن معجزته تتمثل فى العقل بما يكفل له الديمومة الإنسانية، ومن ثم كان الإسلام هو خاتم الأديان. ولن يكون الله ليجعله كذلك إلا إذا كان قد أهل له القدرة على الاستمرار فى التاريخ ومواكبة متغيراته، وقد تمثلت هذه القدرة على الاستمرار فى عالميته لأنه جاء للناس كافة وإعجازه العقلى المتمثل فى التحدى القرآنى وحفظ قرآنه من التحريف والتبديل حيث يقول سبحانه وتعالى: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** وكذلك فى جمع أحكامه بين الثابت والمتغير حتى تواكب متغيرات الواقع دون أن تفقد قدسيتها.

٥

نظرة كلٍّ من الغرب والإسلام إلى الحملات الصليبية

تمهيد :

يقول ديورانت : «كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حد، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى ، ولكنه كان في العادة شفيقًا على الضعفاء رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموًا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلف الدين الإسلامي الخاطئ في ظنهم رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحد . وكان يعامل خدمه أرق معاملة ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب ولم يترك في خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارًا واحدًا» .

ملحوظة : قضى فيليب الرابع ملك فرنسا على فرسان المعبد في أوائل القرن الرابع عشر بعد اتهامهم بأبشع التهم الأخلاقية .

يذهب ول ديوارنت إلى أن أسباب الحملات الصليبية تتلخص فى زحف الأتراك السلاجقة وانتزاعهم بيت المقدس من يد الفاطميين فى عام ١٠٧٠م وما حاق بالإمبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة بعد استيلاء الأتراك السلاجقة على أغلب آسيا الصغرى وعلى نيقية ذات الماضى التاريخى الدينى وقد أخذوا يتطلعون إلى القسطنطينية نفسها حيث استطاع الإمبراطور الكسيوس الأول (١٠٨١ - ١١١٨) أن يحتفظ بجزء من آسيا الصغرى بعقد صلح مذل ولكنه لم تكن لديه القدرة الحربية على صد الغارات التى توالت بعدئذٍ على أملاكه فأرسل يستحث أوروبا اللاتينية (الغربية) لتساعده على صد هجمات الأتراك.

وثالث الأسباب المباشرة هو رغبة المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوا والبندقية فى توسيع ميدان سلطانها التجارى الآخذ فى الازدياد[١].

ويذهب هـ. جـ. ويلز إلى نفس الأسباب ويضيف إليها أنه «كانت هناك الخطة الهادئة المضبوطة التى رسمتها الكنيسة اللاتينية الطموحة الحرة لإخضاع الكنيسة البيزنطية الخاضعة للإمبراطور والحلول محلها. وكانت هناك غريزة النهب الذى لا حد له لدى النورمانيين (غزاة من شمال أوروبا) الذين كانوا يمزقون إيطاليا ويبعثرونها أشلاء، وسرعان ما حولت وجهتها آنذاك إلى مغانم جديدة أوفر ثراءً، وفضلاً عن ذلك؛ فقد حدث فى عامى (١٠٩٤، ١٠٩٥) وباء ومجاعة امتداداً من نهر الشلت إلى بوهيميا وترتب عليهما اختلال اجتماعى بليغ... ولاعجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة شأن ما يحدث فى الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو منطقة للذهب حديثة الكشف.. تيار يحمل فى أمواجه العكرة أدرانًا كثيرة من المشردين والمفلسين ومتتبعى المعسكرات والباعة المتجولين والرهبان اللاجئين والأشرار الفارين، موسوم بنفس سمة الخليط المتعدد الألوان ونفس حمى الحياة ونفس التأرجحات بين الثراء والإدقاع التى تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم»[٢].

ويضيف المؤرخون المسلمون (خصوصًا المحدثين منهم) إلى ذلك سببًا آخر وهو المتعلق بتلك الرواية (التى يوافقهم فيها بعض المؤرخين الغربيين) عن قيام شخص يسمى بطرس الناسك ظل يجول بلاد أوربا وهو يقص على الناس كذبًا قصة حجه إلى بيت المقدس وما رآه من ضروب الغصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعمدة التى ينزلونها

---

(١) راجع قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ١١ : ١٣.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية، مج٢ ج١ ص ٨٨٢.

بالحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة. وظل يفعل ذلك وهو حافى القدمين وفى ثياب خشنة ممتطيًا حمارًا وحاملاً صليبًا ضخمًا وكان يخطب فى كل مكان فيه جماهير ضخمة سواء فى كنيسة أو جامع أو سوق يحث الناس على الحرب من أجل الأراضى المقدسة.

وأيًا كانت أسباب الحملات الصليبية فقد كانت هى فى ذاتها سببًا للتلاقى الكبير بين الإسلام وأوربا الغربية (حيث سبق ذلك تلاقٍ على نحو أقل فى إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا، أما أوربا الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية فقد كانت فى صدام شبه دائم مع الإسلام انتهى بخضوعها الكامل للأتراك العثمانيين فى القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادى). وقد كشف هذا التلاقى عن مدى التباين الشديد فى الفوارق الحضارية والإنسانية بين الجانبين كما سجله المؤرخون الغربيون أنفسهم.

وقد بدأت الحملة الصليبية الأولى بجحافل من الهمج والدهماء الذين لم يستطيعوا انتظار موعد رحيل الجيوش النظامية الذى حدده البابا إربان فى أغسطس ١٠٩٦ ولكنهم ما وصلوا إلى بلاد المجر حتى أعملوا السلب والنهب والاغتصاب فأعمل المجريون القتل فيهم وأغلقت المدن أبوابها فى وجوههم، فلما بلغوا القسطنطينية أراد الإمبراطور أن ينقذ عاصمته من هذه الجموع الفتاكة فأمدهم بالسفن التى عبرت بهم إلى البوسفور وأرسل إليهم المؤن وأمرهم بالانتظار حتى مجىء الجيوش النظامية ولكنهم بدلاً من ذلك زحفوا إلى نيقية فأبادهم المسلمون الأتراك عن آخرهم.

أما الجيوش النظامية للصليبيين والتى قدرها بعض المؤرخين بمئات الألوف فقد وصلوا إلى أورشليم بعد حروب دامت ثلاث سنين لم يستطيعوا أن ينتصروا فيها على الأتراك فى الشمال انتصارًا حاسمًا ولكنهم واجهوا مقاومة أضعف كثيرًا من الإمارات الإسلامية المنقسمة على نفسها فى الجنوب.

ومن يقرأ الكامل لابن الأثير سيجد نفسه غارقًا فى عشرات الصفحات التى لا تتحدث إلا عن جهود صلاح الدين فى التوحيد بين الإمارات والقطائع حتى يكاد يكون القسم الأكبر من جهاده هو من أجل ضم إمارة أو مدينة أو حتى قرية أو غير ذلك من الدويلات الإسلامية التى يصعب على المرء سرد أسمائها، الأمر الذى يعبر عن مدى الفرقة التى كانت بين المسلمين فى هذه المناطق، وكان ذلك هو السبب الذى يسَّر للصليبيين غزوها حتى تم لهم فى النهاية احتلال بيت المقدس فى يونيه عام ١٠٩٩.

ترى ما الذى حدث عندما احتل الصليبيون (الغربيون) بيت المقدس؟ إن المقارنة هنا بالغة الأهمية بين هذا الذى حدث والذى حدث بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس بعد ذلك.

والمؤرخون الغربيون أنفسهم هم الذين يهتمون بعقد هذه المقارنة وسنأخذ هنا بشهادة اثنين من أهم هؤلاء المؤرخين الغربيين هما ول ديوارنت وهـ. جـ. ويلز.

أما ديورانت فيذكر التالي:

«يقول القس ريمند الإجيلي شاهد العيان: وشاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رءوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميًا بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا فى النار، وكنت ترى فى الشوارع أكوام الرءوس والأيدى والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل...

ويروى غيره من المعاصرين تفاصيل أدق من هذه وأوفى، يقولون إن النساء كن يقتلن طعنًا بالسيوف والحراب والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رءوسهم بدقها بالعمد وذبح السبعون ألفًا من المسلمين الذين بقوا فى المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيسة وأشعلت فيهم النار وهم أحياء»[1].

* أما هـ. جـ. ويلز فيقول:

«كانت المذبحة رهيبة وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع حتى لقد كان الرجال يصيبهم رشاش الدم وهم ركوب، وعندما أرخى الليل سدوله، جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح إلى الناقوس المقدس بعد خوضهم فيما أريق من دم سال كالخمر من معصرة العنب. ورفعوا جميعًا أيديهم الملطخة بالدماء يصلون شكرًا لله».

أما الذى حدث بالنسبة للمسيحيين الشرقيين أنفسهم إبان حكم الصليبيين على مملكة بيت المقدس فيذكر ديورانت عن ذلك: «أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التى مرت بالبلاد»[2].

وما أن تحرك عماد الدين زنكى ثم من بعده ابنه نور الدين لاسترداد بيت المقدس حتى كان ذلك دافعًا لقيام الحملة الصليبية الثانية والتى دعا إليها القديس برنار والذى كان أكثر تأثيرًا على أوروبا المسيحية من البابا نفسه حيث كان القديس برنار سببًا فى توليته عرش البابوية.

وقاد الإمبراطور كنراد الثانى والملك لويس ملك فرنسا الحملة الثانية بنفسيهما عام

---

(١) قصة الحضارة، مج ٨ ج١، ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

١١٤٧ فسحقت جيوش المسلمين الأتراك جيوش الألمان حتى لم ينج منهم أكثر من واحد من كل عشرة، أما الجيش الفرنسى فقد حاول لويس نقله بطريق البحر إلى أنطاكية لكن البحارة اليونان طالبوا بأجور باهظة فانتقل لويس مع نبلائه وسرب من السيدات إلى بيت المقدس تاركًا جيشه فى إيطاليا التى انقض عليها الأتراك المسلمون وقتلوا كل الجنود الفرنسيين.

ويذكر ديورانت أنه فى عام ١٨١٣ «ساء الرحالة ابن جبير أن يرى عكا غاصة بالخنازير والصلبان تفوح منها رائحة الأوربيين الكريهة ولكنه يأمل أن يتحضر المسيحيون بالحضارة التى وفدوا إليها والتى هى أرقى من حضارتهم»[١].

وعن مثل هذه الفروق الحضارية بين الجانبين يروى القائد العظيم أسامة بن منقد «أن صاحب حصن المنيطرة - وهو صليبى - كتب إلى بنى منقذ وهم جيرانه العرب فى حصن شيزر، يطلب منهم إرسال طبيب يداوى بعض مرضى الصليبيين فأرسلوا إليه طبيبًا اسمه ثابت. ولم تمض عشرة أيام على ذهاب الطبيب العربى حتى قفل راجعًا من حيث أتى مما أثار دهشة أصحابه فقالوا له: ما أسرع ما داويت المرضى!. فرد عليهم قائلاً: احضروا عندى فارسًا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيئًا يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك: تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ فقال أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لى فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها. فضربه - وأنا أراه - ضربة واحدة ما انقطعت. فضربه ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة وقال: هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل رأسها. فأخذ الموسى وشق رأسها صليبًا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت من وقتها، قلت لهم: بقى لكم إلى حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه!!»[٢].

واستطاع الكردى صلاح الدين الأيوبى (وهو ابن أخ شيركوه القائد العظيم بجيش نور الدين زنكى) أن يوحد الإمارات والمدن الإسلامية المتنافسة وينقذ عرش مصر من السقوط فى يد الفرنجة الزاحفين عليه من بيت المقدس ومن ثم يحل محل الدولة الفاطمية المتهاوية فى مصر وهكذا أخضع لسلطانه مصر وسوريا الإسلامية عام ١١٧٥.

---

(١) قصة الحضارة، مج٨ ج١، ص ٣٥.

(٢) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار.

وفى ظل تنافس أشراف الصليبيين على الحكم فى بيت المقدس نصب رينالد مير شاتيو نفسه أميراً مستقلاً فى قلعة الكرك العظيمة وراء نهر الأردن على حدود بلاد العرب وكثيراً ما خرق اتفاق الهدنة المعقودة بين الملك اللاتينى وصلاح الدين وأعلن عزمه على أن يغزو بلاد العرب ويهدم قبر النبى ﷺ في المدينة ويدك أبنية الكعبة فى مكة، وأبحرت قواته في البحر الأحمر واتجهت نحو المدينة، ولكن سرية مصرية باغتتها وقتلتها عن آخرها إلا عدداً قليلاً فروا مع رينالد وبعض الأسرى عام ١١٨٣.

ويعبر هذا الحدث عن مدى الإجرام الذى تمتع به بعض قادة الصليبيين من أمثال شاتيو هذا.

فلما رأى صلاح الدين ما فعله شاتيو هاجم قوات المملكة اللاتينية (مملكة الصليبيين الغربيين ببيت المقدس) عند مرج ابن عامر عام ١١٨٣ ثم هاجم شاتيو فى الكرك عام ١١٨٥ ثم وقع مع المملكة هدنة تدوم أربع سنين ولكن شاتيو مل فترة السلم فاعترض قافلة للحجاج عام ١١٨٦ وقتل عدداً كبيراً منهم.

وأعلن بإجرامه المعهود: «إذا كانوا يثقون بمحمد فليأت لينقذهم». فجاءه رجل من رجال محمد ﷺ وهو صلاح الدين وقتله بيده وكان قد أقسم على ذلك بعد أن رأى جرائمه وذلك بعد انتصاره الحاسم على جيوش الفرنجة فى حطين، هذا فى الوقت الذى عفا فيه عن الملك جاى ملك الصليبيين ببيت المقدس.

ومقارنة بما فعله الصليبيون بعد استيلائهم على القدس يصف ول ديورانت ما فعله صلاح الدين بعد استرداده لها فيقول:

«ولما اقترب من بيت المقدس خرج إليه أعيانها يعرضون عليه الصلح، فقال لهم إنه يعتقد كما يعتقدون هم أن هذه المدينة بيت الله، وإنه لا يرضيه أن يحاصرها أو يهاجمها، وعرض على أهلها أن تكون لهم الحرية الكاملة فى تحصينها، وأن يزرعوا ما حولها من الأرض إلى ما بعد أسوارها بخمسة عشر ميلاً دون أن يقف أحد فى سبيلهم، ووعدهم بأن يسد كل ما ينقصهم من المال والطعام إلى يوم عيد العنصرة، فإذا حل هذا اليوم ورأوا أن هناك أملاً فى إنقاذهم، كان لهم أن يحتفظوا بالمدينة، ويقاوموا المحاصرين مقاومة شريفة، أما إذا لم يكن لهم أمل فى هذه المعونة فإن عليهم أن يستسلموا من غير قتال، وتعهد فى هذه الحال أن يحافظ على أرواح السكان المسيحيين وأموالهم ورفض المندوبون هذا العرض، قالوا إنهم لن يسلموا المدينة التى مات فيها المسيح منقذ الخلق. ولم يطل حصار المدينة أكثر من اثنى عشر يوماً، ولما أن استسلمت بعدها فرض صلاح الدين على أهلها فدية قدرها عشر قطع من الذهب عن كل رجل، وخمس قطع عن كل امرأة، وقطعة واحدة عن كل طفل، أما فقراء أهلها البالغ

عددهم سبعة آلاف فقد وعد بإطلاق سراحهم إذا أدوا إليه الثلاثين ألف بيزانت (٢٧٠,٠٠٠ ريال أمريكي) التي بعث بها هنري الثاني ملك إنجلترا إلى فرسان المستشفى، وقبلت المدينة هذه الشروط «بالشكر والنحيب» على حد قول أحد الأخباريين المسيحيين، ولعل بعض العارفين من المسيحيين قد وازنوا بين هذه الحوادث وبين ما جرى في عام ١٠٩٩ . وطلب **العادل أخو صلاح الدين أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين بقوا من غير فداء، فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعًا؛ وطلب باليان Balian زعيم المقاومين المسيحيين هدية مثلها**، وأجيب إلى ما طلب، وأعتق ألفًا آخرين، وحذا حذوه المطران المسيحي وفعل ما فعل صاحبه، وقال صلاح الدين إن أخاه قد أدى الصدقة عن نفسه، وإن المطران وباليان قد تصدقا عن نفسيهما، وإنه يفعل فعلهما، **ثم أعتق كل من لم يستطع أداء الفدية من كبار السن؛ ويلوح أن نحو خمسة عشر ألفًا من الأسرى المسيحيين بقوا بعدئذ من غير فداء فكانوا أرقاء**، وكان ممن افتدوا زوجات وبنات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا في واقعة حطين، ورق قلب صلاح الدين لدموع أولئك النساء والبنات **فأطلق سراح من كان في أسر المسلمين من** أزواجهن وآبائهن (ومن بينهم جاى) أما **«النساء والبنات اللاتي قتل أزواجهن وآباؤهن فقد وزع عليهم من ماله الخاص ما أطلق ألسنتهن بحمد الله، وبالثناء على ما عاملهن به صلاح الدين من معاملة رحيمة نبيلة»، ذلك ما يقوله إرنول Ernoul مولى باليان.**

وأقسم الملك والنبلاء الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح ضده مرة أخرى، ولكنهم ما كادوا يشعرون بالأمن في طرابلس وأنطاكية المسيحيتين حتى أحلهما حكم رجال الدين من يمينهما المغلظة؛ وأخذوا يدبرون الخطط للثأر من صلاح الدين. وأجاز السلطان لليهود أن يعودوا إلى السكنى في بيت المقدس، وأعطى المسيحيين حق دخولها، على أن يكونوا غير مسلحين، وساعد حجاجهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم»[١].

أدى سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة وبدأت بزحف جيش الإمبراطور فردريك بربروسا، لكن المسلمين الأتراك قضوا على جيشه قبل أن يصل إلى فلسطين. فقاد الحملة بعد ذلك ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا بجيوش جرارة استطاعت الاستيلاء على عكا في عام ١١٩١ . ثم رحل فيليب إلى فرنسا تاركًا إمارة جيشه لريتشارد الذى لم يستطع أن يحرز انتصارًا حاسمًا على صلاح الدين الأمر الذى جعله يضطر أن يعقد الصلح معه في النهاية ويعود إلى حيث أتى دون أن يحقق هدف الصليبيين في استرداد بيت المقدس.

---

(١) قصة الحضارة: مج ٨ ج١ ص ٣٧، ٣٨.

ترى كيف يصور المؤرخون الغربيون أنفسهم أفعال صلاح الدين فى مقابل الأفعال الشائنة للقادة الصليبيين؟

يقول ديورانت في ذلك: «كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حد، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى، [قضى فيليب الرابع ملك فرنسا على فرسان المعبد في أوائل القرن الرابع عشر بعد اتهامهم بأبشع التهم الأخلاقية](*) ولكنه كان فى العادة شفيقًا على الضعفاء رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه فى وفائه بوعده سموًا جعل المؤرخين المسيحيين [المضللين بالمعلومات المغلوطة عن الإسلام](*) يعجبون كيف يخلف الدين الإسلامى الخاطئ فى ظنهم رجلاً يصل فى العظمة إلى هذا الحد. وكان يعامل خدمه أرق معاملة ويستمع بنفسه إلى مطالب الشعب جميعها وكانت قيمة المال عنده لا تزيد على قيمة التراب ولم يترك فى خزانته الخاصة بعد موته إلا دينارًا واحدًا»(١).

أدى موت صلاح الدين إلى بعث الآمال الجديدة فى قلوب العالم المسيحى فدعا البابا انسونت الثالث إلى قيام حملة صليبية جديدة ووافقت البندقية (إحدى جمهوريات إيطاليا فى ذاك العصر) على أن تقدم تمويلاً كبيرًا للحملة على أن تتقاضى نصف الغنائم الحربية فى مقابل ذلك. وجاء الصليبيون من فرنسا كما جرت العادة بذلك (وهذا سر وصف المسلمين الدائم لهم بالفرنجة). وحدث أن نقص المبلغ الباقى الواجب أداؤه من قواد الحملة للبندقية والمتفق عليه بينهما حتى تستطيع إمداد الحملة بكامل المدد والعتاد، فعرضت البندقية التنازل عن هذا المبلغ فى مقابل مساعدتها فى فتح مدينة «زارا» وكانت حين ذاك من أملاك المجر.

ووصف البابا هذا الاقتراح بأنه دنىء لكن الصليبيين استولوا عليها بعد خمسة أيام وقسموا الغنائم فيما بينهم. ثم أرسلوا إلى البابا يرجون منه المغفرة فغفر لهم ولكنه طلب إليهم أن يردوا الغنيمة. فشكروا له غفران الخطيئة واحتفظوا بالغنيمة وتجاهل البنادقة أمر الحرمان وخطوا الخطوة التالية لتنفيذ القسم الثانى من مشروعهم وهو الاستيلاء على القسطنطينية نفسها!.

واستطاع الصليبيون اللاتين (الأوربيون الآن) الاستيلاء على المدينة عام ١٢٠٤. وانقضوا على المدينة الغنية فى أسبوع عيد الفصح وأتوا فيها من ضروب السلب والنهب مالم تشهده من قبل.

وكان أن رأى بعض الجنود الغربيين ـ قبل السقوط الكامل للمدينة ـ جماعة من المسلمين

(*) ما بين المعكوفين للمؤلف.

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ٤٤، ٤٥.

يصلون في مسجد مقام بالمدينة فثارت ثائرتهم وقتلوا المصلين وظلت النار مشتعلة ثمانية أيام وامتدت إلى مسافة ثلاثة أميال وأحالت جزءاً كبيراً من القسطنطينية رماداً وأنقاضاً(١).

وفي عام ١٢١٢ قاد الحماس الديني حملة للأطفال الذين لا يزيد متوسط عمرهم على الثانية عشرة وانطلقت في فوجين: الفوج الأول من ألمانيا وبلغ ثلاثين ألف طفل أهلك الجوع والذئاب عدداً كبيراً منهم في الطريق وما بلغوا إيطاليا حتى لاقوا الأمَرّين من سخرية الإيطاليين ثم نصحهم البابا بالعودة إلى بلادهم فعاد القسم الأكبر منهم إلى بلادهم حزانى مكتئبون ومنهم من استقر في جنوى لتعلم التجارة. وانطلق من فرنسا عشرون ألفاً من الأطفال وعندما وصلوا إلى مرسيليا استدرجهم الإيطاليون إلى أشر مصير حيث أغروهم بنقلهم بالسفن عن طريق البحر ثم أخذوهم وباعوهم في أسواق الرقيق. وقد شنق الإمبراطور فريدريك الثاني أصحاب تلك السفن(٢).

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت وجه البابا أنوسنت الثالث الدعوة مرة أخرى إلى أوروبا لاستعادة الأراضي المقدسة وانطلقت الحملة الصليبية الخامسة من ألمانيا والنمسا والمجر عام ١٢١٧ بقيادة آندرو ملك المجر واتجهت إلى مصر وأفلحت في الوصول إلى دمياط ولم تفلح في شيء آخر وعادت البقية الباقية من هذه الحملة مجللة بالخزى عام ١٢٢١(٣).

وعزا الصليبيون هذه المأساة إلى فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا الشاب، ذلك أنه أقسم يمين الصليبيين في عام ١٢١٥ أن ينضم إلى الجيوش المحاصرة لدمياط ولكن المشاكل السياسية القائمة وقتئذ في إيطاليا منعته، والأهم من ذلك موقفه الخاص من المسيحية والإسلام والذى سنقف أمامه طويلاً. وتحت الضغوط المضاعفة زحف أعجوبة العالم (كما يسميه ول ديورانت) الإمبراطور فريدريك الثاني عام ١٢٢٨ إلى الشرق وكان مطروداً من حظيرة الدين المسيحي ومحروماً من الكنيسة، وفطن الملك الكامل لما ينطوى عليه هذا الإمبراطور من خصوصية تجعله أقرب ما يكون إلى المسلمين وأبعد ما يكون عن المسيحيين فوقع معه معاهدة سلمه بمقتضاها بيت المقدس.

ويبدو أن الفرنجة ببيت المقدس كانوا على علم بحقيقة الرجل فلم يجد أية معونة منهم وما إن رجع فريدريك العجيب إلى بلاده حتى استولوا هم أنفسهم على بيت المقدس بدلاً من رجال

(١) راجع ول ديورانت، قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ٥٠.

(٢) راجع ول ديورانت، قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ٥٤، وكذلك ج. ويلز. معالم تاريخ الإنسانية، مج٢ ج١ ٢ ٨٩٠. ٨٩١.

(٣) راجع ول ديورانت، ص ٥٥، ٥٦ وكذلك ويلز: ص ٨٩١ وكذلك د. سعيد عبدالفتاح، أضواء على الحروب الصليبية، ص ٣٨، ٣٩.

فريدريك. ولكن المسلمين الأتراك جاءوا من خوارزم وحرروا المسجد الأقصى مرة أخرى والذى ما لبث أن استقر فى يد السلطان المصرى مرة أخرى.

وبينما كان البابا أنوسنت الرابع يدعو إلى حرب صليبية على فريدريك الثانى ويعرض على كل من يقاتلون الإمبراطور فى إيطاليا نفس المنح والمزايا التى يمنحها من يخدمون فى الأراضى المقدسة، نظم لويس التاسع أو القديس لويس ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة. وإذا ما تأكد لدى البابا عزم لويس على الانطلاق بحملته بعث إلى خان المغول الأعظم يعرض عليه اتحاد المغول والمسيحيين على الأتراك .

ورد عليه الخان بأن طلب خضوع البلاد المسيحية للمغول. وواضح أن البابا الذى كان يعلم جيداً ما يفعله المغول الوثنيون من شنائع رأى أن يضع يده فى يد الشيطان من أجل القضاء على المسلمين.

واستطاع لويس الاستيلاء على دمياط بعد انسحاب استراتيجى للمماليك الذين كانوا على غير الاستعداد للمواجهة فى ظل الظروف التى فرضها مرض السلطان نجم الدين الصالح أيوب ثم أحاط المماليك بالفرنجة فى المنصورة وقتلوا وأسروا الفارين منهم فى فارسكور وتم أسر لويس نفسه، ثم تم الإفراج عنه بعد دفع فدية كبيرة[١].

يقول ول ديورانت مستعرضاً الأخلاق الإسلامية فى مقابل أخلاق الغرب الصليبى: «ولما قبل لويس هذه الفدية الباهظة أنقص منها السلطان خمسها وقبل نصف الباقى ووثق بعهد قطعه الملك على نفسه أن يؤدى إليه النصف الآخر وسار الملك [لويس الذى عطف عليه المسلمون بإعفائه من أغلب الفدية] وأقام أربع سنين يدعو فيها أوربا فى غير طائل إلى أن تكف عن الحروب فيما بينها. وأن تنضم إليه فى حرب جديدة، وبعث فى هذه الأثناء إلى خان المغول يعرض عليه مرة أخرى التحالف ضد المسلمين»[٢].

وعادة ما يذكر المؤرخون هذه الحروب الصليبية السبعة لكن الحقيقة «أنه منذ وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ وحتى طرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ لم يمر عام واحد تقريباً دون وصول جمع أو أكثر من الحجاج الصليبيين إلى الشرق وبعض هذه الجموع فاقت فى أعدادها وفى أهمية ما قامت به من أعمال فى الشرق الحملات الصليبية المعروفة، ومع ذلك فإنها لم تحظ بتشريف خاص أو رقم عددى يضفى عليها شيئاً فى

(١) راجع د. سعيد عبدالفتاح عاشور. أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص ٤٣، ٤٤.
(٢) قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ٥٨.

التاريخ. وربما كان السر في هذه الظاهرة هو أن الحملات المرقمة المشهورة إنما اكتسبت أهمية خاصة لما أصابته من نجاح أو فشل استرعى الانتباه، أو لأنه كان على رأسها بعض الملوك والأباطرة الغربيين الذين تمتعوا بشهرة خاصة في التاريخ»(١).

أثر الحروب الصليبية

دون أن نتورط في حديث يطول عن تأثير الحضارة الإسلامية المتفوقة على الحضارة الغربية المتخلفة في العصور الوسطى خصوصًا أننا قديمًا قد عالجنا هذا الأمر في كتابنا (حقيقة العلمانية) فإننا لابد أن نشير هنا إلى أهم هذه التأثيرات إبان الحروب الصليبية على وجه الخصوص.

ونستطيع أن نقول إن كل ما يتعلق بالتقدم العلمي المادي في العالم الإسلامي استفاد منه الغرب الصليبي الذي التقى به في هذه الحروب وما يذكره المؤرخون في هذا السياق قد يثير دهشة القراء في هذا العصر بداية من الصناعات الزجاجية أو الخزفية أو النسيجية إلى البوصلة والطباعة والبارود إلى فن الطهي إلى المزروعات خصوصًا قصب السكر الذي لم يكونوا يعرفونه من قبل وكانوا يعتمدون في التحلية على عسل النحل فقط، وكذلك السمسم والأرز والليمون والبطيخ، إلى أساليب العمارة والإدارة المالية، أما ما يتعلق بالشعر والعلوم والفلسفة فإن الصليبيين الغربيين الأقحاف كانوا أبعد ما يكونون عن التأثر بمثل تلك الأمور.

ولكن بالنسبة للعقائد الدينية فإن التحضر الإسلامي الذي واجهه الصليبيون من ناحية والهزائم التي مُنوا بها من ناحية أخرى، كل ذلك كان سببًا في إضعاف العقائد الدينية لدى الغرب المسيحي خصوصًا عند تلاقي هذه المؤثرات العقلية والفلسفية المنطلقة من الغرب الإسلامي في الأندلس.

وكما يقول ول ديورانت:

«فقد قام المتشككون الجريئون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله في أرضه. ولما قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم، بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد ﷺ من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم لأن محمداً ﷺ في رأيهم قد أظهر أنه أعظم من المسيح»(٢).

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح. مرجع سابق، ص ٢٣، ٢٤.

(٢) قصة الحضارة، مج ٨ ج١ ص ٦٧.

ومع ذلك فقد كان أخطر آثار هذه الحروب الصليبية هو ما ترسب فى وعى الشعوب الغربية من روح ثأرية انتقامية حاقدة على الإسلام نتيجة لتلك الهزائم والخسائر الرهيبة التى حاقت بالحملات الصليبية المتلاحقة على العالم الإسلامى دون فائدة وذلك أن عامة الغربيين قد عرفوا «أن الرجال كانوا يذهبون لقتال المسلمين فلا يعود منهم إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين وغالبًا ما يكون ذلك بعد أن تفرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة لهم»(١).

وكان لابد لزعماء أوروبا أن يرسخوا فى الأذهان تلك الصورة الشوهاء عن الإسلام بأنه الدين الدموى الشهوانى الشيطانى القائم على الدجل والسحر والشعوذة حتى بلغ الأمر بشاعرهم دانتى فى كوميديته التى سمًاها بالإلهية أن يضع الرسول ﷺ فى الحجرات السفلى من الجحيم لا يسبقه فى ذلك سوى إبليس نفسه بينما يليه فى الدرجة كل الكفار والمجرمين والملحدين فى التاريخ.

وظل تأثير هذه العقيدة ليس فقط أقوى من تأثير الموقف العلمانى لرجال النهضة على تلك الشعوب ولكنه أيضاً أقوى تأثيراً من الموقف الإلحادى للكثير من الغربيين الآن.

فكما يقول المفكر الغربى المهتدى محمد أسد: «قد يبدو من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد الغربى القديم ضد الإسلام قائماً بطريقة لا شعورية فى زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره فى مخيلة الغربى. بيد أن هذا فى الحق لا يبعث على الدهشة، فنحن نعرف أن شخصاً ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التى لقنها فى طفولته ومع ذلك فإن انفعالاً معيناً ذا صلة بتلك المعتقدات أصلاً يستمر دونما وعى فى حالة العمل إبان حياته فيما بعد. إن خيال الحروب الصليبية لايزال يرفرف فوق الغرب حتى يومنا هذا، كما أن جميع اتجاهاتها وتوجهاتها نحو الإسلام والعالم الإسلامى لاتزال تحمل آثاراً واضحة جلية من ذلك الشبح العتيد الخالد»(٢).

---

(١) هـ.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، مج٢ ج١ ص ٨٨٩.

(٢) راجع محمد أسد. الإسلام على مفترق الطرق.

٦

الثورة على المسيحية الثالوثية البابوية
فى العصور الوسطى

«لست أسعى للفهم لكى أعتقد ؛ بل إنى أعتقد كى أفهم»

القديس أوغسطين

حالة أوربا فى العصور الوسطى والصراع بين الملوك والبابوات

عادة ما يتم وصف العصور الوسطى بالجهل والتخلف والانحطاط وهذا الوصف صادق تمامًا مادام أن المقصود به أوروبا فى هذا الوقت ؛ بينما كانت تلك العصور تمثل قمة ازدهار العالم الإسلامى.

يقول هـ. ج. ويلز واصفًا أوربا الغربية فى العصور الوسطى :

تمر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام، إذ لا دول هناك ولا حكام وكل ما فى الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على قلعة فى ناحية من الريف، ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكمًا غير مستقر. فكانت الجزر البريطانية مثلاً مقسمة بين حشد كبير من الحكام وكذلك كان شأن سائر أقطار العالم الغربى.

فأنت واجد هنا أسقفًا يتولى الملك، كما كان جيرجورى الكبير فى روما وواجد مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما أسرات نصف مستقلة، من مغامرين شبه نبلاء كل يذود عن حياضه ومعه أتباعه وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك، ولكن كان ينافسه فى تلك السيادة ويوجهه تمامًا فى بعض الأحيان شخص يدعى إلى نفسه «دوق روما»[1].

ويقول فى موضع آخر : «إن أوروبا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة، لا قانون لها ولا إدارة، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم، ... كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تذهب دون عقاب وأمن منعدم على وجه العموم.

ومحال أن نقفوا فى هذا المقام أحداث القرنين التاسع والعاشر بأى قدر من التفصيل مترسمين ما جرى فيه من المخالفات والخيانات والادعاءات وصنوف الضيم والاستيلاء فقد كانت تعم أوروبا حالة من الفوضى والخروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان.

وتكاد حالة روما فى القرن العاشر أن تعجز القلم عن أى وصف فإن انحلال أندريه شرلمان ترك البابا ولا حامى له : تهدده بيزنطة والعرب الذين استولوا على صقلية، ويتحرش به نبلاء روما الشرسون. ومن أقوى هؤلاء النبلاء امرأتان هما تيودورا ومارزيا وهما أم وابنتها تعاقبتا

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية مج٢ ج٣.

فى الاحتفاظ بقلعة سانت أنجلو، التى استولى عليها سيوفيلاكت زوج تيودورا النبيل كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية».

نفوذ البابوات وجمودهم الفكرى

أما عن وضع البابوات فى ذلك الوقت فمنذ البداية تقريبًا احتجبت الحقائق الدينية والمثل العليا التى دعا إليها المسيح عيسى عليه السلام واستترت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدنى عقلية. وقد كفت المسيحية منذ بدايتها تقريبًا على أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة. إذ إنها أوقعت نفسها فى شراك التقاليد العتيقة الخاصة بالتضحية الإنسانية، وبالتطهر الدموى لدى «المثرائية» (ديانة تطورت عن الزرادشتية وانتشرت فى حكم القياصرة) وبتفاصيل النواحى الدقيقة لطبيعة الإله.

ومن عجب أن أصبع الحبر الأعظم المخضبة بالدم أصبحت الدعاية المتشددة التى تؤكد للناس تعاليم يسوع الناصرى!! وكذلك أيضًا أوقعها العقل الإغريقى الإسكندرى فى أحبولته بما جبل عليه من تعقيد حتى إذا وقعت الكنيسة فى معمعة هذا التطاحن الذى لا مفر فيه من هذه المتفارقات المتناقضة، اضطرت أن تصبح اعتقادية «دوجماتيقية» متصلبة تأخذ بالمذهب الاعتقادى الحتمى. ذلك أنها حين يئست من بلوغ حلول أخرى لخلافاتها الفكرية التجأت إلى الاستبداد التعسفى.

فأصبح قساوستها وأساقفتها على التدريج رجالاً مكيفين وفق مذاهب واعتقادات قيمية وإجراءات مقررة وثابتة، حتى إذا ما آن أوان توليهم مناصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم فى العادة كهول، قد ألفوا من الكفاح السياسى ذلك الضرب الذى يقصد إلى غاية قريبة مباشرة، ولم يعودوا أهلاً لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره. ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس فقد نسوا ذلك الأمر، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة، التى هى قوتهم هم، متسلطة على شئون البشر. وكانوا فى سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أى شيء من الشهوات المستقرة فى قلوب البشر.

ونظرًا لأن كثيرًا منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة بنيان مبادئهم الضخم المحكم وصحته المطلقة، ولم يسمحوا بأية مناقشة فقد كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون فى مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين منها.

وعندما أقاموا الحروب الصليبية لأهداف سياسية دنيوية تتعلق بهم من الأساس كانوا يأذنون لكل نذل زنيم أو متشرد أثيم بأن ينضم إلى الجيش، وأن يعمل السيف والنار واغتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك

فرنسا مسالمة، والقصص التى تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكى لنا من أضراب القساوة والنضال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة أى استشهاد للمسيحيين على أيدى الوثنيين، وهى فوق هذا تسبب لنا رعبًا مضاعفًا لما هى عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها.

كان هذا التعصب الأسود القاسى روحًا خبيثًا لا يجوز أن يخالف مشروع حكم الله فى الأرض[1].

الصراع بين الملوك والبابوات:

ولقد احتدم الصراع بين الملوك والبابوات منذ عهد البابا جريجورى. فقد كان الحاكم الزمنى هو الذى يقدم إلى البابا الخاتم والعلم اللذين يخلعان على البابا المعين حديثًا بوصفهما رمزاً لمنصبه. ولكن جريجورى أخذ هذا الحق لنفسه كى يدعم السلطة البابوية. ووصلت الأمور إلى حد التصادم عندما عين الإمبراطور رئيسًا جديداً لأساقفة ميلانو فى ١٠٧٥، فهدد البابا بخلع الإمبراطور وحرمانه من بركة الكنيسة، وهنا أعلن الإمبراطور أنه هو السلطة العليا، وأعلن عزل البابا، فانتقم البابا بطرد الإمبراطور والأساقفة من الكنيسة. وأعلن عزلهم بدوره.

وقد استؤنف الصراع حول الترسيم فى عهد البابا إيربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩) الذى عاد إلى استرداد هذه الحقوق لنفسه، وعندما تمرد كونراد ابن هنرى الرابع. على أبيه التمس العون لدى إيربان الذى رحب بتقديم هذا العون. وكانت المدن الشمالية مؤيدة للبابا بحيث كان من السهل غزو لومبارديا كلها. وكذلك أمكن عقد اتفاق مع فيليب ملك فرنسا واستطاع إيربان فى ١٠٩٤ أن يبدأ مسيرة ظافرة نحو لمبارديا وفرن وهناك فى مجمع كليرمون فى العام التالى، دعا إلى الحرب الأولى.

وقد اقترح البابا ألا يتدخل الأباطرة فى الترسيم، مقابل تنازل رجال الدين عن الملكية الدنيوية غير أن أهل اللاهوت كانوا أكثر حرصًا على أمور الدنيا مما يقتضيه هذا الاقتراح الورع.

وهكذا فإن رجال الدين الألمان عندما عرفوا بنصوصه، هبوا ثائرين، ووجه هنرى، الذى كان عندئذ فى روما إنذاراً إلى البابا كيما يستسلم، وتوج نفسه إمبراطوراً، غير أن انتصاره لم يعمر طويلاً فبعد أحد عشر عامًا، أى فى سنة ١١٢٢. استعاد البابا كاليكستومس Calixtms الثانى سلطته فى موضوع الترسيم عن طريق اتفاق ورمز Worms وأسفرت آخر محاولة بذلها باربار وسا لكسر شوكة البابا عن هزيمته فى ليجنانو Legnano عام ١١٧٦. وعقدت بين الطرفين معاهدة صلح غير مستقرة، وقد انضم الإمبراطور إلى الحملة الصليبية الثالثة ومات فى الأناضول عام ١١٩٠[2].

---

(١) راجع ويلز: المرجع السابق.

(٢) راجع برتراند رسل، حكمة الغرب: الجزء الأول.

بعض صور الفساد البابوى:

يصف ويلز[1] تيودورا وابنتها ماروزيا المرأتين اللتين استولتا على معظم السلطة فى ذلك الوقت فيقول: «كانت المرأتان من الجرأة وموت الضمير فى خلاعة أمير ذكر فى ذلك الزمان والمؤرخون يحسبونهما كأنما كانتا أسوأ من الأمراء عشر مرات وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته(٩٢٨) وسرعان ما توفى فى ظل رعايتها!!.. فأما أمها تيودورا فكانت خليلة له ثم نصبت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعى على عرش البابوية باسم يوحنا الحادى عشر ومن بعده شغل كرسى القديس بطرس حفيدها يوحنا الثانى وإن ما سطره جيبون عن سلوك يوحنا الثانى عشر وأخلاقه ليتوارى آخر الأمر خجلاً وراء ستار من الهوامش اللاتينية».

«واستطاع البابا (٩٣٨ - ٩٦٤) أن يستولى على أموال الكنيسة وأن يجعلها ماخوراً وأن يحكم روما والعالم المسيحى بمعاونة العشيقات، ولم يكن أحد ليجهل سيرة البابا إسكندر السادس ١٤٣١ - ١٥٠٣ الذى استباح كل المقدسات باسم القداسة، واعتدى على كل المحرمات، واعتمد على أسرة بورجيا فى الحصول على لذاته وشهواته وأمواله وكانت ابنته لدكريسا بوجيا سفاحة دموية وكان أبوها المقدس يدربها على ممارسة الشهوة»[2].

ويقول الراهب «درابر»[3] فى كتابه العلم والدين: «إن الكنيسة كفرت كل من يخالف أمرها فى كل العلوم حتى الطبيعة والجغرافيا، وأقامت محاكم التفتيش التى عاقبت ما يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفًا من بينهم عالم الطبيعة برونو... أما البابوات فينقل عنهم قول الراهب «جروم»: إن عيش القساوسة ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المحترفين، ولقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطًا عظيمًا واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم».

وينقل «برتراند راسل» فى كتابه تاريخ الفلسفة الغربية[4] عن المؤرخ (جويسكشيجاردينى) قوله: «لم يكن هنالك إنسان أشد اشمئزازًا منى من طموح القساوسة وشحهم وخلاعتهم، ليس فقط لأن كلاً من هذه الرذائل مكروه لدى، ولكن لأن كلاً منها وجميعها غير لائق إلى أقصى حد من أولئك الذين يعلنون أنفسهم رجالاً لهم صلات خاصة بالله، وأيضًا لأنها رذائل

(١) معالم تاريخ الإنسانية: مج٢ ج٣.
(٢) أنيس منصور: اثنين اثنين نقلا عن د. يحيى هاشم: حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب.
(٣) نقلاً عن الأستاذ سيد قطب: المستقبل لهذا الدين.
(٤) الفلسفة الحديثة: الجزء الثالث.

تعارض الواحدة منها الأخرى بحيث إنها يمكن أن توجد معًا فقط في طبائع فريدة للغاية.

وأيًا كان فإن وظيفتي في بلاط بابوات عديدين اضطرتني أن أروق لهم المجد من أجل مصلحتي الخاصة، ولكن لو لم يكن ذلك كذلك لكنت أحببت «مارتن لوثر» هنا حبى لنفسى لا لكى أتحرر من القوانين التي تفرضها المسيحية كما هي مفهومة ومفسرة بوجه عام علينا، بل لكى أرى هذا الحشد من الأنذال يعادون إلى مكانهم المناسب لهم، بحيث يكون في الوسع إجبارهم إما أن يعيشوا بدون رذائل أو بدون سلطان».

ثانياً: صور من اضطهاد الكنيسة للعلماء والمفكرين

وكان لابد أن يحدث الصدام بين رغبة متفجرة في المعرفة والبحث عن الحقيقة وبين مقررات دينية متناقضة ومجافية للعقل والمنطق وموقف كنائسي متصلب ومتعجرف وفساد بابوى بلغت رذائله حداً من البشاعة يفوق تصور البشر.

ودفع هؤلاء الباحثون عن الحقيقة الثمن.

فقد ألقي القبض على روجر باكون، وقضى بقية عمره في السجن، ١٥ عاماً، أما سيجر من باربانت، زعيم أولئك الملعونين، الذى تصدى للحكم الصادر ضده بشجاعة، واستنجد بالبابا، فقد قضى الـ١٥ سنة المتبقية من عمره في سجن البابا Orvie To، ومات قسه مخنوقًا، لقد قاست الروح العلمية الحقيقية على يد السلطة المستبدة المتوحشة خشية على سلطانها، من ضربة وحشية بالغة الشدة تلك هي الخلاصة المفزعة التى توصل إليها ليسنغ، من تأمله لتاريخ العلوم[1].

بل إن قادة الإصلاح الدينى أنفسهم كان لهم موقف رجعى من تقدم العلوم، مثال ذلك فقد كان مارتن لوثر يقول عن كوبرنيكوس: «.. يريد ذلك الأحمق أن يقلب علوم الفلك كلها رأسًا على عقب، ولكن كما يقرر الكتاب المقدس إن الشمس نفسها وليس الأرض هي التي أمرها يوشع بأن تقف..».

وأكد جون كلفن من كبار قادة الإصلاح الدينى: أن الأرض ثابتة مستشهداً بالمزمور ٩٣ (وكذلك ثبتت المسكونة لا تتزعزع) وسأل باحتقار «من ذلك الذى يجرؤ على وضع سلطة كوبرنيكوس فوق سلطان الروح القدس؟».

وقررت الكنيسة الكاثوليكية أن الاقتراح القائل بأن الشمس هى المركز وأنها لا تدور

---

(١) زيغريد هونكه، العقيدة والمعرفة.

حول الأرض حماقة وسخف وزيف فى علم اللاهوت، وهرطقة لأنه يناقض على طول الخط ما جاء فى الكتاب المقدس. وأما القول بأن الأرض تدور حول الشمس وليست فى المركز فسخيف وزائف فلسفيًا، ومن الناحية اللاهوتية يعارض ـ على الأقل ـ العقيدة الحقيقية).

وفى عام ١٦١٦ وضع كتاب كوبرنيكوس فى قائمة الكتب المحرمة وأدينت جميع الكتابات التى تؤيد حركة الأرض[١].

ولم يقتصر الأمر على معارضة الكنيسة وقادة الإصلاح الدينى والعامةلآراء كوبرنيكوس بل وصل إلى أن حاول أحد مؤسسى المنهج التجريبى (كما يقال) وهو فرنسيس بيكون دحض فكرة دوران الأرض حول الشمس[٢].

وحكم على برونو بالموت حرقًا لتأييده لآراء أستاذه كوبرنيكوس، أما جاليليو فقد قيد مربوطًا بعامود وجثا على الأرض راكعًا ونجا من الموت بإعلانه الرجوع عن آرائه وبراءته بالتوبة منها.

وكان موقف الكنيسة ضد الاعتقاد بعمران الجانب المقابل من الأرض، فقد ذهب القديس أوغسطين إلى أن التوراة لا تشير إلى وجود مثل هذه السلالة الآدمية واعتنقت الكنيسة والعالم المسيحى رأيه هذا دينًا.

ولجأت الكنيسة إلى محاكم التفتيش وآلات التعذيب وسخرتها فى مطاردة خصومها القائلين بذلك الرأى، وأوشكت على إعدام الطبيب بطرس البات لولا أن أنقذته المنية من براثنها، وأحرقت العالم الفلكى ذائع الصيت تشكو داسكولوجيا، وحاربت كولمبس لتقضى على مشروع رحلته فى كشف ما سمى بعد ذلك: أمريكا، ورأى مجلس من العلماء رفض مطلبه وأتخموه بنصوص من المزامير، وأقوال مستقاة من القديس بولس وأوغسطين واستمر الجدل ثلاثة أعوام ثبت منه بطلان المشروع الجديد، وأصرت الكنيسة على موقفها.

وعلى الرغم من أن ماجلان قد أثبت برحلته المشهورة عام ١٥١٩ وجود الناس الذين يسكنون الجانب الآخر المواجه لموطننا من الأرض فإن الكنيسة لبثت تقاوم هذا الرأى قرنين من الزمان حتى أكد عصبة مبشرين ـ طافوا حول الأرض للتبشير ـ ذلك الرأى.

وفى فلورنسا أعدم البابا سافونا رولا وهو رجل دين يخلص للعقيدة الكاثوليكية ويوقر المركز البابوى ويحرص على حرفية النصوص لقيامه بدور سياسى للتحرر من الفساد.

---

(١) كتب غيرت العالم نقلاً عن د. يحيى هاشم: حقيقة العلمانية.

(٢) راجع د. يحيى هاشم: حقيقة العلمانية.

البدايات الأولى لثورة العقل الغربى على المسيحية الثالوثية والسلطات البابوية

(ملك وعالم وفيلسوف)

«لست أسعى للفهم لكى أعتقد؛ بل إنى أعتقد كى أفهم»

القديس أوغسطين

مدخل:

يمكن القول بكل ثقة إن تاريخ العقل الغربى هو تاريخ الثورة على العقيدة الغامضة للمسيحية الثالوثية واستبداد وفساد الكنيسة البابوية وإن ذلك تم فى الأساس بتأثير الفكر الإسلامى بوجه خاص .

وقد بدأت الثورة العقلية فى الغرب إصلاحية فى الأساس تستهدف التعديل وكشف الغموض وتحكيم العقل واستبقاء أفضل ما فى الدين من فضيلة وعقيدة يقبلها العقل والمنطق السليم فإذا ما جوبهت بما لا نظير له فى التاريخ من القسوة والاضطهاد تمردت على الدين ذاته (الدين المسيحى أولاً ثم كل الأديان بعد ذلك) وهذه إحدى جنايات المسيحية الثالوثية والسلطات البابوية على الإسلام والتى نواجه نتائجها فى الحرب العلمانية فى هذا العصر بتلك العقلية الثأرية من الدين بوجه عام. فإذا ما بلغ الفكر العقلى العلمانى أوج تمرده واستنفد طاقاته الإبداعية تمرد على العقل ذاته وهذا ما يحدث أيضًا فى بعض مدارس الفكر الغربى .

وسوف نشير هنا إلى التمردات العقلانية الأولى التى سبقت عصر النهضة وكان التأثير الإسلامى عليهما أكبر من القدرة على إغفاله .

أولاً: الفيلسوف إبلار

يصف ول ديورانت الفيلسوف الفرنسي إبلار (١٠٧٩ - ١١٤٢) بأنه «شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر»[١] .

وقد رأى هذا القس الفيلسوف في الكتاب المقدس «أن لغته قد كتبت لغير المتعلمين وأنها يجب تفسيرها بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد في بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً أو لعدم العناية بالنسخ ، ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل» [٢] .

وكتب في كتابه (وحدة الإله والتثليث) يقول : «إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولاً ، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه» [٣] . وأشار في هذا الكتاب نفسه إلى أن وحدة الله هي النقطة الوحيدة التي يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . ومن ناحية أخرى فقد هاجم عقيدة الخطيئة (خطأ كل البشر المجسد في خطيئة آدم والتي لا غفران لها إلا من خلال صلب المسيح) وذلك بطريق غير مباشر وذلك في ذهابه إلى أن الخطيئة لا تستتبع سوى نية العامل بها كما وجه طعناته «لفساد أخلاق القساوسة والرهبان وبيع صكوك الغفران واختراع المعجزات الزائفة»[٤] .

وعلى الرغم من أن إبلار كانت تجتمع له التلاميذ من كل أنحاء أوروبا (الشيء الذي يلقي الضوء على مدى ما كانت تلقاه دعوة التوحيد من قبول) فإنه قبل تحت ضغط انتقادات القساوسة حوله ترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس في بريطانيا (١١٢٥) «وكان في هذا الانتقال ترقية لإبلار وسجن له في وسط سكان من البرابرة الذين لا يفهمون ، وبين رهبان أدنياء لا يُروَّضون ، يعيشون جهرة مع حظياتهم»[٥]

ولو أنه لم يكن له أمنية من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذى رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون وكان ثمة معلمون غيره مثل جلبرت ده لابريه وكانوا كلهم يضعون

---

(١) قصة الحضارة : مج٩ ج١ ص ٦٠ .
(٢) نقلاً عن ول ديورانت ـ قصة الحضارة : مج٩ ج١ ص ٧٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٨ .
(٥) المرجع السابق : ص ٧٩ .

الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى مجراه فإلى متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان اللتين يقوم عليهما نظام أوروبا الأخلاقى والاجتماعى . وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات هى التى جعلت القديس برنار (أهم رجال الدين فى عصره) يقف فى وجهه ومع ذلك فإنه عندما دعى هذا القديس لحضور مجلس الكنيسة المنعقد لمحاكمة إبلار رفض وقال : «إنه سيكون فى حلبة الجدل طفلاً أمام إبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عامًا»[١] وما نراه أن برنار لو كان واثقًا من توافق عقيدته مع العقل ما تهرب من حلبة الجدل لأن الحق أجدر بالانتصار من قوة الجدل، ولكنه كان يعلم جيداً ما قاله القديس أوغسطين من أن عقيدته قائمة على الإيمان لا على العقل .

وأخيراً تم الحكم على إبلار بحجزه فى أحد الأديرة وتجريده من كل المناصب التى ضحى من أجلها بأعز ما يملك وأعز ما يمكن أن يرزق به إنسان من سعادة الدنيا وهو حرمانه من حبيبته هلوز والتى نشأت العلاقة بينهما حين كان أستاذاً شهيراً فى الثامنة والثلاثين من عمره وكانت هى تلميذة له فى السادسة عشرة من عمرها وقد تحايل أن يحتفظ بها دون زواج وارتضت هى ذلك حتى لا يتسبب هذا الزواج فى الحؤول دون رسمه قسيساً ومن ثم اعتلائه لأرفع المناصب، الأمر الذى تسبب فى انتقام عائلتها منه أبشع انتقام وحرمانه منها إلى الأبد، وهكذا تسببت تلك التعاليم المنافية للطبائع الإنسانية فى حدوث تلك المأساة الشهيرة التى تعد من أبشع المآسى العاطفية فى التاريخ .

والسؤال المطروح الآن هو : من أين استمد إبلار كل هذا التمرد العقلانى ضد المسيحية الثالوثية والكنيسة الغربية ؟

إننا لا نجيب على ذلك بأى نوع من الاستنباط أو التخمين ولكننا نقدم الدلائل التاريخية على أنه استمد ذلك من فكر المسلمين، حيث يقول أليكس جورافسكى فى الإجابة عن ذلك : «بالنسبة لإبلار فإن كلمة عربى من حيث المعنى الجوهرى معادلة تمامًا لكلمة فيلسوف وقد تخيل - بناء على هذه الفرضية- أن صراعات الفلاسفة مع المؤسسة الدينية للكنيسة الأوروبية يمكن تأصيلها وتنظيمها وبالتالى توجيهها انطلاقًا من أى بلد إسلامى، وأنه شخصيًا يمكن أن يعمل فى هذا البلد الإسلامى المتفلسف ولو بقوت يومه فقط، وحتى وإن كان وسط أعداء المسيحيين، ولكن بشرط أن يتمتع عندهم بوضع رسمى»[٢] فهذا هو مايذكره جورافسكى على لسان إبلار نفسه لدليل قاطع على أن أول وأعظم الفلاسفة

---

(١) المرجع السابق : ص ٨٧ .

(٢) الإسلام والمسيحية (عالم المعرفة) : ص ٦٢ ، ٦٣ .

المتمردين على الكنيسة والرافعين للواء العقل والملهمين لكل التيارات العقلانية فى أوروبا بعد ذلك كان متأثراً فى ذلك بالفكر الإسلامى .

ثانياً : أعجوبة العالم: الإمبراطور فريدريك الثانى المتمرد على الكنيسة هل كان مسلماً ؟

كان الإمبراطور فريدريك الثانى فى الرابعة من عمره حين توج ملكًا على صقلية عام ١١٩٨ وذلك لأن والده مات قبل عام من ذلك الوقت ثم ماتت والدته بعد عام من تتويجه وأوصت قبل موتها أن يكون البابا نفسه وصيًا على ابنها وعرضت عليه فى نظير ذلك راتبًا مجزيًا وأن ينوب عنه فى الحكم وأن تعاد له السيادة على صقلية وقد فرح البابا بهذا العرض رغبة منه فى إنهاء الاتحاد بين صقلية وألمانيا الذى أقامه والد فريدريك ومن ثم فقد أيد البابا إنوسنت آنو الرابع فى أن يتولى عرش ألمانيا وشب فريدريك محوطًا بالإهمال والفقر أحيانًا حتى كان ذوو القلوب الرحيمة يأتون بالطعام لهذا الغلام الملكى البائس . ومع ذلك فقد أتقن فى تلك الأيام ومن خلال تجوله فى الشوارع اللغتين العربية واليونانية ومن ثم المعارف الإسلامية واليونانية القديمة ، ولابد أن نذكر هنا أن صقلية هذه التى نشأ فيها فريدريك كانت تحت الحكم الإسلامى إلى عهد قريب ، ولهذا فقد اختلط فريدريك فى أيام شبابه بأجناس من شعوب مختلفة . كل ذلك أثر فى تكوينه وصنع منه ذلك الكيان الملكى المختلف عما عهده الأوروبيون من ملوك .

ثم واتاه الحظ بأن نقض آنو الرابع العهد الذى قطعه على نفسه بأن يحترم سيادة البابا فى الولايات البابوية فحرمه البابا من الكنيسة وأمر بارونات الإمبراطورية وأساقفتها أن يختاروا لعرشها فريدريك الشاب الذى تحت وصيته . ولكن البابا مع ذلك لم يتحول عن غرضه الأول وهو حماية البابوية من كل عدوان عليها ولهذا طلب من فريدريك نظير تأييده إياه أن تظل صقلية إقطاعية للبابوات تؤدى لهم الجزية وأن تظل منفصلة عن الإمبراطورية وأن يقيم فى ألمانيا بوصفه إمبراطوراً عليها ، وتعهد فريدريك الداهية فضلاً عن هذا كله بأن يقوم بحملة صليبية .

وانتصر فريدريك بمساندة البابا على آنو ثم هنرى أخيه ولكنه مع ذلك تعلل بعدم قيامه بالحملة الصليبية نتيجة اضطرابات فى إمبراطوريته ومات البابا هونوريوس عام ١٢٢٧ الذى خلف إنوسنت دون أن يبر فريدريك بقسمه واعتلى عرش البابوية جريجورى التاسع الرجل الصارم القوى الشكيمة وعندما تعلل فريدريك بالمرض لعدم قيامه بالحملة نفد صبر البابا جريجورى ولم يستمع إلى أقوال رسل فريدريك وأعلن فى العالم حرمان الإمبراطور . فاضطر فريدريك إلى إعداد حملة إلى فلسطين عام ١٢٢٨ فكانت المفاجأة لدى العالم أجمع أن السلطان الكامل سلمه مفاتيح القدس بلا حرب وأن الذين رفضوا استقباله هم الصليبيون

أنفسهم بل وأعلن أساقفة قيصرية أن وجود فريدريك فى مدينة القدس قد دنسها وألقى العامة المسيحيون عليه الأقذار عند رحيله من عكا فى رحلة عودته إلى بلاده . ثم استرد فريدريك الولايات التى استولى عليها البابا بعد رحيله ووقف عند حدود الولايات البابوية فاضطر البابا إلى الصلح فى معاهدة سان جرمانو سنة ١٢٣٠ .

وفى عام ١٢٣٤ خرج هنرى على أبيه فريدريك وانضم إليه البابا ثم أصدر منشوراً عاماً شديد اللهجة اتهم فيها فريدريك بالكفر والتجديف والاستبداد والرغبة فى القضاء على سلطة الكنيسة ثم أصدر قراراً ضده بالحرمان عام ١٢٣٩ . فضرب فريدريك بنفنتو مركز القوات البابوية واعترض أسطوله قافلة من جنوى تنقل إلى روما طائفة من الكرادلة والمطارنة ورؤساء الأديرة والقساوسة الفرنسيين والإسبان والإيطاليين وأسر عدداً منهم ليساوم عليهم مما أثار الأوروبيين المتعاطفين معه عليه وكان من أهم أسباب هذا التعاطف هو نقمتهم على الكنيسة وأنهم كانوا يرون فى فريدريك قيصراً جديداً . وكثر وقتئذ عدد الذين يعتقدون أن فريدريك هو المسيح الدجال، ولكن جريجورى مات فى هذه الأثناء وكان البابا إنوسنت الرابع أكثر مسالمة من سلفه فقد وافق على شروط للصلح عام ١٢٤٤ ثم قرر حرمانه مرة أخرى من الكنيسة عام ١٢٤٥ عندما رأى إصراره على فتح الولايات البابوية بل وأعلن ضده حرباً صليبية ومنح الذين حملوا الصليب للقتال فى فلسطين إذا اشتركوا فى قتال الإمبراطور الكافر جميع المزايا التى تمنح للصليبيين، فرد فرديدريك على هذا بأن أصدر منشوراً للإصلاح يعلن فيه أن رجال الدين «عبيد للدنيا منهمكون فى ملذاتهم لم تبق ثروتهم المتزايدة على شيء من تقواهم»[1] ثم صادر ما للكنيسة من أملاك . ولكن وزيره الأول وموضع ثقته غدر به وأخذ يدبر المؤامرات ضده فأمر بالقبض عليه وفقأ عينيه . وحاول طبيب فريدريك أن يقتله بالسم عام ١٢٤٩ لكن الإمبراطور مات بالفعل فى عام ١٢٥٠ .

هل كان الإمبراطور فريدريك الثانى مسلماً ؟

يقول ول ديورانت عن الإمبراطور فريدريك الثانى : «ملاك القول أن فريدريك كان رجل النهضة قبل أن يحل عهد النهضة بمائة عام»[2] .

والخلاصة التى نراها فى هذا الرجل أنه كان واحداً من أهم الذين أشاعوا الثورة العقلية ضد الكنيسة تحت تأثير الفكر الإسلامى على وجه الخصوص .

ولا يختلف أحد من المؤرخين على هذا القدر من الموضوع ولكن التاريخ يذكر من الروايات

---

(١) نقلاً عن ول ديورانت ، قصة الحضارة : مج ٨ ج١ ص ٢٩٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٩٦ .

ما هو أبعد من هذا وهو أن الإمبراطور فريدريك كان مسلماً بالفعل وهو الأمر الذى يستجيب له العقل عند التحقق منه إلى حد كبير ونستطيع أن نستبين الأمر فى التالى :

يروى ول ديورانت أن ماثيو باريس كان يقول :«يقول أعداء الإمبراطور إنه يوافق على شريعة محمد ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح عيسى ... وإن صداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين» (١) .

ومن الشواهد التى تدعم هذه الرواية :

– أن فريدريك قد تربى على التراث العلمى الذى خلفه المسلمون فى صقلية «وقد قرأ بنفسه كثيراً من روائع الكتب العربية الخالدة واستدعى إلى بلاطه كثيرين من العلماء والفلاسفة المسلمين»(٢) .

– أن الرجل لم يتهم بالكفر من كل باباوات الكنيسة المتتابعين فقط والذين أصدروا ضده ثلاثة قرارات بالحرمان وقاد البابا إنوسنت الرابع حرباً صليبية ضده منح المشاركين فيها كل المزايا التى منحها للمقاتلين فى فلسطين ولكن اتهم بذلك أيضاً من قِبل زوجته إزبلا وابنه ووزيره وطبيبه أى من أقرب المقربين إليه .

– أن السلطان الكامل سلمه مفاتيح القدس بكل ود وترحاب وأن الذين رفضوا دخوله إليها هم الفرنجة أنفسهم وظل يراسل الكامل بالعربية التى يتقنها «ويقول له فى رسائله إنه أعز أصدقائه بعد أولاده»(٣) .

– والأهم من كل ما سبق أن غالب حرسه وخير من يعتمد عليهم من الجنود كانوا من المسلمين وفى وسعنا كما يقول ول ديورانت : «أن نتصور غضب البابوات حين يرون الجنود المسلمين يقودهم الإمبراطور ويحارب بهم جنده»(٤) .

وأيًا ما كان الأمر فإن فريدريك تحت تأثير الفكر الإسلامى كان أول من كتب وثائق واضحة صريحة «شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم وعزى كل المفاسد إلى استكبارهم وثرائهم واقترح على زملائه من الأمراء مصادرة كل أملاك الكنيسة مصادرة عامة»(٥) فكان واحداً من أهم رواد الثورة العقلية ضد الكنيسة وكما يقول هـ ج ويلز «فقد

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٨٧ .
(٣) نفس المرجع .
(٤) المرجع السابق : ص ٢٨٢ .
(٥) هـ . ج . ويلز ، معالم تاريخ الإنسانية : مج٢ ج١ ص٨٩٩ .

كان الأمراء والمتعلمون فى أرجاء أوروبا كافة يقرأون رسائله ويتباحثون فيها»[1] .

ثالثا: العالم روجر بيكون

ولد روجر بيكون أشهر علماء أوروبا في العصور الوسطى بإنجلترا عام ١٢١٤ ودرس في أكسفورد وسافر بحثًا عن العلم إلى فرنسا وإيطاليا واليونان التى تعلم فيها العلوم الإسلامية «وكان يعترف بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله»[2] .

وكان روجر بيكون هذا – والذى سبق سميه (فرنسيس بيكون) بالاهتمام بالمنهج التجريبى بثلاثمائة عام – ثائراً على الكنيسة وأرسطو معًا إلا أنه اتخذ من الأولى موقف المدارة بداية لكى يمرر موقفه من الثانى ثم وجد فى النهاية أنه ما من بد من الثورة عليهما معًا .

فعندما اعتلى كليمنت الرابع عرش البابوية وجاء معه ببعض الروح الحرة ظن بيكون أن الفرصة قد واتته للتعبير عن بعض أفكاره المتمردة ولو فى المجال العلمى على الأقل ومن ثم أرسل أفكاره ملخصة إلى البابا معلنًا حرصه الشديد على التمسك بالدين القويم والنزول بالعلم والفلسفة منزل الخدم لعلوم الدين .

ولم يكن بيكون يكن المحبة لأرسطو الذى كان مسيطراً على الفكر الكنسى فى تلك المرحلة وإنما يكن الحب لابن زخر والرازى وابن الهيثم وللعلماء والمفكرين المسلمين بوجه عام وكان يصرخ بقوة قائلاً عن أرسطو : ما الذى يعجبكم فى هذا الرجل، «وكان لا يفتأ يردد دائما : العلم ليس موجوداً إلا لدى العرب»[3] .

ورأى بيكون أنَّ أربعة أسباب هى التى توقع الإنسان فى الخطأ وهى ، الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها والعادة التى استقرت من زمن بعيد وإحساس الجماهير الجاهلة وتغشية الجهل بستار من التظاهر بالحكمة» ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه «لا يشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التى وهبت إلى الكنيسة، وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفى لأن تكون قضية ما فى رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجدت فى أرسطو، ويجهر بأنه لو أوتى السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف . لأنها فى رأيه منبع الأخطاء ومصدر الجهل.

ويبدو أن روجر بيكون يأس من استجابة البابوات لأفكاره فرأى أنه لا مفر من التنفيس عن

---

(١) المرجع السابق : ص ٩٠٠ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : مج٩ ج١ ص٢٠٦ .

(٣) راجع محمد شديد – قيمة الحياة فى الإسلام ، وكذلك زيغريد هونكة – العقيدة والمعرفة .

مخبوء أفكاره الأخرى فألهب بسوط آرائه جميع نواحي الحياة في القرن الثالث عشر .

وكتب في عام ١٢٧١ فقرة تدلل على أن فساد عصرنا ربما يتضاءل بجانب الفساد في ذاك العصر حيث يقول : «يرتكب في هذا العصر من الذنوب أكثر مما يرتكب في أي عصر قبله فالكرسي البابوي يمزقه خداع الظالمين وغدرهم ... ولقد فشا الكبرياء بين الناس ، وغلت مراجل الطمع في الصدور وأنشب الحسد أنيابه في جميع النفوس، والبلاط البابوي كله يسربله الفجور والعار، والنهم هو سيد الجميع ... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تفعل سائر الأعضاء ؟ فلتنظر إلى كبار رجال الدين الذين يجرون وراء المال ويهملون العناية بالأرواح ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولي الأرحام والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شيء بنصائحهم ... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين ، لست مستثنيًا أحدًا مما أشاهده بينهم ، انظروا في أية هاوية تردَّوا وهَوَوا من شامخ مجدهم فرادى وجماعات ، وهاهم أولاد الرهبان (الإخوان) الجدد قد فسدوا فسادًا مروعًا وحادوا عن تقواهم الأولى ، إن رجال الدين على بكرة أبيهم لا همّ لهم إلا التكبر والفجور والبخل»(١) .

وقد وجد بعض الباحثين المعاصرين في أفكار روجر بيكون الثورية «لاسيما في نظريته حول السلطة البابوية ، وفي مجموعة من أطروحاته السياسية تجديدًا لأفكار ابن سينا والفارابي في ميدان السياسة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم»(٢) .

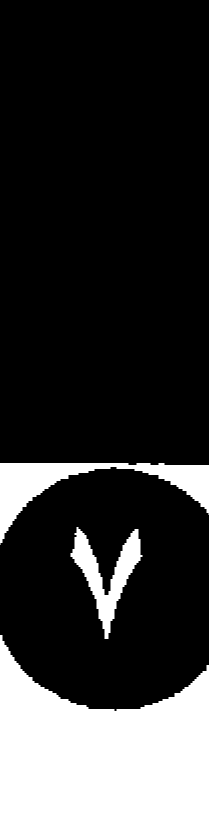
وما كان هذا العصر يسمح بهذا الإسراف في نقد الكنيسة والتفكير العقلي الحر خصوصًا ذلك الذي يشتهر عنه تأثره بالفكر الإسلامي مثل بيكون ومن ثم حكم عليه بالسجن عام ١٢٧٧ م .

يقول أليكس جورافسكي عن موقف المسيحية من الإسلام في ذلك العصر : «موقف المسيحية من الإسلام حددته محطتان رئيسيتان : أولاهما ضرورة التعلم منه كونه الأقوى والأعلم من جهة، وثانيتهما التصارع معه كعقيدة غريبة ومعادية من جهة أخرى»(٣) .

ولينظر المرء على الأسس السابقة إذا كان هذا هو ما تعرض له الثوار على الكنيسة في ذلك العهد فماذا يا ترى كان من الممكن أن يتعرض له من يتمادى في غيه ويعلن إيمانه بالإسلام جهرة؟ إن الإجابة على هذا السؤال تجيب لنا في نفس الوقت على تساؤلات كثيرة تتعلق بحقيقة استجابة الغربيين للإسلام في ذاك الوقت.

---

(١) ول ديورانت - قصة الحضارة : مج٩ ج٢ ص٢١٨ .
(٢) أليكسي جورافسكي - الإسلام والمسيحية : ص ٥٥ .
(٣) المرجع السابق : ص ٦٧ .



٧

الثورة على المسيحية البابوية فى عصرى النهضة والتنوير

(موقف العقل من الكهنوت والكنيسة والفساد البابوى)

«لا تســتطيع أن تقبل كـلاً من الإنجيل والعقل فأحدهما لايفسح الطريق للآخر . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان» .

مارتن لوثر

«وأى امـرأة تتـزوج مـن رجل عـنين يجـب أن يُسـمـح لهـا - إذا وافق زوجها - بأن تضاجع رجلاً آخر لكى تنجب منه طفلاً ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجهـا ، وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ولعل تعدد الزوجات خير منه» .

مارتن لوثر

تمهيد :

لم تكن الثورة على كل هذا الظلم والظلام والاستبداد مجرد خيار أو هدف للعقول الغربية وإنما حتمية تقتضيها براكين الغضب التى بلغت درجة الفوران.

وتمت الثورة من خلال ثلاثة محاور وإن كان هناك محور رابع تمت مواجهته بقوة بالغة وهو المحور المتعلق بثورة الموحدين فى الحضارة الغربية.

فقد بدأت الثورة من خلال حركة الإنسانيين وتجسدت بشكل فعلى فى حركة زعماء الإصلاح الدينى ثم اتخذت مساراً جديداً انتقلت من خلاله بالعقل الغربى إلى طور جديد يناقض تماماً الطور الذى سبقه وهذا المسار هو مسار العقلانية الغربية والتى تعنى قصور الفكر على العقل الإنسانى وخبراته فقط وإقصاء كل ما عداه مما اعتاده البشر من مصادر للحقيقة. أى طور العلمانية.

الحركة الإنسانية: أرازموس

النزعة الإنسانية أشبه بعباءة تطوى تحتها كل من كانت له نزعة إلى العالم لا هى لاهوتية أساساً ولا هى عقلانية فى المقام الأول «وحسب هذا الاستعمال لن يكون ضرورياً على الإطلاق النظر إلى النزعة الإنسانية باعتبارها موقعاً وسطاً بين غيبيات الدين وبين العلوم الطبيعية. هذا على الرغم من أن النزعة الإنسانية كانت فى حالات كثيرة تمثل تماماً هذا الموقع الوسط»(١).

أرازموس ممثلاً للحركة الإنسانية

ولد أرازموس فى روتردام عام ١٤٦٩ وانخرط على غير رغبة فى سلك الرهبنة عام ١٤٨٤. وقيل عام ١٤٩٢ أن يرسَّم قساً، ثم تم إرساله إلى جامعة باريس وتولى التدريس بجامعة كمبردج، وقد انكب على قراءة كتب الأدب وأتقن اللاتينية، وقد لاحظ أخطاء جد خطيرة فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل: أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش؟ وقد أفزع علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه فى التوفيق بين أبيقور والمسيح. وقد برع ككاتب إنسانيات إلى درجة لا يكاد ينافسه فيها أحد فقد طُبع من

---

(١) كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث: ص٢٣

كتابه الأول (أقوال مأثورة) ستون طبعة في حياته وكان يقارب مثل ذلك سائر كتبه.

روى أرازموس عن إحدى زياراته لإنجلترا (١٥٠٥ - ١٥٠٦) أنه عندما قام بالحج إلى ضريح سانت توماس سكب عليهم الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء، وقدراً مذهلاً من العظام لا بد من تقبيله باحترام، وكيف عرض على صديقه جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها في مخاط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكاراً مقدساً.

وفي زيارته لتوماس مور كتب في سبعة أيام أشهر كتبه (الثناء على الطيش). طبعت منه في حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة وذكر فيه أن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش وأنه ليس شيء أسخف من اقتصار الرجل على امرأة واحدة وكذلك المرأة أيضاً، ومن السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل؟.

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماقة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل؟ ولكن الأهم من ذلك هو ما وجهه للقساوسة وعلماء اللاهوت من نقد وسخرية حيث كتب متهكماً: «يقولون لك كيف يمكن أن يوجد جسد واحد في أماكن متعددة وكيف أن جسد المسيح في السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو في القربان المقدس وفكر أيضاً في اللغو الذى يتمثل في معجزات وأعاجيب - رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان وأمثال الشيخ المخيف الوهمي فرأى في هذه السخافات: «تجارة رابحة وتأتي بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع... ماذا عساى أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخدام الغفران والسماحة وأن أحافظ عليهما؟ وإني بهذا أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح في المطهر وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشترون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع؟.

أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التي اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح»(١).

ولا يكتفي أرازموس بذلك ولكنه يسخر من كون كل رجال الإكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون في الرأى على إعدام الساحرات، أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه في «ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم

---

(١) ول ديورانت. قصة الحضارة: مج١٢، ج١، ص١٩١.

وتراخيصهم وامتيازاتهم.. والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسة وأوامر التحريم»[1].

وفي عامي ١٥١٤ كتب حواراً يسمى "Juliusexclusus" يصف فيه البابا المحارب في حوار مع القديس بطرس الذي وقف أمامه يمنعه من دخول أبواب السماء جاء فيه:

يوليوس: أنا يوليوس الليجورى.

بطرس: وماذا تعني؟ وباء أعظم.

يوليوس: بل ولي أعظم أيها الخبيث.

بطرس: أليس هناك فرق بين أن تكون مقدساً وبين أن تدعى القداسة؟ دعني أنظر إليك عن قرب. آه.. أرى سمات زندقة شديدة.. مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دماً وعينين وحشيتين وفمًا متعجرفًا وجبينًا وقحًا وجسداً وصمته كله الآثام، وأنفاساً تفوح منها رائحة الخمر وبدنًا أسقمه التبذل والفسوق.. ماذا فعلت؟

يوليوس: رفعت الدخل.. ابتدعت وظائف جديدة وبعتها.. وقمت برعاية سك النقود وربحت مبلغاً كبيراً من هذا الطريق... وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة في الميدان وغمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين في الخزانة بعد وفاتي.

بطرس: وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم؟

يوليوس: ولكن هذا لا علاقة له بالدعوى.

بطرس: أليس ثمة وسيلة لإزاحة بابا شرير؟

يوليوس: سخف! من يستطيع أن يزيح أعلى سلطة بين الناس؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أي مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا، ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التي يرتكبها.

بطرس: حتى لو ارتكب جريمة قتل؟!.

يوليوس: نعم.. بل حتى ولو قتل أحد والديه.

بطرس: ألا يعزل لو زنى؟

يوليوس: نعم، ولو زنى بالمحارم.

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

بطرس: ألا يعزل لو قتل أحداً بالسم؟

يوليوس: نعم حتى لو انتهك المقدسات»[1].

وفى كتابه «العبارات الخاصة بالحديث العادى» مضى فى هجومه على رجال الإكليروس وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببكارتها فطلب منها أن تتحاشى «هؤلاء الرهبان المفتولى العضلات ذوى الكروش البارزة.. فالعفة عرضة للخطر فى الدير أكثر من تعرضها له خارجه»[2].

وقدم أرازموس «مراجعة نقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقه بترجمة لاتينية وتفسير وقد حذف فى طبعته الأولى «الوصل اليوحنى (أصحاح يوحنا ٥ :٧) الذى أكد الثالوث والذى تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس فى القرن الرابع»[3].

وعلق على (أصحاح متى ٢٣ :٢٧) قائلاً : «ترى ماذا يقول جيروم لو رأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ويضفى عليه من التكريم ما يضفى على جسد المسيح المقدس، والزيوت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقى التى تكفى إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة؟ هنا قلنسوة سانت فرنسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن.. لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين. ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبث ببساطة الناس من خلال شح القسس وهرطقة الرهبان»[4].

ولاحظ أن أصحاح متى ١٩ :٢٢ ينص على «لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء» وقيل إن هذا للنصح بالعزوبة فى الدير فكتب أرازموس «إننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعدون قسساً مسيحيين إذا احتفظوا علناً بخليلة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة»[5].

وفى رسالة تيموثاوس ٣ :٢ هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس... من الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر يسقطون فى حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور. وليس من شك فى أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لا يستطيعون التمسك بالعفة بزوجات شرعيات وبهذا ينجون من هذا الدنس البذىء التعس»[6].

---

(١) المرجع السابق: مختصر من ١٩٢ إلى ١٩٨.

(٢) المرجع السابق: ص١٩٩.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠٢.

(٤) ، (٥) المرجع السابق: ص٢٠٢.

(٦) المرجع السابق: ص ٢٠٣.

يقول ول ديورانت عن أرازموس: «ومن الواضح أنه راوده الشك في الثالوث وفي تجسد الأقنوم الثاني ... وكان على توماس مور أن يحميه من مراسل أعلن أن أرازموس قد اعترف في خلوة بعدم إيمانه»[١].

وإذا أردنا أن نعرف الأثر الفكرى لأرزاموس فيكفى أن نذكر أنه كان من بين من يراسلونه: الملكة مارجريت ملكة نافار والملك سيجموند الأول ملك بولندا وهنرى الثامن.

---

(١) المرجع السابق: ص٢٠٩.

الإصلاح الدينى

ألمانيا اللوثرية فى مواجهة الكنيسة البابوية

يقدر البعض أن ما يقرب من ثلث الأراضى الألمانية كان بين أيدى الكنيسة. وكان بعض رجال الدين متدينين كالناس، ولا بد أنه كان هناك بعض القسس المخلصين للعقيدة - ولو أن أسماءهم قلما كات تسمع وسط ضجيج الشر - يمكن أن ينشروا مثل هذا الورع الذائع أو يدعموه بين الناس. وكان لقسيس الأبرشية حظية أو زوجة يعترف بها القانون العام وكانت الطوائف العليا من رجال الدين تنعم بثراء فاحش لا حد له، وكان كثير من رجالها لا يعانون شيئاً من وخز الضمير فى التظاهر بطريقة ممقوتة تثير غضب الشعب وحسد الطبقات العليا وازدراء كل العقول الجادة.. وجأرت الأصوات بالشكوى فى كل مكان من الارتزاق المهين بالمقدسات ومن المبالغ الضخمة التى ترسل على دفعات ومن الضرائب التى تدفع للبابا من الأرباح السنوية ومن مال الرشوة.

وفى عام ١٤٥٧ وجه مارتن مبير رئيس الوزراء خطاباً غاضباً لخص فيه المتاعب التى تعانى منها ألمانيا من جانب المحكمة الرومانية قال فيه:

«إن اختيار البطاركة كثيراً ما يؤجل دون داع ويحتفظ بالمراتب الرفيعة والمناصب للكرادلة وأمناء سر البابا وها هو الكاردينال بيكولوميني نفسه قد منح أرضاً براحاً فى ثلاث مقاطعات ألمانية بصورة غير عادية لم يسمع بمثلها من قبل»[1].

كانت الوعود بالمناصب والاقطاعيات تبذل بلا حساب وكانت الجزية والضريبة تجمع بالتعسف ولا يمنح المدينون مهلة للسداد وكانت الأسقفيات تمنح لا لأكثر رجال الدين جدارة بل لصاحب أكبر عطاء. وكانت صكوك غفران جديدة تصدر كل يوم. وضرائب عشور للحرب تفرض دون استشارة البطارقة الألمان لا لغرض إلا جمع المال، وقد عومل الألمان كما لو كانوا برابرة أغبياء واستنزفت منهم الأموال بألف حيلة ماكرة. وقد ظلت ألمانيا سنوات طويلة تتمرغ فى التراب تنتحب على فاقتها ومصيرها المحزن، أما الآن فإن أشرافها استيقظوا

---

(١) ول ديورانت: مج ١٢ ج١ ص٢٨١.

من النوم وقرروا أن يتخلصوا من نير العبودية وأن يستعيدوا حريتهم العريقة.

وعندما أصبح الكردينال بيكولوميني عام ١٤٥٨ البابا بيوس الثاني واجه هذا التحدى فطلب من ديتر (أحد المرشحين الألمان) مبلغ ٢٠٫٥٠٠ جيلدر قبل أن يؤيد ترشيحه لمنصب كبير أساقفة ما ينز (١٤٥٩) فما كان من ديتر إلا أن رفض دفع المبلغ بحجة أنه تجاوز كل ما كان يدفع من قبل، فأصدر البابا قراراً بحرمانه من غفران الكنيسة، ولكن ديتر تجاهل هذا الحرمان وأيده فى هذا بعض أمراء من الألمان، وعهد ديتر إلى محام ألمانى بإثارة الرأى العام لمنح المجالس الدينية سلطة أعلى من سلطة البابوات.. ولكن عملاء البابا انتزعوا من الحركة الواحد بعد الآخر من أنصار ديتر، وعين بيوس مكانه أدولف الناساوى. واشتبك جيش الأسقفية فى حرب دموية هزم فيها ديتر، ووجه إلى الزعماء الألمان تحذيراً بأنهم ما لم يقفوا معاً فإنهم سيسامون الخسف والضيم واحداً بعد الآخر. وكان هذا الإعلان إحدى الوثائق الأولى التى طبعها جوتنبرج.

ولم يهدأ استياء الألمان بهذا النصر الذى أحرزه البابوات وبعد أن تحول مبلغ كبير من المال من ألمانيا إلى روما فى اليوبيل عام ١٥٠٠ طالب مجلس الدايت فى أوجسبورج بضرورة إعادة هذا القدر من المال إلى ألمانيا. وشكا الإمبراطور ماكسمليان من أن البابا سحب من ألمانيا دخلاً يزيد مائة مرة عما يستطيع هو نفسه أن يجبيه (من الجباية) منها.

وهكذا واكبت الثورة على الانحراف والاستبداد الثورة على النهب والاستغلال المالى وكما يقول ديورانت على لسان أحد رجال الدين المخلصين: «فإن روحاً ثائرة من الكراهية للكنيسة ورجال الدين قد تفشت بين الجماهير فى مختلف أرجاء ألمانيا.. إن صيحة الموت للقساوسة التى طالما ترددت فى السر همساً أصبحت الآن كلمة السر التى تردد كل يوم»[١].

كيف بدأت المعركة؟

أصدر البابا ليو العاشر فى مارس ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران المتعلق بإنشاء الكنيسة الضخمة التى فكر يوليوس الثانى ببنائها قبل أن يموت والتى تتطلب مبالغ ضخمة واحتج الحكام فى إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا على هذا الصك لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما.

وكان العمل الرئيسى للراهب الدومينيكى جوهان تيتزل منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران وهذه هى الصفة المؤثرة التى قدم بها صك الغفران الشهير فى ألمانيا:

---

(١) المرجع السابق: ص٢٨٣.

«ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقى من آلام مقدسة. وإنا بتفويض منه ومن رسوليه المباركين بطرس وبولس ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلىَّ فى هذه الأجزاء أن أحلك أولاً من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة، بل حتى من أى إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العماد ولهذا فإنك عندما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس»[١].

وكان أهم المتصدين لهذا الصك الأمير فريدريك حاكم ساكسونيا الذى هاله مبالغات تيتزل تلك والذى آلمه من ناحية أخرى اندفاع مال ساكسونيا إلى روما بهذا الشكل الخطر. وجاء عدد من المشترين لهذه الرسائل البابوية بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت بجامعة فايتنبرج وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض، وترامى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر الذى سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم «بحث فى بيان قوة صكوك الغفران».

ولم يكن لوثر فى بادئ الأمر متحمساً لأدنى فكرة لقلب الكنيسة وإنما كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التى تنشأ عن توزيعها. وشعر أن سهولة إصدار صكوك الغفران والاتجار فيها على نطاق واسع «قد أضعف الإحساس بالندم الذى يجب أن يثيره ارتكاب الإثم وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفقة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ومع ذلك فإنه لم ينكر السلطة البابوية فى غفران الخطايا وسلم بسلطة البابا فى إحلال إعفاء النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التى يفرضها عليه رجال الكنيسة.

ولكن وجهة نظر لوثر هى أن سلطة البابا فى تحرير الأرواح من المطهر أو فى تقليل مدة عقابها هناك تتوقف لا على السلطة التى تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتى لا تصل إلى أبعد من القبر - ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا وهى قد تسمع وقد لا تسمع»[٢].

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة: مج١٢ ج٢ ص٥.

(٢) المرجع السابق: مج١٢ ج٢ ص٨.

وفي وقت الظهيرة في اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧ ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر فى فيتنبرج.

ولد مارتن لوثر فى عام ١٤٨٣ وقاسى طويلاً من معاملة والديه له حتى إنه قد قال يوماً: «إن الحياة الخشنة القاسية التى عشتها معهما هى التى دفعتنى إلى أن ألجأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً»[١] وفى أحد أيام عام ١٥٠٨ استرعت انتباهه عبارة وردت فى رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ :١٧) «إن الحق يحيا بالإيمان» وقادته هذه الكلمات فى بطء إلى العقيدة التى تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى - أى يرجع إلى الصواب وينجو من النار - لا بالأعمال الطيبة التى لا يمكن أن تكفى أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر.

وسوف نقف عند هذه الفكرة طويلاً عند مناقشة أفكاره بوجه عام ومقارنة ذلك بالتصور العقائدى الإسلامى وبعض التصورات الفلسفية لعصر التنوير.

وقد زار لوثر روما عام ١٥١٠ وبعد عشر سنوات وصفها بأنها تدعو إلى المقت وقال: «إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتى عشرة فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوى وقت ذلك»[٢] وأياً كان صحة هذا القول فإنه يعبر عن مدى الانحلال الذى عايشه فى روما فى تلك المرحلة.

أثر رسائل لوثر

لم ير الأسقف المحلى فى رسائل لوثر شيئاً من الهرطقة ولكنه نصحه فى لطف ألا يكتب شيئاً آخر فى الموضوع لفترة ما. أما لوثر نفسه فقد هاله ما أثارته رسائله من غضب. فقد هللت الآلاف المنتظرة لهذا الاحتجاج بينما تصدى لها تيتزل وأعوانه بمائة وست رسائل مضادة فرد عليها لوثر فى عظة شهيرة بتحد لا نظير له: «إذا كنت هرطيقاً فى نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التى أذكرها فإنى لا أبالي كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل»[٣].

وعندما شاعت ثورة رجال الدين على لوثر حاول استرضاء البابا فى رسالة له بقوله: «أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداستك تذللى وخضوعى بكل ما أكونه وما أملك، هيا وسارع

---

(١) المرجع السابق: مج١٢ ج٢ ص٨
(٢) المرجع السابق: ص١٥.
(٣) المرجع السابق: ص١٧.

واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك فى نظرك. إنى سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح إذ يقيم فى جسدك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت»[١].

من ناحية أخرى فقد تم استدعاء لوثر إلى روما لكنه وجد الحماية من الأمير فريدريك بينما رأى فيه الإمبراطور ماكس ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير فريدريك أن يهتم جداً بهذا الراهب. أما البابا ليو الذى كان يتصف بقدر أكبر من التسامح من البابوات الذين قبله فقد حاول التوفيق بين الجانبين فأصدر نشرة بابوية فى التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التى نسبت إلى صكوك الغفران فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعفى فحسب من العقوبات الدنيوية التى فرضتها الكنيسة - لا الحكام الزمنيون - أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فإن سلطة البابا محددة بصلواته التى يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين. وأصدر تعليماته إلى قاصده الرسولى كاجتيان بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملاً ومناصب فى المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الأمنية أن ترسله إلى روما.

ولكن كاجيتان رفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها عند مقابلته وطلب من فريدريك أن يرسله إلى روما فرفض وعاد لوثر إلى فايتنبرج وقام بمناظرة إيك المدافع عن الكنيسة، بيد أن لوثر فى هذه المناظرة بدا أكثر تهوراً فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما فى أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكية اليونانية الواسعة الانتشار لاتزال ترفض سيادة روما.

وعندما هاجم إيك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر (هس)[٢] التى أدانها مجلس كونستانس، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطئ وإن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة. وعندما انتهى هذا الجدل كان إيك قد وصل إلى غرضه الحقيقى وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى.

انضم عدد من علماءاللاهوت إلى لوثر كان من أشهرهم كارلشتادت وملانكتون بالإضافة إلى فون هوتن الأديب الذى نشر محاورات منظومة لعبت دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر،

---

(١) المرجع السابق: ص١٨.

(٢) المرجع السابق.

وذلك في الإعراب عن الرغبة القومية في الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها: «دودة ضخمة تمتص الدماء»(١).

وصرح بأن «البابا زعيم لص وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة.. وروما بحر من الدنس وحمأة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم، ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حدب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية»(٢).

وفي ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً جاء فيه «إذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقي بالهراطقة في النار فلماذا لا نهاجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ونغسل أيدينا في دمائهم»(٣).

وأصدر كارلشتادت في نفس العام كتيباً جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسالات الإنجيلية.

ثم كتب لوثر خطاباً مفتوحاً إلى أشراف الأمة الألمانية بشأن إصلاح رجال الدين وشمل نداؤه استغاثة بالنبيل الشاب الذي كان قد اختير قبل عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس دعا فيه إلى اجتماع المجلس العام للكنيسة ليفحص «المفارقة الفظيعة في أن زعيم العالم المسيحي يعيش في ترف دنيوي يفوق ما يحلم به أي ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد في المائة من «زمرة الهوام» الذين يشغلون في روما مناصب دينية تدر عليهم دخلاً دون أن يؤدوا عملاً ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التي يسلبونها من ألمانيا»(٤).

وفي سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إيك وجروم الياندر منشور الحرمان من غفران الكنيسة في ألمانيا فرد عليهم لوثر بإصدار ثان هو (الأسر البابلي للكنيسة) ذهب فيه إلى أنه كما قاسى اليهود طويلاً من الأسر في بابل فإن الكنيسة كما أنشأها المسيح وكما نص عليها في العهد الجديد قد تعرضت للأسر ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية في روما، وإلى أن الهسيين كانوا على حق فيما ذهبوا إليه في كون القس لا يغير الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق: ص ٢٦.
(٤) المرجع السابق: ص٢٨.

ومع ذلك فقد ذهب لوثر إلى أن المسيح يحضر فى القربان المقدس مع الخبز والنبيذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم ورفض فى هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه فى القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر وهو الأمر الذي دعا ديورانت أن يعلق على ذلك متهكماً: «ولو أنه لم يجد ما يفزعه فى الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر أن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر»(١).

ولم يكتف لوثر بذلك بل ذهب إلى أنه يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين «فكما آكل وأشرب وأنام وأمشى.. وأتعامل مع وثنى أو يهودى أو تركى أو هرطيقى فإن فى وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحمق لتحريم هذا».

أما المسألة العجيبة والتى تعبر عن مدى ما تمثله إشكالية الزواج الكاثوليكى من جناية على البشر وتجافيها مع الطبيعة البشرية والمنطق الطبيعى للأمور وهو الأمر الذى انعكس على مقترحات لوثر نفسه للخروج من مأزقها فهى قوله: «وأى امرأة تتزوج من رجل عنين يجب أن يُسمح لها - إذا وافق زوجها - بأن تضاجع رجلاً آخر لكى تنجب منه طفلاً ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها، وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ولعل تعدد الزوجات خير منه»(٢).

وفى خطاب إلى البابا أطلق عليه اسم (عجالة فى الحرية المسيحية) أعلن فيه عن مذهبه الأساسي والذى سيكون محوراً لمناقشتنا فى أفكاره حيث يقول: «إن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هى التى تخلق المسيحى الصادق وتخلصه من عذاب النار لأن الإيمان بالمسيح هو الذى يجعل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان»(٣).

وندد لوثر بالإعلان عن حرمانه من الكنيسة فى سلسلة من الكتيبات التى أعلن فى إحداها موافقته الكاملة، على آراء هس.

وفى نهاية عام ١٥٢٠ أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية. وهكذا حرم البابا نفسه من غفران الكنيسة.

وعندما انطلق الأمير فريدريك إلى حفل تتويج الإمبراطور شارل الخامس فى مدينة آخن فى أكتوبر عام ١٥٢٠ قدم له مبعوث البابا الياندر التماساً آخر للقبض على لوثر فما كان من

---

(١) المرجع السابق: مج١٢ ج١ ص٣١.
(٢) المرجع السابق: ص ٣١.
(٣) المرجع السابق:٣٣.

فريدريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة فى الكنيسة وأن الجهود التى تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع. ورد الإمبراطور بالجواب نفسه على نفس الطلب وكان قد وعد أمراءه كشرط لانتخابه ألا يدان ألمانى دون محاكمة عادلة فى ألمانيا.

وفى الثالث من مارس ١٥٢١ قدم الياندر إلى المجلس النيابى اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله، وعلى ذلك وجه الإمبراطور دعوة إلى لوثر للحضور إلى (ورمس) ليؤدى الشهادة عن تعاليمه وكتبه، فتوجه لوثر إليها على رغم من تحذير أصدقائه ووقف فى رداء الرهبان أمام المجلس النيابى وفى وجود الإمبراطور وستة من الأمراء فى محكمة رهيبة جمعت بالإضافة إلى ذلك عدداً من النبلاء والبطاركة وممثل البابا الذى سأله عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التى كان قد كتبها كليًّا وجزئيًّا، فأجاب بأن تلك الأجزاء التى تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور شارل - الذى كان يقارب العشرين من العمر - بصوت جهورى دوًّى فى القاعة: لا.

ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه وهو يقول: «إذا أنكرت ما قلت فى هذا الوقت فإنى أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة».

أما بالنسبة للفقرات العقائدية فى كتبه فقد وافق أن يسحب أية فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ما جاء فى الكتاب المقدس. فأبدى ممثل الكنيسة اعتراضه على ذلك قائلاً: يا مارتن إن التمسك بسماع ما جاء فى الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهراطقة، إنك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التى ارتكبها ويكليف وهس.. يا مارتن أجب بأمانة ودون مواربة: هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التى تحتويها؟ فرد لوثر: ما لم تديننى آية فى الكتاب المقدس أو الحجة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهما يناقض الآخر) فإن ضميرى أسير لكلمة الله وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى ولن أفعل هذا لأن مخالفة ضميرى ليست من الصواب والأمن فى شىء، أسأل الله العون.. آمين.

فواجهه ممثل البابا بأنه لا يمكن إثبات أى خطأ فى المراسيم العقائدية التى أصدرتها المجالس. فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء، ولكن الإمبراطور الذى كان يحتاج إلى مساندة البابا ضد خصومه فى تلك المرحلة اعترض قائلاً بلهجة قاطعة: هذا يكفى مادام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى.

ثم دعا البابا كبار الأمراء إلى مؤتمر خاص وقرر أمامهم بأنه سيسمح للوثر بالعودة على

شرط أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتن وأنه سوف يحاكم على أنه هرطيق سيئ السمعة فوافقه الأمراء على ذلك باستثناء فريدريك ومعه أمير ثان فقد امتنعا عن إبداء رأيهما. ثم رتب فريدريك عملية اختطاف للوثر بالاتفاق معه فى طريق عودته كما لو كان ذلك من عمل قطاع الطرق خشية أن يقبض عليه رجال الإمبراطور عند تجاوزه حدوداً معينة.

أما الإمبراطور فقد أصدر منشوراً أمهل فيه لوثر واحداً وعشرين يوماً للتراجع عن أفكاره وإلا ووجه بالإدانة هو وأتباعه، أما كتبه فقد قرر أن تمحى من التاريخ.

عقيدة مارتن لوثر

« لا تستطيع أن تقبل كلاً من الإنجيل والعقل فأحدهما لايفسح الطريق للآخر.. إن العقل هو أكبر عدو للإيمان »

مارتن لوثر

يذهب مارتن لوثر إلى أنه يجب التعويل على الإيمان وحده من أجل الخلاص، أما العقل فيبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان في وحي من لدن الله أو كما يقول: «أنت لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر... إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل تبدو مستحيلة تماماً ومنافية للعقول وزائفة. فإذن كيف يعتقد ذلك الأحمق الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه في العشاء الأخير؟... أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة.. أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدته ثمَ غدا رجلاً يتعذب ثم يموت موتة مخجلة على الصليب؟... إن العقل هو أكبر عدو للإيمان... إنه أفجر صنائع الشيطان كبغي فتك بها الجرب والجذام ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هي وحكمتها ... فاقذفها بالروث في وجهها وأغرقها في العماء»[1].

وقدر لوثر أولاً «أن سفر الرؤيا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد لا هي رسولية ولا نبوية أما سفر عزرا الثالث فإني أقذف به في نهر إليا»[2].

وقال لوثر: إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شيء بانتظام في حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد.. ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان»[3]

وباستبعاد الاستثناءات سالفة الذكر فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس بحذافيره وحرفياً.

---

(١) ول ديورانت: مج١٢ ج٢ ص٥٦.

(٢) المرجع السابق: ص٥٧.

(٣) المرجع السابق: ص٥٧.

وعندما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحى الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكوِّنوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس. أى أنه لم يقل شيئاً بلغة العقل. وقد اعتصم لوثر بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يرَ المسيح قط.

«والكنيسة الإنجليزية (البروتستانتية) الرسمية مثال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات وهى ماتزال كهنوتية قطب رحاها قسيس متكرس وتدين بالقربان المقدس.

ويرى ديورانت أن لوثر كان متأثراً باليهودية تأثراً كبيراً وأن العهد القديم حجب العهد الجديد وأن مفهوم الله عند لوثر كان يهودياً وأن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً طغت على فكره.

ولكن من ناحية أخرى فهناك شواهد تدلل على تأثر لوثر بالزرادشتية فقد نسب إلى فعل الشيطان ظواهر شتى لا تسر «سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون أما الحوادث السعيدة كلها فهى فى نظره من فعل الله»[١].

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاقتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم وأنه ليس هناك من هو مسيحى أو ورع بفطرته. وتعويله على الإيمان فقط جعله يذهب إلى أن «الإنجيل لا يبشر بشىء من الجزاء عن الأعمال وإن كان من يقول إن الأعمال هى وسيلة الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب»[٢].

ويرى أنه لا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة أن تكفر عن الذنوب التى اقترفها خير الناس «ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المفتدية - آلام ابن الله وموته - ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهى».

وهذه هى أخطر الركائز فى مذهبه لأن التعويل على الإيمان وحده دون اعتبار للأعمال يفتح الباب لأحط الشرور بل ويضع البشرية فى تناقض حاد بين الإيمان المعتقد والواقع العملى للسلوك. خصوصاً أن هذا الأمر يتم تدعيمه بمذهب لوثر الجبرى فى القضاء والقدر والأخطر من ذلك قول لوثر: «إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب الخطايا على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح. حسبك أن تعرف الحمل الذى يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً فى الخطايا إلى أذنيه فيأتى الإنجيل فيقول له: كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن

(١) المرجع السابق: ص٦٠.

(٢) المرجع السابق: ص٦٢.

فصاعداً؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شيء آخر تعمل من أجله»[1].

وإذا تم التساؤل: كيف يتأتى للإنسان إذن أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذى ينجيه من عذاب الجحيم؟ فإن إجابة لوثر على ذلك بأنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التى يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله بغض النظر عن هذه الأعمال ومن ثم يغدو الإنسان وعاء للإرادة الإلهية دون أن تكون له إرادة مستقلة وهذا مما يتوافق مع حتميته القدرية فإنه «إذا كان الله عليماً بكل شيء فإنه يعرف كل شيء مسبقاً، وكل شيء لا بد أن يحدث كما سبق فى علمه»[2]. وإن كان علم الله المسبق لا ينفي حرية الإنسان عند أغلب متكلمى المسلمين فإن ذلك العلم يجعل الإنسان عند لوثر «ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عمود من المسلح»[3].

وهذه العقيدة اللوثرية مثيرة لأشد الغرابة إذ كيف يقتنع الإنسان بأن أعماله جميعًا لا قيمة لها عند الله ويكون سوىّ السلوك. ثم كيف يقبل على الله ذاته وهو يعتقد أنه حكم حكمًا جبريًّا بشقاء قوم ونعيم آخرين، ولا يدرى ما هو مصيره: بين هؤلاء أو بين هؤلاء؟ ثم ما هو شعوره بقيمته كإنسان فى مقابل كل ذاك الجبر والعشوائية. ثم كيف أطلب منه أن يرتضى بكل هذا الحق على أسس عقائدية تتناقض مع العقل أصلاً.

من الواضح أن المسألة كلها عماء فى عماء. والأغرب من كل ذلك أن تأتى هذه العقيدة من رجل يدعو إلى الإصلاح والثورة وتحرير الجماهير.

الثـــورة

عندما بدا للوثر أن هناك تصميماً على إسكاته وأتباعه أطلق صرخة مدوية كانت بمثابة الناقوس المنذر بالثورة تقريباً فى كتيب أطلق عليه اسم «ضد النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة (يوليو ١٥٢٢) دمغ فيه البطارقة بأنهم «أكبر الذئاب» وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة حيث يقول:

«كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان. وما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكدحهم؟.. إنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم.. أما إذا لم يستمعوا إلى

(١) المرجع السابق: ص٦٢.
(٢) المرجع السابق: ص٦٣.
(٣) المرجع السابق.

كلمة الله وثأروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستفز، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض؟ ولسوف نبتسم إذا حدث هذا»[1].

جون كالفن

يعد جون كالفن المولود بفرنسا عام ١٥٠٩ من أهم المدافعين عن فكر لوثر والداعين له

وقد عمل على استمالة ملك فرنسا مثل أخته إلى القضية البروتستانتية ولكن أهم ما يستوقفنا عنده هو تميز العقيدة الجبرية عنده لمدى يفوق جبرية لوثر نفسه. فهو يذهب إلى أنه «يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر بعصيانهما أمر الله. الشر الذى فطر الإنسان عليه وفقدانه لإرادته الحرة»[2].

ويقول كالفن: «أنى لمخلوق فاسد إلى هذا الحد أن يستحق النعيم الأبدى فى الفردوس؟ ليس فى استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات»[3].

وفسر كالفن علم الله بالتالى: «إن الله قد قرر بمشيئة حرة لا تتوقف أبداً على ما نتمتع به من فضائل أو نتصف به من رذائل وقبل خلقنا بوقت طويل من منا يكتب له النجاة ومن تعذب فى نار جهنم»[4].

ولكن أخطر ما فى نظرية كالفن هو قوله: «لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائى فى المستقبل قبل أن يخلقه وأنه عرفه سلفاً لأنه كان قضى به فى حكمه» فإذا كان لوثر يرى أن المستقبل قد تحدد لأن الرب تنبأ به سلفاً ويلغى إرادة الإنسان بناء على تفسيره لذلك فإن موقف كالفن يتجاوز ذلك ويكون مروعاً إلى أقصى حد لأنه يعتقد أن الرب تنبأ بالمستقبل لأنه شاء هذا وقرره والحكم بالعذاب الأبدى حكم مطلق كما أنه ليس هناك مطهِّر فى لاهوت كالفن.

ويتم التساؤل: كيف من الممكن للاهوت غيرجذاب كهذا أن يحرز رضا مئات الملايين من الناس فى سويسرا وفرنسا واسكتلندا وإنجلترا وخصوصاً فى أمريكا التى هى موضع دراستنا؟ بل نتساءل إلى أبعد من ذلك عن مدى علاقة تلك الجبرية المروعة بسلوك

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ول ديورانت: مج ١٢ ج٢ ص٢١٢.

(٣) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٤) المرجع السابق: نفس الصفحة.

البيورتانيين الإنجليز أتباع كالفن فى أمريكا والذى تميز بالإجرام والوحشية؟ ويجيب المحللون على ذلك بأن هؤلاء خصوصاً البيورتانيين منهم رأوا فى أنفسهم أنهم ينتمون إلى تلك الصفوة القليلة التى كتب لها الخلاص فى القدر الإلهى وأن ذلك الخلاص تبعاً لفكر كالفن ومن قبله لوثر لا يتعلق بشكل السلوك أو الأعمال التى يتخذونها خصوصاً عندما يكتمل هذا الإيمان بالاعتقاد بأن من يمارسون ضدهم جرائمهم من تلك الكثرة الغالبة التى قدر عليها العذاب.

كما أنه من الجدير بالقبول تلك المقارنة التى يشيع بين المحللين عقدها بين عقيدة هؤلاء البيورتانيين (المتطهرين) وبين عقيدة الشعب اليهودى وقد أشرنا فيما سبق لمدى تأثر لوثر نفسه بالعهد القديم. فكلا الفئتين تعتقد بالاختيار الإلهى لها وأن لديها مهمة مقدسة فى تطهير الأرض الموعودة (فلسطين بالنسبة لليهود وأمريكا أو إسرائيل الجديدة بالنسبة للإنجليز البيورتانيين).

الموحدون وعلاقتهم بالفكر الإسلامى وزعماء البروتستانتية

نشأ سرفتيوس أحد ممثلى الاتجاه التوحيدى الثورى فى بداية القرن السادس عشر والمولود بالقرب من سارقوسة فى عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر فى إسبانيا «وكان متأثراً إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين إذ قرأ القرآن وشق طريقه فى التأويلات التلمودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث ولمريم وللقديسين) باعتبارها شركًا وأطلق عليه لوثر لقب (المراكشى)»[1].

وكان يسوع فى نظر سرفتيوس رجلاً نفخ فيه الله الحكمة الإلهية وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفواً للأب أو سرمدياً مثله، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها للآخرين من الناس «إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التى أرسل بها واحد من الأنبياء»[2].

ويعلق ديورانت على ذلك بقوله: «وهذا قريب جداً من مفهوم محمد عن المسيح»[3].

وكان يقول عن الثالوث: «كل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب.. وإنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد»[4].

وفى رسالته (إعادة المسيحية) ـ والتى يمثل عنوانها نفسه تحدياً للمسيحية القائمة فى ذاك العصر – رفض الفكرة القائلة بأن الله قدر على الأرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتحريف.

وكتب إلى أحد قساوسة جينيف يقول: «إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات. فبدلاً من الرب عبدتم سربيوس (كائن خرافى) ذا الرءوس الثلاثة (الثالوث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حلماً حتمياً.. والإنسان عندكم بدون إرادة.. إنكم تغلقون

---

(١)، (٢) ديورانت مج ١٢ ج٢ ص: ٢٤٠

(٣) المرجع السابق: ص ٢٤١.

(٤) المرجع السابق: نفس الصفحة.

أبواب السماء فى وجوه الناس .. الويل ! الويل ! الويل !»[1].

تُرى ماذا كان موقف زعماء الإصلاح البروتستانتى وعلى رأسهم كالفن من هذا المفكر؟ لقد أدانت سرفتيوس المحكمة المدنية وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة. فقرر أن يلجأ متخفياً إلى نابولى عن طريق جينيف ولكن تمّ التعرف عليه وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه وشرح كالفن موقفه هذا فى خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) جاء فيه: «إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكباد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن خزعبلاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البرىء، ألا يخجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عندما يبدون أمام الناس أقل غيرة فى الدفاع عن الحق الذى لا ريب فيه»[2].

وواضح من قول كالفن هذا مدى صدق ما ذهب إليه لوثر من كون الإيمان البروتستانتى يتنافى تماماً مع العقل حيث يقيم الثورات على عدم معقولية صكوك الغفران والعشاء المقدس وغير ذلك من الأمور التى يصفها بالخزعبلات ثم يرى فى تحريضه الدموى على دعوة سرفتيوس إلى التوحيد دفاعاً عن الحق الذى لا ريب فيه!.

وسريعاً ما تم اعتقال سرفتيوس الذى كانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إليه أمام المحكمة هى رفضه التثليث وتعميد الأطفال والطعن فى شخص السيد كالفن (وكان قد هاجمه) العقائد التى فرضها إنجيل كنيسة جينيف. وقد ظهر كالفن فى قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام بنفسه. وانضم القضاة الكاثوليك فى فيين إلى الموقف الصارم للمجلس البروتستانتى فى جينيف من إدانة سرفتيوس.

ووجد كالفن معارضة قوية من الوطنيين والمتحررين فى المدينة فقابل ذلك بعزيمة متشددة فى ملاحقة سرفتيوس حتى ينفذ فيه حكم الإعدام. وقدم سرفيتوس للمحكمة رداً مكتوباً على اتهامات كالفن له ودحض كل اتهام بحجة قوية وبفقرات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال رددها آباء الكنيسة. ولكن فى النهاية أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة - مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال.

وتوسل سرفتيوس إلى كالفن طالباً الرحمة دون جدوى. وحيث إن الكاثوليك والبروتستانت اتفقوا على الحكم وحيث إن الأولين قد فاتهم تنفيذ الحكم فقد قاموا بإحراق تمثال لهذا المسكين الهرطيق. ونشر دافيد جوريس احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ووقع

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.

عليه باسم مستعار ولما اكتشف ذلك بعد موته أخرجت جثته بعد الدفن وأحرقت علناً.

أما عالم الإنسانيات كاستليو فقد تمنى أن يساعد سرفتيوس وراءه دفاع كالفن عن تنفيذ حكم الإعدام وذهب إلى أن «كل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا[1].

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفي إلى مذهب الموحدين ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح حيث إن ذلك يؤذن ببداية النهاية للمسيحية و **يسجل ديورانت أن هرطقة التوحيد هذه وجدها كالفن «متفشية في مدينة جينيف ذاتها وفوق كل شيء بين اللاجئين البروتستانت الفارين من إيطاليا ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسد لا يصدق قدراً محتوماً لا يصدق وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله»[2].**

وعندما دافع ماثيو جريبالدى أستاذ القانون صراحة عن سرفتيوس تم نفيه من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين، وعندما عين أستاذاً فى الجامعة فى إحدى المدن الأخرى أرسل كالفن إلى الجامعة كلمة عن شكوكه فيه. فألزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث فما كان منه سوى أن فر إلى برن حيث مات متأثراً بداء الطاعون عام ١٥٦٤ .

وأعرب فالنتينو جنتيلى من كالابريل صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى المدينة فألقى فى غيابة السجن وحكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فتراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية بيد أنه أطلق سراحه عندما أكد لهم أن مصلحته الرئيسية تكمن فى دحض هذه المزاعم ولكنه عندما عاد إلى سويسرا اعتقله حكام برن وقطعوا رأسه.

وأخيراً يقول ديورانت عن كالفن: «سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل المبجل بأسره»[3].

وليس كل من شارك سيرفتيوس فى اعتقاده لقى نفس مصيره كما يظهر من الرسالة التالية لأحد المعاصرين له وهو آدم نيزر، وكانت موجهة إلى قائد المسلمين فى القسطنطينية الإمبراطور سليم الثانى، وهذه الرسالة موجودة فى آثار البلاتينيت فى أرشيف هيدليبيرج وهى كالتالى:

---

(١) المرجع السابق: مج١٢ ج٢ ص٢٥١.

(٢) المرجع السابق: ص٢٥٤.

(٣) المرجع السابق: ص٢٥٨.

«أنا آدم نيزر مسيحي مولود في ألمانيا ووصل إلى مرتبة واعظ إلى شعب هيدليبيرج وهي مدينة يوجد فيها نسبة تعليم مرتفعة في أيامنا هذه، أطلب اللجوء إلى جلالتكم بخضوعي الكامل وأناشدكم بحب الله نبيكم عليه الصلاة والسلام أن تقبلوني في رعاياكم وشعبكم الذي يؤمن بالله وأنا أؤمن بكامل إرادتي أن مذهبكم ودينكم نقي وواضح ومقبول من الله ولقد اقتنعت بكامل إرادتي أن خروجي من زمرة المسيحيين الوثنيين سيشجع عدداً من ذوي النفوذ على اعتناق ديانتكم لأن كثيراً من ذوي النفوذ والعلم يشاركونني في نفس مشاعري كما أخبر جلالتكم وبالنسبة لي فأنا واحد من هؤلاء الذي يقول عنهم القرآن في الفصل الثالث عشر. ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزِلَ إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾(*).

ونحن نأمل من قلوبنا أننا طالما نؤمن بإله واحد وهو ما يؤمن به الأتقياء فهذا سيجعلنا ندمج في المجتمع الإسلامي، لأننا لماذا لا نؤمن بالله وبالذي أرسل إلينا على الحقيقة وأحب أن أعلمكم أنني واحد من هؤلاء الذين يقرأون القرآن بإعجاب وأريد أن أكون من المسلمين وإني أُشهد الله أن رسالة محمد ﷺ لا تقبل الشك، ولذلك فإني أناشدكم بحب الله وحب نبيكم ﷺ أن تقبل ذلك مني وأن تعرف كيف هداني الله إلى الطريق القويم.

ولكن قبل كل شيء يجب أن تقتنع جلالتكم أني لا أطلب حمايتكم كما تعود كثير من المسيحيين على فعل ذلك والذين بسبب جرائمهم وسرقاتهم ومظاهر القتل والزنا التي يرتكبونها قلما يمكن أن يعيشوا في أمان بين رعايا دينهم ولذلك قررت أن أطلب اللجوء إليكم منذ عام مضى وكنت في طريقي إلى بريسبرج ولكن لأني لا أعرف اللغة المجرية لم أستطع تكملة المسير ولذلك اضطررت رغماً عن إرادتي إلى الرجوع إلى موطني ولا أجرؤ على فعل ذلك إذا كنت هارباً بجريمة ما ولا أحد يكون قادراً على قهري على العيش في مجتمع مجهول عني وأعيش بعيداً عنه بمسافة كبيرة.

ولذلك لا أرغب في أن تضعني جلالتكم في عداد المسيحيين الذين دعتهم رغبتهم في عدم الوقوع في الأسر والقهر إلى النطق بكلمة الإسلام والذين بمجرد أن تواتيهم الفرصة يخرجون من دين الحق.

وأناشد جلالتكم بسبب ذلك أن تهتم بما أقوله وبسبب طلبي الدخول في الإسلام.

ونظراً لكوني قد رقيت إلى رتبة واعظ في جامعة هيدليبرج المشهورة عن طريق إليكتور

(*) سورة المائدة.

بلاتين وهو أقوى أمير بعد الإمبراطور فى ألمانيا فقد بدأت أدرس بنضج أبعاد طوائف وملل الديانة المسيحية لأنه كما يوجد مسيحيون كثيرون توجد مشاعر وآراء مختلفة وبدأت أدرس كتب مفسرى وعلماء الكتب المقدسة منذ أيام النبى، وبدأت أركز على وصايا موسى وتعاليم الإنجيل وبدأت أدعو الله بتضرع وخيفة أن يهدينى إلى الطريق المستقيم لأنى قد أضل نفسى وأضل أتباعى، وألهمنى الله بمبادئ دعوة الوحدانية وأول مبدأ أثبته بخصوص ذلك فى كتاب مؤداه أن دعوة المسيح لا تتضمن أنه إله كما يزعم بذلك كثير من المسيحيين زيفًا ولكنها تقول إنه يوجد إله واحد وليس له ابن مثيل له أو مقرون معه وإنى أهدى هذا الكتاب إلى جلالتكم وإنى واثق أن أقوى المسيحيين حجة لا يستطيع أن يفنده.

وهل يلزم أن نقر لله إلهًا آخر وقد حرم موسى ذلك ولم يقله عيسى؟ وبعد ذلك فإنى أتحصن من يوم لآخر بقدرة الله ونعمته وبفهمى أن المسيحيين لا يتبعون تعاليم المسيح ويسيئون إليه كما أساء اليهود قبل ذلك استعمال الثعبان النحاس، ولا يوجد مذهب نقى بين مذاهب المسيحية وكلها تم تزييفها لأنهم حرفوا بالتفسيرات الخاطئة كل تعاليم موسى والإنجيل وأنا كشفت ذلك فى كتاب ألفته بنفسى وسأقدمه إلى جلالتكم وعندما أقول إن المسيحيين قد زيفوا وحرفوا وصايا موسى والإنجيل فإنى أعنى بذلك الكلمات والمعانى فيها، وتتفق ديانة موسى وعيسى ومحمد فى كل شىء وليست مناقضة لبعضها، ويشهد القرآن بذلك على موسى وعيسى ولكنه يؤكد على تحريف المسيحيين لوصايا موسى والإنجيل بالتفسيرات الخاطئة ولو كانت كلمة الله قد فُسرت بمعناها الصحيح لم يكن يوجد هناك فرق بين اليهود والمسيحيين والأتراك ولذلك يكون ما يؤكد عليه القرآن من التحريف صحيحًا وديانة الإسلام تصحيح كل التفسيرات الخاطئة للكتب المقدسة وتهدى إلى المعنى الحقيقى لكلمة الله.

وبنعمة الله اهتديت أنه لا يوجد إله إلا الله وتأكدت أن كل طقوس وشعائر المسيحية تختلف عن المسيحية الأولى، وتأكدت أكثر أننى الرجل الوحيد فى العالم الذى يحمل هذا الرأى.

ولم أر القرآن لأنه يوجد اهتمام بيننا كمسيحيين بنشر تقارير مشينة ومخزية عن كل شىء يخص ديانة محمد لكى نجعل من يؤمن به من الفقراء ينتابه الهلع ولا يستطيع الإنصات إلى القرآن.

ومع ذلك فقد وقع هذا الكتاب فى يدى بفضل العناية الإلهية وإنى أشكر الله على ذلك والله يعلم أننى فى صلاتى أدعو الله لك يا صاحب الجلالة ولمن يؤيدك، ولقد بذلت كل ما فى وسعى لكى أبعد تأثيرات هذه العقيدة المنحرفة على مسامعى وفى حالة عدم قبول الذين

أعظهم لديانة الإسلام فإني أتخلى عن مسئوليتى فى الكنيسة وأتقاعد.

ولقد بدأت أنازع كل الكنائس والمدارس الدينية فى بعض مبادئ مذاهبها ونجحت فى ذلك، ولقد عرفت تلك الأمور فى كل ولايات الإمبراطورية وانضم لى بعض الرجال المتعلمين ولقد عزلنى مجلس الكنيسة خشية غزو الإمبراطور ماكسميلينان»[1].

وسقط هذا الخطاب فى يد الإمبراطور ماكسميلينان فقبض على نيزر مع صديقيه وهما سيلفان وماتياس ووضعوا فى السجن.

وفي الخامس عشر من يوليو ١٥٧٠ هرب نيزر ولكن قُبض عليه ثانية ولكنه هرب مرة ثانية وقُبض عليه ثالثة واستمرت محاكمتهم لمدة سنتين وقررت المحكمة قطع رقبة سيلفان وعند صدور الحكم هرب نيزر واستطاع الوصول للقسطنطينية لكى يعتنق الإسلام.

ومن أهم ما جاء في هذا الخطاب قول نيزر: «ولم أر القرآن ؛ لأنه يوجد اهتمام بيننا كمسيحيين بنشر تقارير مشينة ومخزية عن كل شيء يخص ديانة محمد ؛ لكى نجعل من يؤمن به من الفقراء ينتابه الهلع ولا يستطيع الإنصات إلى القرآن» فهو يؤكد ما يذكره الباحثون عن أثر تشنيعات بعض المغرضين فى الغرب على الإسلام فى الحيلولة دون إيمان الغربيين به. ومن ناحية أخرى فإن الخطاب بوجه عام يكشف الدور السلبى للعمل الدعوىّ الإسلامى فى ذاك الوقت بالنسبة لأوروبا مقارنة بحركة الدعاة المسلمين فى المشرق. فالعلاقة بين الطرفين المسلمين وأوروبا كان يحكمها حالة من الاحتقان العدائى المتبادل وهو الأمر الذى يجد صداه حتى الآن لدى الطرفين. وعلى الرغم من نشاط الدعاة المسلمين فى الغرب فى هذا العصر إلا أنه للأسف الشديد مازال فريق هام من الإسلاميين يهمل هذا الجانب الدعوِىّ عند تحديد موقفه من العالم الغربى.

---

(١) عيسى المسيح والتوحيد، محمد عطا الرحيم، ترجمة: عادل حامد.

التنوير الغربى
ثورة الحركة العقلية الغربية على المسيحية
ثم على كل الأديان

ناقشنا فى الفصول السابقة كيف واجهت الكنيسة الغربية أيام عنفوانها الثورات المتباينة للعقول المتمردة على المسيحية الثالوثية والكهنوت والاستبداد والفساد البابوى بكل قوة وقسوة.

بيد أن عذابات القرون الطويلة التى عملت فيها الكنيسة على إجهاض الثورات المضادة قد تمخضت فى النهاية عن ثورة الحركة العقلانية التى لم تتمرد على الكنيسة فقط وإنما على المسيحية أيضاً فى كافة صورها وهو الأمر الذى امتد بعد ذلك إلى التمرد على كل الأديان وعلى الله ذاته، وقد كان هذا الذى حدث من أهم جنايات المسيحية الغربية على الإسلام. فالحركة العقلانية التى أخذت مدادها بداية من الإسلام - كما أشرنا من قبل - اتخذت فى النهاية مساراً علمانياً مادياً بعد تاريخ طويل من الويلات والهزائم وفى ظل قرون طويلة من العمل الدؤوب على تشويه الإسلام والتشنيع عليه ببعض المغرضين فى المخيلة الغربية.

ومن ثم كان الناتج الأخير فى النهاية سيطرة الفكر العلمانى المادى على العقل الغربى الذى يجد فى الإسلام الآن تناقضه الأساسى بعد انتصاره على المسيحية الغربية.

وسوف نقدم فى الفصول التالية أبرز معالم الفكر العلمانى المنتصر والمتمثل فيما يسمى عصر التنوير.

هوبز

هذا الرجل المولود فى إنجلترا عام ١٥٨٨ والذى امتدت حياته إلى نحو قرن (توفى فى ١٦٧٩) هو أول الماديين الغربيين فى العصر الحديث بإرجاعه كل علم إلى الإحساس. فهو يذهب إلى أنه «ليس ثمة فكرة فى عقل الإنسان إلا تولدت بادئ ذى بدء تامة أو على دفعات فى أعضاء الحس»(١).

---

(١) المرجع السابق: مج١٧ ج٢ ص٧

ويعرف الإحساس بأنه «حركة في ذرات الجسم الحاس صادرة عن حركة في الجسم المحسوس»(١) حيث تنتقل الحركة الخارجية إلى الدماغ ومنه إلى القلب بواسطة أعضاء الحواس والأعصاب فتصادف مقاومة وصدى لأن الأعضاء الباطنة هي أيضاً في حركة متصلة. هذا الصدى بمثابة ميل إلى الخارج يجعلنا نقذف بموضوع الإحساس إلى الخارج، والقلب لدى هوبز هو مركز الإحساس وعلى ذلك فإن الوجدان أو الروح هما مجرد حركة كما أن المرئيات والأصوات والروائح وما شابهها لا توجد في الأشياء بل هي ذاتية فينا. فللأجسام خاصيتان فقط هما الامتداد والحركة حتى الزمان والمكان فإنهما صورتان من نوع الصور التي يحدثها فينا الامتداد والحركة.

كما أن العقل لدى هوبز «هو شيء يكتسب بالمران أي أنه ليس فطرياً كما اعتقد ديكارت»(٢) ويتوافق مع هذا تفسير هوبز الآلي للإرادة حيث إن الحركة الدماغية ـ التي هي التصور بحسب ما يذهب إليه – إذا ما بلغت إلى القلب نشطت الحركة الحيوية أو عاقتها، ففي حال التنشيط تكون اللذة وتسمى خيراً وتكون محبة الشيء اللاذ وفي حال العوق يكون الألم ويسمى شراً وتكون كراهية الشيء المؤلم وحركة اللذة تدفع إلى اشتهاء الشيء وحركة الألم تدفع إلى خوفه: فالاشتهاء والخوف هما الباعثان على جميع أفعالنا.

واستتبع مذهبه المادي الأخذ بمذهب الاسمية حيث أنكر هوبز المعاني المجردة وذهب إلى أن كل ما هنالك أسماء تقوم مقام الصور الجزئية.

والعالم كله آلة من المادة متحركة طبقاً لقانون والإنسان نفسه آلة شبيهة بهذه.. والجهاز العصبي عبارة عن تركيب آلي لتحويل الحركات الحسية إلى حركة عضلية.. والنفس والعقل ليسا غير ماديين ولكنهما اسمان للعمليات الحيوية للجسم ولأعمال المخ»(٣).

ومتى كان الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة كانت معرفتنا مقصورة على تناوله بالفعل من الماديات المحدودة فامتنع علينا العلم بالعالم في جملته وامتنع علينا من باب أولى العلم باللامتناهي.

وهو على ذلك ينكر إمكان التدليل على وجود الله بالوقوف عند حد في سلسلة التعليل حيث يزعم أن كل علة متحركة بالضرورة، فهي تتداعى إلى غير نهاية.

ومع ذلك فهو يعترف بالدين لأسباب سياسية لا عن اقتناع فلسفي حيث إن ذلك يتوافق

---

(١) يوسف كرم. الفلسفة الحديثة ص٥٣.

(٢) برتراندرسل، حكمة الغرب: ج٢ ص٦٥.

(٣) ول ديورانت ـ مرجع سابق: ص١٠.

مع مذهب هوبز فى الخضوع لسيادة الدولة . وحيث إن الإنسان لدى هوبز ذئب بطبيعته وإن الكل فى حرب ضد الكل. فلكى يتخلص الناس من هذا الكابوس المزعج فإنهم يتجمعون سوياً ويفوضون قدراتهم الخاصة لسلطة الدولة «فلما كان الناس عقلاء وميالين إلى التنافس فإنهم يصلون إلى اتفاق أو ميثاق من صنعهم يتفقون فيه على الخضوع لسلطة معينة من اختيارهم وبمجرد قيام مثل هذا النظام لا يكون لأحد الحق فى التمرد مادام المحكومون لا الحاكمون هم الملزمين بالاتفاق ولا يحق للناس أن ينسخوا الاتفاق إلا إذا عجز الحاكم عن توفير الحماية التى اختير أصلاً من أجلها»(١).

وقد نادى هوبز بالدولة التنين وهى دولة ذات سيادة لها سلطة مطلقة على كافة نواحى الحياة والخضوع لسيادة هذه الدولة هو الذى يفسر إقراره للمعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية التابعة لها.

لوك

يجب أن نتوقف كثيراً أمام هذا الفيلسوف فعلى الرغم من خلاف الفلاسفة حول قدراته الفلسفية ـ وكما سنوضح - فإنه يُعرَف بحق بأنه مؤسس المذهب المادى فى العصر الحديث.

فعمل هوبز بجانبه يُعد فى الأساس استعادة لفكر ديمقريطس وأبيقور المادى دون تطوير كبير بل ويعد لوك هو صاحب الانقلاب الأعظم فى تاريخ الفكر الغربى حيث يناظر تأثيره فى مجال الفلسفة تأثير نيوتن فى مجال العلوم الطبيعية مع أصالة أن المذهب المادى نفسه يجب الوقوف عنده كثيراً وإن كنا سنقتصر هنا على مناقشة أسس هذا المذهب عند لوك.

ويعرف لوك العقل بأنه قوة الإدراك الحسى ولكنه يستخدم الإدراك الحسى ليشمل إدراك الأفكار فى عقلنا وإدراك معانى الألفاظ وإدراك التوافق أو التنافر بين الأفكار، والفكرة عند لوك تعنى تأثير الأشياء الخارجية على حواسنا أو الوعى الداخلى بهذا التفكير أو صورة الفكرة أو الذكرى المتصلة بها أو الحركة التى تجمع صوراً منفردة كثيرة لتكون مفهوماً عاماً أو مجرداً أو شاملاً لمجموعة من الأشياء المتشابهة.

ويذهب لوك إلى رفض ما يذهب إليه البعض من أن هناك فى العقل مبادئ نظرية معينة أو بعض مفاهيم غامضة أولية مطبوعة فى ذهن الإنسان تتلقاها النفس منذ بداية نشأتها وتأتى بها معها إلى الدنيا. ويتساءل بعد ذلك كيف إذن تولد أو تنشأ الأفكار أو كما يقول: «فلنفترض أن العقل عند الولادة كما يمكن أن يقال صفحة بيضاء خالية من أى رسم أو نقش

(١) المرجع السابق: ص٦٦

ومن أية أفكار فكيف يتأتى تزويده؟...وعلى هذا السؤال نجيب بكلمة واحدة: من الخبرة، وعليها تبنى كل المعرفة ومنها تستمد فى النهاية ... فكل الأفكار مستمدة إما من الإحساس أو الانعكاس على نتاج إحساسنا، والأحاسيس كلها مادية ونتائجها العقلية هى الإدراك الحسى وهو أولى مواهب العقل»[1].

لو سلمنا بفرضية مذهب لوك المادى - وهو أمر فى حد ذاته لا يعد التسليم به تسليماً علمياً - الذى يرى فيه أن كل الأفكار تأتى عن طريق التجربة والحواس (إما عن طريق الإحساسات الخارجية أو عن طريق ملاحظاتنا المستندة على الاستبطان) بالنسبة للكيفية التى تعمل بها عقولنا فالسؤال الأهم الذى سيتبع ذلك هو كيف ستتم عملية الانتظام بين هذه الأفكار؟.. هل يكون هناك استثناء لبعض الأفكار الفطرية أى التى يفترض أنها توجد فى العقل أصلاً على أساس كونها هى التى تقوم بهذا الدور؟ أم أنه ليس هناك استثناء فى ذلك وأن التجربة الحسية فى الإدراك هى التى تقوم بهذا الدور من خلال تراكم الإدراك الحسى؟. وبتحديد أكثر فإننا سنضرب المثل بذلك للحكمين العقليين اللذين ضرب بهما المثل لوك نفسه وهما:

١- ما هو كائن كائن. ٢- محال أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود معاً.

وهما المبدآن اللذان يطلق عليهما: مبدأ الهوية ومبدأ عدم التناقض. فما الذى فعله لوك لإنكار وجود هذه الأفكار الفطرية إن جهوده فى هذا الاتجاه لا تتجاوز أى ضرب من ضروب الاعتقاد عند غيره الأمر الذى يعنى قيامها على التحيز ومن ثم فإن المسألة لها علاقة بالموقف الأخلاقى. فعلى الرغم من إقراره بأن هذين المبدأين هما بداية كل بحث إلا أنه يذهب إلى أنهما لم يعلنا أنهما فطريان.

وإذا كانت بعض المبادئ يجب أن تكون فطرية لأن هناك اتفاقاً كلياً بشأنها فهو يذهب إلى أنه إذا حدث اتفاق كلى على شيء ما فليس معنى ذلك أن هذا الشيء فطرى خصوصاً إذا أمكن بيان إمكان اتفاق الناس اتفاقاً كلياً على ما اتفقوا عليه من أشياء باتباع وسائل أخرى. لكنه لم يثبت قطعية وجود الوسائل الأخرى التى يمكن اتباعها للوصول لهذا الاتفاق الكلى. ومن ثم فإنه ينقض انحيازًا ما بانحياز آخر وكأن الأمر يدور على موقف أخلاقى مسبق. ومن ناحية أخرى فإنه يذكر أن هذا الاتفاق الكلى هو محض خرافة «لأن هناك جانباً كبيراً من البشر لم يسمعوا بها.. فمثلاً هذا النوع من القضايا العامة كقولنا مثلاً: من المحال لنفس الشيء أن يوجد وأن لا يوجد. نادراً ما جاء ذكرها فى أكواخ الهنود»[2]. وما نراه أنه ليس من

---

(١) المرجع السابق: مج ١٧ ج٢ ص٥٤، ٥٥.

(٢) ريشارد شاخت - رواد الفلسفة الحديثة: ص ١٣٠.

المهم أن يذكروها وإنما المهم أنها تحكم عقولهم.

ويذهب لوك من ناحية أخرى إلى أنه حتى لو صح أن الناس قد اتجهوا إلى الإقرار بذلك فى الوقت الذى نزعوا فيه لاستخدام العقل فإنه لا يترتب على ذلك وصف هذه القضايا بأنها فطرية فبالاستطاعة تفسير إقرار الناس لها - بقدر كبير من الاحتمال - على أنه يعنى بكل بساطة أنهم تمكنوا من إدراك حقيقة القضايا بالرجوع إلى المعنى الكامن فيها فحسب.

إن لوك بهذا الكلام يعود إلى نقطة البدء مرة أخرى. فالمسألة على أحسن الفروض - تظل على الحياد فإذا أردت أن تقول إن إدراك حقيقة القضايا يتم من خلال إدراك المعنى الكامن فيها فلا بد أن تثبت ذلك وهذا لايتم إلا من خلال عقل تحكمه مبادئ ومن ثم لا تنتهى لشيء وكل ما يفعله لوك هو التشكيك فى فطرية هذه المبادئ بنفس ميتافيزيقا إثباتها فالمسألة لا تقوم فى شيء إلا على الانحياز لأحد الطرفين.

إن الفيلسوف ليبتنز (١٦٤٦ - ١٧١٦) على سبيل المثال وهو بصدد رده على لوك يورد المسألة كالتالى «الذهن من نفسه يمد بأصول أو ألوان معينة من الفكر مثل: الوجود، الجوهر، الوحدة، الهوية، العلة، الإدراك الحسى، العقل، وانطباعات كثيرة أخرى لا يمكن أن تعطيها الحواس وإن أدوات العقل هذه أو أعضاء الهضم العقلى «فطرية» لا بمعنى أننا على وعى بها عند الولادة أو أننا دائماً على وعى بها عند استخدامها بل بمعنى أنها جزء من التركيب أو الكيان الأصلى. أو الاستعدادات الطبيعية للذهن.

وأحس لوك بأن هذه الأصول المفترض أنها فطرية تجرى تنميتها وتطويرها تدريجياً بتفاعل الأفكار الحسية أصلاً فى الفكر، ولكن بدون مثل هذه الأصول لن تكون هناك أفكار بل مجرد تعاقبات مهوشة من الأحاسيس تماماً مثلما أنه بدون عمل المعدة وعصارتها الهضمية لا يغذينا الطعام ولن يكون طعاماً»(١). ولكن ليبتنز لا يملك أيضاً براهين قاطعة على رؤيته هذه المناقضة لرؤية لوك ومهما مضى على الإنسان من الدهر فإنه لن يستطيع أن يجد براهين قاطعة على مثل هذه الأمور لأن حاكمه فيها هو أيضاً يستند عليها ولكن يبقى فى كلام ليبتنز حفاظه على البديهيات العقلية والتى هى الشيء اليقينى الوحيد الذى يملكه الإنسان وفقدانه إياها يعنى تفكك ذهنه وتعرضه لخطر الانهيار وهو الأمر الذى تؤدى إليه رؤية لوك لو أخذت بجديتها.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن ليبتنز يذهب إلى أن الذكاء البشرى يختلف عما لدى الحيوان

---

(١) نقلاً عن ول ديورانت ـ قصة الحضارة: مج ١٧ ج١ ص ١٧٢، ١٧٣.

من معرفة في أنه يستنتج أفكاراً عامة من خبرات معينة عن طريق استخدام أصول العقل الفطرية أما الحيوانات فهى تعتمد كل الاعتماد على الخبرة العملية التى توجه نفسها عن طريق الأسئلة فحسب ولا تستطيع أبداً تشكيل القضايا أو الافتراضات الضرورية.

ويذهب لوك إلى أن علماء الطبيعة جاءوا بقضايا يتم الاتفاق عليها بمجرد فهمها (أى من خلال الحس) مثل: الأبيض شيء والأسود شيء آخر والمربع شيء والدائرة شيء آخر. وهو بهذا لم يقل شيئاً لأن هذه القضايا التى يتحدث عنها هى مجرد أشكال أخرى لنفس المبدأين، ومن ثم فهى ليست قضايا جديدة. ثم يزعم أن هذه الأفكار الفطرية لا توجد لدى جميع الأطفال حديثى الولادة دون أن يذكر شواهده على ذلك والتطور الذهنى لدى هؤلاء الأطفال يقوم من الأصل على عملية تحكم عقلى يمكن ردها إلى مبادئ فطرية ومن ثم نعود إلى نقطة البداية مرة أخرى.

ويقسم لوك القضايا أو الافتراضات الضرورية إلى أفكار بسيطة وأفكار مركبة وتنقسم الأفكار المركبة إلى جواهر وأحوال وعلاقات «فالجواهر أفكار مركبة عن الأشياء التى يمكن أن توجد بذاتها على حين أن الأحوال تعتمد على الجواهر. وأما العلاقات فليست فى الواقع أفكار مركبة بالمعنى الذى حدده لوك على الإطلاق، كما أدرك لوك ذاته فيما بعد. فهى قائمة بذاتها تنشأ عن عملية المقارنة الذهنية فلو تأملنا مثلاً حالة السببية لوجدنا فكرة العلاقة هذه تطرأ على ذهننا عند ملاحظة التغير. أما فكرة الارتباط الضرورى فكانت مبنية فى رأى لوك على افتراض مسبق وليست قائمة على التجربة»[1] وقد وافقه كانت فيما بعد على النقطة الأولى، بينما وافقه هيوم على النقطة الثانية.

ويرتبط باعتراف لوك بصحة المبادئ الأساسية مع إنكاره لفطريتها ذلك الحديث عن كيفية حدوث العملية العقلية ذاتها أو بمعنى أدق عملية التفكير. هنا تتم - من وجهة نظرنا - عملية مراوغة من جانب لوك يقوم بها بصدد المؤمنين فى عصره فيتحدث عن عامل روحى يؤدى مختلف عمليات الإدراك والتفكير والشعور والإرادة ولكنه يعود فيقول: «من الممكن أنه لن يكون بمقدورنا أبداً أن نعرف أن مجرد كائن مادى يفكر أو لا يفكر. وحيث إنه يستحيل علينا بالتأمل فى أفكارنا نحن دون وحى أو إلهام أن نكتشف هل زودت القدرة الإلهية بعض أنواع المادة الميالة بطبعها بالقدرة على الإدراك والتفكير أو أنها ضُمت إلى المادة الميالة على هذا النحو أو ثبتت فيها جوهراً مفكراً غير مادى فإنه بالنسبة لأفكارنا ليس يبعد عن الفهم أن ندرك أن الله قادر إذا شاء أن يضيف إلى المادة موهبة للتفكير.. إن من يرى كيف

---

(١) بريتراندراسل، حكمة الغرب: ج٢ ص١١٢.

أنه من الصعب فى أفكارنا توافق الإحساس مع المادة الممتدة. أو توافق الوجود مع شيء ليس له امتداد إطلاقاً سوف يقر ويعترف بأنه بعيد كل البعد عن معرفة ماهية نفسه على وجه اليقين... وهذا الذى يطلق لنفسه العنان ليتأمل فى حرية.. يندر أن يجد فى عقله القدرة على تحديد موقفه تحديداً تاماً من مادية النفس سلباً أو إيجاباً»[١].

وواضح أن الكلام هنا شديد المراوغة ومن ثم فإن ما يعبر فيه عن موقف لوك هو ما يستقيم مع مذهبه المادى الأساسى الذى لم يعترف بوجود أية فكرة غير ناتجة عن الإحساس والتجربة وهو الأمر الذى أدى به إلى إنكار المبادئ الفطرية فكيف يتفق مع هذا حديثه عن الله أو احتمال وجود جوهر مفكر غير مادى. تلك الأمور التى ذكرها بهذا الشكل الاحتمالى للتمويه فقط ولكنه رجع فى النهاية - وهذا هو المهم من الأمر كله - أنه يمكن أن يكون للمادة نفسها موهبة التفكير ومن ثم فإن الأمور لا تعدو أن تكون مادة فى مادة.

فكل الأفكار عند لوك مهما كانت مركبة يمكن تحليلها إلى أفكار بسيطة، يمكن إرجاعها إلى الحس أو التجربة وهو يتحدى من يستطيع أن يقدم إليه فكرة لا يمكن تحليلها إلى أفكار بسيطة ولكنه اشترط لذلك أن تكون الأفكار المقدمة أفكاراً واضحة ومن ثم فإنه إذا تم تقديم فكرة ما لا يستطيع لوك تحليلها إلى أفكار بسيطة فإنه سوف يعارض ذلك بأنها فكرة غامضة وواضح من هذا السياق لا حيادية لوك فى التعامل مع الأفكار وهو بصدد إثبات مذهبه.

ففكرة مثل فكرة الجوهر على الرغم من أن لوك يراها فكرة ضرورية لأنها تدل على الدعامة التى ترتكز عليها جميع الموجودات وتترك طابعها على جميع الخصائص الجزئية لهذه الموجودات. ولكن لأن هذه الفكرة نفسها لا يمكن إرجاعها إلى الحس أو التجربة فإنه يرفض الاعتراف بها كفكرة واضحة ومن ثم تفتقد الشرط الذى وضعه لتطبيق معياره.

وكان برهان لوك على وجود الله كالتالى «إن الإنسان يعرف بفضل اليقين الحدسى أن العدم المحض يعجز عن إنتاج كيان حقيقى فإذا أمكننا أن نعرف أن هناك كياناً حقيقياً (مثلما نفعل - نحن أنفسنا...) سيكون من البراهين الجلية القول بأن هناك شيئاً ما قد وجد منذ الأزل»[٢].

ثم يستطرد لوك كلامه فيقول: «فإذا تعين وجود شيء أبدى ما فلا يخفى عن عقلنا أنه لابد أن يكون كائناً عرفانياً، فكما يتعذر تصور قدرة المادة اللا عرفانية البحتة على إنتاج كائن ذكى مفكر فأيضاً يستحيل تصور قيام العدم - اعتماداً على ذاته - بإنتاج المادة. إن أى شيء

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة: مج١٧ ج٢ ص٥٨.

(٢) ريتشارد شاخت، الفلسفة الحديثة: ص٥٦.

سيتصف بكينونته الأبدية يجب أن يتحلى وأن تتوفر له - في أقل تقدير - جميع الكمالات التي بالمقدور أن توجد في حالة وجوده»[1].

وكما يقول ريتشارد شاخت: «يتعين أن يكون واضحاً أن هذا البرهان سيتصف بفاعليته إذا - وأكرر كلمة «إذا» - افترضنا أن الأشياء ليس بمقدورها أن تظهر للوجود من تلقاء نفسها من العدم، وأن أي معلول لن يتصف بالكمال أو بإحدى الصفات التي لا تتوافر لعلته. وباختصار لقد اعتمد البرهان على صحة إحدى الصور القوية لمبدأ السبب الكافي. كما يتعين أن يكون واضحاً أن هذا الموقف يخلق مشكلة للوك. فإذا سلمنا بنظرته إلى الطبيعة وأصول أفكارنا وطبيعة معرفتنا وحدودها فإنه لن يسهل إدراك كيف سيتسنى له تبرير اعتماده على هذا المبدأ. ولقد حذر لوك المرة تلو الأخرى ضد الاستدلال من مبادئ مجردة ليست مستمدة من التجربة ومؤيدة منها ولكنه يقيناً تناسى ذلك عندما قدم برهانه عن طبيعة الله ووجوده»[2].

والمشكلة بشكل محدد من وجهة نظرنا أن لوك قدم برهانه على وجود الله وصفاته اعتماداً على الاستدلال العقلي وهو الأمر الذي يتناقض مع نظريته في المعرفة التي لا تسمح باستخدام هذه المبادئ. والذي نراه أن لوك استخدم برهاناً على وجود الله يمكن لتابعيه إسقاطه عند تطبيق مذهبه المادي. ومن ثم يتمكن هو من مراوغة معاصريه ضامناً في نفس الوقت أن يخلص مذهبه من شوائبه اللامادية على يد معتنقيه.

ومن هذا المنطلق يمكن فهم موقفه من المسيحية أيضاً فهو يبدأ قضيته بهذا التسليم الشكلي «إن كل ما أوحي به الله حق على وجه اليقين»[3] ولنا أن نتساءل: ما علاقة مثل هذا الكلام بمذهب لوك المادي؟ ولكن لوك نفسه سريعاً ما يناقض ذلك التسليم الشكلي فيستدرك ما سبق قائلاً: «ولكن التأمل وحده في الدليل المتاح هو الذي ينبئنا إذا كانت الأسفار المقدسة هي كلمة الله وليس ثمة قضية يمكن تقبلها على أنها وحي إلهي إذا كانت تناقض معرفتنا الأكيدة البديهية»[4].

فكما يقول ول ديورانت مظهراً تناقضات لوك - أو مراوغاته من وجهة نظرنا -: «إذا كان في مقدورنا تقرير مسألة ما بمثل هذه الملاحظة المباشرة فإن معرفتنا تسمو على أي وحي

---

(١) المرجع السابق: ص١٥٧.

(٢) المرجع السابق: ص١٥٨.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة: مج١٧، ج٢، ص٦٠.

(٤) نفس المرجع: نفس الصفحة.

مزعوم لأنها أوضح وأكثر توكيداً من أى توكيد بأن هذا الوحي الذى نحن بصدده إلهى حقاً»[1].

ويؤكد لوك على موقفه الحقيقى قائلاً: «ليس هناك شيء يناقض أوامر العقل الواضحة البديهية أو لا يلتئم معها يحق له أن يشجع أو يؤكد على أنه مسألة عقيدة لا دخل للعقل فيها.. وثمة أمارة لا تخطئ على حب الحق ألا نهلل ونرحب بأية قضية فى توكيد أكبر مما تجيزه الأدلة التى تقوم عليها القضية وينبغى أن يكون العقل حكمًا ومرشداً لنا فى كل شيء»[2].

وكل ما سبق لا يعنى إلا شيئًا واحداً هو تناقضه مع ما ذهب إليه فى كتابه (معقولية المسيحية كما تنقلها الأسفار المقدسة) من أنه «إذا كان ثمة شيء يمكن أن يكون رسالة إلهية فإن هذه القصص وذاك المذهب يبدوان وكأنهما من عند الله»[3].

ولكنه ينتهى ظاهريًا فى النهاية إلى رأى أقرب إلى مذهب الموحدين فبعد أن «اقتبس من الإنجيل فقرة بعد فقرة لا تطلب كلها من المسيحى إلا أن يؤمن بالله وبأن المسيح رسول من عند الله»[4]. رأى فى ذلك ديانة بسيطة واضحة صالحة لكل إنسان لا تعتمد على أى فقه أو لاهوت وربما يوافق ذلك أن صديقه شافتسبرى الأول كان قد ذكر أنه كان قد استقى مذهب الموحدين من سكرتيره لوك.

ومهما كان الخلاف حول القيمة الفلسفية للوك حيث يذهب بريتراندرسل إلى أنه لم يكن من أعمق المفكرين أو أكثرهم أصالة، ويرى يوسف كرم أن قيمته الفلسفية محدودة، وهو ليس فيلسوفاً محترفاً من وجهة نظر ريتشارد شاخت بينما يذهب كرين برينتون إلى أنه «استطاع نيوتن ولوك معاً أن يغرسا ويؤكدا هاتين الفكرتين الهامتين الطبيعة والعقل وكان موقعهما بالنسبة لعصر التنوير مثل موقع فكرة النعمة الإلهية أو فكرة الخلاص أو التدبير الإلهى عند المسيحية التقليدية».[5] ويذهب ول ديورانت إلى أن «لوك وحده بسط العقل الإنسانى فى كتاب لا يضم إلا حقائق وهو كتاب بلغ حد الكمال والإتقان - لأن هذه الحقائق مبسوطة فيه بأجلى بيان وبات كتابه «المقال» الإنجيل السيكولوجى لعصر الاستنارة»[6].

---

(١) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٢) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق: ص٦١.
(٤) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(٥) تشكيل العقل الغربى: ص١١٦.
(٦) قصة الحضارة: مج١٢ ج٢ ص٥٩.

نقول مهما كان الخلاف حول قيمة لوك الفلسفية إلا أنه مع ذلك يكاد يكون هناك اتفاق بين الجميع أنه كان أعظم فلاسفة العصر الحديث تأثيراً وأن مذهبه المادى هو الذى استطاع أن يطبع العصر الحديث بطابعه وبحسب ما يرى شبنجلر فإن «الاستنارة الغربية من أصل إنجليزى ونبعت كل عقلانية القارة من لوك»[1].

هيوم

يبدو أن هذا الرجل الأسكتلندى ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) قد بلغ درجة من الذكاء والجرأة والتفاعل مع التيار الفكرى ا لسائد فى ذاك العصر ما جعله يعلن صراحة يوماً ما أنه «لم يشعر بأى إيمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك وكلارك»[2].

فهيوم يتفق مع لوك فى أن الحواس هى المنافذ الوحيدة إلى الأفكار وإذا كانت جميع الأشياء لا تزيد عن كونها مدركات حسية داخل عقولنا فإنه يستنتج إمكان التفرقة بينها بالاعتماد على اختلاف طبائعها النسبى بدلاً من الارتكان إلى حضور أو غياب شىء موجود مستقلاً عنها، ويرى أن هذا الاختلاف يعتمد على مجرد الاختلاف فى ناحية الشدة والحيوية.

وخلاف هيوم المبدئى مع لوك أن الثانى يرى أن الخبرات الحسية تمدنا بالأفكار بينما يرى هيوم أن تلك الخبرات بانطباعات أو أحاسيس تترجم إلى أفكار، والذاكرة والخيال قد تحاكيان أو تستنسخان مدركات الحواس ولكنهما لا تبلغان قوة الأصل وحيويته (الإحساس). إذ تعد أشد الأفكار حيوية أدنى دائماً من أخمل الإحساسات ويستثنى من ذلك فقط الحالات التى يتعرض لها العقل لمرض أو مس من الجنون. ويرى هيوم اتخاذ الاختلاف النسبى فى الحيوية والشدة معياراً محدداً للتفرقة بين المدركات الحسية أو التأثيرات من جهة وبين الأفكار أو التصورات الخاصة بالذاكرة والخيال من جهة أخرى.

ويرى هيوم أنه عندما نحلل تصوراتنا أو أفكارنا مهما كانت درجة تركيبها أو تساميها فإننا نكتشف دائماً أنها تتحلل إلى مثل هذه الأفكار البسيطة وكأنها مستنسخة من شعور سابق أو عاطفة سابقة وأولئك الذين يدعون - كما يرى - أن هذا الموقف لا يلقى اعترافاً عن الكافة.

ومشكلة هيوم أنه يزعم أن أية فكرة تفسر على أنها ليست مستنسخة من تأثير حسى ما ستكون بلا معنى ويرتب على هذا أنه عندما لا يكون بمقدورنا الاهتداء إلى أى تأثير فإن علينا أن نكون على يقين من عدم وجود فكرة ويذكرنا تزمته هنا بل وانحيازه بنفس موقف لوك من

---

(١) نقلاً من ول ديوارنت، المرجع السابق : ص ٦٣.

(٢) نقلاً من ول ديوارنت، قصة الحضارة: مج١٨ ج١ ص٢٠٢.

الأفكار المركبة التى تحلل إلى أفكار بسيطة على شرط أن تكون فكرة واضحة. فإذا قدمت إليه فكرة مركبة لا يستطيع تحليلها إلى أفكار بسيطة اعتبرها فكرة غامضة وهو تهرب غير مبرر ونفس الأمر عند هيوم إذا أمكن وجود أفكار ممتلئة بالمعنى ليست مستنسخة عن تأثيرات حسية أنكر وجود هذه الأفكار.

وحرية الإرادة لدى نظرة هيوم المادية المدمرة مستحيلة فليس هناك ذهن يختار بين الأفكار أو الاستجابات، وتعاقب الحالات النفسية يقرره ترتيب الأحاسيس وترابط الأفكار وتناوب الرغبات، إن الإرادة ليست سوى فكرة تنساب فتصبح حركة والهوية الشخصية هى شعور الاستمرار حين تستحضر حالة نفسية حالات سابقة وتربط بينها بفكرة العلة.

ولكن العلة عند هيوم ليست سوى فكرة، فليس فى قدرتنا أن نثبت أنها واقع موضوعى، فإذا أدركنا أن: (أ) (اللهب مثلاً) تعقبه بانتظام (ب) (الحرارة) استنتجنا أن (أ) كانت العلة فى (ب) ولكن كل ما لاحظناه هو تعاقب الأحداث لا عملية علية فليس فى استطاعتنا أن نعرف أن (ب) ستعقب (أ) دائماً، فكل استدلالاتنا العقلية المتصلة بالسبب والنتيجة لا مصدر لها غير العادة وليست قوانين الطبيعة التى نتحدث عنها إلا تعاقبات مألوفة فى تجربتنا لا روابط ثابتة وضرورية فى الأحداث ولا ضمان أنها ستصدق غداً فالعلم إذن تراكم للاحتمالات المعرضة للتغيير دون إنذار والميتافيزيقا مستحيلة إذا زعمت أنها نسق من الحقائق حول واقع مطلق لأنه لا سبيل إلى معرفة الأسباب الكامنة وراء النتائج ولا المادة الكامنة وراء الأحاسيس ولا الذهن الذى يقال إنه من وراء الأفكار وما دمنا نبنى إيماننا بالله على سلسلة من الأسباب والنتائج يفترض أنها ترتد إلى (محرك أول لا يتحرك) فإن علينا أن نتخلى عن هذه السفسطة الأرسطاطالية. فالأشياء كلها تتدفق وما اليقينية إلا حلم من الأحلام.

وهذا يعنى ببساطة أن هيوم انتقل من ماديته البحتة إلى التشككية الكاملة من خلال فكرته تلك عن العلية لأنه بإسقاطه مبدأ العلية لم تعد العقلانية فقط محل شك ولكن المادية أيضاً محل شك ومن ثم فقد يعد هيوم هو المصدر الأساسى للتيار التحتى الشكى فى الفلسفة الغربية فى العصر الحديث. فحتى ارتباط الظواهر ببعضها البعض الذى حدث فى الماضى والذى أدركناه بحكم العادة وليس بكون ذلك ارتباطاً ضرورياً لا يؤكد أنه سوف يتم فى المستقبل فالتجربة «لا تبين لنا أكثر من حادثة تعقب حادثة أخرى ونحن لا ندرك بأية حاسة من حواسنا وجود ارتباط ضرورى بين هذه الأحداث وليس هناك برهان قادر على إثبات ضرورة تشابه المستقبل والماضى»[1].

(١) نقلاً عن ريتشارد شاخت، أعلام الفلسفة الحديثة: ص٢٢٤.

وما يهدف هيوم إلى قوله - كما يقول ريتشارد شاخت - هو أننا هنا إزاء فرض (المقصود مبدأ العلية) ليس باستطاعتنا أن نبرره عن طريق العقل ولا عن طريق التجربة المباشرة ومن ثم فإن جميع النتائج التى نتوصل إليها - تبعاً لهذا الافتراض - يعنى جميع استدلالاتنا التى تستند إلى مبدأ العلية وجميع نتائجنا المتعلقة بأمور الواقع والوجود فى العالم بالتبعية تقصر عن الاتصاف بصفة المعرفة»[1] ويبدو أن موقف هيوم هذا سيكون له صدى كبير فى فكر نيتشه والفكر الما بعد حداثي بعد ذلك حيث سيتم انعدام اليقين.

يقول يوسف كرم فى الرد على موقف هيوم من العلية: «إننا ندعى أن العقل يدرك هذه العلاقة وضرورتها: أجل إن معنى العلة ومعنى المعلول متغايران ولكن المعلل موجود يظهر للوجود وبهذا الاعتبار هو لا يظهر بنفسه ولا بفعل العدم وإنما يظهر بفعل موجود آخر هو علته. وإذا كان مبدأ العلية لا يلزم من مبدأ عدم التناقض بمعنى أنه لا يستنبط منه استنباطاً مستقيماً فإنه يستند إليه من جهة أن منكره يقع فى التناقض إذ إنه يزعم أن ما يوجد ليس ما به يوجد وهذا خلف. والواقع أن مبدأ العلية أولى فى العقل وأن الاعتقاد به واحد عند جميع الناس وفى جميع الأعمار مع أن المذهب الحسي يقضى بأن تكون قوة العادة معادلة لعدد التجارب وأن يتفاوت الاعتقاد بتفاوت التجربة. فالفلسفة الحسية تنتهى إلى إلغاء العقل وإلغاء العلم الطبيعى لأنها لا تعتقد بضرورة القانون وترد الشعور بالضرورة إلى أثر العادة»[2].

وما نراه أن البحث عن حقيقة مبدأ العلية يحمل معنى المبدأ نفسه أى أنه مغروس بالعقل إلى الدرجة التى يفقد بها العقل تماسكه وينهار تماماً إذا فقده. وبمعنى آخر أنه لا يمكن تصور العقل نفسه بفقدان هذا المبدأ وقد يكون فى نقد كانت لهيوم توفيق كبير لعلنا نتعرض له.

والمهم هنا أن هيوم نفسه لم يستطع أن يقنع بتشككه هذا إلى النهاية. بل ويعترف أنه عملياً يتخلى عن شكوكيته حالما يضع قلمه:

«لو سئلت هل أوافق مخلصاً على هذه الحجة التى بذلت هذا الجهد فى إقرارها، وهل أنا حقاً واحد من هؤلاء الشكاكين الذين يذهبون إلى أن كل الأشياء غير يقينية ... لأجبت... إننى لا أنا ولا أبى ولا أى شخص آخر دان بهذا الرأى فى أى وقت بإخلاص وثبات... إننى أتناول غذائى وألعب النرد وأتحدث وأسهر مع أصحابى فإذا عدت بعد ثلاث أو أربع ساعات من الترويح إلى هذه التأملات بدت لى باردة مفتعلة سخيفة جداً بحيث لا أستطيع أن أجد فى

(١) المرجع السابق: ص٢٢٤، ٢٢٥.
(٢) الفلسفة الحديثة: ص١٧٧.

صميم نفسي ما يدفعني لمزيد من الإيغال فيها»[1].

ومن الطريف الذى يذكر عن هذا الفيلسوف الذى أنكر الأديان وإمكانية الاستدلال على وجود الله وتراوح موقفه بين المادية والتشكك أن أحد معجبيه - كما يروى ول ديورانت - ويسمى كولفيلد قد رآه «جاثياً على ركبتيه (وهو فى السابعة والثلاثين) أمام كونتيسة متزوجة (فى الرابعة والعشرين) يبثها غرامه ويعانى عذاب الحب المحتقر، أما السيدة فرفضت أن تبادله هذا الغرام قائلة: إنه ليس إلا «عملية طبيعية فى نسقك الفلسفى» وأن هيوم أصيب بالحمى وحاول الانتحار لولا أن منعه الخدم»[2].

حقاً. إن الحب قادر على تحطيم أى نسق فلسفى.

---

(١) نقلاً عن ول ديورانت، قصة الحضارة: مج ١٨، ج١، ص ٢٠٧.
(٢) المرجع السابق: ص ٢١١.

الإلحاد والانحلال الخلقى فى عصر التنوير

ربما يكون من المفيد أن نشرح الصورة التى كان عليها المجتمع فى عصر التنوير فى كل من إنجلترا وفرنسا حتى نستطيع أن نتفهم مدى اتساق هذا الفكر مع هذه المجتمعات.

أولاً: إنجلترا

بالنسبة للملك جورج الأول نفسه فقد استنكرت زوجته صوفيا دوروثيا خياناته فدبرت أن تهرب مع الكونت فيليب فون قائد الحرس الجميل واكتشف جورج المؤامرة ولم يسمع بخبر للكونت بعدها قط. وقبض على دوروثيا وحوكمت وأبطل زواجها وزج بها فى السجن طوال الأعوام الاثنين والثلاثين الباقية من عمرها فى قلعة آلدن. وكانت قد ولدت لزوجها بنتاً أصبحت أم فريدريك الأكبر وولداً أصبح جورج الثانى ملك إنجلترا.

وتزوج جورج الثانى هذا من كارولين ابنة أمير برندنبورج - آنزباخ والتى بلغت درجة فاضحة من التحرر ولكنها ظلت وفية له فى النهاية على الرغم من كل خليلاته وقد كان يكتب لها الرسائل الطويلة عن علاقاته الغرامية ومع ذلك فقد كان يحترم عقلها وخلقها احتراماً لدرجة تركها تحكم إنجلترا (بمساعدة ولبول) خلال فترات غيابه الطويلة وتوجيه سياساته حين يعود. وقد نصحته فى ساعة احتضارها بأن يتزوج ثانية وكشف جوابه وهو مخلص فى حزنه عن طبيعة عصره: لا، سأتخذ خليلات. فقالت: رباه، هذا لا يمنعك من الزواج.

ووزيره ولبول هذا المشار إليه يقول عنه ديورانت بالحرف الواحد: «أما الأخلاق فلم يكن يملك منها أى حظ. فقد عاش سنين فى زنا مفضوح دون أن يبدى كبير احترام للياقة المهذبة التى تراعيها الأرستقراطية فى رذيلتها. وكان يمزح مع الملكة كارولين عن خليلات زوجها. فلما ماتت نصح بناتها بدعوة وصيفات الشرف ليسرين عن الملك المحزون. وكان يسخر من الدين. وحين دنت منية كارولين أرسل فى طلب رئيس أساقفه كنتربرى قائلاً:

«لا بأس بتمثيل هذه المهزلة وإن رئيس الأساقفة لكفيل بحسن تمثيلها، ولكم أن تطلبوه بأسرع ما تريدون، فلن يضر الملكة ولن ينفعها وسيرضى هذا جميع المغفلين العقلاء الطيبين

الذين سينعتوننا بالكفر إذا لم نتظاهر أننا مثلهم من كبار المغفلين».

وفى أوائل ذلك القرن قدر مراقب أجنبى عدد المومسات فى لندن بخمسين ألفًا ولم يكن يصل إلى المشهرة (آلة التعذيب) غير أفقر البغايا فقد كن يتفادين القانون عادة بالرشاوى يخرجهن صاحبهن بكفالة.

وأغلب الظن أنه لم يأت إلى فراش الزوجية محتفظاً بعفته عشرة من كل مائة ذكر من أهل لندن. لقد ندد القوم بالرذيلة علانية ولكنهم احتقروا الفضيلة سراً.

ولم يكن الطلاق مسموحاً به فى إنجلترا (قبل ١٨٥٧) دون الحصول على قانون خاص من البرلمان. وكانت تكاليف هذا الإجراء تجعل منه ترفاً مقتصراً على الأغنياء. وفشا الفسق فى جميع الطبقات إلا الوسطى وضرب جورج الأول والثانى مثالاً فى ذلك والناس على دين ملوكهم. ففى عام ١٧٠٠ كتب كونجريف يقول: «كل إنسان فى هذا المجتمع ولد بقرون طالعة».

وتردت الفضائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى الدرك الأسفل. فالقمار الذى قاومته الملكة آن من قبل رد إلى الحظوة الملكية بفضل جورج الأول والثانى. وكان موظف خاص يسمى الحاجب منوطاً بالإشراف على القمار فى البلاط الملكى. وأصبح القمار شهوة سيطرت على الناس أجمعين فى عصر جورج الأول إلى درجة لعلها لم تضارع بعده.

وكانت الأخلاق فى دنيا السياسة تعكس انتصار النزعة التجارية المتحجرة فلم يكن عمل ينجز دون رشوة ولكل موظف تقريباً ثمنه، والمناصب تباع، والأصوات فى البرلمان تشترى كالسلع سواء بسواء، وقد باع كبار النبلاء المناصب فى بيوتهم ووضعوا العراقيل أمام محاولات الحد من شراء الترشيحات للبرلمان أو شراء أعضاء مجلس العموم وأرسلت الدوائر الانتخابية الفاسدة أو العفنة التى لا يسكنها غير حفنة من الأهالى إلى البرلمان عدداً من الممثلين يعدل العدد الذى أرسلته أقاليم تزخر بالسكان والصناعة وأرسلت «أولدسارم» التى لا يسكنها إنسان واحد ممثلين لها. ويمكن القول على الجملة بأن نصف القرن الذى نحن بصدده كان أقسى العهود فى التاريخ الإنجليزى[١].

ثانياً: فى فرنسا

حين جاء بعد الملك الصارم التائب لويس الرابع عشر هذا الوصى الشاك فيليب الإباحى تفجر غيظ الغرائز المكبوتة فى موجة من الذندقة والاستغراق فى الملذات وأصبح التحلل من

(١) مختصر عن ول ديورانت - قصة الحضارة: مج ١٧

الأخلاق شارة التحرر ورقى الثقافة. وكانت المسيحية قد أخذت فى الاضمحلال قبل أن يصوب إليها فولتير سهام قلمه حتى قال ماسيون فى ١٧١٨ : «يكاد الكفر اليوم يضفى على أصحابه مظهر التميز والفخار إنه فضيلة توصل إلى العظماء.. وتجلب للمغمورين شرف الألفة بأمير الشعب» وقد كتبت أم ذلك الأمير قبيل موتها فى ١٧٢٢ تقول : «لست أعتقد أن فى باريس سواء بين رجال الدين أو الدنيا مائة شخص يدينون بإيمان مسيحى صادق ويؤمنون حقيقة بمخلصنا وهذا يجعلنى أرتعد فرقاً» وقل من أفراد الجيل الأصغر من فكر فى التحول من الكاثوليكية إلى البروتستنتية فقد تحولوا إلى الإلحاد والذى كان أسلم لهم.

وفى طبقة الأشراف بباريس وبين أعيان المدن الطليقين ومدمنى الأدب والفن ورجال المال ورؤساء الدين ذوى الخليلات فقد بدا أن المبادئ الخلقية قد باتت نسياً منسياً ولم تذكر المسيحية إلا ساعة يلتقى فيها الناس فى الكنائس أيام الآحاد.

فإذا وفدت الزوجات على باريس أو فرساى تركن وراء ظهورهن ذلك المعيار الخلقى المنافق الذى حاول أن يحمى ميراث الأملاك بجعل خيانة الزوجة لزوجها جريمة أخطر كثيراً من خيانة الزوج لزوجته. وكانت الزوجة التى تقصر وصالها على زوجها تعد من الطراز القديم وكان الوفاء فى الزواج يقبل للحفاظ على أملاك الأسرة واسمها أما بعد هذا فلا يطالب عرف العصر والطبقة لا الزوج ولا الزوجة بالوفاء.

ولنا أن نهتم بواحدة من أشهر نساء ذلك العصر فجوراً وهى كلودين الكساندريه تلك التى أطلقت فجأة من الدير وهى فى الثانية والثلاثين من عمرها إلى سلسلة متلاحقة من العلاقات الغرامية وكان سلوكها متسقاً مع سلوك أسرتها فأبوها زير نساء موفق ورئيس برلمان جرينويل وأمها لعوب طائشة وأختها الكبرى لا تقل عنها كثيراً فى فوضى علاقاتها الغرامية ورسم أخوها الأكبر قسيساً وشق طريقه إلى قبعة الكردينالية وإلى منصب رئيس أساقفة ليون متوسلاً إلى هدفه بالعديد من النساء.

وقد أدخل الأب كلودين الدير فى منفلورى ليوفر مهرها. وهنالك ظلت متبرمة ستة عشر عاماً من حياة تقوى فرضت عليها كرهاً وحين بلغت الثانية والثلاثين فى ١٧١٣ هربت واختبأت فى حجرة ضابط فى المدفعية فأصبحت بمعونته أم الفيلسوف دالمبير والذى تركته على سلم كنيسة سان - جاك - لرون بباريس. وهذا الوليد الفيلسوف دالمبير هو الذى انبعثت منه بعد ذلك «الموسوعة» الشهيرة فى نقد المسيحية وهذا ما يفسر اهتمامنا بتاريخ تلك المرأة. أما السبب الثانى لذلك هو أنها المرأة التى عذبت قلب دبوا.. فمن يا ترى دبوا هذا؟.

دبوا هذا أو الكردينال العجيب جيو دبوا هو الذى عُين فى ١٧٢٠ رئيس أساقفة على

كمبرتى والذى طلب الملك جورج الأول من الوصى الفرنسى الشاب فيليب أن يقنع البابا بأن يخلع على دبوا هذا الكرسى الرياسى الشهير الذى شرفه قبيل ذلك قليلون.

وشارك أساقفة فرنسا فى الاحتفالات التى أضفت هذا الشرف على رجل كان يرى فيه الكثير من الفرنسيين جماع الرذائل. أما دبوا نفسه فأحس بأنه لم يكافأ بما يكفى جزاء خدماته لفرنسا واستخدم المال الفرنسى ليُجلس على عرش البابوية مرشحاً تعهد بأن يبعث إليه بقبعة حمراء (أى قبعة الكردينال). وأوفى أنوسنت الثالث عشر بوعده وهو آسف وأصبح رئيسًا للأساقفة الكردينال دبوا فى ١٧٢١. وظل دبوا هذا أهم مساعدى فيليب وصى العرش الفرنسى حتى عام ١٧٢٣»[١].

فولتير

كان فولتير هو الثانى فى كل شيء كما قال ديدرو ولكن هذا نفسه أهله لأن يكون له التأثير الأكبر فى انتشار أفكار عصر التنوير حتى طبع العصر بطابعه على حد قول بعض المفكرين، ولقد قاد فولتير عصره فى الثورة على المسيحية.

يقول فولتير فى مقال المتناقضات: «من خوَّل الكنيسة سلطة الحكم بأن أربعة فقط من الخمسين إنجيلاً التى دونت فى القرن الذى تلا موت المسيح هى وحدها - أى الأناجيل الأربعة - معتمدة، أى موحى بها من عند الله؟ وأى سهو فاضح أن يتحدث الكتابِ عن مولد المسيح من مريم العذراء ثم يتعقب نسبه إلى داؤد (...) عن طريق يوسف المزعوم الخامل. ولماذا نبذت المسيحية شريعة موسى على الرغم من تكرار توكيد المسيح عليها؟ وهل كان بولس الذى نبذ هذه الشريعة (من أجل قطعة صغيرة من الجلد) سلطة أو مرجعاً أقوى من المسيح؟»[٢].

ويعلن فى كتيب زاباتا على لسان بطله الذى جاء ينفث شكوكه فى إغراء الشيطان للمسيح فوق جبل يستطيع الإنسان منه أن يرى كل ممالك الأرض. «فأين يقع هذا التل العجيب؟ ولِمَ لم يف المسيح بوعده فى الحضور على متن سحابة فى قوة ومجد عظيم ليؤسس مملكة الله قبل أن ينقرض هذا الجيل؟ ما الذى عوقه؟ هل كان الضباب كثيفاً إلى حد كبير؟ ماذا أفعل مع أولئك الذين يتجرأون على الشك؟.. هل ألجأ من أجل تنويرهم وتهذيبهم إلى تعذيبهم التعذيب العادى وغير العادى؟ أو ألا يكون من الأفضل أن أتجنب هذه المتاهات وأحض على الفضيلة فقط؟»[٣].

---

(١) مختصر عن ديورانت قصة الحضارة: مج١٨.

(٢) نقلاً عن ول ديورانت - قصة الحضارة: مج١٩ ج٢ ص٢٠١.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠٢.

ويقول فولتير: «إن لدى مائتى مجلد فى اللاهوت المسيحى والأدهى من ذلك أنى قرأتها وكأنى أقوم بجولة فى مستشفى للأمراض العقلية»[1].

وردد فولتير: «إن المذهب الكاثوليكى يعلمنا أن كل الناس يولدون مذنبين إلى حد أن الأطفال أنفسهم ملعونون بالتأكيد إذا ماتوا دون أن ينفخ فيهم المسيح روحاً جديدة أفضل»[2].

وسخر كثيراً من التثليث فى كتابه (الملحد والحكيم). ويسأل الملحد: «هل تؤمن بأن للمسيح طبيعة واحدة وشخصاً واحداً وإرادة واحدة. أو أن له طبيعتين وشخصيتين وإرادتين. أم أن له إرادة واحدة وطبيعة واحدة؟»[3].

ويرى فولتير أن المسيح ظل يتمسك بالديانة اليهودية طيلة حياته ويؤدى شعائرها ويتردد على المعبد اليهودى ولا ينطق بشىء يخالف الشريعة اليهودية وكل التلاميذ يهود وهم يؤدون الشعائر اليهودية. «يقيناً إنه ليس هو الذى أسس الديانة المسيحية. إن يسوع المسيح لم يبشر بأية خصيصة واحدة من خصائص المسيحية».

وقد رأى فولتير أيضًا فى تاريخ المسيحية «شقاء بالغاً للجنس البشرى، فصوفية بولس وخرافات الأناجيل المعترف بها أو المشكوك فى صحتها وأساطير الشهداء والمعجزات وبراعة الكهنة فى التخطيط والتدبير تضافرت كلها مع السذاجة المتعلقة بأهداب الأمل عند الفقراء لخلق الكنيسة المسيحية. ثم أن إباء الكنيسة صاغوا العقيدة بفصاحة تكفل إرضاء عقول الطبقة الوسطى وخبا شيئاً فشيئاً نور الثقافة الكلاسيكية بانتشار الأخيلة الصبيانية والاحتيالات والخلع الورعة حتى خيم الظلام لعدة قرون على عقل أوربا وزحف المتقاعدون عن مواجهة تحديات الحياة إلى الأديار. وأصاب بعضهم بعضاً بعدوى أحلام النساء والشياطين والآلهة واجتمعت مجالس العلماء والمتفقهين لتدرس أى الحماقات والسخافات تصلح لتكون جزءاً من العقيدة المعصومة»[4].

مذهب فولتير

لم يقل فولتير فى المسيحية شيئًا لم يسبق قوله - كما يقول ديورانت - وكل ما فى الأمر أنه حين تكلم انطلقت كلمته مثل اللهب سرى فى أوربا وأصبحت قوة شكلت عصره وعصرنا.

---

(١) المرجع السابق: ص٢٠٥.

(٢) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠٦.

(٤) ول ديورانت - المرجع السابق.

ويرى فولتير أنه من المنطق التسليم بذهن ذكي عاقل بما في الكون مثلما هو منطقي افتراض أن الساعاتي قد صنع ساعة. ففي كلتا الحالتين رأى دليلاً على التصميم والتخطيط في تهيئة وسائل معينة لغايات بعينها ولكن كما أن الساعة ولو أنها من تصميم العقل تعمل وفق قوانين ثابتة فكذلك الكون.

وليس ثمة وحي مقدس سوى الطبيعة نفسها وهذا كافٍ وهو معين لا ينضب. وقد يكون ثمة بعض النفع في الدين ولكن الرجل الأريب لا يحتاج إليه تعزيزاً للفضيلة. وغالبًا ما استخدمه رجال الدين على مدى التاريخ لإرباك أذهان الناس على حين ابتز الملوك أموالهم. وينبغي تعريف الفضيلة على أساس الخير الاجتماعي لا على أساس طاعة الله ويجب ألا تتوقف على الثواب والعقاب بعد الموت .

فولتيروالإسلام

وعندما أراد فولتير إطلاق نقمته على الأديان صب جام غضبه على الإسلام وهكذا يدفع الإسلام ثمن نقمة العلمانيين على المسيحية الثالوثية. ففي مسرحية (محمد) صور الرسول ﷺ مخادعًا تعمد أن يدرس دينه الجديد إلى عقول قوم سذج ويستغل إيمانهم في استثارة هممهم في القتال ويغزو مكة بإصدار أمره إلى نصيره المتعصب سعيد بقتل الشيخ زبير الذي يقاوم هذا الغزو وعندما يتردد سعيد يؤنبه الرسول فيقول: «وأنت أيضًا تتردد، إن الذين يستخدمون عقولهم لا يميلون إلى الإيمان بمحمد إن عليك أن تمتثل. إن إرادة الله تقضي بذلك. ألا تعلمون أن إبراهيم الخليل ولد هنا وأن جثمانه الطاهر يرقد هنا وهو الذي امتثل لصوت الله وأخمد صيحات الطبيعة بين جنبيه وتخلى عن ولده العزيز!! إن الله العلي القدير هو الذي يطلب إليكم أن تضحوا، ويهيب بكم أن تنفروا إلى القتال! ومن ذا الذي يتجرأ فيتردد في تنفيذ أمر الله إذ دعاكم إلى القتال؟ فاضربوا إذن فوق الأعناق. إن دم الشيخ زبير يخولكم النعيم المقيم في الدار الآخرة».

ويقتل الشيخ العجوز الذي يتبين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن القاتل ابنه.

وقد لاقت المسرحية حينذاك رضى جمهور كبير من المفكرين والحكام ورجال الدين المسيحي ولم يغضب بعض هؤلاء الآخرين سوى أنهم وجدوا في المسرحية تعريضًا برجال الدين المسيحي أيضًا.

بقي أن نذكر عن فولتير هذا الذي قال عنه بعض المفكرين إنه طبع العصر بطابعه أنه كان

على علاقة غرامية معلنة بكونتيسة متزوجة عاش معها ومع زوجها الكونتيس فى قصر واحد سنين طويلة ثم خانته مع أحد تلاميذه ولكنه لم يغضب لهذا وعاش الأربعة فى نفس القصر. بينما أكد الباحثون أن فولتير كان على علاقة غرامية فى نفس الوقت بابنة أخته. أذكر هذا مع ما ذكرته فيما سبق عن أخلاق عصر التنوير ليدرك الناس القواعد الأخلاقية لفكر التنوير العلمانى الذى يبشر به العلمانيون عندنا.

ومن المهم أن نذكر عن فولتير أيضًا أنه كان الرجل المقرَّب من الملوك والملكات فى عصره مثل فردريك وكاترين وملك السويد .

موسوعة عصر التنوير
والغزو التنويرى لأمريكا

لما كان كثير من فلاسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر معادين للمسيحية كما عرفوها، فإن لفظة الفيلسوف اتخذت مفهوماً معادياً للمسيحية. حتى أن استعمال الفرنسيين لهذا المصطلح سيظل يتضمن هذا المفهوم لفترة طويلة وسيطلق على لامترى وفولتير وديدرو ودالمبير وجريم وهلفشيوس ودى هولباخ: فلاسفة.

ولما كانت كل أوروبا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء، فإن مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا، وأصبحت أحداثًا فى دنيا أوروبا. وفاخر فريدريك الأكبر وكاترين قيصرة روسيا بأن يكونا من بين الفلاسفة، وربما لم يقلقهما تنبؤ الطبقة المحافظة الفرنسية بأن المفكرين الأحرار الفرنسيين كانوا يقوضون أساس أخلاق فرنسا ووحدتها وسلطانها وقوتها.

وقد تم اختصار بعض توجهات فلاسفة عصر التنوير فى فرنسا فى ذلك العمل الضخم الذى شارك فيه العديد منهم - على رأسهم ديدرو ودالمبير وفولتير - والذى سُمى الموسوعة، ويذهب ديورانت إلى أنه على الرغم من «أن كل محتويات الموسوعة تقريباً نسختها الثورة الفكرية التى ساعدت على إذكاء نارها، ولكنها تسترعى انتباهنا لمجرد أنها أحداث فى تاريخ الأفكار، وأسلحة استخدمها الفلاسفة فى صراعهم مع المسيحية الوحيدة التى عرفوها».

بيد أن احتجاجات الموسوعة على المسيحية الثالوثية لم تتصف بالصرامة فقد كانت الربوبية (الاعتقاد بوجود إله دون الإيمان بالأديان) حلاً وسطاً يتوارى خلفه الإلحاد الكامل لهؤلاء الفلاسفة وعلى هذا كان يأتى احتجاجهم على المسيحية الثالوثية بمثل هذه الصيغة «إن الخرافة ضاعفت من مراسم وطقوس الشيع المختلفة. ومن هنا شكل القائمون عليها طائفة مستقلة. واعتقد الناس أن هؤلاء الأشخاص مخلصون للمعبود كل الإخلاص. ومن هنا كان للكهنة نصيب فى إجلال الناس لله. وبدت المناصب العادية التى يشغلونها أدنى مستوى منهم. واعتقد العامة أنهم مرغمون على أن يقدموا لهؤلاء الكهنة ما يعولهم.. وكأنهم ودائع ينفذون وصية الله. ووسطاء بين الآلهة والناس.

وعمد الكهنة. لكي يثبتوا سلطانهم ويؤكدوا سيطرتهم إلى تصوير الآلهة بأنهم قساة حقودون محبون للانتقام لا يستشعرون الرحمة، وأدخلوا المراسم والطقوس والشعائر والأسرار التى يمكن أن تبعث فظاعتها فى نفوس الناس الاكتئاب الرهيب الملائم كل الملاءمة لدنيا التعصب. ثم تدفق الدم البشرى الغزير فوق المذابح. وظن الناس، وقد ملأهم الخوف بالجبن و أعمتهم الخرافة، أنه لن يكون أى ثمن يدفعونه غالياً فى سبيل الحظوة برضا الأرباب»(١).

وبصفة عامة اتخذت الحرب ضد العقيدة القديمة شكل الثناء على المعتقدات الجديدة فى العلوم والفلسفة ومناهجهما. وكان الفلاسفة يحلمون بإحلال العلوم محل الدين والفلاسفة محل الكهنة على الأقل بين الطبقات المتعلمة.

وشرحت الموسوعة المقالات التى كتبت عن مدرسة أبيقور والمذهب المادى. وأفرطت بعض المقالات فى إطراء برونو وهوبز. وباتت الفلسفة عند ديدرو ديانة أو كما كان يقول:

«العقل للفيلسوف هو بمثابة البركة والنعمة الإلهية للمسيح»، وفى مقاله «الموسوعة» كتب كما يكتب الرسل أو الحواريون «اليوم حين تتقدم الفلسفة إلى الأمام بخطى جبارة وتخضع لسلطانها كل الأشياء التى تهمها وحين يكون صوتها عالياً مدوياً، وتشرع فى طرح نير السلطة والتقاليد وتستمسك بقوانين العقل»(٢).

وكما يقول ديورانت فى قصة الحضارة واصفًا الموسوعة:

«الآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل أو التفكير القديم فى الموت، فكأنما هبت هذه كلها على أوروبا مثل ريح محملة بلقاح جديد تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة.

إن الموسوعة كانت ثورة قبل الثورة الفرنسية».

ما الذى تبقى من المسيحية الغربية؟!

والسؤال المطروح الآن هو: ما الذى تبقى من المسيحية في أوروبا الآن. لقد انتهت المسيحية الثالوثية نفسها فى عصر التنوير انتهاء شبه كامل فى الفكر والمجتمع ثم أتت الثورة الفرنسية فقضت على ما تبقى منها تماماً، وغدت العلمانية المادية هى الديانة الحقيقية

---

(١) و (٢) نقلاً عن ول ديورانت – قصة الحضارة: مج١٩ ج١.

للغربيين ثم العلمانية البراجماتية بعد الغزو التنويرى لأمريكا وقيادة أمريكا للفكر الغربى بعد ذلك كما سنوضح فيما بعد. فأين هذا الغرب المسيحى الذى مازال جانب كبير من الإسلاميين يعتقد أنه الطرف المواجه له فى الصراع؟!.

ومن الواضح أن الحركة العقلانية الأوروبية عند انطلاقها إلى أمريكا فى ذلك العصر كان من الصعب أن يتبعها الشخص العادى الذى يعمل بالمستعمرات الأمريكية فى ذلك الحين فالبرغم من أن الخلفية البيوريتانية قدَّرت قيمة التعليم وطالبت الناس بتعلم القراءة، إلا أن الشخص العادى فى المستعمرات لم يكن يعرف أو يهتم بمعرفة أى شىء عن تيارات الفكر الثقافى فى أوروبا. ومع ذلك، فقد توافرت للأسر الميسورة الحال نسبياً كل من الموارد والوقت اللازمين للمشاركة فى التنوير الأوروبى «ويعتبر كل من توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين ممثلين رائعين لتطبيق المذهب العقلانى فى كل عالم الطبيعة (عن طريق اختراعاتهما) والعالم الاجتماعى (عن طريق نظرياتهما السياسية).

ولقد كوَّن العديد من الصفوة التى تبنت الآراء التنويرية رؤية غير تقليدية للدين، فالدين نفسه كان يجرى تحليله بطريقة عقلانية. وقد أدى هذا إلى ظهور مناهج دينية أطلق عليها الدين العقلانى». أو «العقلانية الدينية»[١]. ويقول كرين برينتون فى ذلك: «على الرغم من أن نظرة القرن الثامن عشر قد تعدلت خلال القرنين الماضيين، إلا أنها لاتزال فى جوهرها نظرتنا نحن الآن إلى الحياة خاصة فى أمريكا»[٢].

وهكذا كان هذا المدخل الطبيعى لبلورة الصيغة الأمريكية من التنوير الأوروبى فى الفلسفة البراجماتية.

الإنجازات الحضارية للفكر التنويرى:

ومع ذلك لابد أن نذكر أن الفكر التنويرى أثاره التقدمية التى تتوافق بصورة أكبر مع الحضارة الغربية مثل العقلانية فى التفكير والحرية والمساواة.

وإن كنا من المنظور الإسلامى نرى أن عقلانية التنويريين اتخذت بعداً ماديًا، وأن الحرية لديهم انحرفت إلى الإباحية، وأن المساواة من منظورهم أغفلت الفروق العلمية والكفاءات الخاصة بين الناس، هذا وإن كان الأمر يختلف كثيراً من حيث التطبيق العملى حيث يتحكم الاقتصاد والإعلام فى كل الأمور.

---

(١) مايكل كوربت وجوليا ميتشل كوربت - الدين والسياسة فى الولايات المتحدة: ص٦٠.

(٢) تشكيل العقل الغربى.

٨

سيطرة البراجماتية الأمريكية على العالم

تمهيد :

قد يكون الرئيس الأمريكي هو الإمام الفعلي للمسلمين. وليس في هذا أي نوع من المبالغة وإنما هو ما يحدث في الحقيقة بالفعل لأنه إذا كانت المؤسسات الدينية لا تصدر أحكامها أو مواقفها الدينية إلا بما يتفق مع سياسات الحكام وكان هؤلاء الحكام لا يوجهون سياساتهم حتى في أخص الأمور الإسلامية إلا بما يتوافق مع توجهات الإدارة الأمريكية. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا كان أي مفهوم عن الإسلام تعلنه تلك الإدارة يتم ترديده من جانب هؤلاء الحكام ثم في مرحلة تالية مباشرة يتم تسويغه من جانب المؤسسات الدينية نفسها، فإنه بناء على كل ما سبق فإن الإمام الفعلي للمسلمين الآن هو الرئيس الأمريكي.

والحديث الذي يدور الآن عن تغيير المناهج الدينية في مدارس المسلمين بما يتوافق مع توجهات الأمريكان هو تجسيد أخير لما سبق.

وضع وليم جيمس بجانب عنوان كتابه (البراجماتية) عنوانًا جانبيًا هو : اسم جديد لبعض الأساليب القديمة في التفكير .

وما نراه أن وليم جيمس كان صادقًا للغاية في عنوانه هذا فكما أشرنا في الفصول المتقدمة بهذا الكتاب عن الحضارة اليونانية ـ وكما سنكشف عن ذلك هنا ـ أن الأصول الفكرية للفلسفة البراجماتية تجد جذورها في الفلسفتين السوفسطائية والفلسفة الأبيقورية . ولكن بالإضافة إلى ذلك فإنه يمكن القول إن الفلسفة البراجماتية فلسفة تتسق مع أسلوب الحياة الأمريكية أي أنها جاءت لتعبر عما هو واقع بالفعل.

يقول جاي ويلسون آلن في ذلك :«إذا كانت النظرة البراجماتية للحياة سائدة ومبتغاة في الولايات المتحدة بأسلوب أكثر انتشاراً وأكثر صدقًا منه في أي مكان آخر في العالم الغربي – فقد كان لها السيطرة الحازمة على أغلبية الأمريكيين لمدة طويلة قبل أن يحاول أحد وصفها بأسلوب الفكر المجرد وربما كانت الخاصية الطبيعية لهذه النظرة السبب في منع مناقشتها نظريًا لكن بمجرد أن بدأ هذا فإنه لم يتوقف وأدى إلى عدد من أكثر الاتجاهات الحاسمة تأثيراً في الفكر الحديث»[1] .

مدخل:

على الرغم من أن الفلسفة البراجماتية (أي العملية النفعية) ـ على المستوى الجدلي ـ لا تمثل خطراً أيديولوجيًا يطرح في مواجهة الفكر الإسلامي فإنها تعد أهم الفلسفات الحديثة الجديرة بالبحث والدراسة والتحذير من خطرها الراهن وقد كان انتباهنا لذلك في فترة مبكرة عن الحديث الشائع عنها الآن في مرحلة العولمة هو ما دفعنا إلى تخصيص كتاب عنها عام ١٩٨٧ هو (أمريكا والإسلام النفعي) . فهي فلسفة الاختراق والاختزال والتأويل . إنها فلسفة لا تجادلك كثيراً وتقول لك مثلاً إن ما تؤمن به من عقائد هو وهم وخداع ولكنها تستطيع بطريقتها في الاختراق والتمويه والتمرير أن تختزل كل الأفكار التي تؤمن بها أنت وتحيلها إلى طيف مموه لا غرض منه سوى البحث عن المنافع بل وتستطيع أن تحيل الإيمان الحقيقي بالعقائد إلى الإيمان بالوهم والخداع ذاته .

فالفلسفة البراجماتية هي الفلسفة التي تجعل من المنفعة العملية المعيار الوحيد للحكم

(١) الثقافة الأمريكية .

على الأشياء أو الأفكار فالحقيقى هو كل ما يأتى عن تجريبه أو تطبيقه منفعة عملية أما كل ما هو غير ذلك فهو لا شيء[1] .

يقول وليم جيمس عن الاتجاه البراجماتى : «إنه اتجاه تحويل النظر بعيداً عن الأشياء الأولية ، المبادئ، النواميس، الفئات ، الحتميات المسلم بها ، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة ، الثمرات، النتائج ، الآثار ، الوقائع ، الحقائق»[2] .

والبراجماتية ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية أو أية مذاهب أو مبادئ اللهم إلا طريقتها ومناهجها ، وأسماء مثل الإله ، المادة ، العقل ، لا نستطيع اعتبارها نهاية مطاف سعينا نحو الحقيقة ، إذ يتعين على الإنسان من وجهة نظره أن يخرج من كل كلمة قيمتها النقدية الفورية العملية وأن يمرسها على العمل بإظهار كيفيتها فى نطاق مجرى خبرته وعندئذ فهى لا تبدو حلاً بقدر ما تبدو برنامجًا أو منهاجًا للمزيد من العمل ، ومن ثم فإن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولاً لألغاز ولا إجابات عن أحجية نستطيع أن نسكن إليها فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتى وسنفوز عند ذلك بالنجاة من الجدل الباطل العقيم. فإذا لم يكن ثمة فرق عملى بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك ، إذن فالاثنان حقًا عبارة واحدة فى شكلين كلاميين . وإذا لم يكن ثمة فرق عملى يحدث سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة ، إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقى وفى كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحق أن نتنازع من أجله ، وأولى بنا أن نوفر جهدنا و نمضى إلى أمور أكثر جدوى وأهمية»[3] .

فإن كانت الحقائق ينبغى أن يكون لها نتائج عملية ، فما هى النتائج العملية التى تهمنا ؟ يجيب على ذلك بأنها النتائج النافعة فقط .

المفهوم البراجماتى للحقيقة:

إن الحقيقى فى أوجز عبارة «ليس سوى النافع الموافق المطلوب فى سبيل تفكيرنا تمامًا ، كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب فى سبيل مسلكنا»[4] .

والبراجماتية لا تمثل ولا تناصر أى نتائج معينة من طريقتها كما أن حيازة الحقيقة عندها بعيدة كل البعد عن أن تكون غاية فى ذاتها فهى لا تزيد عن كونها مجرد وسيلة أو أداة أولية لبلوغ الاشباع والرضا والسرور . «والحق يفضل على الباطل عندما يرتبط كلاهما بالموقف

(١) راجع بتوسع كتاب (أمريكا والإسلام النفعى) للمؤلف.

(٢)، (٣)، (٤) وليم جيمس - البراجماتية.

[أى البحث عن أيهما أنفع] أما إذا لم يرتبط بذلك فإن الحق يتساوى مع الباطل ولأن الحقيقة ترتبط بالنتائج البراجماتية فهى نفسها فى حالة تغير وتبدل وانتقال»[1] .

ولابد لنا الآن أن نتساءل :

إنه حتى لو كانت المنفعة هى الهدف الوحيد فكيف يمكننا بغير الحق أن ندرك ما هى هذه المنفعة ولكن جيمس يقلب الأمور كلها رأساً على عقب باستهتار ولا مبالاة شديدين ، فهو لا يبحث عن الحق كغاية أو كهدف فى ذاته ومادامت الفكرة نافعة فليس مهماً عنده كونها حقًا أو باطلاً بل ليس مهمًا الموضوع الذى تؤدى إليه أياً كان (لاحظ مدى اللامبالاة فى هذا الكلام ـ وهو لجيمس ـ بمصالح الآخرين الذين لا تكون الفكرة نافعة لهم) ومادامت المنافع تتغير وتتبدل بتغير الظروف والأحوال فلابد أن يلازمها الحق فى تبدلها وتغيرها . وهكذا نستطيع أن نفهم جيمس جيداً .

فالفكرة لدى البراجماتى تكون حقًا إذا كان تحقيقها يؤدى إلى ما يريده هو نفسه ، أيًا كان هذا الذى يريده ، وبلا مبالاة فى النتائج التى قد تصيب الآخرين الذين لا يرون النفع فى تحقيق تلك الفكرة ، المهم أن يصير الأمر بالنسبة لصاحبه ـ بتعبير جيمس نفسه ـ على ما يرام.

لقد كان الحق هو الغاية لكل الفكر الإنسانى لكن الرجل جعل الحق هو مجرد وسيلة إلى الفوائد والمنافع الشخصية بإضفاء صفة الحق عليها ، ولكن الأهم من ذلك كله أنه يخلط بين الحقائق والوسائل بطريقة تؤدى إلى تذويب الحقائق بشكل مطلق ونهائى .

والرجل يعنى جيداً مدى ضعف نظريته منطقيًا ، وأنه لا يقدم أى مفهوم يقينى للحقيقة أو حتى راجح الصحة ، وهو حتى لا يطالبنا أن نعتقد بذلك ، إنما هو يقول لنا : إنه مادامت كل الوسائل المعرفية التى لديكم ضعيفة ، فينبغى لكم أن تأخذوا كلامى ولو على سبيل الظن أو الفرض أو حتى الاحتمال .

فالأنماط المتعددة من التفكير كما يقول وليم جيمس ـ « كلها متعارضة وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة ، أفلا ينبغى أن يثير ذلك احتمالاً أو فرضًا أو ظنًا أو حدسًا مناصرًا لوجهة النظر البراجماتية .. ومادامت هذه الأنماط المتعددة من التفكير غير صحيحة ولكنها خدمت أغراضًا معينة لكم ، فلماذا لا يثير ذلك ولو حتى احتمالاً مناصراً لمقولتنا : إن الحقائق ينبغى أن تكون هى الوسائل التى نستطيع

---

(١) البراجماتية.

بها أن نصل إلى ما نريد» .

أى أن الرجل ـ كما قلت سابقًا ـ يبدأ بموقف عبثى من الكون وينتهى بنا إلى موقف عبثى أيضًا ، ثم يقول لنا : إنه مادام الأمر كذلك فبدلاً من اليأس والمرارة والسأم على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه ويجد فيه اللذة ، ولو بشكل مؤقت ومتغير وعليه لكى يستريح تماماً ـ كما يظن جيمس ـ أن يعتقد أن ذلك الذى يفعله هو الحقيقة .

أعتقد أن الصورة قد صارت واضحة إلى حد كبير لنر ما تنطوى عليه هذه الفلسفة من شرور .

إن كون جيمس يعتبر النافع حقًا حتى ولو كان لحظيًا ، بل ولو كان باطلاً فإن ذلك يعنى - وكما يظهر فى كلام الرجل نفسه ـ أنه لا يؤمن بالحق أو الحقيقة أصلاً ، ولا يبحث عنها . إنما هو يحاول فقط أن يقدم تبريراً فلسفياً لكل من يعمل على تحقيق ما يستهدفه من منفعة ولكى يرضينا فقط ، ويقوى من عزيمة من يتفق معه فى ذلك ، فقد أطلق على هذه التبريرات لفظ الحقائق ، أى أن الهدف من وراء هذه الفلسفة هو تبرير المنافع كما يراها أصحابها فقط ، ولنسم نحن ذلك ما نشاء من المسميات ، أما هو ففى محاولة من النصب الفلسفى يسمى هذا التبرير الحق أو الحقيقة .

فالرجل لم يبحث إلا عن التبرير فقط لأن المعنى العام الذى تتضمنه فلسفته ، أنه لا يؤمن بشىء يسمى حقًا أو حقيقة وبذلك تكون خلاصة المذهب هى (البحث عن تبرير المنافع كما يراها أصحابها فى عالم يخلو من الحقائق وقد أرهقه البحث عنها) .

حسن . إن الرؤية الآن تتضح أمامنا لكى نستطيع أن نرى نظرة العبث الكامنة وراء تلك الفلسفة ، وكما قلت سابقًا فإنه ليس كأى عبث ، فهو مثلاً ليس كالعبث الذى نجده عند البير كامو أو عند صمويل بيكيت أو حتى عند كفكا ، ولكنه شىء خطير جداً ، إنه عبث يحاول أن يكون منتفعًا ومستغلاً .

ويشاع بين البعض أن البراجماتية تمثل تسويغًا فلسفيًا لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة وهذا اعتقاد ساذج لأن البراجماتية أبعد شراً من ذلك فهذا المبدأ يعنى أن الوسيلة القذرة قد تبررها الغاية الشريفة لكن البراجماتية لا يهمها الغايات الشريفة فى شىء وإنما المهم لديها هو أن تكون الوسائل قادرة على تحقيق الغايات ، كما أن البراجماتية لا تمارس ذلك على أنه عمل لا أخلاقى أو حتى مكيافيللى تبرره الضرورة ولكن على أن ذلك هو الحق الحقيقة وما غيره لا شىء وسندها الوحيد فى ذلك هو ما يضره هذا السلوك من نفع على ممارسه .

وبعد توضيحنا للمنحى الانتهازى - وإن تكن كلمة انتهازية هنا كلمة أخلاقية لا معنى لها في سياق هذه الفلسفة التى تحيلها إلى حقيقة عملية - الذى لا يمكن أن ينتهى عملياً إلا إليه المراد بمعنى النفع فى هذه الفلسفة ، استطعنا أن ندرك مدى ما تنطوى عليه من شرور يحاول وليم جيمس إكسابها ثوبًا فلسفيًا وأخلاقيًا سفسطائى الألوان ، مما يجعله أكثر شراً .

لا يبقى الآن سوى معنى واحد للمنفعة فى المفهوم البراجماتى لها وهو المنفعة الخاصة لكل شخص على حده ، وسواء قصد جيمس ذلك أو لم يقصد فإن ذلك لا يهمنا كثيراً ، ولكن المهم فى الأمر أن هذا هو المترسب من هذه الفلسفة .

لقد بدأ الخط البراجماتى من موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق بل ومشككًا فى كل الحقائق التى اطمأن إليها الآخرون ، بل ومنكراً لكل الوسائل المعرفية التى تعارف عليها البشر ، وانتهى إلى موقف عبثى لا يملك القدرة على الإتيان بحقائق أيضًا ، ولكن من خلال إعمال هذا الخط البراجماتى يكون قد ترسب فى وعى القائمين بذلك أنه مادام لا يستطيع أحد الإتيان بالحقائق المؤكدة فعلى كل منا أن يعتبر ما ينفعه - بحسب اعتقاده هو عن المنفعة - هو الشيء الصحيح أو الحقيقى أو أى اسم آخر يريد أن يسميه المهتمون بذلك كما يشاءون .

يقول الإمام محمد باقر الصدر[1] «إن إعطاء المعنى البحت للحقيقة وتجريدها من خاصة الكشف عما هو موجود وسابق استسلام مطلق للشك الفلسفى .. إن من حقنا التساؤل عن هذه المنفعة العملية التى اعتبرت مقياساً للحق والباطل فى «البراجماتيزم» أهى منفعة الفرد الخاص الذى يفكر ؟ أو منفعة الجماعة ؟ ومن هى هذه الجماعة وما هى حدودها وهل يقصد بها النوع الإنسانى بصورة عامة أم جزء خاص منه ؟ وكل من هذه الافتراضات لا تعطى تفسيراً معقولاً لهذا المذهب الجديد .

فالمنفعة الشخصية إذا كانت هى المعيار الصحيح للحقيقة وجب أن تختلف الحقائق باختلاف مصالح الأفراد فتحدث بسبب ذلك فوضى اجتماعية مريعة حين يختار كل فرد حقائقه الخاصة دون أى اعتناء بحقائق الآخرين المنبعثة عن مصالحهم وفى هذه الفوضى ضرر خطير عليهم جميعًا . وأما إذا كانت المنفعة الإنسانية العامة هى المقياس فسوف يبقى هذا المقياس معلقًا فى عدة من البحوث والمجالات لتضارب المصالح البشرية وإختلافها فى كثير من الأحايين» .

ويقول الدكتور توفيق الطويل[2] : «ويكفى أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة

---

(١) فلسفتنا.

(٢) الفلسفة الأخلاقية، نقلاً عن د. مصطفى حلمى : الإسلام والفلسفات المعاصرة.

المطروحة فى الأسواق قيمتها لا تقوم فى ذاتها بل فى الثمن الذى يدفع فيها فعلاً فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة فى النظر إلى الحق أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التى تطرح فى الأسواق وهذه هى العقلية الأمريكية فى الفلسفة وفى الأخلاق وفى السياسة وفى كل مجال» .

والعبث فى هذه الفلسفة يكمن وراء نظرتها العامة المتشككة واللامبالية فى كل الوسائل المعرفية ، بما فيها نظريتها هى ذاتها فى المعرفة .

ولكن الجديد فى الموضوع أن العبث هنا عبث ذو طبيعة خاصة ، عبث بالرغم من إدراكه لذاته أنه عبث إلا أنه يريد أن يستفيد .. أن ينتفع فى كل لحظة يشعر فيها أنه سينتفع أياً كان نوع ذلك الانتفاع فربما يخفف ذلك من وطأة عذاب الشعور بالعبث على النفس ، فبدلاً من أن يتقدم بها إلى السأم والموت ـ مثل العبثيين بوجه عام والوجوديين من العبثيين بوجه خاص ـ فإنه يريدها «أى يريد البراجماتى من نفسه» أن تعمل عملاً دؤوباً على ما يريحها دون أن يهتم بالتفكير فى انعكاس ذلك على شقاء الآخرين ، لأن العبث لا يفهم هذه المعانى بل ينكر وجودها أصلاً ، وكل ما يطلبه منا جيمس هو أن ندع تلك الأفكار البراجماتية التى تكمن وراءها تلك النظرة العبثية إلى الوجود ـ تمر ! فهل من الممكن أن نتركها تمر .. ؟!؟!

الدين البراجماتى

يذهب وليم جيمس إلى أن هناك أفكارًا ليس فى استطاعتنا أن نحكم عليها بأنها صحيحة أو كاذبة لأن المعرفة العلمية الصحيحة مستحيلة تمامًا فى دائرتها ، فماذا يكون موقفنا إذن من هذه الأفكار ؟ هل ينبغى علينا أن نتوقف عن الحكم عليها ؟ أم يحسن بنا أن نفترض عدة فروض من أجل تفسيرها ؟.

لقد فكر وليم جيمس كالتالى :

الواقع أننا لا نستطيع أن نحيا أو نفكر دون قدر من الإيمان أو الاعتقاد، وليس الاعتقاد - من وجهة نظره - إلا فرضًا ناجحًا ، فلماذا لا نلتجئ إلى إرادة الاعتقاد حيث يعسر الوصول بداهة على حقيقة يقينية ؟ ألا يحدث أحيانًا أن يكون «الاعتقاد» نفسه عاملاً فعالاً من عوامل تحقق ما نؤمن به أو ما نعتقده ؟ .

إننا بدلاً من أن نتسائل عما يسيِّر الأشياء هل هى المادة أو الله يجب أن يكون تساؤلنا كالتالى : ما هو الفرق العملى الذى يمكن أن يحدث الآن إذا قدر للعالم أن تسير دفته بواسطة المادة أو بواسطة الله ؟.

وبالنسبة لماضى العالم ليس ثمة فرق سواء اعتبرناه من عمل المادة أم حسبنا أن روحًا قدسًا هو خالقه ومنشئه . أما بالنسبة للمستقبل فإن المادة لا تبشر بشىء من النجاح الذى نسعى إليه ، بل تبشر بالتحطيم النهائى المطلق للكون وتحوله إلى مأساة فى نهاية المطاف لذلك فإنه يجب أن يكون اعتراضنا الحقيقى على المادة - فى زعمه - هو قنوط نتائجها العملية .

هذا فى حين أن فكرة الله مهما تكن أقل وضوحًا من تلك الأفكار الحسابية التى أصبحت سارية رائجة فى الفلسفة الميكانيكية فإن لها على الأقل الميزة العملية المتفوقة عليها من حيث نتائجها النفعية التى تمنح الأمل فى المستقبل .

والإله الذى يحتاجه كل منا - على حد قوله - يتصوره البعض معزيًا مقويًا ، والبعض منذرًا معاقبًا تبعًا لحالة كل شخص وحاجاته .

كما يجب أن نغفل عن صفات ذلك الإله النظرية المعروفة من وجود بالذات وروحانية وبساطة وما أشبهها لأنها عديمة الفائدة ومن ثم عديمة المعنى وعلينا أن نقتصر على الصفات

المفيدة لنا مثل القدرة والخيرية لأنهما تبعثان فينا الرجاء .

ولكن يا ترى ما هذه المنافع التى يريدها جيمس من الدين ؟

إنها الراحة والهدوء والسكينة والطمأنينة والسلام والاغتباط والمشاعر المتدفقة التى تلهب الصدور وتبعث الحركة فى الحياة .

أى أن جيمس يريد من الدين أن يكون مجرد مسكن أو مخدر يستطيع الإنسان باعتياده إياه أن يواصل حياته بقوة وحماس أكبر ، والراصد للمذهب يستطيع أن يتبين ، السلوك الذى يمكن أن يكون عليه أتباعه ولهذا لزمت الحاجة إلى الدين . كمخدر لسلوكهم النفعى الانتهازى يساعدهم على مواصلة أفعالهم اللا إنسانية بنشاط أكبر .

وعلى هذا الأساس فإن جيمس لم يهتم كثيراً بالتفرقة بين كون الخالق هو الله جلا شأنه ـ أو المادة أو البحث عن كون الله موجوداً أو غير موجود بل إنه يحدد صفات الإله الذى يقبله ويرفض الصفات التى لا يعتقد هواه بكونها نافعة ، أى أنه لا يؤمن بإله خالق بل هو يخلق من عنده إلهاً محدد الصفات يعمل على خدمة وإرضاء من يؤمن به .

إن الإله المطلوب لدى جيمس يجب أن يكون ـ على حد تعبيره ـ صديقًا ومعينًا ووفيًا وخادمًا وقد يكون معزيًا قويًا وقد يكون منذرًا معاقبًا تبعًا لحالتنا وحاجاتنا وكما إنه هو خادم لنا فهو رفيق كثير المطالب دائب الحاجات لأن ذلك يفرض علينا واجبات جديدة ومهمات كثيرة تبعث فيما حولنا جواً من العواصف والمخاطر من شأنه دائماً أن يشحذ هممنا وأن يوقظ فينا أعلى الامكانيات ، وهو نفسه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقدمات بقائه لإنه إله متناه هو نفسه جزء من العالم .

لقد اعتقد جيمس أن مذهبه يبيح له كل شىء مادام يراه مفيداً حتى خلقه للآلهة ذاتها بالأوصاف التى يهواها وذلك فقط لمحض المنفعة وذلك على أساس قوله :«فى مقدورنا أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله»[1] .

لقد استعاض جيمس بالاعتقاد فى إله من خلقه عن الله نفسه واعتقد أن ذلك سيحقق له المنافع التى يبغيها فهل من الممكن أن يتحقق شىء من ذلك .

إن هذه المنافع وغيرها لا تتحقق إلا بشرط واحد هو أن يكون الإنسان مقتنعًا بوجود الله فعلاً ، أما إذا لم يكن مقتنعًا بذلك فإنه من المستحيل أن يجد هذا العون من إله هو الذى خلقه أو حتى اعتقد فى وجوده من أجل هذا العون .

---

(١) البراجماتية.

إن ذلك أشبه ما يكون برجل يدرب نفسه على الاعتقاد بأنه غنى ثم يحاول أن يستمد من هذا الغنى الوهمى المال الذى يبتغيه ! وواضح مدى ما فى هذا المثال من خبل .

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى[1] عن ذلك : «حسبك لكى تعتقد بأمر ما اعتقاداً جازماً ، أن تتجه منك الإرادة إلى ذلك وأن تشعر بمجرد الحاجة إليه فسوف لا تعجز إرادتك أو حاجتك إذ ذاك عن أن تستخرج لك الدليل تلو الآخر على ما تفضل الاعتقاد به .. إنهم يكونون نسيج العقيدة الدينية فى أفكارهم من خيوط المصالح الدنيوية» .

ويقول برتراندرسل[2] : «ان جيمس يريد أن يستعيض بالإيمان بالله عن الله ويزعم أن هذا سيجعل كل شيء على ما يرام . ولكن هذا لايعدو كونه شكلاً من أشكال جنون النزعة الذاتية ، الذى هو الطابع المميز لمعظم الفلسفة الحديثة».

ويقول مايكل كوربت عن التطبيق العملى لهذا الدين البراجماتى فى أمريكا :

«لقد بدأ وجود البعد الدينى العام فى الولايات المتحدة مع الوثائق التأسيسية للأمة، وتم تعزيزه من خلال الخطب الرئاسية وما شابه ذلك من أقوال أكدت النظرة الرسمية للأمة لنفسها. وقد انعكس وجود البعد الدينى فى حياة الأمريكيين فى إعلان واشنطن يوم السادس والعشرين من نوفمبر عيداً قومياً «لعيد الشكر» وكذلك إعلان جورج بوش يوم الثالث من فبراير ١٩٩١ عيداً قومياً للصلاة، وكان ذلك خلال حرب الخليج، وابتهل الرئيس بيل كلينتون إلى الرب مراراً فى خطبه ليسبغ نعمه على الولايات المتحدة.

هذا البعد للحياة القومية له مجموعة من الرموز، مثل العلم الأمريكى وناقوس الحرية، كما أن له طقوسه التى تتمثل فى الأعياد القومية التى غالباً ما يتم فيها استحضار المشاعر والعادات الدينية مثل استهلال الجلسات الحكومية بالصلاة. وينعكس هذا البعد أيضاً فى الدعم الحكومى لقساوسة الجيش والكونجرس، كما يظهر فى الأغانى مثل «أمريكا الجميلة»، «فليبارك الرب أمريكا» و«راية النجوم اللامعة»[3]».

ويقول جورج ستيانا : «إن الإنسان الأمريكى هو إنسان مثالى يعمل للمادة، صحيح أن الولايات المتحدة ابنة كالفن، كما قال جيمس هوبورن، إلا أن كالفينية أمريكا أصبحت مادية»[4].

---

(١) كبرى اليقينيات الكونية.
(٢) تاريخ الفلسفة الغربية: الفلسفة الحديثة.
(٣) الدين والسياسة فى أمريكا: ص ٣٢.
(٤) نقلاً عن رضا هلال - تفكيك أمريكا : ص١٠٧.

ويقـول نـاثان أو هاتش فـى كـتـابه: «ديمقـراطيـة المسـيـحـيـة الأمـريكيـة - ١٩٨٩»: «إن المسيحية الأمريكية هى الضلع الثالث لمثلث ضلعيه الآخرين «الديمقراطية وفلسفة.. دعه يعمل دعه يمر»[١].

ويقول هاولد بلوم فى كتابه (الدين الأمريكى - ١٩٩٢): «إن المسيحية تجربة برجماتية أمريكية، وإن «يسوع الأمريكى» أقرب لما هو أمريكى مما هو مسيحى و ذلك ما تكشف عنه تجارب كنائس المورمون، والمعمدانية الجنوبية والعلم المسيحى والسبتيين والخمسينية وشهود يهوه»[٢].

(١)، (٢) المرجع السابق: ص١٠٩.

الإسلام البراجماتى والإسلام الأمريكى

والإسلام البراجماتي يعني بإيجاز شديد : التعامل بالمنظور النفعي مع الإسلام أى استغلال الإسلام للمنفعة «كما يراها البراجماتيون» دون التقيد بإطاراته أو شروطه أو تعاليمه. هذا بالإضافة إلى التوفيق أو بقول أدق التلفيق المستمر بين مفاهيم البراجماتية الدينية التى تتعامل مع الدين بوجه عام على أنه مخدر ذو مفعول متجدد دائماً وعلى أنه أحد الوسائل الاحتياجية لاكتساب المظهرية الاجتماعية وبين بعض المظاهر والشكليات الإسلامية التى يمكن استغلالها لصالح تلك المفاهيم ، ومع أن استغلال الدين بشكل نفعى أمر قديم قدم الزمن إلا أنه منذ أواسط السبعينات.

ومع سقوط بلد إسلامى كمصر فى أسر الهيمنة الأمريكية وغزو الأفكار البراجماتية لمجتمعنا فقد أدى ذلك إلى وجود البيئة المناسبة التى عملت على ترويج نمط التعامل مع الدين بشكل نفعي وإيجاد المبررات الفلسفية لتسويغ ذلك النمط وإضفاء الشرعية عليه .

كما أن تلك المفاهيم الجديدة أدت إلى تطوير الأساليب التقليدية لاستغلال الدين للمصالح الشخصية وكذلك استحداث أساليب أخرى جديدة عن تلك الأساليب القديمة ففى مجتمع تكون السيادة فيه للقيم النفعية بوجه عام يكون من الطبيعى جداً أن يسود فيه نمط التعامل النفعي مع الدين بوجه خاص.

أما اتجاه بعض من يرفعون الشعارات الإسلامية إلى اعتناق أسس وأساليب هذا الإسلام البراجماتى فموضوع يطول نرجو أن نخصص له كتاباً قريباً.

الإسلام الأمريكى وكون أن الرئيس الأمريكى هو إمام المسلمين الفعلى

ويعد الإسلام الأمريكى هو أحد التطبيقات العملية للإسلام البراجماتى حيث تتم محاولة استغلال الإسلام ذاته بهدف تحقيق المصالح الأمريكية ونموذج ذلك ما يحدث الآن من ترويج لما يسمى الإسلام المتسامح ويقصد به إسلاماً كسيحاً أبلهاً يتلقى الضربات تلو الضربات بينما هو يبتسم فى هدوء للطواغيت من أعدائه. وهو إسلام مفرغ من الداخل لا يحمل سوى شعارات تتسق تماماً مع كل ما يريده الغرب. فأهم ما فيه هو خلوه من المرجعية الإسلامية التى

يتم استبدالها بمرجعية البيت الأبيض الأمريكي. حيث يكون الرئيس الأمريكي هو الإمام الفعلي للمسلمين. وليس في هذا أي نوع من المبالغة وإنما هو ما يحدث في الحقيقة بالفعل لأنه إذا كانت المؤسسات الدينية لا تصدر أحكامها أو مواقفها الدينية إلا بما يتفق مع سياسات الحكام وكان هؤلاء الحكام لا يوجهون سياساتهم حتى في أخص الأمور الإسلامية إلا بما يتوافق مع توجهات الإدارة الأمريكية. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا كان أي مفهوم عن الإسلام تعلنه تلك الإدارة يتم ترديده من جانب هؤلاء الحكام ثم في مرحلة تالية مباشرة يتم تسويغه من جانب المؤسسات الدينية نفسها، فإنه بناء على كل ما سبق فإن الإمام الفعلي للمسلمين الآن هو الرئيس الأمريكي.

والحديث الذي يدور الآن عن تغيير المناهج الدينية في مدارس المسلمين بما يتوافق مع توجهات الأمريكان هو تجسيد أخير لما سبق.

بعض آثار الأفكار الأمريكية على المجتمع المصري أو (الانهيار الرهيب):

لقد استطاعت هذه الأفكار أن تجعل من المال إلهًا يعبد من دون الله كما استطاعت أن تسقط القيم والمبادئ وتحيلها إلى ألفاظ كريهة واستطاعت تسطيح الكثير من المفاهيم الدينية وإحالتها بالتأويل والتبرير إلى مجرد شعارات شكلية وأسقطت المجتمع المصري في هوة التطاحن الاجتماعي من أجل الحصول على المال والثروة وسقط في هذا الصراع الأغلبية من الفقراء والمحرومين بعد أن هرستهم ميكنة الحياة البراجماتية وعاد عصر الرقيق بصورته الجديدة حيث سقطت كثير من الفتيات (والجميلات منهن على وجه الخصوص) ضحايا تعيسات يبعن كالجواري لمن يملك أكثر أو يدفع أكثر في بغاء فهري مقنع بالشرعية يُسمى زواجًا . ووقع الشباب في مستنقع العجز والفشل والإحباط والركود المدمر لنفسيتهم وبنيتهم الداخلية . وتراجعت قيم العلم والأخلاق والعمل بل وصارت أشياء مثيرة للازدراء . الخلاصة باستثناء ما حفظ الله فإنه لم يعد هناك عند الناس إلا هدف واحد هو البحث عن المال والنفوذ بأية وسيلة .

وإننا لندهش من الأبحاث المتواصلة والندوات والحوارات حول التراجع في المجالات العلمية والاجتماعية المختلفة مع كون الحقيقة واضحة أشد الوضوح في أن الروح النفعية التي طغت في المجتمع هي التي وراء ذلك ، وهي التي تفسِّر بكل بساطة أسباب التراجع في كل المجالات ، وما نشرته الأهرام في الأيام الأخيرة حول ما قام به وكيلا كلية طب القاهرة من تزوير نتائج الامتحانات لصالح ولديهما ليضمنا لهما منصب المعيد لَمَثَل شديد الوضوح على ما نقول .

إننا نستطيع أن نلخص الانهيار الرهيب الذى حدث فى المجتمع المصرى بسبب تلك المفاهيم فى القاعدة التالية :

إذا كان لأحد الأشخاص مصلحة، ما مهما كانت بسيطة، فى اتخاذ سلوك معين وكان سينتج آلاف الأضعاف لقدرها ضرراً على الآخرين فإنه لن يتردد فى اتخاذ هذا السلوك. ولو كان سينتج عن اتخاذه سلوكًا معينًا ضرر ما خاص له مهما كان بسيطًا فى مقابل آلاف أضعاف قدره مصلحة للآخرين فإنه لن يتردد في عدم اتخاذ هذا السلوك. وللقارئ أن يتصور بشاعة الواقع الفعلى لمجتمع يطبق أفراده هذه القاعدة.

البراجماتية الأمريكية تسيطر على العالم:

فى أوائل القرن العشرين كتب وليم جيمس فى رسالة إلى أحد أصدقائه أن البراجماتية ستدمغ فكر العالم كله بطريقتها فى خلال عشرة سنوات . وإن كانت تنبؤات وليم جيمس قد تأخرت بعض الوقت إلا أن الواقع الذى تحقق أثبت أنها كانت صحيحة بالفعل. فبانتقال مركز الثقل الغربى إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قادت الفلسفة البراجماتية الفكر الغربى بوجه عام ثم كانت هى المسئولة عن التدهور السريع فى سقوط المعسكر الشرقى أيضًا.

والذى يؤكد اكتساح البراجماتية للمعسكر الشرقى أن أغلب الرؤساء الذين جاءوا إلى تلك البلاد بعد سقوط الشيوعية عندما سألوا عن الفلسفة التى يؤمنون بها أجابوا : إنها الفلسفة البراجماتية .

والتطبيق السياسى لتلك الفلسفة يعنى اختزال طاقات شعوب العالم من خلال العولمة الأمريكية إلى طاقة دفع لماكينة الحياة البراجماتية الإستهلاكية للنخب الرأسمالية والسياسة المسيطرة. فهى تبتعث من خلال آليات الغرب الأمريكى الإعلامية المسيطرة على العالم أشد الرغبات الإستهلاكية سعاراً فى نفوس الناس فى نفس الوقت الذى يتم فيه إغراؤهم بتحطيم كل المبادئ والقيم فى سبيل تحقيق تلك الرغبات . ولأن موارد العالم أجمع لا تكفى لتعميم تحقيق تلك الرغبات فإنه لا يستطيع تحقيقها إلا أكثر المتصارعين براجماتية بينما يؤول لهات الجماهير الغفيرة إلى طاقة دفع لماكينة تلك الحياة البراجماتية التى تقودها النخب السياسية والاقتصادية المسيطرة على العالم إلى ما لا تعرف .

٩

لماذا يكره العالم أمريكا

(شهود على الجرائم الأمريكية)

تمهيد :

وما أريد قوله بعد هاتين الشهادتين لنعوم تشومسكي وجارودى على الجرائم الأمريكية أننا لسنا أمام أى شكل من أشكال المسيحية يقود الغرب وإنما أمام آلية مادية براجماتية تفقد أى محتوى إنساني.

أما ما حدث ويحدث في العراق وما يحدث الآن في أفغانستان على يد الأمريكيين فإن صفحات التاريخ ستسجِّله بمداد خاص ، بينما يطبع في ذاكرة المسلمين بحروف من نار .

نعوم تشومسكى وأمريكا

كان من المبالغة فى الكذب أن يتساءل القادة الأمريكيون لماذا يكره العالم أمريكا. لأن العالم أجمع بما فيه الأمريكيون يعلم جيداً لماذا يكره العالم أمريكا.

ونحن نقدم فى هذا الفصل شهادتين لاثنين من كبار المفكرين الغربيين تجيبان على هذا السؤال نبدأهما بشهادة نعوم تشومسكى والذى يتحدث بلسان الإدانة لقومه فيقول:

تعود العلاقات بين الولايات المتحدة والدول الأخرى إلى بداية التاريخ الأمريكى، ولكن الحرب العالمية الثانية مثلت علامة فارقة، ولذلك نبدأ من عندها.

أصابت الحرب معظم منافسينا الصناعيين بالضعف الشديد، أو حتى دمرتهم تماماً، فبينما تضاعف إنتاجنا ثلاث مرات، ولم تتعرض حدودنا لأى هجوم.

بل إن الولايات المتحدة بعد أن تسلمت زمام قيادة الدول الصناعية فى العالم منذ بداية القرن، وبعد الحرب، حازت ٥٠٪ من ثروات العالم، وسيطرت على جانبى المحيطين الأطلسى والهادى. لم يسبق فى تاريخ العالم أن دان لمثل تلك السيطرة وذلك الأمان لدولة واحدة.

استوعب مخططوا السياسة الأمريكية أننا سنخرج من الحرب قوة عظمى وحيدة، فريدة فى تاريخ العالم. وخططوا بحرص ـ خلال الحرب وبعدها ـ لتشكيل عالم ما بعد الحرب.

لمنع انهيار اقتصادى يبدد النفوذ أو لإعادة بناء الاقتصاد الرأسمالى لدول غرب أوروبا، نفذت الولايات المتحدة مشروع مارشال، وبمقتضاه أقرضت ومنحت أوروبا أكثر من ١٢ بليون دولار بين عامى ١٩٤٨ و١٩٥١، (وقد اشتُرى بها أكثر من ثلث الصادرات الأمريكية لأوروبا عام ١٩٤٩م).

كان قائد الحمائم «چورچ كينان» بلا ريب، وقد رأس مخططى وزارة الخارجية حتى عام ١٩٥٠، عندما حل محله «نيتنر». وكان مكتب «كينان» مسئولاً عن شبكة «جهلن».

كان «كينان» من أذكى وألمع المخططين الأمريكيين. وله دور رئيسى فى تشكيل عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتمثل كتاباته تصويراً مثيراً لمكانة الحمائم. كتب «كينان» عام ١٩٤٨ المذكرة رقم ٢٣ لتخطيط السياسة: «عندنا حوالى ٥٠٪ من ثروات العالم وفقط ٦,٣٪ من سكانه... وبمثل هذا الوضع لا يمكننا تجنب حسد واستياء الآخرين. مهمتنا الحقيقية فى الفترة القادمة هى ترتيب نموذج للعلاقات يحافظ على استمرار ذلك التفاوت... ولتحقيق ذلك،

سيكون علينا التخلى عن الأحلام والعواطف، وتركيز اهتمامنا على أهدافنا القومية المباشرة... يجب أن نمسك عن كلامنا المبهم للآخرين... والأهداف غير الحقيقية مثل حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، والتحول للديمقراطية. ولن يكون اليوم الذى نضطر فيه للتعامل بمنطق القوة بعيداً وكلما قلت عوائقنا من جراء رفع تلك الشعارات كان ذلك أفضل.

عندما دخلت قواتنا كوريا عام ١٩٤٥، عزلت حكومة ذات شعبية معادية للفاشية قاومت الاحتلال اليابانى، وأشعلنا حربًا ضروسًا، خلال الاحتلال اليابانى لكوريا. سقط فى كوريا الجنوبية مائة ألف قتيل ـ وذلك قبل نشوب ما أسميناه الحرب الكورية ـ وفى إقليم واحد صغير «جزيرة شيجو» سقط ٣٠,٠٠٠ ـ ٤٠,٠٠٠ قتيل فى أثناء ثورة الفلاحين.

لم يثر انقلاب فاشى فى كولومبيا ـ على طريقة «فرانكو» إسبانيا ـ إلا قليلاً من احتجاج حكومة الولايات المتحدة. بينما لم تهتم بانقلاب عسكرى فى فنزويلا ولا بعودة السلطة للمعجب بالفاشية فى بنما، ولكن أثارت المرارة والعداوة فى حكومتنا أول حكومة ديمقراطية فى تاريخ جواتيمالا، التى احتذت نموذج مجتمع «الصفقة الجديدة» الذى أعلنه «روزفلت».

فى عام ١٩٥٤، هندست المخابرات الأمريكية انقلابًا حوّل جواتيمالا إلى جهنم أرضية، وحافظت عليه منذ ذلك الحين وحتى الآن، مع إدمان التدخل والمساندة الأمريكية خصوصًا أيام «كيندى وجونسون».

أحد أساليب قمع مقاومة الفاشية، كان بتجنيد مجرمى الحرب من أمثال «كلاوس باربي» رئيس الجستابو فى ليون، حيث أهلته أعماله للفوز بلقب سفاح ليون، ثم بعد ذلك عينه الجيش الأمريكى للتجسس على فرنسا!.

يؤكد مخططو السياسة الأمريكية لما بعد الحرب العالمية الثانية فى دراساتهم عالية المستوى، الواحدة تلو الأخرى، أن التهديد الرئيسى لنظام العالم الجديد ـ تحت قيادة الولايات المتحدة ـ يأتى من «الوطنيون» فى العالم الثالث، ومن الأنظمة الوطنية، التى تسمى أحيانًا غلاة الوطنية، والتى تستجيب للطلبات الشعبية بخصوص تحسين مستويات المعيشة وتلبية الحاجات المحلية الضرورية.

كرر وأكد المخططون الأهداف الرئيسية للسياسة الأمريكية: منع وصول المغالين فى وطنيتهم للحكم، وإذا ما وصلوا إليه بطريقة أو بأخرى، فيتحتم عزلهم وتنصيب حكومات تفضل الاستثمار برأسمال خاص، محلى أو أجنبى، وتوجه الإنتاج للتصدير، وتكفل تصدير الأرباح للخارج (لم تعارض أى وثيقة سرية تلك الأهداف، وإذا كنت من مخططى السياسة الأمريكية، فتلك الأهداف بمثابة الهواء الذى تتنفسه).

نستطيع مما سبق أن نفهم بسهولة سياسة الولايات المتحدة فى العالم الثالث: نحن نعارض ـ بمثابرة وإصرار ـ الديمقراطية إذا كانت نتائجها خارج نطاق سيطرتنا، والمشكلة مع الديمقراطيات الحقيقية أنها عرضة للوقوع فريسة للهرطقة التى تزعم أن على الحكومات الاستجابة لمصالح شعوبها بدلاً من مصالح المستثمرين الأمريكيين!

نشر «المعهد الملكى للشئون الدولية» فى لندن دراسة عن نظام العلاقات الأمريكية الدولية، مؤداها أنه بينما تقدم الولايات المتحدة خدمة «لسانية» للديمقراطية، فإن التزامها الحقيقى هو لـ«المشروعات الرأسمالية الخاصة» وعندما تتعرض حقوق المستثمرين الأمريكيين للتهديد، فعلى الديمقراطية أن ترحل، ولا بأس أن يحل محلها حكام التعذيب والقتل.

منذ الثورة البولشفية عام ١٩١٧ حتى انهيار الحكومات الشيوعية فى أواخر الثمانينيات، يمكنك تبرير أى هجوم أمريكى فى أى مكان فى العالم بأنه دفاع ضد الشيوعية. ولذلك عندما غزت الولايات المتحدة جرينادا عام ١٩٨٣ أفصح رئيس الأركان عن أنه فى حالة ما إذا تعرضت أوروبا الغربية لهجوم سوفيتى، فقد تمثل جرينادا المعادية عائقاً فى إمدادات البترول من البحر الكاريبى لحلفائنا الذين سيكونون محصورين، ولن نستطيع الدفاع عنهم!

نجح هذا الكلام الذى يثير الضحك، فى أن يثير الحماسة والمساندة الشعبية العامة للعدوان والإرهاب والفتنة.

أما نيكارجوا، فقد تم تسويغ الهجوم عليها بالزعم أنه إذا لم توقفهم عند حدودهم، فسوف يتدفقون علينا عبر الحدود عند هارلنجن ـ تكساس، مسافة قصيرة لا تستغرق سوى يومين من القيادة.

يمكن لنيكارجوا والسلفادور أن يختفيا على الكرة الأرضية، ولن يلاحظ ذلك أحد، ولكن تعرضت كل منهما لهجمات ضارية من الولايات المتحدة كلفتهما مئات الآلاف من القتلى وعدة بلايين من الدولارات.

هناك سبب وراء ذلك فكلما زاد ضعف وفقر الدولة، زاد خطرها كمثل. فإذا استطاعت دولة هزيلة فقيرة مثل جرينادا أن تنجح بعيداً عن قبضة الولايات المتحدة، فلماذا لا تنجح دول أخرى؟.

ويصدق هذا على الهند الصينية (فيتنام ـ كمبوديا ـ لاوس ـ ميانامار)، بل هى أكبر وتتمتع بموارد أهم. فمع أن «ايزنهاور» ومستشاريه طنطنوا كثيراً عن الأرز والصفيح والمطاط، فخوفهم الحقيقى كان من نجاح شعوب الهند الصينية فى تحقيق استقلالهم وتأمين اقتصادهم وعدالتهم،

فحينئذ سيقول شعب تايلاند: ولماذا لا نستطيع نحن ذلك؟ ومن ثم نسمع ماليزيا تقول: ونحن أيضاً، ومن بعدها أندونيسيا، ومن ثم تخسر الولايات المتحدة «مجالها العظيم».

إذا كنت تريد نظاماً عالمياً يخضع لمتطلبات المستثمرين الأمريكيين، فلا يمكنك أن تسمح بأن تخترق بعض الأجزاء من ذلك النظام. وضحت الوثائق الرسمية ذلك بطريقة مستلفتة للنظر، بل ظهر ذلك علناً.

شيلى بلد كبير المساحة، غنى بمصادره الطبيعية، ولكن لن تنهار الولايات المتحدة إذا استقلت عنها شيلي.. إذن لماذا كل ذلك الاهتمام بشيلي؟ طبقاً لقول «كيسنجر» شيلى فيروس يعدى المنطقة ويمتد تأثيره حتى إيطاليا!.

برغم ٤٠ سنة من تدخل المخابرات الأمريكية فى إيطاليا، مازال بها حركة عمالية. فإذا ما نجحت حكومة ديمقراطية اشتراكية فى شيلى، فستصل رسالة الخطيئة إلى الناخبين الإيطاليين، فافترض أنهم سيتعلقون بأفكار غريبة عن حكمهم، على الرغم من كل ما عملته المخابرات الأمريكية خلال ٤٠ سنة!.

حذر المخططون للسياسة الأمريكية منذ وزير الخارجية «دين أتشيسون» فى أواخر الأربعينيات، وحتى اليوم، من أن تفاحة واحدة فاسدة قد تفسد الصندوق كله.

إذن فخطر الإصلاح الإجتماعي والاقتصادى قد ينتشر فى العالم.

لنركز على أمريكا اللاتينية، ولنبدأ بحقوق الإنسان.. بينت دراسة قام بها «لارس شولتز» الأكاديمى البارز والمتخصص فى حقوق الإنسان «أن المساعدات الأمريكية تميل للزيادة مع الحكومات التى تمارس التعذيب مع مواطنيها» ولا علاقة لها مع حاجة البلد، ولكن فقط مع إرادة خدمة المستثمرين.

كشفت دراسة أوسع للاقتصادى «إدوارد هرمان» عن تلازم وثيق بين التعذيب والمساعدات الأمريكية فى العالم كله، وزودتنا الدراسة بتفسير ذلك: يرتبط الإثنان (التعذيب والمساعدة الأمريكية) بتحسين المناخ للأعمال الخاصة.

وماذا عن رفع مستوى المعيشة (وذلك - من المفترض - ما نادى به الرئيس «كيندي» حليفاً للتنمية)؟.

اتجهت التنمية لتخدم مصالح المستثمرين الأمريكيين. وسعت التنمية وأحكمت من النظام الذى يعمل على زيادة إنتاج المحصولات المطلوبة للتصدير مع خفضٍ هائل للمحصولات المطلوبة للاستهلاك المحلى.

عادة ما يحقق نموذج «الزراعة للتصدير» معجزة اقتصادية، حيث يرتفع الناتج القومى فى الوقت الذى يجوع فيه الشعب! وعندما تمر الشعوب بمعجزة النجاح الاقتصادى المهلك، تظهر المعارضة، وما عليك إلا أن تقمعها بالتعذيب والإرهاب.

صلب السلفادور:

عانت السلفادور لسنوات طويلة من القمع والتعذيب والقتل على أيدى الدكتاتوريات المتعاقبة، التى نصبناها للحكم وأيدناها، الأمر الذى لا يكترث له أحد هنا. ولم يغط تلك القصة المريرة أحد. وفى أواخر السبعينيات، بدأت حكومة الولايات المتحدة فى الاهتمام بقضيتين: أولاً بدأت سلطة «سوموزا» دكتاتور نيكارجوا فى التآكل، ومن ثم تفقد الولايات المتحدة قاعدته التى تمارس منها قوتها على الإقليم. ثانياً: وهذاالخطر أكثر تهديداً من الأول، فقد بدأت أسهم المنظمات الشعبية فى السلفادور فى الصعود: منظمة الفلاحين - الجمعيات التعاونية - الاتحادات والنقابات - الجمعيات الكنسية.. وبدأت تقوم بأدوار فى خدمة المجتمع. وهذا يهدد بخطر الديمقراطى.

فى فبراير عام ١٩٨٠ أرسل آرشيبشوب السلفادور «أوسكاررروميرو» رسالة للرئيس «كارتر» يتوسل إليه ألا يرسل مساعدات عسكرية للجونتا التى تحكم البلاد، موضحاً أن تلك المساعدات «تدعم الظلم والكبت الذى تمارسه الجونتا على المنظمات الشعبية، تلك المنظمات التى تكافح من أجل احترام المتطلبات الأساسية للبشر (الأمر الذى يصعب القول بأنه جديد على واشنطن، فلا حاجة لقول ذلك).

بعد أسابيع قليلة، تم اغتيال الآرشيبشوب أثناء القداس.

لعب «ديوارت» «المعتدل المفضل» دور ورقة التين بالنسبة للحكام العسكريين ليؤمنوا لهم استمرار تدفق الدعم الأمريكى، خاصة بعد أن عرى النظام نفسه باغتصاب وقتل أربع راهبات أمريكيات. تلك العملية التى أثارت بعض الاحتجاج هنا، فاغتصاب السلفادوريات شىء واغتصاب وقتل الأمريكيات شىء جد مختلف، وهو بكل تأكيد خطيئة كبرى فى عالم العلاقات العامة. تحاشت وسائل الإعلام الأمريكية القصة، تحت قيادة إدارة «كارتر» ولجنة التحقيق التى أرسلها.

اغتالت كتيبة أتلا كاتل قساوسة الجيزويت. وهى كتيبة رفيعة المستوى، أنشأتها ودربتها وسلحتها الولايات المتحدة. تشكلت تلك الكتيبة عام ١٩٨١، عندما أرسلت مدرسة القوات الخاصة الأمريكية خمسة عشر خبيراً فى مقاومة التمرد للسلفادور. استفتحت الكتيبة عملها

بالقتل الجماعى. وصف مدرب أمريكى جنود الكتيبة قائلاً: «متوحشون تماماً.. كنا نجد صعوبة بالغة فى إقناعهم بالحصول على مساجين بدلاً من أذان وأعضاء جثث القتلى».

وبعد ذلك كله، عندما وجهت الاتهامات لنوريجا عام ١٩٨٨ رجعت كلها - عدا واحداً - لفترة ما قبل عام ١٩٨٤، عندما كان رجلنا، يخدم مصالحنا بكفاءة واجتهاد!

القصة معروفة ومتوقعة ومكررة. يتحول الحاكم من الصديق اللطيف الذى يعتمد عليه - فيستحق التأييد، ويكال له المديح والثناء - إلى الطاغية الفاسد المستبد فور أن يبدأ بارتكاب جريمة الاستقلال. الخطيئة الشائعة هى تجاوز سرقة فقراء شعبه - الأمر المقبول فى حدِ ذاته لدينا - إلى البدء فى التدخل فيما لا يعنيه من أمور الصفوة و مصالح رجال الأعمال والشركات الكبرى (الأمريكية بالطبع).

أما مسألة حمد الله على أن الأمم المتحدة أصبحت أخيراً قادرة على أداء دورها، فالحقائق التى تفند ذلك واضحة، ولكن يعتم عليها حماة المواءمة السياسية، فلسنوات طويلة أعاقت القوى العظمى عمل الأمم المتحدة، خصوصاً الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفيتى ولا العالم الثالث. ومنذ عام ١٩٧٠، عطلت الولايات المتحدة قرارات مجلس الأمن باستخدامها «الفيتو» أكثر من أى دولة أخرى، وتأتى بريطانيا فى المركز الثانى وفرنسا فى الثالث، أى أن العالم الغربى سيطر على المراكز الثلاثة الأولى فى استخدام الفيتو.

وسجلنا فى الجمعية العمومية مشابه لسجلنا فى مجلس الأمن. أما أقصى ما استطاعه العالم الثالث فهو نداءات الضعيف للقوى بأن يراعى القوانين الدولية.

أصبح من الضرورى الآن اكتشاف حقيقة أن العدو الرئيسى فى العالم الثالث هو «الخروج من الصف».

ليس ذلك من قوانين الطبيعة، بمعنى أنه من الممكن تغييره، ولكن ذلك يحتاج إلى تغيير ثقافى واجتماعى ومؤسساتى (داخل أمريكا) وتغيير النظام الديمقراطى الشكلى إلى نظام ديمقراطى حقيقى جديد، يتجاوز مظهر دورية الانتخابات التى تأتى بمن يخدم مصالح أصحاب المال والأعمال . أ.هـ.

إلى هنا انتهت شهادة تشومسكى التى ذكرناها ملخصة من كتابه (ماذا يريد العم سام؟) وهى لا تحتاج إلى تعليق من حيث مدى تناقض هذه المظالم مع كل صغيرة وكبيرة فى الإسلام دين المستضعفين في الأرض الذى يمثل جوهره الأساسى الثورة التى لا تنتهى على الظلم والاستعباد وطغيان الطواغيت وهو الأمر الذى سيؤدى إلى تنامى التقارب الحتمى بين الإسلام

وكل مناهضى القهر والاستبداد والمظالم الاجتماعية التى تقتضيها العولمة الأمريكية من الجماهير المظلومة حتى داخل الغرب نفسه فهذا الأمر يمثل أحد الدوافع المؤدية إلى حتمية الصدام بين الإسلام والغرب الأمريكى.

وفى تعليق الأستاذ عادل المعلم على شهادة نعوم تشومسكى السابقة والملحق بكتابه وماذا يريد العم سام» يورد الحقائق التالية:

«رجال المال والإعلام، تهمهم بالدرجة الأولى مصالحهم، ثم تأتى مصالح الشعب الأمريكى، وهذا هو العم سام الذى يحكم ويقود أمريكا والعالم. الثالوث المقدس من أقوياء رجال الحكم والمال والإعلام، يعملون حسب المنهج الأمريكى الخاص، وعصب الحياة فيه القوة والمال.

فى أوائل التسعينيات، عندما هددت الإدارة الأمريكية - علناً - بغزو هايتى، أظهر استطلاع رأى أن ٢٣٪ من الأمريكيين لم يسمعوا عن هايتى - برغم التغطية الإعلامية المكثفة فى ذلك الوقت - وعارض ٦٢٪ الغزو الذى تم بعد ذلك باسم الديمقراطية ولإنقاذ الديمقراطية.

وفى أوائل فبراير عام ١٩٩٦ . وصفت صحيفة واشنطن بوست الشعب الأمريكى بأنه «أكثر الشعوب جهلاً على وجه الأرض». فقد أوضحت نتائج سلسلة من الاستطلاعات أجرتها جامعة هارفارد والصحيفة المذكورة أن واحداً من كل ثلاثة أمريكيين يعرف أن زعيم الأغلبية هو «روبرت دول» برغم أنه سياسى مخضرم، وأحد أبرز المشرحين لسباق الرئاسة الذى يجرى فى نهاية العام. وأن من يعرفون أن «نيوت جنجريتش» هو رئيس مجلس النواب، أكثر قليلاً من نصف الأمريكيين.

وحتى الشرق الأوسط حيث مصادر البترول وملتقى القارات - ناهيك عن أنه منبع الحضارات والأديان - وبرغم استمرار مشكلته بؤرة ساخنة فى العالم لمدة تزيد على نصف قرن، فالأغلبية العظمى من الأمريكين لا يعرفون أصل المشكلة ولا تطوراتها وأحداثها الحقيقية.

ونشرت مجلة النيوزويك كاريكاتيراً عن عائلة أمريكية تشاهد التليفزيون، يعتقد بعضها أن ما يشاهده هو مسلسل أمريكى يسمى «سينفيلد» فقال أحدهم مصححاً إن ما يشاهدونه هو برنامج عن مشكلة الشرق الأوسط.

إذن ما الذى يخطط ويدير السياسة الأمريكية فى كل شئونها؟ إنهم حفنة قليلة جداً، جدٌ

قليلة، من محترفى السياسة وكبار رجال الأعمال.

ذهب لصناديق الانتخابات عام ١٩٩٦ أقل من ٥٠٪ من المسجلين (وليس من السكان). يعنى هذا أن الرئيس «كلينتون» حصل على حوالى ١٥٪ من أصوات الشعب الأمريكى، يدخل فى تلك الأصوات: الشواذ، أغلبية النساء أعطينه أصواتهن، سواء لأنه أكثر وسامة، أو أقل تحفظاً وأكثر تحرراً من «دول»!.

لا بد من ملاحظات طوال مضنية، ومعرفة واسعة لتكوين فكرة صحيحة عادلة عن شخص. وكثيراً ما يخفق الرجال الموهوبون فى ذلك. فهل من المستطاع أن ينجح الجمهور فى ذلك؟ ليس لدى الشعب الوقت ولا الوسائل لاستقصاء هذا الأمر. فتراهم يصلون إلى نتائج فى تسرع وعجلة، وعلى أساس بحث سطحي. فكثيراً ما استطاع دجالون من كل نوع أن يرضوا الشعب، على حين يفشل أخلص أصدقائه فى الظفر بثقته.

ومع ذلك، فالديمقراطية لا يعوزها سداد الحكم هذا فحسب، بل كثيراً ما لا يكون لديها حتى الرغبة فى البحث عنه».

وما يهمنا فى كلام عادل المعلم هذا هو التفرقة بين الشعب الأمريكى وتلك الحفنة التى تحكمه وتمتلكه وإن كان هذا الشعب لا يُعفى من الإدانة بسبب ماديته البراجماتية وانكبابه على مصالحه الخاصة ولكن هذا لا يعنى بأية حال أن وضعه فى صف واحد مع النخبة السياسية والاقتصادية والإعلامية المسيطرة عليه يجعله يتحمل بنفس القدر المسئولية عن أعمالهم الإجرامية.

جارودي وأمريكا

يذكر جاروى فى شهادته على المظالم الغربية والأمريكية على وجه الخصوص:

إن العنف الدموى وتغطيته بغطاء دينى منافق هو سمة مستمرة فى تاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها، وقد حمل المتعصبون الإنجليز الذين ابحروا إلى أمريكا حملوا إليها أكثر العقائد سفكاً للدماء فى تاريخ البشرية، وهى عقيدة «الشعب المختار» وبذلك كرسوا كل ألوان الهلاك، وسرقة أرض المواطنين الأصلية بأمر الله، وحسب نموذج التوراة، «أشعيا» حيث أعطى الرب إلى شعبه مهمة تذبيح سكان كنعان الأصليين والإستيلاء على أرضهم.

وكذلك أطلق الإسبانيون اسم «التبشير» على إبادة هنود جنوب القارة، وكانت مرجعية المترفين الإنجليز فى تبرير طرد الهنود وسرقة أرضهم سفر أشعيا والإبادة المقدسة (هريم) فى

العهد القديم، وكتب أحدهم.. إنه من الثابت أن الله دعا المستوطنين إلى الحرب، وكان الهنود يفتخرون بعددهم وأسلحتهم، وفرصتهم في إلحاق ا لضرر بنا كما كانت القبائل القديمة من الفلسطينيين الذين توحدوا مع آخرين ضد إسرائيل.

فالأرض الموعودة هي: الأرض المحتلة.

وكان إعلان استقلال الولايات المتحدة في الرابع من يوليو (١٧٦٦م) يعد تجسيداً مسبقاً لإعلان حقوق الإنسان والمواطن في فرنسا عام (١٧٨٩م) وهو يعطي مثالاً حياً على نفاق «الحرية» بالمعنى الأمريكي للكلمة، ويكشف النص منذ سطوره الأولى على أن «كل الناس خلقوا متساوين»، وقد منحهم الخالق حقوقاً لا يجوز سلبها وهي: حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة».

وبرغم تلك «الحرية» استمر استعباد السود خلال قرن كامل، ولذا لزم قيام حرب أهلية لتضع نهاية لما كان يسمى حتى وقتها «المؤسسة الخاصة» أي العبودية، ومنذ تحررهم لم يكن لهم أي دور مأمول في المجتمع، فلم يمكن لهم مثلاً الحق في جزء من الستين قطعة من الأرض المخصصة للبيض، ومن هنا نشأ إرهاب الجمعيات السرية مثل "Kluklux Klan" «قانون السود» وقد تم استبعاد السود من الحياة السياسية، كما استبعدهم التمييز من الحياة المدنية، وقد ظل هذا التمييز قائماً برغم تضحية «مارتن لوثر كنج» حتى يومنا هذا وقد ظهر النفاق في أبهى صوره فيما يخص الهنود، فقد ظهر لأول مرة وبقوة مايتعلق بالمبدأ المحرك لكل أعمال العنف المستقبلة في الولايات المتحدة حول العالم، فقد كان العنف والمذابح بداية رد فعل دفاعي، وكان إعلان الاستقلال الذي دعا إلى مبادئ الحرية والمساواة قد وصف الهنود هكذا «هؤلاء المتوحشون معدومو الشفقة، والذين تتبع طريقتهم في الحرب مبدأ "إبادة الجميع"».

وهكذا تحدثوا عن السكان الأصليين بشكل يبرر بداية المذابح المرتكبة ضدهم وسرقة أراضيهم مما يعتبر عندهم «دفاعاً مشروعاً» وقد قلصت هذه الإبادة عددهم من (١٠ مليون إلى ٢٠٠٠٠٠) كما لو كان الهنود هم الذين احتلوا أرض المستوطنين بينما المهاجرون القادمون من أوروبا هم الذين احتلوا أرض الهنود ودمروا حياتهم.

ومنذ تلك «الخطيئة الأولى» وتلك هي سياسة الولايات المتحدة تجاه الهنود والعبيد السود وهي سياسة لم تحد عنها.

وخلال القرن التاسع عشر قال «سيمون بوليفار» أحد أبطال محاولات استقلال أمريكا

اللاتينية قائلاً : «إن الولايات المتحدة يبدو أنها تنوى قهر ، وإعاقة القارة باسم الحرية».

إن الولايات المتحدة هى منظومة من الإنتاج الذى تديره قومية واحدة تقنية وتجارية ، والذى يشارك المرء فيه كمنتج أو مستهلك ومن أجل غاية واحدة هى الإزدياد الكمى من الرفاهية ، وكل هوية شخصية وثقافية وروحية أو دينية ، إنما هى شأن خاص وفردى بشكل صارم ، ولا يمكن أن يدخل فى صلب النظام .

ومن خلال تلك التركيبات الاجتماعية ، فإن الإيمان بمعنى الحياة لا يمكن أن يعيش إلا داخل بعض التجمعات التى حافظت على هويتها وثقافتها القديمة ، أو لدى بعض الأفراد البطوليين ، ولكن بالنسبة لغالبية هذا الشعب ، فإنهم يعتبرون أن الإله قد مات ، لأن الإنسان خلفه فى الجانب المادى ، أى أن الساحة أصبحت لتعدد الملل والمعتقدات ، والهروب مع المخدرات ، أو مع الشاشة الصغيرة ،وكل ذلك على نطاق رسمى يتناسب مع كل ألوان التفرقة ، ومع كل ألوان المذابح ، بل إن ذلك التزمت يعتبر تبريراً لها .

وكان من أوائل النابهين ثاقب النظر ذلك المراقب الأمريكى «توكفيل» الذى كشف النقاب منذ عام (١٨٤٠م) فى كتابه «عن الديمقراطية فى أمريكا» عن أهمية هذه الآلية فقط من أجل الدولة الناشئة حيث قال : «لا أعرف شعباً دخل حب المال فى قلبه بشكل مُرضٍ مثل هذا الشعب» وهو «شعب عبارة عن تكتل من المغامرين والمضاربين».

إن تاريخ الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر هو أولاً تاريخ تشريد الهنود ، فمنذ (١٨٠٠ إلى ١٨٥٠م) طردت كل قبائل الهنود الحمر إلى ما وراء نهر المسيسبى فى ظروف انتقال وسكن تذكرنا بحملات التشريد الهتلرية .

وبعد سنة (١٨٤٠م) وإقامة السكك الحديدية ، جرد الهنود من آخر أراضيهم ، وحصروا فى ملاجىء ، وقد ذبحت ثيرانهم التى يتغذون عليها ، وأحرقت ملابسهم ، ودمرت الآلاف من منازلهم ، ولم تنته مقاومة الهنود المسلحة إلا بمذبحة «وندود نى» فى عام (١٨٩٠م) .

فى أمريكا - فيما عدا المواطنين الأصليين الهنود حيث نظمت العلاقات الاجتماعية بينهم ثقافة عليا (مثل الحال عند الأنكا) لكنهم أبيدو بنسبة ٨٠٪ من خلال المذبحة الكبرى ، طردوا ، همشوا ، وأخيراً تم إدخالهم إلى المفردات - فيما عدا هؤلاء فإن كل البشر الذين يعمرون الولايات المتحدة اليوم هم من المهاجرين .

أياً كانت ثقافتهم وأصلهم الأول ، فإن أكثرهم جاء أساساً بحثاً عن المال . كان لدى كل منهم دينه وثقافته ، أيرلنديون أو إيطاليون ، عبيد زنوج جُلبوا إلى أمريكا ، مكسيكيون أو

بورتوريكيون، لكن ليس هناك دين أو ثقافة مشتركة، الرابطة الوحيدة التى تجمعهم مشابهة لتلك التى تجمع الموظفين فى شركة.

الولايات المتحدة الأمريكية، هى شركة للإنتاج يجمعها بصفة أساسية هدف واحد. الربح والمال. تعتبر كل هوية شخصية، ثقافية فكرية أو دينية، شيئاً خاصاً، فردياً للغاية، لا يتداخل مع سير النظام.

انطلاقاً من مثل هذا البناء الاجتماعى، الإيمان، كمعنى للحياة، لا يمكن أن يعيش إلا داخل بعض الجماعات التى احتفظت بهوية ثقافتها القديمة، أو عند بعض الأفراد الأبطال.

عند الغالبية العظمى من هذا الشعب، مات الرب وهم لا يعلمون، لأن الإنسان استغنى عن أبعاده الربانية: السمو والبحث عن المعنى. الساحة إذاً خالية من أجل تكاثر الطوائف والخرافات، بكل أنواعها، وتظهر الدولة تسامحاً خاصاً إزاء كل ذلك.

كشف توكفيل الثاقب الفكر والمراقب الأول للولايات المتحدة عام ١٨٤٠ فى كتابه المشهور: «الديمقراطية فى أمريكا» عن الأساس لهذه الآلية: «لم تعرف شعباً يكن كل هذا الحب والولاء للمال»، شعباً هو «جماعة من المغامرين والمضاربين».

أكمل توكفيل: «يمكن لأمة ديمقراطية مماثلة للأمة الأمريكية أن تمهد الطريق للإستبداد والطغيان. سيصبح هذا الاستبداد والطغيان أكثر انتشاراً وأكثر تركيزاً (من الذى كان لأمراء أوروبا)، يحط من قيمة البشر دون أن يؤلمهم».

هذه الكلمات لمحلل خارق، تعود إلى مائة وخمسين عاماً.

أصبح الإعلام، سوقاً ضخمة، أكثر اتساعاً أيضًا من سوق الصناعة والمال، وهو ما أسماه آلان كوتا «الرأسمالية الإعلامية»، مكملاً «الثالوث المؤسس للتلاحم الاجتماعى».

أصبحت «الحقيقة» سلعة تباع وتشترى، ويتم تكييفها طبقاً للهدف المطلوب. يعتمد الإعلام من الآن فصاعداً على دعم الإعلان، الذى يتحكم فى تمويل البرامج واختيار مقدميها.

ولن نستطيع أن نفهم شيئاً من الأوضاع الفوضوية، وأحياناً من احتضار بعض مناطق العالم - مثل أفريقيا السوداء - ولا من موجات التطرف والتدمير المادى والروحى لمجتمعاتهم وثقافاتهم، وذلك إذا ما تجاهلنا خمسة قرون من الاستعمار، ترتب عليها الإخفاقات والانتفاضات وموجات الجنون التى نعانى منها اليوم.

وبالنسبة للاقتصاد العالمى الذى تقوده أمريكا والغرب فإن التبادل غير المتكافئ بين

الشمال والجنوب هو تبادل بين اقتصاديات مدمرة كلياً بفعل قرون من النهب والاستعمار، واقتصاديات مشبعة ومتخمة بما نهبته. إن حرية السوق هي حرية الأقوياء في افتراس الأكثر ضعفاً. الدليل الأكثر سطوعاً هو التدهور الدائم في التبادل التجاري.

في عام ١٩٥٤، كان يكفي لمواطن برازيلي أن يملك أربعة عشر كيساً من البن لكي يشتري سيارة جيب من الولايات المتحدة الأمريكية. وفي عام ١٩٦٢، كان يلزم نفس المواطن تسعة وثلاثون كيساً. وفي عام ١٩٦٤ كان يمكن لمواطن من جامايكا أن يشتري جراراً أمريكياً في مقابل ٦٨٠ طن سكر. وفي عام ١٩٦٨ كان يلزمه (٣٥٠٠ طن). إن الدول الفقيرة مستمرة في مساعدة الدول الثرية.

تمثل فوائد الدين في كثير من الأحيان نفس قيمة أصل الدين. وتساوي قيمة الفوائد مجمل الصادرات، مما يجعل أي «تنمية» مستحيلة.

إذن لا يعني ذلك أنها دول نامية، كما يطلقون عليها بنفاق، لكنها دول محكوم عليها بمأساة متنامية بفعل الخضوع المتنامي.

«المعونة» المزعومة لدول العالم الثالث هي أحد العوامل الأكثر فعالية لتقوية خضوع هذه الدول ولتأخرها[١]. أ. هـ.

وما أريد قوله بعد هاتين الشهادتين أننا لسنا أمام أي شكل من أشكال المسيحية يقود الغرب وإنما أمام آلية مادية براجماتية تفقد أي محتوى إنساني.

أما ما حدث ويحدث في العراق وما يحدث الآن في أفغانستان على يد الأمريكيين فإن صفحات التاريخ ستسجله بمداد خاص، بينما يطبع في ذاكرة المسلمين بحروف من نار.

---

(١) مختصر عن كتابي جارودي: أمريكا طليعة الانحطاط، وحفارو القبور.

١٠

لماذا الإسلام هو الأيديولوجية الوحيدة القادرة على الوقوف فى مواجهة الغرب

(موقف المذاهب والحضارات الأخرى)

تمهيد :

إن المهمة التي يضعها كونفوشيوس على كاهل الحكومة ، هي مهمة عملاقة ، لأنها طوباوية للغاية ، وهو يقول إن مهمة الحكومة التأكد من وجود الوفرة المادية والروحية وأن الناس يتصرفون على نحو أخلاقي ، وذلك لكي يتحقق السلام ، وإذا سلمنا بأن ذلك يعد مثلاً أعلى بديعاً فإنه يدعو للتساؤل : ألا يفتقر إلى الطابع العلمي والعملي إلى درجة كبيرة ؟

بات شائعاً في المرحلة الأخيرة (مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي) أن يردد المفكرون الغربيون أن الإسلام هو الإيديولوجية ا لوحيدة القادرة على الوقوف في مواجهة الغرب هكذا يقول هنتنجتون وفوكوياما وروبرت كابلان الخبير الأمريكي بشئون العالم الثالث وغيرهم كثيرون ولكن أحداً من هؤلاء لم يشرح لنا لماذا ذلك.

ولأن هذه المقولة مع ما نذهب إليه في نظريتنا عن إطراد استقطاب الصراع العالمي إلى طرفي النزاع الإسلام والغرب الأمريكي فإننا سنحاول هنا بإيجاز شديد للغاية لا يهدف إلا إلى التحقق مما نذهب إليه أن نبرز الأسباب التي تدعونا إلى صحة هذه المقولة.

ولا بد أن نقرر أولاً أن المنظومة الحالية للحضارة الغربية منظومة شاملة ترتكز على العلمانية البراجماتية كفلسفة وعلى الرأسمالية كاقتصاد وعلى الديمقراطية كنظام سياسي وعلى هذا فإنه يتطلب من أية منظومة أيديولوجية منافسة يراد لها الوقوف في مواجهة هذه المنظومة أن تتمتع بمثل هذا الشمول كما يجب أن تكون لها القدرة على التماسك في مواجهة القدرات الخاصة للفلسفة البراجماتية في تفكيك الأيديولوجيات وهو ما تجسد بوجه خاص في تفكيك البراجماتية للإيديولوجية الماركسية وهو الأمر الذي يفسر الانهيار السريع للاتحاد السوفيتي الذي تم غزوه براجماتياً قبل انهياره الاقتصادي والسياسي. حتى تحققت بشكل شبه كامل نبوءة وليم جيمس بدمغ فلسفته البراجماتية العالم بطابعها وإن كان ذلك احتاج إلى نحو قرن كامل وليس عشر سنين كما توقع هو.

وبتطبيق ذلك المعيار (منظومة الأيديولوجية الشاملة) على الإيديولوجيات والمذاهب القائمة نصل إلى النتائج التالية:

الهندوسية:

بالنسبة للهندوسية فهي «دين بلا عقيدة محددة أو جماعة من الأتباع تختص به أو هيئة مركزية ذات ترتيب هرمي»[1]. فالهندوسية مجموعة من التقاليد والطقوس والعادات التي تدور حول احترام آلهة متعددة وتقديم القرابين لها وهي ديانة فردية تنقسم إلى فرق شتى دون أن يكون لها منظومة اجتماعية محددة. وبحسب ما يقول جفري بارندر فإنه «لايزال طيف

(١) جفري بارندر - المعتقدات الدينية لدى الشعوب: ص١٣٥.

الهندوسية يُرى حتى اليوم فى الهند على الرغم من أن الفرق التى لم تمسها المؤثرات الحديثة عددها قليل، ومعظم هذه الفرق قد فتح مدارس، وحقق النصوص المهملة وقام بطبعها ونشرها، وأدخل الإصلاحات على نظام الكهنة، وإدارة المعابد وممارستها، وأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن الديانة وأعمال التبشير. وتقف مؤسسة «راماكرشنا» التبشيرية شاهداً وممثلاً للهندوسية الليبرالية الحديثة، ومع ذلك فماتزال توجد بجانبها نظم وفرق أقدم منها تحافظ على خصائصها التقليدية.

أما ما يكشف عنه المستقبل فذلك شيء لا يعرفه سوى نبي. وإن كان تفكك نظام الطبقات المغلقة سيغير الهندوسية تغييراً عميقاً، وبطرق لا يعلمها إلا الله وحده. وفى استطاعة المذهب الإنسانى اللا أدرى، على المدى البعيد، أن يخفض للغاية من عدد أعضائها (أى الهندوسية)، ولكن سجل تاريخها الطويل فى الماضى يقول إن فرصها فى البقاء لا تزال جيدة»[١].

البوذيـــة:

تنسب البوذية إلى جوتاما بوذا وهو أمير هندى ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد وبعد تجربة خاصة به أعلن أنه كشفت له الحقيقة الأزلية. وكان يعلن أنه يوحى له[٢]. وكلمة بوذا ليست اسماً له وإنما هى صفة تعنى (الشخص الذى حضر) أى أقرب إلى صفة النبى وقد أعلن جوتاما أنه ليس إلا مجرد واحد من بوذات متتالية.

ويذهب المؤرخون وعلماء العقائد على أن الحقائق الأساسية لفكر بوذا قد تعرضت للكثير من الانحراف ولكن ما يهمنا هنا هو البحث عن المنظومة الإيديولوجية لهذه الديانة هل هى منظومة فردية أم اجتماعية شاملة يقول جون كولر عن الرسالة الأساسية للبوذية:

«تتمثل هذه الرسالة، فى أبسط صورة، فى الحقائق الأربع النبيلة، والطريق النبيل ذى الشعاب الثمانى. وهذه الحقائق هى:

١- هناك معاناة.

٢- للمعاناة أسبابها.

---

(١) المرجع السابق: ص١٩٧.

(٢) ناقشنا فى كتابنا (حقيقة العلمانية) إمكانية احتمال كون بوذا وزرادشت وكونفوشيوس وسقراط أنبياء حُرفت رسالتهم.

٣- المعاناة يمكن القضاء عليها من خلال التخلص من أسبابها.

٤- السبيل إلى القضاء على أسباب المعاناة هو اتباع الطريق الوسط الذى يشكله الطريق ذو الشعاب الثمانى.

وتشكل هذه التعاليم أولى عظات بوذا، بعد استنارته، والتى ألقاها فى حديقة الغزلان فى بنارس Benares. وقد كانت تعاليم الطريق الأوسط: «هى التى تفضى إلى البصيرة، وهى التى تفضى إلى الحكمة، وهى التى توصل إلى الهدوء، وإلى المعرفة، وإلى الاستنارة الكاملة، وإلى النيبانا (النرفانا)».

وفيما يتعلق بالحقيقة النبيلة الأولى، فقد علمها جوتاما على النحو الآتى:

«تلك، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة للمعاناة، فالميلاد معاناة والملل معاناة، والمرض معاناة، والموت معاناة، ووجود الأشياء التى نكرهها معاناة، والانفصال عن الأشياء التى نحبها معاناة، وعدم الحصول على ما نرغب فيه معاناة. وباختصار، فإن المجموعات الخمس التى تنبع من التملك مؤلمة».

ويقول جوتاما مفسراً الحقيقة النبيلة الثانية إن المعاناة:

«تضرب جذورها فى تلك الرغبة الملحة Craving (أو الشهوة) التى تسبب تجدد الصيرورة أو الميلاد من جديد، وتصحبها اللذة الحسية، وتسعى إلى الإشباع فى التو واللحظة (هنا والآن) أى التوق إلى الملذات، التوق إلى الصيرورة، التوق إلى اللاصيرورة».

وفى تناوله للحقيقة الثالثة، أوضحها على التالى:

«هذه، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة الثالثة المتعلقة بتوقف المعاناة، إنها حقاً، التجرد من الانفعال، التوقف دونما أثر لهذا التوق ذاته، تنمية هذه الرغبة الملحة، والتخلى عنها، والتحرر منها، وعدم التعلق بها».

فإذا وصلنا إلى الحقيقة النبيلة الرابعة التى تتعلق بالطريق المفضى إلى وقف المعاناة نجده يقول:

«إنها الطريق ذو الشعاب الثمانى، أعنى أنها سلامة الرأى، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ما نُعنى به، وسلامة التركيز..»[١].

والخصائص الأساسية للثقافة البوذية هى: التأكيد على الكرامة الإنسانية - موقف اللاتعلق

---

(١) الفكر الشرقى القديم: ص١٩١، ١٩٢.

- التسامح - روح الشفقة واللاعنف - الميل إلى التأمل - الممارسة والتوجيه العملى.

وتؤدى الممارسة فى مجال التأمل إلى موقف يبدو للمراقب عملياً واقعياً للغاية ولا شك أن ذلك يرجع على الأقل فى بعض جوانبه إلى قدرة البوذيين على أن ينغمسوا فى نشاط اللحظة الراهنة. وعندما يكون المرء فى سلام مع نفسه ولا تتجاذبه ألف رغبة، ولا يعذبه عشرة آلاف شك، فإن من الممكن أن ينغمس بحرية وبصورة كاملة فى الأنشطة المطروحة أمامه، فعلى سبيل المثال لا ينظر البوذى، عادة إلى تناول الطعام والعمل، واللهو، على أنها أنشطة يتعين القيام بها للتفرغ «لشئون الحياة الحقيقية». وإنما تعد هذه الأنشطة خلاصة الحياة ذاتها وصميمها، وبالتالى فإنه ينظر إليها باعتبارها مهمة، ويتم الاشتراك فيها بإقبال تام، وتشغل انتباه الشخص بكامله. ومع ذلك فإن الناس لا يتشبثون بهذه الأنشطة، ولا يغمرهم الحزن والكرب، عندما لا يوجد ما يكفى من الطعام، أو حينما يكون العقل شاقاً[1].

ليس هذا فقط بل أن العضو البوذى من الممكن أن يتخلى عن الحالة البوذية فى أى وقت فكما يقول جفرى بارندر:

«هناك فارق هام بين «السنغا» البوذية والأنظمة الدينية فى الغرب وهو أن العضوية فى حالة البوذية يمكن أن تستمر أو لا تستمر طوال حياة الرجل أو المرأة فإذا ما شعر العضو «أو البهيخو» فى أى وقت أنه لم يعد قادراً على الاستمرار فى النظام. وأن عليه أن يعود إلى الحياة العادية، فهو حر فى أن يفعل ذلك، بعد أن يُبدى رغبته إلى رئيس الدير». وليس من غير المألوف فى بعض بلدان جنوب شرق آسيا أن يصبح الشخص عضواً فى جماعة «السنغا» لمدة محدودة فحسب. ويُنظر إل ذلك على أنه أمر جدير بالتقدير كما أنه نافع ومفيد. فإذا استطاع العضو البقاء فى «السنغا» طوال حياته كان ذلك أفضل. وكثير من البوذيين يفعلون ذلك بطبيعة الحال، فيصبحون محترمين لهم تقدير خاص فى المركب الاجتماعى الدينى فى المجتمع البوذى فى آسيا»[2].

ويكون السؤال الآن هل هناك التزامات اجتماعية معينة تفرضها البوذية؟.

يجيب ول ديورانت عن ذلك فيقول:

«هناك التزامات اجتماعية وأخلاقية معينة ومعترف بها - بالإضافة إلى المبادئ الأخلاقية الموجهة لعامة الشعب التى سبق أن ذكرناها - وصفها بوذا فى أحد أحاديثه المعروفة باسم السيجالوفادا سوتا Sigoalovada Sutta، وهو حديث يشرح واجبات الأبناء نحو آبائهم،

(١) راجع جون كولر - الفكر الشرقى القديم: ص٣٢٢.

(٢) المعتقدات الدينية لدى الشعوب: ص٢٣٢.

والآباء نحو أبنائهم، والتلاميذ نحو معلميهم، والمعلمين نحو تلاميذهم، والأزواج نحو زوجاتهم، والزوجات نحو أزواجهن، والخدم نحو مستخدميهم، والمستخدمين نحو خدمهم، وأخيراً واجبات عامة ا لناس نحو معلميهم الدينيين، أعنى الرهبان، وواجبات الرهبان نحو عامة الشعب»(١).

ويتضح مما سبق أن هذه الالتزامات الاجتماعية إما أن تكون التزامات فردية أخلاقية أو التزامات دينية جماعية لا تتوافر فيها المنظومة الاجتماعية الشاملة أى التى تتوجه إلى المجتمع من أجل صناعة نظام اجتماعى متكامل يجمع بين قواعد الدنيا والدين. ومن ثم فإن البوذية ديانة لا تستعصى كثيراً عن المزاوجة بينها وبين الأيديولوجيات الأخرى.

الكونفوشيوسية

ولد كونفوشيوس بالصين فى القرن السادس قبل الميلاد أى فى نفس العصر الذى ولد فيه بوذا وبحسب ما بأيدينا من تعاليم له (فمثله مثل بوذا يجمع المؤرخون وعلماء الأديان على تحريف تعاليمه) فإنه دعا الناس إلى فلسفة إنسانية وربما لم يخطر بباله ذات يوم أنه سيتم تقديسه كإله وما كان أبداً ليوافق على ذلك فقد كان معلماً جوالاً أقصى ما يطمح إليه أن يجد فى عقول الناس من ينفذ تعاليمه حتى استطاع أن يصل إلى العائلة المالكة عن طريق بعض تلاميذه.

وترتكز فلسفة كونفوشيوس على مبادئ أساسية هى:

* **جين**: حيث «يرغب كل إنسان فى الثروة والشرف، ولكنهما إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغى الإبقاء عليهما. ويكره كل إنسان الفقر و تواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما، وإذا ما نأى شخص رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أن يحقق تلك المكانة؟ ذلك أن الإنسان الرفيع المكانة لا يمكنه قط التخلى عن الإنسانية (الجين) حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة، فهو فى لحظات التعجل وهو مسرع يعمل وفقاً لها، وهو فى أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقاً لها»(٢).

* **لى Li**: على الرغم من أن (الجين) هى أساس الإنسانية، وبالتالى الدليل المطلق للفعل الإنسانى، فقد أدرك كونفوشيوس أن الحاجة ماسة فى الحياة اليومية إلى أدلة مبشرة أكثر وأشد تعيناً. وقد وجد هذه الأدلة المتعينة فى قواعد اللياقة أو آداب المجتمع (لى Li) التى

---

(١) قصة الحضارة: مج٣ ج١ ص٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) جون كولر - الفكر الشرقى القديم.

تحكم العادات والمراسم والعلاقات التي تم الاعتراف بها من خلال ممارسة الناس لها عبر العصور. ويعكس أفضل هذه الممارسات التجسيد المتعين لـ «الجين» وتجسيدها في الماضي، وبالتالي فهي تشكل دليلاً لتحقيق «الجين» في الحاضر، وهذا هو السبب في أنه عندما سأل ين يوان عن «الجين» قال كونفوشيوس: «أن يسيطر المرء على نفسه وأن يعود إلى آداب المجتمع (لي) تلك هي الإنسانية (جين)».

* **الهسياو**: (الهسياو) هو فضيلة توقير العائلة واحترامها.

* **يي**: الفضيلة الأخرى التي شدد عليها كونفوشيوس باعتبارها ضرورية لتطوير جين هي «يي Yi» التي تترجم عادة على أنها «الاستقامة Righteousnoss». وقد قال كونفوشيوس: «ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة «يي Yi» باعتبارها جوهر كل شيء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع (لي Li)، ويبرزها في تواضع، ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص إنه حقاً الرجل الأسمى!».

وعلى الرغم من تناول كونفوشيوس لموضوع الحكومة السياسية إلا أنه كان يعوِّل في ذلك على التزام الحكومة بالفضيلة الأخلاقية وبحسب ما يذهب كونفوشيوس.

«فإن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على استعمال من يصلح له من الناس، وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاءالناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه صالحة.

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله في جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة؟ إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتّهم عن غلاّت غيرهم، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات، ثم يقللون من ترف بطانة الملوك ويعملون على توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته» ثم يخففون العقاب وينشرون التعليم العام لأن «التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات»[١].

ومن هنا يتعين إدراك أن المهمة التي يضعها كونفوشيوس على كاهل الحكومة، هي مهمة عملاقة، لأنها طوباوية للغاية، وهو يقول إن مهمة الحكومة التأكد من وجود الوفرة المادية والروحية وأن الناس يتصرفون على نحو أخلاقي، وذلك لكي يتحقق السلام، وإذا سلمنا بأن ذلك يعد مثلاً أعلى بديعاً فإنه يدعو للتساؤل: ألا يفتقر إلى الطابع العلمي والعملي إلى درجة

---

(١) ول ديورانت قصة الحضارة: مج٣ ج٢ ص٦٢.

كبيرة؟ ففى نهاية المطاف كيف يمكن للحكومة أن تعنى بكل الاحتياجات المادية لكل فرد ناهيك عن احتياجاته الروحية أليست الأخلاق أمراً متعلقاً بالفرد وليس بالحكومة المحلية؟.

وكما يقول جون كولر:

«قد تبدو فكرة الحكم عن طريق الفضيلة، أو الخير، وليس عن طريق القانون بالغة الغرابة بالنسبة للأذن الغربية، ولكن الحكم عن طريق الفضيلة هو على وجه الدقة ما كان كونفوشيوس يأمل فى تحقيقه، وقبل وضع هذه اليوتوبيا موضع التساؤل، يتعين القيام بتمحيص العلاقات المختلفة بين الفضائل المتجسدة فى «جين»»(١).

وكانت فى البلاد طائفة أخرى هى طائفة «القانونيين» استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كنفوشيوس فى عالم السياسة، وأن تسير الدولة حسب مبادئها هى فى بعض الأحيان.

ورأت هذه الطائفة «أن نظام الحكم على المثل الذى يضربه الحاكمون، وعلى الصلاح الذى تنطوى عليه قلوب المحكومين، يُعرّض الدولة لأشد الأخطار، إذ ليس فى التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التى تسترشد فى أعمالها بهذه المبادئ المثالية وهم يقولون: إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام، وإن الناس يجب أن يرغموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم»(٢).

وهكذا يتضح أن التعاليم السياسية الكونفوشيوسية هى تعاليم أخلاقية طوباوية أثارت القانونيين فى عصر كونفوشيوس نفسه لعدم عمليتها ومن ثم فإن الكونفوشيوسية ليست بالمنظومة الأيديولوجية الشاملة التى لا تقبل المزاوجة أو التوفيق بينها وبين الإيديولوجيات الأخرى.

الخلاصة

ونستطيع بذلك أن نقول أن تلك المنظومة الإيديولوجية الشاملة لم تتوافر فى المذاهب القائمة بعصرنا الراهن إلا فى ثلاثة مذاهب: الماركسية واليهودية والإسلام.

بيد أن الماركسية قد سقطت واليهودية ديانة ترتبط بجنس من الشعوب وليست مذهبًا عالميّا كما أنها لا تنفى هويتها عمن لا يطبقون نظامها. فلم يبق إذن غير الإسلام ذلك الدين العالمى الذى يملك منظومة أيديولوجية شاملة لا تقبل التوفيق أوالمزاوجة مع غيرها من المذاهب كما لا تقبل أيضًا المساومة أو الرضوخ.

---

(١) الفكر الشرقى القديم: ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) نقلاً عن ول ديورانت، قصة الحضارة: مج٣ ج٢ ص٦٥.

١١

تطور الحركة الإسلامية
من الأفغاني إلى الواقع المعاصر

تمهيد :

وبعد مواقف الإخوان تجاه الأحداث الأخيرة والتى سوف نناقشها فى موضع آخر يبدو أن تراوح ردود فعل الإخوان تجاه متطلبات القوى الخارجية بين اللا والنعم يمضى إلى منحنى كمى تحكمه آلية معينة هى مدى تحمل التنظيم للمخاطر. ومن ثم فإنه يمكن بمزيد من الضغوط تحويل الـلا إلى نعم حيث إنه قد حدث قدر كبير من التذويب السياسى للعوائق العقائدية التى تحول بين الـلا والـنعم.

فى الكتب الأربعة الأخيرة التى أصدرتها القيادات التاريخية للجماعة الإسلامية تحت عنوان (تصحيح المفاهيم) وجدنا تراجعًا عن مثل هذه القضايا واعترافًا بما ارتكب فيها من أخطاء فادحة ولكن أهم ما استرعى انتباهنا فيما جاء فى هذه المراجعات هو إدراك هذه القيادات لأولوية التجديد الفكرى والتعمق فى فقه الواقع ومواجهة الخطر العلمانى فحمدنا الله على اتفاق قيادات تيارات كبيرة كهذه مع ما ندعو إليه منذ سنوات طويلة .

الحركة الإسلامية من خلال مسيرة الإخوان

الإمام حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين

أسس الإمام حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ كامتداد للأفغانى ومصطفى كامل ورشيد رضا ورداً على قضاء الغربيين على الخلافة العثمانية ويمثل فكر الإمام حسن البنا بل والواقع الذى صنعه طفرة كبيرة بالنسبة لسابقيه وأبسط ما يقال عنه من هذا المنظور أنه وضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لوجهة نظر الإسلام فى كل القضايا السياسية والفكرية المطروحة ولم يقبل الإمام الحديث إلا عن الإسلام فقط دون أية أيديولوجيات أخرى واستطاع أن يصنع الأصول الأيديولوجية السياسية والفكرية للإسلام فى العصر الحديث، ولا يعيبه فى ذلك ما يشوب بعضها من قصور وارتجال قياساً لظروف عصره وعمره الفكرى.

ومما لا شك فيه أن النضج الفكرى المبكر لدى الإمام حسن البنا يثير الحيرة عند الباحثين، فهو لم يقع فى مثل ما وقع فيه أسلافه من زلات ولم يأخذه مثل ما أخذهم من حيرة وتردد أمام الحضارة الغربية الزاحفة، والغريب أنه يروج بين كتابات الإخوان أنفسهم ذلك القول الذى يدعى أن الإمام حسن البنا ربما كان هناك بين الإخوان من هو أعمق منه فكراً أو أثقل فقهاً أو أمهر سياسة أو أشد بلاغة أو، أو.. إلخ ولكن لم يكن هناك بينهم من يجمع بين ذلك جميعاً سوى حسن البنا.

فهذا القول خاطأ تماماً فى بعدين على الأقل هما البعد الفكرى والبعد السياسى فما نراه أنه كانت هناك مسافات كبيرة بين حسن البنا ومن يلونه فى الجماعة بالنسبة لهذين البعدين، ومع ذلك فالمحدودية الكمية لكتابات البنا جعلت الجماعة تعتمد فى نشاطها الفكرى على كتابات الإمام المودودى ولكن تحت إشراف البنا.

من ناحية أخرى فقد كان البنا خلافاً لسابقيه زعيماً شعبياً لا يبارى استطاع أن يغزو المدن والقرى والنجوع بالإسلام العملى الجماعى، ولم يكتف بمجرد الاجتهاد فى طرح الإسلام السياسى والفكرى المعاصر مثلما فعل سابقوه. وكأنه كان يرى أهدافه أمامه فى وضوح شديد فيتجه إليها كالسهم دون أن يعرج شمالاً أو يميناً.

ثم جاء تلامذته من بعده فأقاموا فوق هذه الأصول الأبنية الفكرية المتكاملة لرؤية الإسلام السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى العصر الحديث. ولم يعد الإسلاميون فى حيرة حول موقف الإسلام مما يطرحه الصراع المتطاحن بين الحضارة العربية والعالم الإسلامى من قضايا معاصرة.

ولأن الإمام حسن البنا كان يبذل من الجهد ما ينوء به العصبة أولو القوة من الرجال فى سبيل نشر دعوته الإسلامية فقد استطاع الإخوان المسلمون بالتعاون مع الأزهريين أن يقيموا سداً منيعًا فى مواجهة الهجمات العلمانية الشرسة على الإسلام وبرز منهم من المفكرين الأستاذ سيد قطب والشيخ محمد الغزالى والشيخ القرضاوى والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى وكثيرون آخرون.

فكر الإمام المودودى

المرجع الأعلى للحركات الإسلامية فى العالم

يعد الإمام المودودى مؤسس الجماعة الإسلامية الباكستانية هو المرجع الأعلى للحركات الإسلامية فى العالم وربما يكون هو المفكر الوحيد الذى تستند إليه اتجاهاتها الرئيسية الثلاثة: الجهاد والإخوان والسلفيون على تفاوت بينها تختلف درجاته مع اختلاف مراحلها التاريخية.

وقضية القضايا لدى الإمام المودودى (١٩٠٣ : ١٩٧٩) والمدخل الأساسى لكل فكره هى شمولية الإسلام، وعدم قبوله التجزؤ، والمودودى منذ اللحظة الأولى يصدمك فكريًا بكل قوة ويقول لك: انتبه ليس الإسلام هو تلك الصورة الجزئية، التى يصورها لك الواقع الاجتماعى الذى تعيشه، والتى تتعلق بإقامة بعض الشعائر، وتحريم بعض الكبائر، وإنما الإسلام هو كل شىء، هو أن تسلم حياتك بالكامل لما يريدك الله أن تكون عليه، وليس حياتك فقط بشكل شخصى، وإنما يجب أن يكون الإسلام بكل تصوراته ومفاهيمه وقيمه وأحكامه مهيمنًا على المجتمع بالكامل، فهذا هو الإسلام، أما تجزؤ ذلك فليس إسلامًا.

يقول المودودى[١]: «إن صورة الحياة صورة متشابكة متكاملة، ولها طبيعة لا يمكنها البقاء إلا وهى متكاملة الأجزاء والفروع. كأن وحدتها كوحدة الجسد الإنسانى، لأن الشىء الذى تعرفونه بالإنسان إنما هو جسد الإنسان الكامل، لا أعضاء هذا الجسد المبعثرة المتفرقة، ولا تقولوا لرجْلٍ مقطوعة من جسد الإنسان إنها ثُمن الإنسان أو سدسه مثلا.

كما أنه ليس لهذه الرجْل أن تؤدى خدمة من الخدمات التى تؤديها، وهى عضو مرتبط بجسد الإنسان المتكامل، كذلك ليس لكم أن تربطوا هذه الرجل المقطوعة بجسد حيوان آخر. وترجون أن تحدث فيه الإنسانية على قدر حجمها، فهكذا الإسلام إنما هو عبارة عن الصورة المتكاملة المتشابكة التى تقررها الشريعة للحياة الإنسانية، وما هو بعبارة عن أجزائها وفروعها المختلفة، فلا يصح أن تقطعوا أجزاءها، وتجعلوا كل جزء منها مستقلاً عن غيره، ثم تحكموا عليه بشىء وتروا فيه رأيًا، كما أنه ليس لكم أن تقولوا إذا أقمتم بعض أجزائه إنكم

---

(١) القانون الإسلامى وطرق تنفيذه.

قد أقمتم نصف الإسلام أو ربعه أو سدسه، ولا أن تحسبوا إذا ربطتم جزءاً أو بعض أجزاء منه فى نظام آخر للحياة أنكم قد أدخلتم فيه الإسلام بقدر هذا الجزء أو هذه الأجزاء.

إن الشارع إنما شرع لكم هذا الدين ورسم لكم صورته لتقيموها كاملة متعانقة، لم يرسمها لتأخذوا أى جزء أعجبكم من أجزائها وتقيموه حيث أردتم، سواء كانت معه بقية أجزائها أم لم يكن».

واستلزاماً للدقة (لخطورة هذه الأفكار) نقول: إن المقصود من هذا يعنى وجوب استسلامنا، ورضانا بنظام الإسلام كاملاً، بكل قواعده، ولكن تجب التفرقة بين رفضنا لقاعدة من هذه القواعد ومخالفتنا لها رغم رضانا بها، ففى الحالة الأولى يكون إسلامنا لا معنى له، لأن الإسلام لا يقبل التجزؤ، أما المخالفة مع الرضا فإن ذلك يتعلق بالعصيان، وهو أمر طبيعى من خصائص الإنسان.

ويقول المودودى: هل تسكت الدنيا إذا علمت أن النداء الحقيقى الذى يقوله المؤذن فى الأذان هو: أن لا ملك إلا الله ولا حاكم إلا الله ولا أطيع أمراً غير أمره؟

ولا أتقيد بشىء من العادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة.. ولا أسلم شيئاً من الامتيازات الخاصة، ولا أدين لسيادة أو قداسة ولا أستخزى لسلطة مؤمن بالله مسلم له كافر بالطواغيت والآلهة الكاذبة من دونه.

هل تسمع الدنيا وأهلها هذا النداء فتسكت عليه؟ لا. لا والله إنها تنقلب عليك عدواً وتتنكر وجوه أهلها لك ويعلنون الحرب عليك بمجرد سماع هذه الكلمة سواء أردت القتال أم لم ترد»[١].

فإذا كنت تعيش فى ظل هذا المجتمع الذى يسوق صراع الدوافع المادية أفراده كالشياه إلى الذبح أو حتى إلى الكلأ الوفير، فإن المودودى يأخذك من يدك ويقول لك لكى تكون مسلماً حقيقياً لابد أن تكون غايتك فى هذا الوجود هى تحقيق رضا الله ولابد أن تكون عقيدتك هى منطلقك لكل تصوراتك فى الوجود ولابد أن يكون معيارك الوحيد لتحديد الصح والخطأ فى كل سلوك تفعله هو تعاليم الله وأوامره ونواهيه «فجوهر الأسلام هو: أن تطوع ذهنك وفق مبادئ الإسلام ويصبح أسلوب تفكيرك هو أسلوب القرآن فى التفكير وتصير نظرتك إلى الحياة وأمورها هى نظرة القرآن لها وترى الأشياء بالمعيار الذى اختاره القرآن وأقره وأن تتخلى عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقاً تحدد اختياره بما تلقاه من قوانين القرآن والسنة المحمدية وأن توحد مشاعرك ومشاعر القرآن»[٢].

---

(١) الانقلاب الإسلامى.

(٢) الحكومة الإسلامية.

ماذا يقصد المودودى بجاهلية المجتمعات المعاصرة؟!

هل يستطيع أحد أن ينكر أننا نعيش فى حالة من انهيار القيم حيث تصير المصالح المادية هى معيار الحقائق والضابط الأساسى الموجه للسلوك . بعد أن أصبحت الفلسفة البراجماتية (النفعية) الغازية هى الفلسفة السائدة في المجتمع؟.. كل شيء يباع وكل شيء ينتهك، والغاية الوحيدة التى تخنع لها الرءوس وتذل لها النفوس هو المال. المال الذى أضحى الإله الوحيد الذى تقدم له القرابين ويدان له بالولاء. ولم يعد هناك غير قانون واحد يحكم الجميع هو قانون الغابة!.

بماذا يسمى المفكرون - من الإسلاميين أو غير الإسلاميين - هذا الوضع؟ إنهم يسمونه عصر انتصار المادية وسحق إنسانية الإنسان. حيث يجبر الإنسان تحت ضغط الظروف الاقتصادية من ناحية وضغط الإلحاح الإعلامى العلمانى (ذى القيم النفعية الموجهة) الذى يعمل بلا نهاية على ابتعاث أشد الرغبات المادية شراً، ومن ناحية أخرى على أن يتخلى الإنسان عن المقومات الحقيقية لكينونته. ويتحول الإنسان إلى مادة مصمتة ومفرغة من كل ما هو روحى ويلحق بالآليات الموجهة من قبل الحضارة الغربية إلى حيث لا يعرف أحد ولا حتى موجهو هذه الحضارة أنفسهم.

هل من الممكن أن يسمى هذا النظام الحضارى إسلامياً؟!.

بالتأكيد لا. فالكل يتفق على أن هذا النظام الحضارى الغالب على مجتمعاتنا الإسلامية ليس إسلاميًا، وليس إسلاميًا هذه ترادف فى الفكر الإسلامى أنه جاهلى وهو الأمر الذى ذهب إليه الإمام المودودى فكل الذى قاله الرجل أن هذه الأنظمة الحضارية الغربية التى غزت مجتمعاتنا الإسلامية سواء فى التصورات أو المفاهيم أو القيم أو القوانين، جاهلية وغير إسلامية. والرجل مع ذلك ظل حتى آخر يوم فى حياته يسمى مجتمعاتنا بالإسلامية ودولها بالإسلامية وشعوبها بالمسلمين، بل إن مصطلح جاهلية نفسه - بعكس ما هو مشاع - لم يكن يتردد كثيراً فى كتبه، والذى كان يتردد أكثر أنها أنظمة حضارية غير إسلامية.

يقول الإمام المودودى[1]: «أهل الغرب وإن لم يكونوا كلهم منكرين لوجود الله تعالى واليوم الآخر أو قائلين بالأخلاق المادية البحتة من الوجهة العلمية، إلا أن الحق أن الروح التى تتمشى فى نظام حضارتهم ومدنيتهم بأسره هى روح الجحود لذات الله تعالى والإنكار لليوم

---

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه.

الآخر وروح الأخلاق المادية الخسيسة. وقد بلغ من تغلغل هذه الروح فى حياتهم أنك تجد الذين يؤمنون منهم بوجود الله تعالى واليوم الآخر من الوجهة العلمية ويعتقدون فى الأخلاق نظرية غير مادية تجدهم فى حياتهم الواقعية دهريين ماديين من حيث لا يشعرون، لأنه ليس هناك من سبب يصل، نظريتهم العلمية بحياتهم العلمية فعلا».

ويقول فى موضع آخر[1]: «لقد أصبح عصرنا ـ بهيمنة الحضارة الغربية ـ عصر الجاهلية الجديد، المتحضر. فلقد فرضت ألوهية البشر على البشر وقطعت علاقة الإنسان بالإنسان وأصبح الناس كالسباع الضارية يأكل بعضها بعضًا.. لقد غدونا فى زمان تحيط فيه الأفكار والتصورات الجاهلية بالحقائق الإسلامية من كل جانب فى زمان أصبح الإسلام فيه غريبًا فى كل شيء، (الأمة الإسلامية وقضية القومية).

المودودى لا يكفر المسلمين على الإطلاق لا أفرادًا ولا مجتمعات

قلت إن وصم المجتمعات المعاصرة التى تغلب عليها صبغة الحضارة الغربية المادية بالجاهلية أمر لا غرابة فيه، وهو أمر مأخوذ من نص الآية **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾** (المائدة ٥٠). وأضيف هنا أن وصف الجاهلية يعنى أنها مجتمعات لا تصطبغ بالصبغةالإسلامية وإنما بروح حضارية ليست معادية لله فقط وإنما للإنسان أيضًا دون أن يعنى ذلك تكفيراً للمسلمين المنتمين إليها لا كأفراد أو كمجتمعات أو دول.

ولا أعتقد أن وصف الجاهلية بهذا المعنى من الممكن أن يعترض عليه أى مفكر موضوعى سواء كان أكاديميًّا أو غير أكاديمى.

وقبل أن أدلل على أن المودودى لم يعن مطلقًا كفر هذه المجتمعات أحب أن أشير إلى مسألة أساسية وهى أن المعيار فى كل هذه المجتمعات جاهلية أو غير جاهلية هو السمة الغالبة للتصورات والمفاهيم والقيم والقوانين المسيطرة عليها لأنه من غير المعقول أن يوصف مجتمع من المجتمعات بالجاهلية لأنه يطبق بعض المفاهيم الجاهلية فى بعض مناحى الحياة لأنه لو كان الأمر كذلك لما خلا مجتمع من المجتمعات الإسلامية من هذه الصفة على امتداد التاريخ الإسلامى إلا ـ بالكاد ـ فى عصره الأول.

وعلى الرغم من ذهاب الدكتور محمد عمارة فى كتابه (المودودى والصحوة الإسلامية) إلى الأخذ بنفس هذا المعيار إلا أنه اعتبره غير متحقق فى المجتمعات المعاصرة، مع أنه هو نفسه على طول صفحات الكتاب بل وكتبه الأخرى يهاجم ذلك الاستعمار الحضارى الغربى المادى

---

(١) الأمة الإسلامية وقضية القومية.

الذى استطاع غزو مجتمعاتنا وبات الموجه الأساسى لها. كما أن التحقيق العلمى يوجب علينا أن نقرر أن الإمام المودودى نفسه ـ من خلال احتكامنا لهذا المعيار ـ قد تجاوز الحد فى اتهام مجتمعاتنا بالجاهلية عند سحبه هذه الصفة على فترات طويلة من تاريخنا الإسلامى.

ودليلنا على كون المودودى لم يكفر مطلقًا المجتمعات الإسلامية على الرغم من وصفها بالجاهلية أنه لم يقل عنها فى أى يوم من الأيام إنها مجتمعات كافرة، ولم يسم أهلها مطلقًا بغير المسلمين مهما كان انتقاده لتوجهاتهم الجاهلية.

أما مسألة عدم تكفيره للمسلم كفرد وتشديده عليها فله فى ذلك كلام طويل سننقل هنا بعضًا منه.

يقول الإمام المودودى: «تجب ملاحظة قضية تكفير المسلم والاحتياط فى هذه المسألة احتياطا كاملاً، احتياطًا يتساوى مع الاحتياط فى إصدار فتوى بقتل شخص ما، وعلينا أن نلاحظ أن فى قلب كل مسلم يؤمن بالتوحيد«لا إله إلا الله» إيمانًا فإذا صدرت عنه شائبة من شوائب الكفر فيجب أن نحسن الظن ونعتبرهذا مجرد جهل منه وعدم فهم وأنه لا يقصد بهذا التحول عن الإيمان إلى الكفر.. لأنه لا يجب أن نصدر ضده فتوى بالكفر فور أن نستمع لقوله، بل يجب أن نفهمه بطريقة طيبة ونشرح له ما أشكل عليه ونبين له الصواب من الخطأ، وإذا أصر على ما هو عليه ولم يتقبل ما عرض عليه.

بعدها نلجأ إلى كتاب الله فنوضح له خطأ ما أصر عليه فى ضوء كتاب الله ونبين له النصوص الصريحة بين الكفر والإيمان.. وهل هناك مجال لتأويل ما يصر عليه أم لا؟! فإذا كان هذا لم يخالف مخالفة صريحة النصوص الواضحة فلا يجب أن نتهمه بالكفر ويمكن أن نعتبر هذا الشخص من الضالين.. ولكن إذا كان ما يصر عليه يخالف النص صراحة ويخالف تعاليم كتاب الله، ورغم كل هذا يصر على قوله أو فعله، مع عدم وجود أى مجال لتأويل رأيه أو فعله. حينها يمكن إصدار الحكم بالفسق أو الكفر وذلك لأن القضية هنا أصبحت واضحة ولها نوعية خاصة تستلزم إصدار هذا الحكم»[1].

المودودى وحسن البنا:

إننا نستطيع أن نؤكد اتفاق المواقف الفكرية لكل من الإمامين البنا والمودودى من حيث الأسس والأصول أما ما يعزوه البعض اختلافًا بينهما فى بعض الأفكار فهو يرجع فى الأساس إلى الطبيعة الشخصية لكل من الإمامين وطبيعة الظروف الخاصة لواقع دعوتيهما، كما أن

---

(١) التفهيمات.

امتداد العمر بالإمام المودودى كان ذخيرة له تمكن من خلالها من التعرض للعديد من مسائل الفكر الإسلامي مما يسر للحركة الإسلامية أن تجد فى فكره مرجعاً أساسياً للكثير من المسائل والمواقف الفكرية التى تتعرض لها.

المودودى وسيد قطب:

أما مشكلة المشاكل فعلاً فهى العلاقة بين فكر الإمام المودودى وفكر الأستاذ سيد قطب ووضع الأخير فى الإطار المرجعى للحركة الإسلامية.

ومن وجهة نظرنا فإن الأستاذ سيد قطب وإن كان قد استمد الكثير من أفكاره من الإمام المودودى إلى الدرجة التي يمكن معها القول بأن الأستاذ قطب وجد مرجعيته الفكرية فى الإمام المودودى بوجه خاص إلا أن هناك فروقاً خطيرة بين فكر الاثنين:

أولاً: موقع الاثنين من الحركة الإسلامية:

كان الإمام المودودى يقوم ببناء واحدة من أهم الحركات الإسلامية فى العالم وهى الجماعة الإسلامية بباكستان كما يقوم بوضع البناء النظرى للأصول الفكرية التى يقوم عليها الإسلام المعاصر.

أما الأستاذ سيد قطب فإنه كان يعمل داخل حركة قام ببنائها غيره (نقصد طبعاً الإمام البنا) وكانت هذه الحركة تمر بمرحلة غاية فى الارتباك تعرضت فيها لسيل من الابتلاءات ما بين قتل وسجن وتعذيب لأبنائها وتشتيت لهم على أيدى زبانية العهد الناصرى ولهذا فقد كان موقف الأستاذ سيد قطب أقرب إلى القائد المقاتل منه إلى رجل الدولة الإسلامية المعاصرة الذى يضع الأطر النظرية لبنائها، ومما يلفت الانتباه أن هذا التباين فى المواقع يتصاحب معه ويرتبط به تباين آخر فى موقف فكرى أساسى يستتبعه نتائج خطيرة فى التوجهات العملية لكل من الرجلين.. هذا الموقف يتعلق بأهمية تحديد الأطر النظرية للدولة الإسلامية لدى الداعين لهذه الدولة.

فبينما يذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن:

«الذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب نظام وأن يصوغ تشريعات للحياة بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها ورفض كل شريعة سواها، مع تملكه للسلطة التى تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام هذا لا يدركون طبيعة هذا الدين ولا كيف يعمل فى الحياة.. كما يريد له الله..

وحين يقوم هذا المجتمع فإنه سيعمل هو نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية، في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي.. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد.

يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معًا في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي تجب أن تتمثل في واقع نام حي متحرك وفي تجمع عضوى حركي.. تحويلها عن طبيعتها هذه إلى «نظرية» للدراسة والمعرفة الثقافية، أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ«نظرية إسلامية»..

وكل نمو نظرى يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله ذلك فهو خطأ وخطر بالقياس إلى طبيعة هذا الدين وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي»[١].

فأين هذا الموقف مما يقوله الإمام المودودى[٢] في نفس الموضوع:

«إنني على مثل اليقين في نفسي من أنه لو خول المسلمون اليوم أن يؤسسوا دولة لهم في بقعة من بقاع الأرض لما استطاعوا أن يقوموا بإدارة شؤونها وتسيير دفتها وفق المبادئ الإسلامية ولا ليوم واحد فإنكم معشر المسلمين لم تعدوا المعدات اللازمة ولاهيأتم العوامل الكافية لتنشئة رجالكم وشبابكم على الطراز المخصوص للتفكير والأخلاق الذى تحتاج إليه الدولة الإسلامية لتسيير دفة أمرها وتنظيم دوائرها العجيبة المتشعبة من الشرطة والقضاء والجند والخراج والمعارف والشئون المالية والسياسة الخارجية.. قل لي بربك ماذا أقول في الذين يبتهجون بذكر الدولة الإسلامية ولا يعدون لها معداتها ولا يتذرعون لها بشيء من الوسائل، سوى أنهم لم يعرفوا حقيقة «الدولة الإسلامية» ولم يدركوا مغزاها أصلاً».

ونحن لا نثبت هذا الموقف للمودودى من خلال دعوته تلك فقط ولكن من خلال موقفه العملي من وضع هذه الأسس النظرية لكافة الجوانب المتعلقة بقيام الدولة الإسلامية في العديد من كتبه وهو الأمر الذى لا نجد له وجود في كتابات الأستاذ سيد قطب التي تتميز أساسًا بطابعها الصدامي.

أما الأمر الثاني: ففضلاً عن التكوين النفسي منذ البدء لكل من الرجلين حيث بدأ الأستاذ سيد قطب شاعراً جريحًا ثائر الوجدان بدأ الإمام المودودى رجل فكرة ومؤسس جماعة، فهناك فارق خطير في التراكم المعرفي الناتج عن هذه البداية عند الرجلين فإلى حين انضمام الأستاذ قطب لجماعة الإخوان المسلمين وحَمْله الفكرة الإسلامية كان التراكم المعرفي المتحصل لديه كشاعر خطير وناقد أدبي ـ كان من وجهة نظر رجل كرئيس الجامعة الأمريكية في لبنان بصدد إنشاء مدرسة نقدية ـ هو في أغلبه تراكم معرفي أدبي بينما على النقيض من

(١) معالم في الطريق: فصل طبيعة المنهج القرآني.
(٢) منهج الإنقلاب الإسلامي.

ذلك التراكم المعرفى لدى الإمام المودودى شكلته فى الأساس الدراسات الأصولية الإسلامية والدراسات الفكرية المعاصرة.

ونريد أن نوضح مما سبق خطأ الفكرة الشائعة عن تطابق الخطاب الدينى عند كل منهما ووحدة الأفكار والمواقف، فالإمام المودودى مؤسس فكر وواضع أسس نظرية لبناء دولة ، إنه رجل مُنظِّر وصاحب رسالة قام بنفسه بالدعوة إلى ما يُنظِّر إليه، أما الأستاذ سيد قطب فهو من الناحية الفكرية أقرب إلى الشارح لبعض الأسس الفكرية التى توقف عندها لدى الإمام المودودى ومن الناحية الحركية فقد كان قائداً فى أحد المراحل للحركة التى أسسها الإمام البنا.

والنتيجة هى مفارقة أساسية فى المنهج الفكرى والحركى للرجلين فالرجل الذى يرى ضرورة العمل على وضع أسس نظرية لنظام اجتماعى يبشر به ويدعو إليه يختلف منهجه عن الرجل الذى يحذر من عدم البدء فى ذلك قبل أن يمتلك التجمع العضوى الحركى الذى تتمثل فيه العقيدة الإسلامية زمام الأمور فى المجتمع.

ومع كون أن الرجلين كانا يعملان على أن تتمثل دعوتهما فى تنظيم حركى عضوى لكن الأمر يفترق بعد ذلك فالمودودى يرى ضرورة وجود الأسس النظرية التى يمكنه من خلالها تسيير المجتمع ودعوته إلى شىء يفهمه.. إلى شىء يمكن إدراكه.. إلى شىء يملك إمكانية التطبيق.. إذن فالصراع هنا أساساً صراع فكرى يقوم على العقيدة.. أما الأمر عند الأستاذ قطب فإنه يرى أن الضرورة القصوى تتعلق بامتلاك تنظيمه الحركى العضوى لزمام الأمور فى المجتمع أى أن الصراع الأساسى هنا هو صراع حركى يقوم على العقيدة أيضاً.

فلينتبه الجميع لهذه المفارقة الخطيرة ونتائجها الفكرية، والحركية، ليتضح حجم الخطأ الكبير فى التوهم الذى يقع فيه الكثيرون فى اتفاق الرجلين فى المنهج الانقلابى.

إن المنهج الانقلابى عند الإمام المودودى هو منهج الانقلاب الفكرى فى الأساس والذى يعنى مفارقة الحركة الإسلامية فى مفاهيمها وأفكارها عن المفاهيم والأفكار السائدة فى المجتمع وليس اعتباطًا أن يطلق المودودى على الدولة الإسلامى التى يدعو إليها الدولة الفكرية.

ولا يعنى ذلك أن فكر المودودى لا يحتمل اللجوء إلى الصدام الحركى فى ظروف معينة ولكنى أتحدث عن المحور الأساسى الذى يقوم عليه فكر الرجل والذى كاد يلتصق فى أذهان الكثيرين بالتنظيمات السرية لا أكثر.

ومن وجهة نظرنا فإن أغلب الحركات الإسلامية الصدامية فى مصر ودول غيرها يغلب عليها الموقف القطبى عن الموقف المودودى.

المنحنى الرئيسى فى مسيرة الإخوان

وكان المنحنى الرئيسى فى مسيرة الإخوان هو الصدام مع عبدالناصر بعد اغتيال الإمام البنا وقيام الثورة.

هل كان سبب الصدام بين عبدالناصر والإخوان أيديولوجيًّا أم سياسيًّا؟

ما نراه أن الصدام قد حدث للسببين معًا الأيديولوجى والسياسى فالإخوان كانوا يرون أن الإسلام هو المقوم الأساسى إن لم يكن الوحيد للأمة، أما عبدالناصر فكان يرى أن الإسلام هو أحد المقومات الهامة للأمة ولذلك فلم يعد عبدالناصر أبداً من الإسلاميين لدى أى منظور وإن تكن الإسلامية مع ذلك لها وجودها فى خطابه السياسى. وإذا علمنا أن اعتزاز عبدالناصر بكتاب الأستاذ خالد محمد خالد (من هنا نبدأ) قد بلغ إلى درجة اعترافه بأنه قرأه أربعة عشر مرة وهو الكتاب الذى يذهب إلى فصل الدين عن الدولة استطعنا أن ندرك ما هو موقف عبدالناصر من فكرة الدولة الإسلامية.

إلا أن هذا الموقف لا ينسحب على جملة الناصريين لا فى العهد الناصرى ولا بعده. فبعض القيادات الناصرية الهامة كانت لا تكاد تختلف عن الإخوان فى شىء من حيث موقفها الأيديولوجى وتحمسها لفكرة الدولة الإسلامية وهذا ما نجد صداه الآن أكبر بالنسبة للكثير من الناصريين فى واقعنا السياسى الحالى.

أما بالنسبة للخلاف السياسى، فقد أدرك الإخوان مبكراً أن عبدالناصر لم يكن بالشخص الذى يمكن الالتفاف عليه وتحجيمه أو انتزاع السلطة منه بعد فترة من الفترات خصوصاً أن ما كان يملكه من الدهاء والنفوذ بين رجاله ما لم يكن يملك أحد من قيادات الإخوان بعد رحيل الإمام البنا.

واستطاع الفكر القومى فى العهد الناصرى أن يحتل المكانة المبوأة للفكر الإسلامى ليس فقط فى عقل النخبة والمثقفة ولكن فى عقل الجماهير أيضاً وتحت ضغط الاضطهاد والتعذيب الذى لاقته جماعة الإخوان المسلمين[1] كاد الناس أن ينسلخوا من دينهم، وما تبقى لديهم من قيم تحث على التواضع والمساواة والتعاون تم نسبها إلى المبادئ الاشتراكية التى تتفق إلى

---

(١) راجع فى تاريخ الخلاف بين عبدالناصر والإخوان: الإسلام هو الحل للأستاذ جمال البنا، و٢٥ عاماً فى جماعة للأستاذ حسن أيوب.

درجة ما في الكثير من ذلك مع الإسلام.

وكان من الطبيعي أن يضطهد الإخوان في ذلك العهد بصرف النظر عن صدق أو كذب ما نسب إليهم من تمرد وانقلابية، وذلك لحقيقة ما قيل عنهم في ذلك الوقت «أن فكرتهم ومثاليتهم لا تزال تمثل أعمق مطامح المسلمين من المغرب إلى أندونيسيا»[1].

كما أن الحقيقة المخيفة التي تفرض نفسها هي «أن الحركات الإسلامية هي وحدها الأصيلة في تمثيلها مطامح أهل هذه المنطقة فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط، والمنظمات الإسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة»[2].

كان الاضطهاد والتعذيب طاغياً وشاملاً وتم شنق رجال من أفضل رجال الحركة الإسلامية بل ومن أفضل رجال التاريخ الإسلامي كله فكراً وإخلاصاً مثل الشهيد عبدالقادر عودة والشهيد سيد قطب. وكان ذلك سبباً كبيراً في نشأة حركات العنف الإسلامي التي نعرفها الآن، وخلفت الحقبة الناصرية عدداً من القيادات الإخوانية بلغت مدة أسر أي منهم ما يقارب العشرين عاماً ما بين تعذيب واعتقال الأمر الذى رسب مرارة لا حدود لها وحذر رهيب من الصدام السياسي لا يعود في الغالب الأعم إلى الخوف على النفس وإنما على مسيرة الحركة الإخوانية من الدخول في هذا السرداب المظلم مرة أخرى.

وقد عملت بنفسي في أوائل الثمانينيات مع بعض هذه القيادات في إحدى الشركات عدة شهور ومنهم الآن من يمثل القيادة الأساسية للجماعة. فرأيت أناساً استوى لديهم الموت والحياة وتعلو وجوههم الصرامة الشديدة ويتركز فكرهم على ما هو عملي من الأمور. وتتراكم طبقات عازلة بعضها فوق بعض بين ما يضمرونه وما يعلنونه من أهداف وأفكار.

والمهم في كل ما سبق أن هذه القيادات السياسية للجماعة هي التي استمرت في قيادتها بعد ذلك وحتى الآن. حاملة روح الاضطهاد والهزيمة السياسية التي خلفتها الحقبة الناصرية وقد انضم إليهم بعض من استطاعوا النجاة من المعتقلات من خلال تسوية أمورهم مع عبدالناصر متأثرين تأثراً بليغاً بنتائج المرحلة دون أن يتمتعوا بفضيلة تحملهم مسئولية تجربتها.

أما مفكرو الجماعة فقد حصدت المشنقة أهمهم بينما أعلن الآخرون استقلالهم عن الجماعة أو انساحوا في البلاد طالبين النجاة.

---

(١)، (٢) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط.

الأوانى المستطرقة

السلطة بين الإخوان والجهاديين

مع تنامى الصحوة الإسلامية فى السبعينيات اطراداً مع تصاعد المد الثورى لاسترداد الخلافة ومواجهة الغزو الاستعمارى والكيان الصهيونى الغاصب للقدس وفلسطين، رأى السادات إمكانية إيجاد حليف مناسب من خلال هذه الصحوة يدعمه جماهيرياً فى مواجهة نقمة اليسار عليه (الناصريين والماركسيين على الخصوص) لخروجه عن المسار الناصرى وتوجهه الغربى الأمريكي وانقلابه على الاتحاد السوفيتي. ومن ناحية أخرى أراد السادات احتواء القوى الإسلامية الناهضة وتوجيهها بالطريقة التى لا تضره.

فى هذا السياق حدثت اتصالات بين السادات وبعض القيادات الإخوانية التى أخرجها تواً من المعتقلات، وليس من المهم لدرجة كبيرة البحث عن حقيقة ما حدث بالفعل من لقاءات أو اتفاقات، ولكن المهم أنه كان هناك وعى متبادل بالمصالح المشتركة بين الجانبين مع مساحة من المناورة للمصالح التى تخص كل طرف عند الآخر.

أثناء ذلك حدث نوع من التبلور للأسر الدينية فى المدارس والجامعات (والتى كانت تمارس نشاطها بشكل تقليدى مثلها فى ذلك مثل باقى أسر النشاطات الأخرى الثقافية، الفنية، الجوالة...) فى شكل تجمعات أكثر تنظيماً ونشاطاً أطلق عليها أو أطلقت هى على نفسها اسم الجماعات الإسلامية.

ومنذ أواخر السبعينيات إلى أوائل الثمانينيات أستطيع أن أقول إننى كنت شاهد عيان من الخارج على هذه الجماعات الإسلامية حيث إننى كنت فى ذلك الحين طالباً بالثانوى ثم الجامعة.

وأقول كنت شاهداً من الخارج وليس من الداخل لأننى لم أكن عضواً فى يوم من الأيام فى أى من هذه الجماعات وذلك لسببين: أولهما فكرى حيث كنت غارقاً فى هذه الفترة فى دراسة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية الإسلامية والغربية ومن ثم لم أجد فى أطروحات تلك الجماعات ما يتناسب مع طموحاتى الفلسفية حيث كانت من هذه الناحية شديدة الفقر فى وعيها الفكرى الأمر الذى أدى إلى النفور من جهتى على الرغم من تعاطفى الدينى معها.

أما السبب الثانى فهو سبب يتعلق ببعض مشاكلى الخاصة فى تلك المرحلة والتى كانت تقتضى أن أتمتع بقدر من الحرية يستحيل معه الارتباط بأية جماعة أو كيان تنظيمى.

ومع ذلك فقد كنت صديقاً للكثير من أعضاء هذه الجماعات التى انتشرت فى القرى والمدن بعد ذلك، بل وبعض قيادتها أيضاً الذين تعرفت على المزيد منهم أثناء اشتغالى بالعمل الفكرى.

ومن ثم فإن الذى شاهدته بنفسى أو قاله لى الآخرون ممن أثق فيهم أو قرأت عنه واقتنعت بصحته بعد ذلك يقتضى أن أقول إن تلك الجماعات التى كانت منتشرة فى كل مكان بل وتسيطر سيطرة شبه كاملة على بعض المناطق خصوصاً فى الصعيد ـ دون أدنى انزعاج من الناس بل بتعاطف كبير معها ـ كان يتنافس عليها اتجاهان رئيسيان فى هذه المرحلة: التيار السلفي والتيار الإخوانى، وكانت الغلبة للتيار السلفى بشكل حاسم لعدة اعتبارات:

* كان تركيز السلفيين على الجانب العقائدى للدعوة يلقى قبولاً عقلانياً لدى الشباب فى مقابل التعميمات السياسية الإخوانية.

* تميز السلفيون بالوعى المعرفى بعلوم الدين الأصولية (الفقه، التفسير، السيرة، الحديث) فى مقابل افتقار شديد للإخوان بالنسبة لهذا الجانب فى هذه المرحلة إلى درجة تحدى بعض السلفيين منهم الناشطين من الإخوان فى معرفة نواقض الوضوء.

* تركيز الإخوان على استعراض الجانب التاريخى لجهادهم وتضحياتهم كان سلاحاً ذا حدين فكما أنه أدى إلى انجذاب البعض إلى صفوفهم تأثراً بتلك البطولات والتضحيات أدى إلى نفور البعض الآخر نظراً لاتهام السلفيين لهم بأنهم يضفون هالة من القداسة على زعمائهم وهو الأمر الذى أكدوه بشكل أكبر استناداً على تركيز اهتمام الإخوان على تثبيت مقولات زعمائهم فى عقول الأعضاء أكثر من اهتمامهم بتثبيت نصوص الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى تلك العقول.

* على الرغم من أن صرامة السلفيين فى اتباع السنن والفروع كان لصالح الإخوان جماهيرياً إلا أن ذلك كان يقابله صرامة أكثر صعوبة تتعلق بقواعد الطاعة والجندية عند الإخوان من حيث الخضوع للقيادات.

* فى الوقت الذى كان الواقع السياسى (الانفتاح - الأمركة - كامب ديفيد - معاهدة السلام - استقبال الشاه والاستفزازات الساداتية المشابهة) يتطلب مواقفاً أكثر راديكالية على مستوى الشعور الشعبى الساخط فى هذا الحين على الأقل كانت مواقف الإخوان تبدو

أكثر ضعفاً قياساً إلى باقى التيار الإسلامى بوجه عام بل قياساً بما كان يكتبه الإخوان عن مواقفهم الجهادية فى كتبهم. وكانت صورة الأستاذ عمر التلمسانى وهو يقول للسادات الذى كان يتوعده أمام شاشات التليفزيون: «عندما يظلمنى أحد من الناس أشكوه إليك ولكن عندما تظلمنى أنت فإننى أشكوك إلى الله». تعبر عن قدرٍ من الاستكانة كفيل بذاته لسخط جماهير التيار الإسلامى على الإخوان (وأزعم أننى قد شاهدت هذا بنفسى لدى الشباب المتحمس) خصوصاً أن الكثيرين قد رأوا أن مساحة الحرية التى كانت متوفرة فى ذلك الحين لم تكن تتطلب مثل هذا القدر من الاستكانة.

فى المقابل من ذلك فإن السلفيين الذين كانوا فى عمومهم أقل وعياً واهتماماً بالسياسة مقارنة بالإخوان.. بل نستطيع القول إنه كانت هناك قطاعات عريضة منهم (ومازال يوجد امتداد لها حتى الآن) لا يتجاوز وعيها الدينى حدود التفاصيل الدقيقة لأحكام الشعائر التعبدية وبعض الأحكام القليلة الأخرى الأمر الذى يجعلهم فى غيبوبة شبه كاملة عن الواقع إلا أنهم كانوا يجدون فى تصدى بعض أقطابهم لمثل هذه الأمور فى راديكالية شديدة تعويضاً لهم عن ذلك.

وتفسير هذا أن بعض عناصر جماعة الجهاد وحزب التحرير استطاعت استقطاب بعض قيادات هؤلاء السلفيين إلى الكثير من أفكارها الثورية وإن لم يكونوا قد انضموا إلى أى منهما انضماماً فعلياً.

ومن الطبيعى أن يجد هؤلاء فى الفكر السلفى الذى يركز على دراسة العقيدة بوجه خاص أرضًا خصبة للتحول إلى الفكر الجهادى لأن وعى المسلمين بحقيقة عقائدهم يبرز التناقض بين ما يقتضيه الإيمان بهذه العقائد والسيادة العلمانية على فكر الأمة والنتيجة الفعلية لكل ما سبق هى سيطرة السلفيين على أغلب الجماعات الإسلامية المنتشرة فى البلاد، ومن ثم غدت الحاجة إلى التميز ملحة خصوصاً بالنسبة إلى قيادات الإخوان الذين استعانوا بكل ما حققوه من إنجازات خصوصاً فى المجال الاقتصادى خارج البلاد فى العمل على استقطاب قيادات هذه الجماعات فى الوقت الذى بدأ فيه السادات التشديد على هذه الجماعات بعد أن أدرك خطورة ما يحدث من انتشار الفكر الجهادى بين صفوفها. ومن ثم وقعت قيادات هذه الجماعات بين خيارين: الملاحقة الأمنية من جهة والإغراءات الإخوانية من جهة أخرى أو بمعنى أدق بين نار السادات وجنة الإخوان.

والنتيجة هى انضمام بعض هذه القيادات إلى الإخوان ترجيحاً للفكر الإخوانى أو ارتكاناً لخطر أقل أو استسلاماً للإغراءات. بينما اتخذ البعض الآخر من المنهج السلفى فى إتقان

العلوم السلفية طريقاً مستقراً. واستطاع الجهاديون استقطاب عدد كبير من هذه القيادات التى ظلت تعمل أيضاً تحت شعار الجماعات الإسلامية السلفية.

وهكذا تبلور الموقف إبان مقتل السادات: الجماعات الإسلامية السلفية (التى هى فى غالبها جماعات إسلامية جهادية) والجماعات الإسلامية الإخوانية، وكان من الطبيعى أن تتركز الجماعات الإسلامية الجهادية فى الصعيد بالذات لما يتسم به أهل هذه البلاد من صلابة وحماس وتهور أيضًا وهو الأمر الذى كشف عن نفسه بعد مقتل السادات فى هجوم تلك الجماعات على مراكز الدولة الإدارية فى محافظة أسيوط واحتلالها وهو العمل الذى لا ندرى ما الجدوى التى كان يرجوها أصحابه منه بعد أن فشل مخطط زملائهم فى الاستيلاء على الحكم فى القاهرة (إن صدق أنه كان هناك مخططٌ لذلك فما حدث من خطوات كاريكاتورية لإنفاذ هذا المخطط يشكك فى وجوده أصلاً).

وبعد موجة من الاعتقالات تعرض لها الجميع إخوانًا وسلفيين وجهاديين قبل مقتل السادات وبعده مرت على الحركة الإسلامية بعد الإفراج عن أغلب المعتقلين فى بداية حكم الرئيس مبارك فترة من أزهى عصور الحرية فى مصر بلغت فيها الحركة الإسلامية أقصى أوجها. وباستثناء تنظيم الجهاد أخذت الجماعات الإسلامية بمختلف اتجاهاتها تعمل بكل حرية بما فيها الجماعات الإسلامية الجهادية (والتى استأثرت لنفسها بمسمى الجماعة الإسلامية).

وتعاظمت أعداد المنتمين للجماعات الإسلامية السلفية والجهادية إلى درجة تدعو إلى الغرور ولذلك كان حديث الإذاعات الأجنبية أو المراقبين للحركة الإسلامية من الخارج عن جماعة الإخوان المسلمين بأنها الجماعة الأكثر عدداً مثار الاستغراب من الناشطين فى الحركة فى هذه الأثناء فكنا نرى بأعيننا أنه بينما كان يدور عدد الشباب المنتمين إلى الإخوان حول العشرة أشخاص فى كل قرية أو مركز كان يمكن أن يعد شباب الجماعات الإسلامية السلفية والجهادية بالعشرات أو المئات بل وربما الألوف.

وكانت تحكى الأساطير عما تفعله قيادات الجماعة الإسلامية بالصعيد والتى استطاعت أن تسيطر على شباب الجامعات هناك سيطرة شبه كاملة وكنت أسأل بعضَ شباب الصعيد: كم عدد الشباب الذين ينتمون إلى الجماعات الإسلامية من أبناء عمومتكم؟. هل يمكن أن يقال إنهم اثنين من كل عشرة شباب؟. فكان رد أغلب من أجابونى أنهم يبلغون النصف تقريباً بينما أجاب البعض بأن جميع الشباب تقريبًا كان ينتمى إلى هذه الجماعات سواء المتعلمين منهم أو غير المتعلمين باستثناء بعض الشباب المنحرف.

هل يعنى ما سبق أن هؤلاء الشباب كانوا ينتمون حقاً بشكل فعلى إلى الجماعة الإسلامية أو حتى إلى السلفيين؟.

إن الإجابة عن ذلك سلبية بالقطع ولكن يمكن القول إنهم كانوا متعاطفين معهم ويدورون فى فلكهم خصوصاً أن الجماعة الإسلامية نفسها لم تتبلور فى شكل تنظيمى متكامل حتى أواخر الثمانينيات وإنما كانت عبارة عن عناقيد منفرطة فى كل مكان. يعتمد كل عنقود منها فى أماكن كثيرة - خصوصاً فى الصعيد وأماكن مثل إمبابة وعين شمس - على قاعدة جماهيرية عريضة للغاية. وكان الخطر الداهم على الحكومة هو عملية التفريخ التى يمكن أن تحدث فى سلة البيض الرهيبة هذه فى اتجاه العمل الجهادى، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك بدرجة كبيرة.

التجأت الحكومة لذلك لما يمكن التعبير عنه بفكرة الأوانى المستطرقة بمعنى أن التضييق لمجرى أحد الوعائين والتوسيع للوعاء الآخر يجعل حجم السائل الصاعد فى مجرى الوعاء الأخير والمسحوب من الإناء الجامع لهما أكبر من حجم السائل الصاعد فى مجرى الإناء الأول ومع افتراض وجود ضغط متبادل بين الوعائين فإن هذا التدخل يجعل الصراع بينهما لصالح الإناء الثانى كما يضمن التقليل من حجم السائل المتسرب فى الإناء الأول وهذا هو المهم فى الموضوع.

وعلى الرغم من أن المثل من الناحية العلمية البحتة غير دقيق إلا أنه يساعدنا على فهم ميكانيزم الدور السياسى للحكومة فى لعبة التنافس بين الجهاديين والإخوانيين. فمع التضييق والملاحقة للأولين سمح للآخرين بممارسة نشاطهم فى مساحات أكبر من العمل السياسى وتمثل ذلك بوجه خاص فى المشاركة فى انتخابات المجالس المحلية ومجلس الشعب والنقابات المهنية وحقق الإخوان فى هذه الانتخابات نجاحات كبيرة تصل إلى أن تكون كاسحة فى الأماكن التى يصعب فيها التزوير مثل النقابات المهنية التى استطاعوا السيطرة عليها تماماً فى نهاية الثمانينيات.

ومع ذلك فإن حديث الإخوان عن كونهم استطاعوا الحصول على حوالى أربعين مقعداً مثلاً فى مجلس الشعب عام ١٩٨٧ هو حديث خاطئ من ناحيتين:

الأولى: أنه إذا تحققت الحيدة الكاملة فى انتخابات مثل انتخابات مجلس ا لشعب لاستطاعوا أن يحققوا أغلبية كاسحة تمكنهم من السيطرة على المجلس.

الثانية: أن هذا لا يعنى بأية حال أن الإخوان بذاتهم هم الذين ينتصرون فى هذه

الانتخابات وإنما الذى ينتصر هو شعار الإسلام هو الحل لأنه يعبر عن رغبة الجماهير فى تحقق البديل الإسلامى أياً كان حامل هذا الشعار ومادام أن الإخوان هم الوحيدون الذين يتقدمون لهذا المجال حيث يعزف السلفيون والجهاديون وباقى الجماعات الإسلامية الأخرى عن ذلك بسبب ذهاب الأولين بالذات لعدم شرعية هذه الانتخابات بل وعدم جدواها أيضاً فى تحقيق الحل الإسلامى فإن سعى الجماهير لهذا الحل يصبح لصالح الإخوان خصوصاً لما يتمتع به الإخوان عند هذه الجماهير من مصداقية تاريخية.

المهم أنه بعد تصاعد الضغط الجهادى واستفحاله بعد تحول الجماعة الإسلامية إلى العمل العسكرى المضاد للحكومة إثر حادث سقوط الدكتور علاء محيى الدين الرجل الثانى فى الجماعة قتيلاً واتهام السلطة بتدبير ذلك وجد الإخوان المجال أرحب فى العمل السياسى، ويبدو أن السلطة فعلت ذلك ليس من باب المناورة فقط بل من باب الضرورة أيضاً فالعمل العسكرى الذى واجهته الحكومة من جانب الجماعة الإسلامية هو شيء آخر يختلف تماماً عما واجهته من جانب تنظيم الجهاد الذى يتكون من أعضاء تكنوقراط محدودى العدد لهم أهداف محددة بينما سلة البيض الرهيبة للجماعة الإسلامية تفرخ أعضاء بالآلاف المؤلفة (اتهمت الجماعة الإسلامية السلطات فى أوائل التسعينيات بأنها تعتقل من أعضائها خمسين ألف شخص ، وذكرت لجنة الشريعة بنقابة المحامين أن عدد التظلمات التى قدمت عن المعتقلين حتى ١٩٩١ هى ربع مليون تظلُّم . ترى كم كان عدد الأعضاء جميعاً والمتعاطفين معهم والذين يدورون في فلكهم؟) وهؤلاء الأعضاء الذين هم فى أغلبهم من أبناء الجنوب والممتلئون حماسة وتهوراً كانوا يطلقون هجماتهم بشكل عشوائى لا يفهم منه هدف محدد. وأغرقت البلاد فى طوفان من الإرهاب والإرهاب المضاد ارتكب فيه الجانبان من الحماقات ما جعل البلاد على كف عفريت.

ولأنى أتابع ذلك من أجل رصد تأثير التفاعلات الواقعية على تطور فكر الإسلاميين فى الأساس أتوقف هنا عند ما أراه محوراً أساسياً خاطئاً فى فكر الجهاديين بوجه عام حيث أجد له تجليين خطيرين فى ممارسات الجماعة الإسلامية فى هذه الأثناء.

هذا المحور يتعلق برؤية الجهاديين الشرعية للواقع القائم وما يترتب عن ذلك من نتائج خطيرة فى أفكارهم وممارساتهم.. فهل هذا الواقع بحسب هذه الرؤية واقع إسلامى أم واقع جاهلى؟.

فإذا كانوا يرون هذا الواقع واقعاً إسلامياً فلماذا يناقضونه كل هذا التناقض؟.

أما إذا كان هذا الواقع واقعاً جاهلياً فكيف يريدون تطبيق أحكام الواقع الإسلامى عليه قبل تغييره؟!!!

سيقال : وهل تبطل أحكام الله أو تنسخ وقد مضى عهد الرسالة؟. أقول : لا ، ومن يقول بمثل ذلك يكفر . ولكن أحكام الله لها شروطها ومن ثم فهى لا تطبق إلا إذا توافرت هذه الشروط . فإذا كان لا يطبق حد السرقة فى النظام الإسلامى على الفقير الذى لا يجد قوته فكيف يمكن أن تطبق مثل هذه الأحكام فى غير وجود هذا النظام أصلاً .

والتجليان الأساسيان اللذان برزا فى هذه الأثناء لهذا المحور الأخير هو قتل السياح الأجانب ، وإقامة حد الزنا على أحد الضباط المتهمين بالزنا فى عين شمس .

وحكاية قتل السياح الأجانب تشتمل على أحكام أخرى أخالفها غير موضوع الخطأ الذى ينطوى عليه المحور الأساسى الذى أتحدث عنه ولكن بالنسبة لهذا الموضوع يكون التساؤل : كيف يمكن الحكم على هؤلاء السياح بالقتل لمجرد أن فئة من المسلمين أنذرتهم أو وجهت الإنذار إلى سفارات بلادهم بأنهم معرضون للقتل إذا دخلوا البلاد ؟ فهل أقام الجهاديون نظامهم الإسلامى حتى يعاقبوا هؤلاء السياح على مخالفتهم له ، وحتى لو كانوا قد أقاموه فهل من الممكن أن تكون عقوبة مخالفة هذا النظام هى القتل ؟ .

ونفس الأمر بالنسبة لتطبيق حكم الزنا على الضابط ، فهل فِعْلُ الضابط الزنا فى نظام جاهلى يترتب عليه تطبيق حكم الحد الإسلامى .

إن هناك ارتباطًا حتميًا بين وجود النظام الإسلامى وتطبيق أحكامه لأن النظام الإسلامى يعطى الحصانات الأخلاقية والاجتماعية التى تدفع الإنسان بعيداً عن السقوط فى الخطأ فإذا سقط الإنسان فى الخطأ بعد ذلك استحق العقاب . إن الله وضع نظاماً شاملاً يجب أن يطبق بشكل شامل أما تطبيقه بشكل جزئى فإنه قد ينطوى على الكثير من المظالم .

وللإمام المودودى الذى يعتز به الجهاديون كلام رائع فى هذا الموضوع .

وفى الكتب الأربعة الأخيرة التى أصدرتها القيادات التاريخية للجماعة الإسلامية تحت عنوان (تصحيح المفاهيم) وجدنا تراجعًا عن مثل هذه القضايا واعترافًا بما ارتكب فيها من أخطاء فادحة ولكن أهم ما استرعى انتباهنا فيما جاء فى هذه المراجعات هو إدراك هذه القيادات لأولوية التجديد الفكرى والتعمق فى فقه الواقع ومواجهة الخطر العلمانى فحمدنا الله على اتفاق قيادات تيارات كبيرة كهذه مع ما ندعو إليه منذ سنوات طويلة .

وأعود لموضوعنا الأساسى مرة أخرى .

فى أثناء هذا الطوفان من الصدامات بين السلطة والجهاديين بدا للمراقبين أنه كلما اشتد الصدام بين الجهاديين تمتع الإخوان الدائبون على إدانة الجهاديين بمساحات أكبر من حرية

العمل السياسى وبرز التباين الرهيب فى حصاد العمل السياسى بين الجانبين فبينما تحولت أجساد الجهاديين إلى دماء وأشلاء أو سقطت رهن الأسر فى المعتقلات غدا الإخوان هم المشارك الرئيسى للسلطة نفسها فى إدارة البلاد من خلال سيطرتهم على النقابات بما يعنيه ذلك من نفوذ يتخلل كل مجالات الدولة وما ينتج عن ذلك من ثمار مالية رهيبة، الأمر الذى بدت معه القيادات الشبابية من الإخوان كفئة جديدة من البكوات التى تم ضمها إلى صفوة المجتمع.

فإذا أضفنا إلى ذلك استقتال الإخوان من أجل حفاظهم على الاستئثار بالمساحة المتاحة للعمل السياسى بالنسبة للإسلاميين إلى درجة الحرب المعلنة أحياناً أو السرية غالباً على كل من تخول له نفسه من الإسلاميين الآخرين التفكير فى منافستهم فى هذا المجال.

كل ذلك أدى إلى الاستقطاب الشديد بين الجهاديين والإخوان إلى أقصى الطرفين.. أقصى يمين اليمين وأقصى يسار اليسار بحسب تحديد المراقب لما هو يمين وما هو يسار. فكتب أيمن الظواهرى الحصاد المر عام ١٩٩٢ الذى لم تكن المشكلة الأساسية فيه اتهام الإخوان بالانتهازية والعمالة للسلطة والتهاون فى قضية الشريعة إلى درجة التضامن مع الحكومة ضد الشيخ صلاح أبو إسماعيل الذى أغلق الدكتور رفعت المحجوب المجال أمامه فى الحديث عن تطبيق الشريعة إلى الأبد بمناورة إجرائية تتعلق بنظام العمل البرلمانى. أقول ليست المشكلة الأساسية فى الكتاب هى ذلك ؛ وإنما فى اتهامه للإمام حسن البنا نفسه بالتملق للملك فاروق عند توليه العرش على حساب قضية الشريعة وتناقضا مع قواعد الولاء والبراء وذلك لكفر الملك لعدم تطبيقه للشريعة وهو الأمر الذى يعنى التكفير الضمنى للإمام حسن البنا على الأقل.

فإذا كان على البنا أن يناصب الملك الغض - الواقع تحت أسر الإنجليز ولا يملك من أمر البلاد شيئاً - العداء ويعلن كفره ويبيح دمه بدلاً من أن يحاول هدايته ومآزرته فى مواجهة الإنجليز أولاً ثم دعوته لتطبيق الشريعة بعد ذلك. إذا كان هذا ما يجب أن يفعله البنا من منظور الظواهرى وإلا حكم عليه بالتناقض مع الدين فهذا يعنى أن فكر الظواهرى بلغ مرحلة إسقاط الواقع من اجتهاداته (وهو المقوم الثانى للاجتهاد بعد النص) وعدم إعطاء مساحة من التسامح مع اجتهادات مخالفيه حيث يفقد أى قدر من المرونة السياسية فى التعامل حتى مع الألفاظ (وقد دهشت عند قراءتى لكتابه «فرسان تحت راية النبى» أنه يأخذ على أحد قيادات الجماعة الإسلامية قوله فى معرض حديثه عن مبادرة وقف العنف : «إن الدولة أب ونحن أولادها» وهو كلام لا يعنى أى شيء من حيث المحتوى العملى).

ولم يضع فى الاعتبار التقدير الكبير لحسن البنا من جانب المفكرين الذين يقدرهم كالمودودى وسيد قطب.

وسوف تتجلى بعد ذلك هذه النظرة الشرسة للأمور فى كتاباته عن موقف الإسلام من الكفار الذى لم ير فيه سوى قبول الإسلام أو القتل . وإن كان كل ما نقوله هنا يحتاج إلى تأصيل فقهى تفصيلى لمناقشة آراء الظواهرى نتمنى القيام به قريباً.

على الجانب الآخر وفى ظل المعارك الطاحنة بين السلطة والجهاديين والتى أضحت الدولة بسببها وكأنها على كف عفريت وفى عام ١٩٩٤ تحديداً قدم الإخوان مجموعة من الوثائق الفكرية عن موقفهم من الديمقراطية وتداول السلطة والأقليات تكاد تتطابق تماماً مع موقف السلطة نفسها فيما مثل شبه ارتداد عن الفكر الأصولى لحسن البنا نفسه وفتح باب المساومة على القواعد الأصولية للإسلام ذاته، الأمر الذى اعتبره خصوم الإخوان فى هذا الوقت بمثابة تقديم بديل عملى للسلطة القائمة عند من يهمهم الأمر مع تميز هذا البديل بأنه يقدم ما هو قائم أو ما يتقارب معه على الأقل تحت الشعار الإسلامى، وسرت الشائعات بأن هناك مفاوضات سرية تجرى بالفعل بخصوص هذا الشأن.

ويبدو أن هذه كانت وجهة نظر السلطة القائمة ولهذا سرعان ما انقلبت على الإخوان أنفسهم بعد أن كسرت شوكة الجهاديين فى عام ١٩٩٥ . فأغلقت النقابات تماماً فى وجههم وتم تعويقهم عن دخول مجلس الشعب ودخل عدد من قياداتهم السجون والمعتقلات بدلاً من ذلك.

وتساءل المحللون منذ هذه اللحظة عن الدور الذى من الممكن أن يقوم به الإخوان بعد ذلك فقد انغلق فى وجههم باب العمل السياسي وقرروا هم أنفسهم منذ زمن مضى العزوف عن خيار العنف وكانوا قد قطعوا الشوط بعيداً عن التجديد الفكرى خصوصاً أن القيادات التى تولت أمر الإخوان منذ السبعينيات كانت تجد فى خبراتها السياسية الكبيرة عوضاً بديلاً لها عن المؤهلات الفكرية الضخمة التى كان يتمتع بها قيادة مثل الإمام حسن البنا.

ويستطيع المحلل أن يتفهم ما الذى تنطوى عليه مطالبة الأستاذ عمر التلمسانى (أحد هذه القيادات) بإلغاء الفكر الإسلامى والاعتماد فقط على الفقه الإسلامى من معنى فى تفسير عدم وعى هذه القيادات بدور الفكر فى العمل الإسلامى بل وموقفها العدائى منه لما يسببه لها من مشاكل بسبب تناقض النمو الإدراكى لكوادر الجماعة مع قدرة هذه القيادات على تحكمهم فيها ، والذى يؤكد ابتعاد الإخوان الكبير عن الجانب الفكرى هو إطلاقهم المتتابع لمعظم مفكريهم (إن لم يكن جميعهم) خارج الجماعة وعلى رأس هؤلاء المفكر الإسلامى

الكبير محمد قطب الذى نرى أن إنجازاته الفكرية تمثل قيمة مضافة للفكر الإسلامى لا تقل عن إنجازات أخيه الشهيد سيد قطب إن لم تكن تفوقها وإن كان لا يبلغ شأو أخيه فى أسلوبه البلاغى الرهيب.

فالمشكلة تتحدد لدى الإخوان فى أن وجود عقول تستهدف التجديد الفكرى بين كوادرهم يتناقض مع درجة الانضباط الرهيبة التى تفرضها هذه القيادات السياسية وهذا مما يفسر عدم السماح للأعضاء بوجه عام بنشاط فكرى خاص يخرج عن قوالب المناهج المحددة للجماعة.

وإذا كان هذا الجمود الفكرى الإخوانى يمثل خطًا أحمر للمفكرين الإسلاميين بوجه عام لا يجرؤ أحد منهم على تجاوزه لما يمثله ذلك على أقل تقدير من اصطدام مع النفوذ الإخوانى الذى يصل فى مجال نشر الكتاب فقط ما يمثله النفوذ الأمريكى فى الاقتصاد العالمى الأمر الذى يعنى الوقوع بين مطرقة الإخوان وسندان السلطة فإن ذلك يعبر عما يمثله هذا الجمود الفكرى الإخوانى من تعويق لحركة تقدم الفكر الإسلامى بوجه عام . وهذا هو أحد الأبعاد التى تجعل السلطات ترى فى مثل هذه الجماعات على الرغم من منافستها لها صمام أمان لإعاقة تقدم أية حركة إسلامية بديلة ومن ثم تعمل دائماً على تقليصها وليس على تصفيتها.

فإذا كان العمل السياسى تم إغلاقه فى وجه الإخوان وانقطعت الأسباب بينهم وبين التجديد الفكرى فهل يؤدى ذلك إلى لجوئهم إلى العنف والعمل السرى مرة أخرى؟.

هذا ما توقعه المراقبون فى أواخر التسعينيات. وكان توقعهم هذا خطأ بالغًا لأن الإخوان رتبوا أوضاعهم بالنسبة لتنظيماتهم المنتشرة فى دول كثيرة من العالم على التعهد لأنظمة تلك الدول بقطع الصلة بينهم وبين العنف فإذا حدث الإخلال بهذا التعهد فى مصر فإن ذلك سيجعل تلك الأنظمة تشعر بالتوجس من التنظيمات الإخوانية فى بلادها ومن ثم يتم حرمان هذه التنظيمات من المزايا التى تهيأت (أو بمعنى أدق توفرت) لها فى تلك البلاد من خلال هذا التعهد.

ثانياً فإن الإخوان لم يعودوا ذلك التنظيم الملايينى الذى تحقق لهم فى عصر البنا وأعضاء الثمانينيات وما بعدها من الشباب الذين تم استقطاب الكثيرين منهم بدافع الرغبة وقلة الرهبة حيث يصنع الانتماء للإخوان تأمينًا اقتصاديًا واجتماعيًا أشبه بالخروج من جحيم الظروف الطاحنة التى يعانيها الشباب المصرى على وجه الخصوص ومن ثم تتضاءل بجانبها مخاطر الملاحقة الأمنية المحدودة من السلطة ومن ثم فلم يكن غريبًا أن يشكو لى بعض الشباب فى المرحلة الأخيرة بتحسر شديد أن الإخوان أصبحوا يقبلون بصعوبة أعضاء جدداً ومن ثم

فإن مثل هؤلاء الشباب غير مؤهلين للمجازفة بهم فى الدخول فى مواجهة مسلحة مع السلطة وخصوصاً وهم يرون أمام أعينهم أن طوفان الجماعة الإسلامية قد تم انكساره.

لكل ما سبق فقد بدا للمراقبين أنه لم يبق للإخوان فى المرحلة الأخيرة (إضافة إلى تعاظم نشاطهم الاقتصادى) إلا تلقى فتات المسموح به من العمل السياسى.

وعندما نجح الإخوان فى الحصول على سبعة عشر مقعداً رأينا فى ذلك إنجازاً للحركة الإسلامية يمكن استثماره فى الإعلام عن الرؤية الإسلامية للأمور فهذا من وجهة نظرنا أهم هدف من الممكن أن تبتغيه هذه الحركة من دخول البرلمان فى هذه المرحلة بينما رأى فريق آخر من بينهم بوجه خاص بعض الكوادر التى استقلت أخيراً عن الإخوان أن هذا النجاح نجاح هزلى ضئيل لا يمكن أن يمثل تعويضاً مناسباً عن التضحيات التى قدمها أعضاء لهم قيمتهم التاريخية فى الجماعة فى هذه المرحلة.

ويبدو أن الدور المحدود الذى يمارسه أعضاء الإخوان فى المجلس والذى لا يخرج عن الدور التقليدى لأعضاء البرلمان يثبت صحة تلك النظرة الأخيرة.

وعلى الرغم من المعوقات الشديدة فقد ظل للنشاط الطلابى للإخوان فى الجامعة الدور الأكبر فى النشاط السياسى فى مصر فمما لا شك فيه أن للمظاهرات التى ينظمها شباب الإخوان فى الجامعات دوراً فاعلاً فى حركة الأحداث ليس فى مصر فقط بل وفى المنطقة كلها بيد أن رد الفعل الطلابى الهزيل على أحداث أفغانستان والذى كان أقل كثيراً من توقعات الأمريكان أنفسهم يضع الكثير من علامات الاستفهام عن الأطر التى تتحرك فيها تلك النشاطات الطلابية السياسية التى يقودها الإخوان والموضوعة من جانب سلطات الدولة والتى لا يتجاوزها الإخوان إلا قليلاً، (وقد دفعوا لهذا القليل ثمناً باهظاً فى المرحلة الأخيرة تمثل فيما تعرض له عدد كبير من أساتذة الجامعة المنتمين لهم)، ومن ثم فإن هذا النشاط الطلابى فى الدفاع عن قضايا الأمة مثل قضية العراق وفلسطين يعود الفضل فى جزء منه إلى السلطات نفسها.

وبعد مواقف الإخوان تجاه الأحداث الأخيرة والتى سوف نناقشها فى موضع آخر يبدو أن تراوح ردود فعل الإخوان تجاه متطلبات القوى الخارجية بين اللا والنعم يمضى إلى منحنى كمى تحكمه آلية معينة هى مدى تحمل التنظيم للمخاطر. ومن ثم فإنه يمكن بمزيد من الضغوط تحويل الـ لا إلى نعم حيث إنه قد حدث قدر كبير من التذويب السياسى للعوائق العقائدية التى تحول بين الـ لا والـ نعم.

ومع انحسار الدور السياسى للإخوان فى أواسط التسعينيات بعد فتحهم باب المساومة رأى بعض المفكرين التوفيقيين أنه يمكنهم أن يشغلوا الهامش السياسى المسموح به للإسلاميين بدلاً من الإخوان فقدموا من التطويع للرؤى الإسلامية أكثر مما يمكن أن يطالب به أحد من الإسلاميين فإذا كان الإخوان اقتربوا فى أطروحاتهم الأخيرة من الحدود الفاصلة بين الإسلام والعلمانية إلا أنهم ظلوا يحتفظون بمساحة من المراوغة بينهم وبين هذه الحدود أما هؤلاء التوفيقيين فقد وقفوا عند هذه الحدود وكادوا يلغونها تماماً. فعندما يقول الإخوان مثلاً: «لقد هيأ الإخوان أنفسهم وأعلنوا استعدادهم للالتزام بقواعد الديمقراطية»[1]. فإنهم يستطيعون أن يقولوا مثلاً للإسلاميين المعترضين: «إن ذلك لا يعنى موافقتنا على تطبيق الديمقراطية عند قيام الحكم الإسلامى». بينما يقول هؤلاء التوفيقيون إن الديمقراطية هى الشورى الإسلامية تماماً. ومن ثم فماذا يمكن أن يقال بعد ذلك؟!.

وهذا مجرد مثال لقضية خطيرة للغاية تتعلق بفكر هؤلاء المفكرين التوفيقيين ودورهم فى هذه المرحلة نود تناولها فى كتاب مستقل قريباً.

المهم أن ضغط الأنظمة الحاكمة لتطويع الحركات الإسلامية السياسية فى اتجاهها أدى إلى إفقاد مصداقية بعض هذه الحركات والاتجاه إلى عدم الاعتراف بشرعية تمثيلها للإسلاميين بل ودفع الحركات الإسلامية المضادة لها إلى المزيد من الرديكالية بل وإكسابها قدراً كبيراً من المشروعية.

(١) نقلاً عن د. عبد الحميد الغزالى، أساسيات المشروع الإسلامى.



١٢

دوافع الصدام

تمهيد :

ذكرنا من قبل أن الصدام بين الإسلام والغرب الأمريكى هو صدام حتمى، طالما استمرت دوافعه التى نحددها من جهة الإسلاميين فى إعاقة الغرب الأمريكى لقيام الحكم الإسلامى وتبنيه للكيان الصهيونى المغتصب للأراضى الإسلامية المقدسة فى القدس وفلسطين، والنهب الاقتصادى المنظم لموارد المستضعفين فى الأرض وفى مقدمتهم شعوب الدول الإسلامية من خلال فرض ومساندة الأنظمة الفاسدة والمستبدة على وجه الخصوص وما ينتج عن ذلك من مظالم ومآسٍ، والاعتقاد الخاطئ بأن هذا الغرب القائم يمثل امتداداً عقائدياً للغرب الصليبى القديم.

أما دوافع الصدام من جهة الغرب الأمريكى فهى خطر قيام الحكم الإسلامى، والخطر الإيديولوجى الذى يمثله الإسلام على الغرب، والتهديد الإسلامى لإسرائيل، والرغبة الدفينة فى الانتقام من الإسلام الذى مازال يسيطر على ممتلكات العالم الغربى القديم، أى أنه مازال منتصراً على الحضارة الغربية فى هذا الجزء من العالم.

وإن كانت هذه الدوافع جميعًا - بحسب ما نرى - ما هى إلا تجليات الصراع الكونى بين الرؤية الإسلامية للوجود والرؤية المادية البراجماتية له حيث إن كل منهما يعوق الآخر فى اتساقه الكونى مع رؤيته الخاصة فلن تكون هناك إمكانية للحوار بين الطرفين إلا بالتخفيف من حدة الدوافع المؤدية للصدام أو زوال بعضها على أقصى تقدير لأن زوالها جميعًا يمثل استحالة فلسفية وتاريخية ويتناقض من المنظور الإسلامى مع سُنة الله فى الكون.

والآن نقوم بتفسير هذه الدوافع .

إعاقة قيام الحكم الإسلامى هو الدافع الأساسى لحتمية الصدام بين الإسلام والغرب الأمريكى

يقرر الإسلام أن الله أنزل الكتاب من أجل أن يحكم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ . النساء : ١٠٥ .

ويحذر الله رسوله من أن يفتنه الناس عن بعض ما أُنزل إليه من أحكام بأن يصرفوه عنها إلى أحكام أخرى: **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فأعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾** . المائدة : ٤٩ .

ويحكم الإسلام بالكفر على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله من الشريعة .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[١] المائدة : ٤٤ .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ . المائدة ٤٥ .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ . المائدة : ٤٧ .

ليس هذا فقط وإنما حكم الكفر يقع أيضاً على المسلمين الذين يرفضون حكم الله [٢] :

﴿فلاوربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ . النساء : ٦٥ .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾. النور : ٥١ .

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخِيرَةُ من أمرهم﴾ . الأحزاب : ٣٦ .

---

(١) يفرق المفسرون والفقهاء بين الحكام الذين يرفضون الحكم بما أنزل الله أو يستهينون به والحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله مع إقرارهم بفضله وذلك لسبب من الأسباب كالإكراه مثلاً ويوقعون حكم الكفر على النوع الأول فقط من الحكام .

(٢) يجب التفرقة هنا بين رفض حكم الشريعة وعصيان حكم الشريعة ولا يقع حكم الكفر إلا على الرفض أو ما يأتى بمعناه كالاستهزاء بحكم الشريعة .

وذلك لأن الحكم لا يكون لغير الله وحده وأن الرجوع بالحكم إلى غيره هو عبادة لغيره :

﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ . يوسف : ٦٧[١] .

﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ . الأنعام ٥٧ .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ . يوسف : ٤٠[٢] .

وكل تحاكم إلى غير ما أنزل الله هو تحاكم إلى الشيطان نفسه أو تحاكم إلى من عظم طغيانه لأنه أعطى نفسه مالا يكون إلا لله وحده :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يُضلَّهُم ضلالاً بعيداً ﴾ . النساء : ٦٠[٣] .

وكل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلية أى حكم هوى :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقومٍ يوقنون ﴾ . المائدة . ٥٠ .

وبإدراكنا لهذا الترابط العضوى بين الإيمان والحكم فى الإسلام نستطيع أن نكتشف الدافع الأساسى للصراع بين الإسلام والغرب . فمن الطبيعى أن يكون التحالف الغربى الأمريكي مع الكيان الصهيونى المغتصب لفلسطين والأراضى المقدسة هو الدافع الأول لشعور المسلمين فى كل أنحاء الأرض بالعداء لهذا الغرب الأمريكى .

ولكن هذا التحالف مع الكيان الصهيونى يأتى فى مرحلة تالية فى دوافع العداء بالنسبة للإسلاميين الساعين إلى إقامة النظام الإسلامى فى البلاد . هذا العامل الذى يتم التواطؤ على تغافله هو الموقف الأمريكى والغربى بوجه عام من إقامة أى من الشعوب الإسلامية للحكم الإسلامى فى بلادها على مختلف الأشكال المطروحة لهذا الحكم والوسائل الساعية إلى تحقيقه .

والدلائل هنا على ذلك غير اجتهادية بل تعبر عنها وقائع تاريخية صارخة فلم يقم هذا الحكم فى بلد من البلاد فى غفلة من الزمان ـ أو فى ظل ظروف سياسية بالغة التعقيد تخرج

---

(١) ، (٢) يلاحظ أن الآيتين مكيتان وهذا له دلالته على أن الإسلام أكد على أن مرجعية الحكم لله هو جزء لا يتجزأ من التوحيد حتى قبل نزول الأحكام التشريعية .

(٣) جاء فى تفسير هذه الآية أن عمر بن الخطاب ضرب عنق الرجل المنافق الذى أبى قضاء الرسول وأراد قضاء عمر نفسه ثم قال عمر بعد أن ضرب عنق الرجل : هكذا أقضى لمن لم يرضى بقضاء الله ورسوله. فنزلت الآية . والرواية تدلل دلالة قاطعة على مدى الارتباط بين الإيمان والحكم فى الإسلام .

عن قدرة الإرادة الغربية على الإعاقة إلا وضرب عليه الحصار السياسي والاقتصادى من كل اتجاه واختلقت الأسباب الدافعة للنزاع بينه وبين جيرانه حتى يزج به فى حروب طويلة لا تنتهى إذا لم تؤد إلى إسقاطه فإنها تعمل على استنزافه ومن ثم عجزه وتفشيله حيث تقف الإرادة الغربية وراء كل ذلك إما بشكل مباشر من خلال الحصار السياسي والاقتصادى وإما بشكل غير مباشر فى مد الأطراف التى دُفعت للنزاع مع تلك البلاد بالمال والسلاح.

حدث هذا فى إيران ثم فى السودان والآن يحدث فى أفغانستان وإن اتخذ فى هذه الحالة الأخيرة شكل التدخل العسكرى المباشر أياً كانت وجاهة الأسباب الدافعة إلى هذا التدخل.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنه تم تعويق المحاولات الساعية إلى إقامة هذا الحكم فى الدول الأخرى وأبرز المحاولات الدالة على ذلك هو الحيلولة دون وصول الإسلاميين إلى الحكم فى الجزائر بعد أن جاءوا إليه بانتخابات نزيهة أشرفت عليها الجبهات المضادة لهم نفسها وإن كانت المواجهة مع الإسلاميين هذه المرة جاءت بإيعاز من فرنسا .

وبعدما أثيرت مشكلة البوسنة والهرسك حيث كان هناك إجماع غربى على الحيلولة دون إقامة حكم إسلامى فى أوروبا . ويتم التعلل فى سياق ذلك بأن إقامة مثل هذا الحكم أو مجرد وصول الإسلاميين إلى السلطة يهدد بإثارة النزاعات الطائفية والاعتداء على حقوق الإنسان ومحاربة الديمقراطية الغربية وقد اتخذت هذه التعلاّت منحى متطرفًا عند إثارتها فى تبرير الموقف الغربى فى مساندته للنظام العسكرى التركى فى إبعاده ـ بوسائل غير ديمقراطية ـ للإسلاميين الذين وصلوا إلى الحكم بوسائل ديمقراطية خصوصاً أن توجهات نجم الدين أربكان (الرفاه) تمثل أقصى ما يمكن أن تبلغه الطبعة الغربية من صفة الإسلامية .

والإسلاميون من جهتهم يرجعون هذا العمل الغربى على الحيلولة دون إقامة حكم إسلامى إلى مخاوف الغربيين مما يمكن أن يفرزه هذا الحكم من تناقض فى المصالح، لأن الحكم الإسلامى يعنى إعادة توجهات البلاد فى مسارات تتناقض مع مسارات التوجهات الغربية، الأمر الذى يهدد المصالح الغربية السياسية والاقتصادية . هذا بالإضافة إلى أن الاعتماد على منهج الشورى فى حكم البلاد يقتضى إفراز حكام مستقلى الإرادة يعملون لصالح البلاد وصالح الأمة الإسلامية جمعاء، وذلك لاعتمادهم على ما يتمتعون به من رصيد شعبى فى استمرار حكمهم وليس على المساندة الغربية الأمر الذى يخرجهم ويخرج البلاد معهم ـ إلى قدر كبير ـ من نطاق الهيمنة الغربية .

والمشكلة تبلغ عمقها فى تعامل الغربيين مع هذا الأمر على أنه أمر كمى قابل للتجزئة ومن ثم إمكانية التفاوض على قبول بعض أجزائه ورفض البعض الآخر حيث يعلن قادتهم أنهم

لا يرفضون الدين الإسلامى ولا يعادونه ولكن بالطريقة التى يتصورونه بها أو يريدونه عليها والتى أضحت - بعد التطمين عليها إعلاميًا - أية مخالفة لها نوعًا من التطرف.

أى أنهم يريدون ذلك الدين المتسامح لدرجة الحياد مع كل شىء الذى يستطيع مسايرة التوجهات السائدة للعصر دون أى تناقض مع المنظومة القيمية الغربية فى التفكير وذلك بعيدًا عما تقتضيه الأحكام المأخوذة من نصوصه والتى يجب تأويلها بالصورة التى تتجاوب مع هذه المنظومة. ويتجاهل الغربيون بذلك أن أى فصام بين إيمان الناس وإقامة الحكم الإسلامى هو أمر مستحيل لأن إقامة هذا الحكم كما بينا آنفًا يرتبط ارتباطًا عضويًا بالإيمان ذاته وأى تنازل عنه يعنى تخلى الناس عن إيمانهم وأن اتخاذ القهر وسيلة لإعاقة هذا الحكم هو صناعة حتمية لاتخاذ الإسلاميين وسائل القهر فى تنفيذه مما يعنى أن هذا الطريق الغربى هو إنتاج حتمى للإرهاب والإرهاب المضاد .

ولأنه ليس من المعقول مطالبة الناس بالتخلى عن إيمانهم فى سبيل رضاء الغرب فإن إصرار الغرب الأمريكى على إجبار شعوب العالم الإسلامى على التخلى عن الحكم الإسلامى وفرض مبدئه العلمانى فى الفصل بين الدين والدولة على هذه الشعوب يعنى الدفع الحتمى لطرفى النزاع إلى الصدام، وكذلك فإن أى حديث عن إمكانية التعايش والحوار بين الجانبين يتم فيه التغافل عن هذا الدافع الحتمى للصدام - يكون بمثابة إيهام خادع يراد منه رضوخ المسلمين لما يفرضه عليهم طاغوت الغرب الأمريكى من عبودية له بدلاً من عبودية الله الواحد القهار.

القضية الفلسطينية

«إننى أوارى وجهى من العار مما تفعله السياسات الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية»

السيناتور الأمريكى : بول فيندلى

المشكلة التى تواجهنى دائمًا عند التعرض للحديث عن القضية الفلسطينية هى : ما هو الجديد الذى يمكن أن يقال عن هذه القضية التى ظلت محور الدراسات طوال قرن كامل. وما هى النتائج التى يمكن أن نصل إليها سوى الاستسلام أو الجهاد؟ والإسلاميون ليس لديهم خيار آخر تجاه هذه القضية سوى الجهاد.

لقد كان الشيشانيون يواجهون هجومًا وحشيًا عند اندلاع الانتفاضة الفلسطينية وعلى الرغم من ذلك أصدروا بيانهم الأول ثم الثانى فى صوت القوقاز على الإنترنت يعلنون فيهما أن القضية الفلسطينية هى القضية المركزية للعالم الإسلامى وهو الأمر الذى يعبر عن رسوخ هذا الموقف فى الأمة الإسلامية جميعًا.

ولقد بدأ يتكشف للعالم الإسلامى نتيجة لتبنى الغرب الأمريكى الدائم للكيان الصهيونى المغتصب للمقدسات فى القدس وفلسطين، أن دور الغرب الأمريكى فى هذا الصراع هو دور مباشر وأن العلاقة التى تربطه بهذا الكيان ليست علاقة انحياز أو مساندة أو دعم كما هو رائج فى الأنظمة العربية نفسها ولا حتى علاقة تحالف وإنما هو علاقة عضوية ينوب فيها هذا الكيان عن الغرب الأمريكى فى تحقيق مصالحه فى المنطقة وكسر أنف العالم الإسلامى الذى طالما تطاول على الغرب فى العصور الماضية وأن الصهيونية الإسرائيلية ما هى سوى توظيف براجماتى للأساطير اليهودية القديمة بهدف الإحلال المادى الغربى فى المنطقة وإكسابه الشرعية الدائمة. ويتكشف لمفكريه أيضًا أن الدور الرهيب المزعوم للوبى "اليهودى فى الغرب الأمريكى يقتصر فى النهاية على تذكيره بما يؤديه الكيان الصهيونى من إنابة له فى تحقيق أهدافه ومن الطبيعى أن يكون كل ذلك دافعًا للعالم الإسلامى للصدام مع الغرب.

أما ما يعبر عنه الجانب (الإسرائيلى ـ الغربى) نفسه بمدى ما يمثله الإسلاميون من خطر

على الكيان الصهيونى هو ما يذكره شيمون بيريز على امتداد صفحات كتابه (الشرق الأوسط الجديد) من كون السلاح النووى الإسرائيلى يمثل التوازن الوحيد مع تصاعد المد الإسلامى فى المنطقة.

ولكننا نرى من جهة أخرى أن الحديث عن القضية الفلسطينية فى الأونة الأخيرة قد غدا وسيلة للإتجار التى تستظهر من خلاله الإخلاص للإسلام أو الوطنية وهى تعلم أنه لا يكلِّف أعباءً كبيرة نظراً لشبه الإجماع العالمى على الموقف من القضية ، ومن ثم هذه الاتجاهات من هذا الحديث عن القضية الفلسطينية ستاراً لها فى بيع القضايا الإسلامية الأخرى .

المظالم الاقتصادية والسياسية للغرب الأمريكي

أعتذر للقارئ بداية عما يمكن أن يصاب به من غثيان وشعور بالقيء مع نهاية هذا الفصل.

ولست في الحقيقة السبب لأنني مضطر من جهتي للتعرض لنظرية فوكوياما في نهاية التاريخ مادمت أتناول دافع المظالم السياسية والاقتصادية لصدام الإسلام مع الغرب. ولأننا تحدثنا عن هذه المظالم في مواضع متعددة من الكتاب فلابد أن نتعرض في هذا الباب لمناقشة أهم النظريات الضالعة في الدفاع عن الديمقراطية الليبرالية في هذا العصر والتي نقصد بها نظرية فوكوياما في الثيموس والتي سينتج عن قراءتها هذا الشعور بالغثيان والقيء لما يتضمنه الطور المادي العلماني الذي تعبر عنه هذه النظرية من عدمية بشعة.

وقد يغضب لفظ بشعة هذا المفكرين الغربيين إلى درجة التقزز من ذلك الشرقي الذي لا يزال يستخدم مثل تلك الألفاظ عند تناوله للنظريات الغربية المتقدمة، وهو ما يدلل لديهم على كونه لم يخرج من كهوف التخلف الشرقي بعد ومن ثم لم يستطع استيعاب مثل تلك النظريات العلمية التي يتجافى مع علميتها استخدام مثل تلك الألفاظ. ولكنني من جهتي أجد نفسي لا أستطيع الاحتفاظ بكينونتي كإنسان متعال عن المادية دون استخدام مثل تلك الألفاظ مع مثل تلك النظريات المعادية للإنسان المتعالي عداء مدمراً.

تقوم نظرية فوكوياما في الثيموس على تفسير كوجيف لهيجل الذي يصفه بأنه أفضل تفسير له في القرن العشرين ،وهو يرى مع ذلك أن هذا التفسير هو مزيج من أفكار هيجل وكوجيف معًا. وبحسب هذا التفسير، فإن المسار التاريخي يحدده الصراع من أجل نيل الاعتراف والتقدير (الثيموس) ولقاء الإنسان الأول بغيره من البشر يؤدي إلى صراع عنيف يسعى كل متنافس فيه إلى إجبار الآخر على الاعتراف به من خلال المخاطرة بحياته. وقد تسفر هذه المعركة الدموية عن نتيجة من ثلاث: فقد يموت المتصارعان فتنتهي بموتهما الحياة نفسها بشرية كانت أم طبيعية. وقد يموت أحد المتنافسين، فيظل المنتصر غير راضٍ عن الوضع إذ لم يعد ثمة وعي بشري آخر ليعترف به وقد تنتهي المعركة بعلاقة بين سيد وعبد، إذ يقرر أحد المتنافسين الإذعان لوضع العبودية مفضلاً إياه على خطر الموت. وحينئذ يشعر السيد بالرضا إذ خاطر بحياته ونال الاعتراف والتقدير بسبب هذه المخاطرة من كائن بشري آخر. وهذا

اللقاء الأول بين البشر الأوائل فى حالة الطبيعة بحسب نظرية (هيجل ـ كوجيف) أو نظرية فوكوياما بمعنى أدق يماثل تماماً فى عنفه حالة الطبيعة عند هوبز أو حالة الحرب عند لوك غير أنه لا يسفر عن عقد اجتماعى أو أى شكل من أشكال المجتمع المدنى الذى يسوده السلام، وإنما عن علاقة بعيدة كل البعد عن التكافؤ، وهى علاقة السيد بالعبد.

والإنسان إذ يخاطر بحياته من أجل المنزلة الخاصة يثبت قدرته على التصرف مخالفاً لأقوى غرائزه وأهمها ـ بحسب النظرية ـ وهى غريزة حفظ الذات أو كما يقول كوجيف، على الرغبة البشرية عند الإنسان أن تتغلب على رغبته الحيوانية فى الحفاظ على الذات، ولهذا فإنه كان من المهم أن تدور المعارك فى فجر التاريخ حول المنزلة وحدها أو على شىء تافه فى ظاهره كالوسام أو العلم الذى يعنى الاعتراف والتقدير.

فسبب دخولى الحرب هو أن أجعل كائناً بشرياً آخر يعترف بأنى على الاستعداد للمخاطرة بحياتى وأننى بالتالى حر وإنسان حقاً. أما إن نشبت المعركة الدامية لغرض مثل الدفاع عن عائلتنا أو تملك أرض العدو وممتلكاته (أو ما يسميه البورجوازيون المحدثون المتأثرون بفكر هوبز ولوك ـ بالغرض العقلانى) فالمعركة إنما تستهدف إشباع حاجة حيوانية أخرى. والواقع أن الكثير من الحيوانات الدنيا قادرة على المخاطرة بحياتها من أجل حماية صغارها أو قصر الأراضى التى تقتات منها، عليها وحدها. مثل هذا السلوك فى كلا الحالين تحدده الغريزة ويستهدف استمرار بقاء هذا النوع من الحيوانات، أما الإنسان فهو وحده القادر على خوض معركة دامية لا لغرض سوى لإظهار احتقاره للحياة وإثبات أنه أكثر من مجرد آلة معقدة أو عبد لعواطفه وإنه يتمتع بوقار إنسانى حقيقى لأنه حر. وليس من المهم أنه حر حقيقة أم لا، فإن كافة البشر يتصرفون وكأنما لهذه الإرادة الحرة وجود.

وحالة الحرب التى سادت حياة إنسان الطبيعة عند هيجل لم تؤد مباشرة إلى تأسيس مجتمع مدنى قائم على عقد اجتماعى خلاف ما ذهب إليه لوك وإنما أدت إلى قيام علاقة بين السيد والعبد وذلك حين اعترف أحد المتحاربين البدائيين نتيجة لخوفه على حياته بالمتحارب الآخر وقنع بأن يصبح عبداً له/ ولم تكن علاقة السيد بالعبد علاقة مستقرة فى المدى الطويل بالنظر إلى أنه لا السيد ولا العبد رأيا فيها إشباعاً لرغبتهما فى الاعتراف. ويمثل هذا الافتقار إلى الرضا ـ بحسب النظرية ـ تناقضاً فى المجتمعات التى تعرف نظام الرق وهو ما ولد الحافز إلى المزيد من التقدم التاريخى. فإن كان أول ما أقدم عليه الإنسان هو المخاطرة بحياته بخوض معركة دموية فإن تلك المخاطرة لم تحرره تماماً ولا هى أشبعته. وإنما كان بالوسع تحقيق ذلك من خلال التطور التاريخى اللاحق.

وإذا كان السيد يخاطر بحياته ليثبت أنه حر فإن العبد يستسلم لخوفه من القتل ويظل بالتالي حيوانًا خائفًا محرومًا، غير أن افتقار العبد إلى الحرية وعدم اكتمال إنسانيته هما مصدر المأزق الذى يعيشه السيد الذى يريد أن يعترف به إنسان آخر، أى أن يعترف بقيمته وكرامته الإنسانية إنسان آخر له قيمة وكرامة فإذا هو وقد كسب المعركة من أجل المنزلة يكتشف أن الذى اعترف به قد أضحى عبداً لم تكتمل إنسانيته لأنه استسلم للخوف الطبيعي من الموت. وبذا تكون قيمة السيد قد اعترف بها شخص لا يتمتع بآدمية كاملة، والعبد بدوره غير راض. غير أن سخطه لا يؤدى إلى جمود قاتل كما فى حالة السيد، وإنما إلى تغير خلاق مثرٍ. إنه بإذعانه للسيد لن ينال الاعتراف به كائنًا إنسانيًا، بل سيعامل وكأنه شيء وأداة لإشباع احتياجات السيد. فالاعتراف هنا هو من جانب واحد. غير أن هذا الافتقار التام إلى الاعتراف هو ما يخلق لدى العبد الرغبة فى التغيير.

وعن طريق العمل يستعيد العبد إنسانيته التى فقدها نتيجة خوفه من القتل. ففى بادئ الأمر كان العبد مجبراً على العمل من أجل إشباع حاجات السيد بسبب خوفه من الموت، غير أن الحافز على العمل عنده يتغير بمضى الوقت حيث يدرك أنه يستطيع تغيير الطبيعة وبذا يخترع التكنولوجيا. فالعلم الطبيعى الحديث ليس من اختراع السادة الذين يتوافر لديهم كل ما يشتهون، وإنما هو من اختراع العبيد المضطرين إلى العمل والساخطين على وضعهم الراهن. ويكشف العبد بفضل العلم والتكنولوجيا أنه يستطيع تغيير الطبيعة، لا البيئة الطبيعية التى ولد فيها فحسب وإنما طبيعته هو أيضًا. وقد تمكن العبد بفضل عمله من أن يحرر نفسه من قيود كثيرة فقد سيطر على الطبيعة وغيرها وفق مفاهيمه ثم أدرك واعيًا إمكان تحقيق حريته, وإتمام المسار التاريخى لا يتطلب عند هيجل أكثر من تحويل المسيحية إلى مذهب دنيوى، أى ترجمة للمفهوم المسيحى عن الحرية إلى معنى «هنا والآن». وهو يتطلب أيضًا معركة دامية أخرى يُحرر فيها العبد من هيمنة السيد. وقد رأى هيجل فى فلسفته نوعًا من تحول العقيدة المسيحية بحيث لا تقوم على أساس الخرافة (بحسب تعبير فوكوياما) وسلطان الكتاب المقدس، بل على أساس وصول العبد إلى المعرفة المطلقة والوعى الذاتى. لقد كانت الرغبة المستمدة لدى العبد فى نيل الاعتراف هى المحرك الذى دفع التاريخ إلى الأمام، لا رضا السيد عن نفسه وفكرته الجامدة عنها.

ولابد أن نتوقف هنا عند فكرة الثيموس ذاتها (الرغبة فى الاعتراف والتقدير) من حيث كونها الدافع الأساسى لتحريك مسار التاريخ. وما نراه أن الفكر الغربى العلمانى اعتاد دائمًا محاولة تفسير الصراع من خلال دافع رئيسى وحيد، هو عند ماركس الاقتصاد، وعند فرويد

الجنس، وهو هنا الرغبة فى نيل الاعتراف والتقدير. والواقع الإنسانى بحسب ما نراه يشهد بأن هذه الدوافع جميعًا تشترك مع دوافع أخرى فى تفسير المسار الإنسانى.

ولا أريد أن أتوقف كثيراً عند مدى تفوق دافع الثيموس عن الدوافع الأخرى، ومع ذلك تنبغى الإشارة هنا إلى أن هذا الدافع سواء تم وصفه بأنه مادى أو معنوى فإنه مازال يمثل الجانب الأنانى فى الإنسان الذى لا يسمح الفكر الغربى العلمانى بافتراض وجود غيره، فهو على الرغم مما يقوم به من تضحيات لا يزال لا يهدف إلا إلى إرضاء الأنا. ومن ثم لا يخرج عن الجانب غير المتعالى من الإنسان. ولا يمكن أن يكون بديلاً أو تفسيراً لدوافع أخرى توجه المسار الإنسانى مثل الدين أو الشعور الدفين بحب الحق والعدل وهى الدوافع التى تنطلق من الجانب المتعالى فى الإنسان.

فالثيموس لا يستطيع تفسير تضحيات الأنبياء والكثيرين غيرهم الذين يقبلون على تقديم تضحيات رهيبة دون أية رغبة فى نيل الاعتراف والتقدير. وفى الإسلام أشار سيدنا محمد ﷺ إلى هذا الجانب فذكر الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة ثم حدد المعيار الإسلامى الذى يخرج عن تلك التقديرات الغربية وهو أن يقاتل الرجل لتكون كلمة الله هى العليا. بل إن الحياة تفتقد القدرة على الاستمرار إذا فقدت هذا المداد المستمر من هؤلاء البشر. ومن ثم فليس غريبًا أن نجد أدباء عالميين بلغوا درجات مرتفعة من الإنسانية مثل فيكتور هوجو ودوستويفسكى يفترضون حتمية وجود أشخاص مثل فان فالجان فى بؤساء هوجو أو الأمير ميشكين فى أبله دوستويفسكى.

ومن ناحية أخرى فإن الثيموس يظل محدوداً فى تفسير جانب من جوانب الصراع الإنسانى ومن ثم لا يمكن تعميمه على كل البشر لأن جماهير غفيرة من هؤلاد البشر تندفع إلى الصراع تحت ضغط الغرائز الملحة فقط ولا يهمها فى شىء الاعتراف والتقدير.

وبحسب النظرية كانت الدولة الديمقراطية الليبرالية الحديثة التى نشأت فى أعقاب الثورة الفرنسية مجرد تجسيد - هنا والآن - للمثال المسيحى عن الحرية والمساواة العامة بين البشر ولا يعنى هذا أنها كانت محاولة لتأليه الدولة أو إضفاء طابع ميتافيزيقى عليها لا نجده فى الليبرالية الأنجلو - سكسونية وإنما كانت اعترافًا بأن الإنسان هو الذى خلق الإله المسيحى. وبأن الإنسان بالتالى قادر على أن يأتى بالله إلى الأرض ليقيم فى مبنى البرلمان أو قصر الرئاسة أو بيروقراطيات الدولة الحديثة.

والمجتمع الليبرالى عند هوبز ولوك وأتباعهما ممن وضعوا الدستور الأمريكى وكتبوا إعلان الاستقلال هو ثمرة لعقد اجتماعى بين أفراد لهم حقوق طبيعية معينة أهمها الحق فى الحياة

(أى الحفاظ على الذات) أو حق السعى من أجل السعادة الذى فهمه الناس على أنه يعنى الحق فى الملكية الخاصة، أما بحسب هيجل فإن المجتمع الليبرالى عنده هو ثمرة اتفاق بين المواطنين قائم على التبادل والمساواة ويقضى باعتراف كل مواطن بالآخر، فإن أمكن تفسير الليبرالية عند هوبز ولوك بأنها انتهاج سبيل الصالح الرشيد فإن الليبرالية هى السعى وراء الاعتراف الرشيد. أى الاعتراف على أساس عام، بحيث يعترف الجميع بكرامة كل امرئ باعتباره إنسانًا حرًا ومستقلاً ذاتيًا. والحياة فى ظل الديمقراطية الليبرالية هى الطريق إلى الوفرة المادية الكبيرة غير أنها تهدينا أيضًا إلى السبيل المؤدية إلى هدف غير مادى بالمرة هو الاعتراف بحريتنا، والدولة الديمقراطية الليبرالية تقيمنا على هدى إحساسنا بقيمتنا الذاتية. وهكذا يتوافر إشباع كل من القوة الشهوانية والثيموسية. فأى طفل يولد على أرض الولايات المتحدة أو فرنسا أو أى من الدول الليبرالية الأخرى يولد له حقوق معينة فى المواطنة. وليس من حق أحد أن يلحق الأذى بحياة ذلك الطفل سواء كان غنيًا أو فقيرًا، أسود أو أبيض، وإلا قُدِم للمحاكمة بمقتضى نظام العدالة الجنائى وسيكون له بمضى الوقت حق الملكية الذى تحترمه الدولة وسيكون له حق الخيارات الثيموسية مثل المشاركة السياسية من خلال التصويت فى الانتخابات الدورية أو المشاركة العملية المباشرة كترشيح نفسه لمنصب معين أو كتابة المقالات الافتتاحية تأييدًا لشخص أو موقف أو الخدمة فى بيروقراطية القطاع العام. وبهذا تمثل الديمقراطية الليبرالية المرحلة الأخيرة من تاريخ البشر لأنها مرضية تمامًا للإنسان. ويقرر فوكوياما نصًا أنه «يبدو أن ثمة اتفاقًا - إلا فى العالم الإسلامى - على قبول مزاعم الديمقراطية بأنها أكثر صور الحكم عقلانية»[1]. وهكذا يمثل الإسلام إزعاجًا دائمًا للمزاعم الغربية.

ويضرب فوكوياما المثل للأعمال ذات الصلة الثيموسية داخل الدولة الديمقراطية الليبرالية بحالة الشخصية المعاصرة «من طراز (أ)» التى تتمثل فى المحامى ذى الأجر المرتفع أو المدير التنفيذى للشركة أو مدير إدارة المرتبات اليابانى فى شركة يابانية تنافسية من الشركات متعددة الجنسية. فمثل هؤلاء الأشخاص بوسعهم فى سهولة العمل لمدة سبعين أو ثمانين ساعة فى الأسبوع مع إجازات متفرقة قصيرة وهم فى سبيل ارتقاء السلم الوظيفى قد يكون أجرهم أعلى بكثير من أجر أناس لا يعملون بمثل هذا النشاط غير أن درجة إقبالهم على العمل لا يمكن تفسيرها على أساس الأجر وحده. فالواقع أن سلوكهم غير منطقى بالمفهوم النفعى البحت. فهم يعملون بهمة لا تسمح لهم بوقت ينفقون فيه أموالهم ولا بالاستمتاع

---

(١) نهاية التاريخ: ص ١٨٩.

بالفراغ حيث إنهم لا يجدون وقت فراغ كما أن صحتهم تضيع فى هذه الأثناء وتضيع معها فرصة الاعتزال الرغد حيث إنهم عرضة للموت قبل الاعتزال.

فالواضح أن هؤلاء يجدون الرضا فى المركز أو الاعتراف الناجم عن العمل واحترام الآخرين لهم. بل وحتى ممتلكاتهم المادية لا يجدون المتعة فيها إلا لدواعى السمعة لا فى استخدامها الفعلى أى أنهم يقبلون على العمل لإرضاء الثيموس لا لإشباع الرغبة.

والآن وبحسب النظرية فإن مسألة نهاية التاريخ هى مسألة مستقبل الثيموس: ما إذا كانت الديمقراطية الليبرالية ستشبع الرغبة فى نيل الاعتراف على نحو كاف أم أن هذه الرغبة ستظل بصورة أساسية غير مشبعة. ويشير فوكوياما نفسه إلى أن ناقدى الليبرالية من اليساريين واليمينيين يثيرون احتمال ألا يمثل المجتمع الليبرالى الإشباع المتزامن للرغبة والثيموس، فسيقول النقاد اليساريون إن الوعد بتوفير الاعتراف العام والمتبادل فى المجتمعات الليبرالية غير متحقق وذلك لأن عدم المساواة الاقتصادية الناجمة عن الرأسمالية يعنى بالضرورة اعترافًا غير متكافئ ،أما النقاد اليمينيون فسيذهبون إلى أن مشكلة المجتمع الليبرالى لا تكمن فى افتقار الاعتراف إلى العمومية بصورة كاملة وإنما تكمن فى هدف الاعتراف المتكافئ نفسه. وهذا الأخير يمثل إشكالية حيث إن البشر هم بطبيعتهم غير متساوين ومعاملة البشر على أنهم متساوون لا تؤكد إنسانيتهم بل تنفيها. ويقرر فوكوياما أن ثمة صوراً لعدم المساواة يمكن إرجاعها إلى آليات السوق الرأسمالية: كتقسيم العمل فى الاقتصاد، وآليات السوق نفسها التى لا تعرف الرحمة.

وهنا نصل إلى محور ارتكاز النظرية كلها فهل تصنع الديمقراطية الليبرالية قدراً من المساواة والعدالة الاجتماعية يؤدى إلى الاعتراف المتبادل، وبذلك تنجح فى تحقيق فرضيات النظرية؟.

لا يستطيع فوكوياما نفسه أن يقر بذلك لأنه - كما يقول - لا يمكن تحقيق إنتاجية الاقتصاد الحديث دون تقسيم رشيد للعمل ودون أن يظهر فائزون وخاسرون، وحقًا إن المجتمعات الرأسمالية لا تعرف المساواة غير أن الحقيقة هى أنها تعرف قدراً من المساواة فى آثارها الاجتماعية أكبر كثيراً مما كان قائمًا بالمجتمعات الزراعية التى حلت الرأسمالية محلها ويرى فوكوياما أن كل الديمقراطيات الحديثة تقريبًا تنظم للنشاط التجارى والصناعى وتعيد توزيع الدخل من الغنى إلى الفقير وتقبل درجة من المسئولية عن الرخاء الاجتماعى من نظام التأمين الاجتماعى والمساعدة الطبية فى الولايات المتحدة إلى أنظمة الرفاهة الاجتماعية الأشمل نطاقاً فى ألمانيا والسويد.

وبدرجات أكثر التواء يقدم فوكوياما اعتذاراته عن عدم تحقيق الديمقراطية الليبرالية للمساواة القادرة على تحقيق التكافؤ فى نيل الاعتراف فقد حققت الديمقراطية الليبرالية مجتمع الطبقة المتوسطة وسمحت بدرجة عالية من الحراك الاجتماعي للكافة تقريبًا لكى يشاركوا الطبقة المتوسطة مطامحها وعلى الرغم من أن مجتمعات هذه الطبقة ستعرف درجة كبيرة من عدم المساواة فى نواحٍ معينة ـ بحسب تعبيره ـ غير أن أسباب عدم المساواة ستكون راجعة فيها وعلى نحو متزايد إلى عدم المساواة الطبيعى فى المواهب وتقسيم العمل الضرورى للاقتصاد وإلى ثقافة المجتمع.

والسؤال الآن: إذا كان الأمر كذلك وأن الديمقراطية الليبرالية لن تستطيع تحقيق المساواة القادرة على تحقيق التكافؤ فى نيل الاعتراف المتبادل بين أفراد المجتمع ـ بحسب النظرية ـ فعلامَ كان إرهاقنا بكل هذه القصة الخيالية الطويلة للمسار التاريخى من أجل الثيموس؟.

إن حجة فوكوياما بعد كل هذا التعب أن هذا أفضل ما يمكن تحقيقه وأنه «لم يكن بالوسع إزالة كل مظاهر عدم المساواة الاجتماعية، غير أن العوائق التى بقيت، هى عوائق ضرورية ولا يمكن استئصالها بسبب طبيعة الأشياء لا بسبب إرادة الإنسان»[1]. أى أن هذا أقصى ما يمكن تحقيقه بسبب الطبيعة ذاتها. فإذا كان الأمر كذلك فإن الثيموس سيستمر بحسب افتراضات فوكوياما ذاتها ومن ثم فلن تتحقق نهاية التاريخ التى قدم لها كل هذا التقديم.

ويقول هو نفسه: «يعني استمرار المظاهر الكبرى لعدم المساواة الاجتماعية حتى فى أكثر المجتمعات الليبرالية كمالاً استمرار التوتر بين المبدأين التوأم، الحرية والمساواة، اللذين تقوم عليها مثل هذه المجتمعات، وهذا التوتر الذى أشار إليه توكفيل بوضوح سيكون «لازمًا ولا يمكن استئصاله» طالما استمرت حالة عدم المساواة التى نشأ عنها هذا التوتر وستعنى كل محاولة لتوفير «الكرامة المتساوية» للمحرومين من الامتيازات تقليصًا لحرية أو حقوق الآخرين، خاصة حين تكون أسباب الافتقار إلى الامتيازات نابعة عن البنية الاجتماعية. فكل مكان يعطى لطالب وظيفة من أفراد الأقلية، أو كل تعليم جامعى بها بمقتضى برنامج عمل إيجابى يعنى ضياع مكان بالنسبة لآخرين وكل دولار تنفقه الحكومة على التأمين الصحى القومى أو رفاهية الشعب يعنى ضياع دولار على الاقتصاد الفردى وكل محاولة لحماية العمال من البطالة أو الشركات من الإفلاس تعنى تضييق مجال الحرية الاقتصادية. ذلك أنه ليس ثمة

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٥٤.

نقطة محددة أو طبيعة يمكن أن تتوازن عندها الحرية والمساواة، ولا ثمة سبيل إلى رعاية الاثنين في وقت واحد»[1].

ففوكوياما يقر بعدم تحقيق الديمقراطية الليبرالية للمساواة المنشودة نظراً لتناقض ذلك مع ما تحققه من حرية متحججاً في ذلك بما تقتضيه الطبيعة، ولذلك فهو يقول إن ما قدمته الديمقراطية الليبرالية هو أقصى ما يمكن تقديمه من مساواة اجتماعية. وهذا الكلام يأتي على طريقة بعض المتبجحين من المسئولين السياسيين الذين يواجهون حل المشاكل العويصة بالزعم بأنه ليست هناك مشاكل أصلاً.

فأين تلك المساواة الاجتماعية التي تقدمها المجتمعات الديمقراطية الليبرالية، خصوصاً في ذلك الوقت الذي تنحصر فيه الطبقة الوسطى التي يتحدث عنها فوكوياما، فأمريكا على سبيل المثال مازالت تتفاقم فيها مشاكل كالبطالة والتشرد والانحدار تحت منحنى خط الفقر، ولا يمكن أن يقال إن تلك التضحيات هي تضحيات واجبة لتوفير الحرية والكرامة التي تتمتع بها هذه المجتمعات وهو الأمر الذي يرضي الثيموس، لأن المرجعية القيمية في هذه المجتمعات تقوم على المعيار المادي فقط، أو النقدي تحديداً، وكلما نقصت النقود كلما انعدمت الحرية والكرامة أي انعدم الثيموس الذي يتحدث عنه فوكوياما. وهذه ليست نقطة نقد نقف عندها ثم نمضي إلى غيرها وإنما هنا يكون محور ارتكاز النظرية كلها، فالغاية هي إشباع الثيموس في النظرية وهذا يدعي تحقيقه في الديمقراطية الليبرالية بما وفرته من حرية وكرامة يجب أن يتم معه تحمل عدم المساواة في العدالة الاجتماعية لكن اللعنة التي تقوض النظرية كلها تأتي من الفلسفة النفعية التي تقوم عليها الديمقراطية الليبرالية أو على أقل تقدير القيمة المعيارية التي تسود في مجتمعاتها والتي تربط بين توافر النقود وتوافر الحرية والكرامة ومن يتلاشى تماماً ما يدعي توفره من الحرية والكرامة في هذه المجتمعات مع الإخلال في العدالة الاجتماعية نتيجة وجود هذا المعيار. ومن المدهش في الأمر أن هذه القيمة المعيارية لو تم استبدالها بالقيمة المعيارية الإسلامية في التقوى والفضيلة لاستقام ا لأمر إلى حد كبير مع هذا الإخلال في المساواة الاقتصادية لكن هذا ذاته لا يمكن تركيبه لأن تلك الديمقراطية الليبرالية لا يمكن تطبيقها إلا مع النفي التام لأي معيارية أخرى غير النفعية المادية ومن ثم تظل حاملة لتناقضاتها التي لن يصلح معها شيء ادعاءات فوكوياما أو تسويغاته. كما أن القيم الإسلامية من جهة أخرى لا يمكن تطبيقها مفرغة عن تصوراتها العقائدية. وما بالك إذا وضعنا في الاعتبار أن الرخاء الاقتصادي الذي تنعم به هذه المجتمعات الليبرالية هو قائم في الأساس على

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٥٥، ٢٥٦.

تراكم النهب من المجتمعات الأخرى طوال عهود الاستعمار وما بعدها وهو الأمر الذى لا يتوافر لتلك المجتمعات الأخيرة لتحذو حذوها. والذين يمضون فى هذا الطريق لا يلبثون أن يجدوا أنفسهم فريسة للسقوط فى شرك الرضوخ الذليل لصندوق النقد والبنك الدوليين أى الرضوخ فى فخ التبعية للدول الغربية. ثم كيف يقال إن هذه المجتمعات بما وفرته من حرية ورخاء قدمت أفضل الحلول للصراع الإنسانى بما تم إشباعه من الثيموس فى نفس الوقت الذى يرتفع فيها أكبر معدل للجريمة فى العالم؟ ثم إذا كان يتم التعويل على الطبيعة فى عدم الوصول إلى حل فلماذا يقدم فوكوياما نظريته إذن؟.

أما الحديث عما توفره الديمقراطية الليبرالية من حرية اعتناق الأديان فهو يأتى على حساب هذه الأديان، فتحقيق الديمقراطية الليبرالية يعنى تقليص الأديان جميعاً إن لم يكن محو خصائصها لأن الأديان جميعًا تستوجب قدراً من التدخل الاجتماعى وهذا ما تحجبه الديمقراطية الليبرالية ولذلك يأتى التناقض مع الإسلام على وجه الخصوص لأنه لا يقبل أى قدر من التقليص لأنه يقدم منظومة اجتماعية شاملة.

ويتحدث فوكوياما نفسه عن المعضلتين الأساسيتين اللتين تواجهان نظريته والنابعتين من نفس الأسس العلمانية (المناقضة للأديان) التى قامت عليها النظرية (وهذا أبشع ما فى الموضوع) فالعلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق جوهرى بين الإنسان والطبيعة وأن الحيوانات هى أيضًا قادرة على خوض المعارك من أجل المنزلة فلماذا يتمتع الإنسان بكرامة أوفر مما يتمتع به الكائنات الأخرى فى الطبيعة من أصغر الصخور شأنًا إلى أبعد النجوم؟ ولماذا لا تتمتع الحشرات والبكتريا والطفيليات المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان.

أما المعضلة الثانية فإنه بناء على افتراض تحقق المساواة والحرية فإن هذا سوف يقضى على التميز ـ فعلى حسب ما يرى فوكوياما فإن حقق الإنسان مجتمعاً ينجح فيه بالإطاحة بالظلم فإن حياته ستشبه حياة الكلب الذى يقنع بالنوم فى ضوء الشمس طوال اليوم شرط أن يطعموه، ولذا فإن الحياة الإنسانية تنطوى على مفارقة غريبة، فهى تبدو وكأنما تستلزم الظلم حيث إن الجهاد ضد الظلم يثير فى الإنسان أفضل ما فيه. ومن ثم فإن نهاية التاريخ تعنى أيضاً نهاية الفن والفلسفة وذلك حيث لن تكون ثمة حقب جديدة ولا تميز معين للروح الإنسانية يصوره الفنانون أو أن يقولوا شيئًا جديداً حقًا عن الوضع الإنسانى، ومع توقف الثيموس فإن الانتماءات القائمة على العائلة أو الوطنية ستتعرض للخطر الشديد لأن نجاح الزواج أو الدفاع عن الأوطان يتطلب تضحيات شخصية وهى تضحيات لا عقلانية إذا ما نظرنا إليها على

أساس حساب الربح والخسارة.

ولن أستطيع المضى مع فوكوياما أكثر من ذلك فى مناقشة معضلات نظريته التى يعتذر عنها بأن ذلك أقصى ما فى الإمكان تحقيقه ولا بديل غيره ليس فقط لأننا نكون بذلك قد شطحنا بعيداً عن نظريتنا نحن التى نقدمها فى هذا الكتاب ولكن لأن فوكوياما نفسه قد قفز مرة واحدة من عجزه عن إثبات تحقيق الديمقراطية الليبرالية للثيموس تحقيقًا كافيًا أو بمعنى أدق اعترافه غير المباشر بذلك ،إلى عرضه للمعضلات التى يواجهها مجتمع الديمقراطية الليبرالية بعد تحقيقه للثيموس وبلوغه بذلك مرحلة خاتم البشر. وهو أمر شديد المخادعة. ولكن ما يهمنى هنا أن فوكوياما فى سياق ذلك قرر أن الإسلام هو النظام الوحيد الذى يهدد الديمقراطية الليبرالية ولكن حجته فى أن تلك الأخيرة هى التى تمثل نهاية التاريخ ؛ أن النظام الإسلامى على الرغم من تهديده للديمقراطية الليبرالية فى بلاده إلا أنه لم يستطع منافستها فى بلادها نفسها. وهى حجة تنطوى على الكثير من الغرابة لأنها تفترض افتراضًا زائفًا بحيادية الظروف القائمة، فإذا كان النظام الإسلامى يواجه اعتراضًا قائمًا على القوة القاهرة من قبل الغرب لمنعه من التطبيق فى بلاده فكيف يكون تنافسه مع الديمقراطية الليبرالية تنافسًا حياديًا فى بلاد الغرب ذاته، وعلى الرغم من ذلك فإن الإسلام كعقيدة استطاع النفاذ إلى الكثير من العقول المفكرة فى الغرب الأمر الذى يعنى تقبلهم لنظامه وذلك لوعيهم الحتمى بشمولية الإسلام.

تهديد الإسلام الأيديولوجي للغرب
(الفكر التحتي الغربي والعبور من ما بعد الحداثة إلى الإسلام)

إذا كانت البراجماتية هي عملية انتقال بارعة من المذهبية الفلسفية إلى التبرير الفلسفي لكل ما هو قائم على أنه هو ما تفرضه الاحتياجات الإنسانية وعلى أنه الوحيد الذى يتلاءم مع افتراضها لمحدودية قدرتنا المعرفية فإنها في الوقت نفسه تمثل تعبيراً حقيقيًّا عن النسق الفكرى الذى انتهت إليه الحضارة الغربية في أقصى نموها المادى.

والذى يعنيه ذلك أن البراجماتية فلسفة تحايل وتكيف مع الواقع المعاش إلا أنه من نفس مضمون العجز الفلسفي الكامن في الفكر العلماني في أقصى تطوره الذى انطلقت منه الفلسفة البراجماتية انطلق اتجاه آخر يزاحم الفكر البراجماتي في العالم الغربي هو الاتجاه الذى تعبر عنه فلسفة ما بعد الحداثة.

وبالنسبة للحداثة فليس لها تعريف محدد متفق عليه بين الفلاسفة والباحثين فقد ترتبط لدى البعض بتاريخ الفكر العلماني منذ عصره الأول في الفلسفة اليونانية وقد ترتبط لدى آخرين بالتمرد الفكرى لعصر النهضة إلا أن أغلب هؤلاء يربطون بين الحداثة وعصر التنوير أو بقول أدق بمشروع التنوير وفكرته عن العقلانية الكلية أى البحث عن المعرفة اليقينية وعن وسيلة للسيطرة على قوى الطبيعة والمجتمع.

فإذا كانت الحداثة تمثلت كانعتاق من الرؤى الدينية والإيديولوجيات التأملية فإن ما بعد الحداثة ترى على حد قول ليوتار: «إمكانية التآكل الكامنة في نهج إضفاء المشروعية الآخر وهو جهاز الانعتاق المنبثق عن التنوير»[1].

فالموقف ما بعد الحداثي الذى ينطلق من التداعيات الفلسفية لا ينزع المشروعية فقط عن الرؤى الدينية والإيديولوجيات التأملية ولكن ينزعها أيضاً عن المشروعات الانعتاقية المضادة لها فيما بعد الحداثة تحمل من الحداثة الذات المنقسمة المفتتة لكنها «تمحو كل مسافة نقدية منها فهى «ضد الضد» حيث يكون ذلك لشيء أساسى هو عدم إمكانية المعرفة ومن ثم فهى ضد الاستلاب لأنه لم يعد ثمة ذات لتستلب ولا شيء يجرى الاستلاب عنه. فالأصالة لم

(١) الوضع ما بعد الحداثي ضمن مقالات كتاب ما بعد الحداثة: أحمد حسان: ص١٨٤.

ترفض بقدر ما نسيت ببساطة»[1].

وهذا الاتجاه يدين بالكثير للفيلسوف الألماني نيتشه، الذى كان يكتب فى نهايات القرن الماضى والذى أطلق على فلسفته أكثر من وصف، كالعدمية والفوضوية والوجودية. ونحن نلحظ فى أعماله أفكاراً عادت إلى الظهور فيما بعد البنيوية: كالعلاقة بين المعرفة والقوة ونسبية المعرفة وموت الإله.

بيد أن هذه الأفكار نمت وتطورت من خلال مرورها بمصفاة البنيوية وما بعد الحداثة فى الفنون.

ويمكن القول بأن الفكرة البنيوية التى تقول إن اللغة تصنع موضوعاتها الخاصة بها قد تطورت ـ خصوصاً فى أعمال جاك دريدا ـ إلى نظرية فى المعانى. ونقطة البدء فى هذه النظرية هى «أن المعنى لا يأتى بأية حال من الأحوال عن طريق العلاقة بشىء خارج اللغة، فليس هناك من شىء مطلقاً بإمكاننا البحث عنه ليضمن لنا المعنى، ليؤكد لنا أننا على حق. ويمكن وضع هذه الفكرة بصورة أخرى بالقول إنه لا يوجد من يلعب دور الإله، أى لا يوجد «مدلول متعال Transcendental Signified». غير أن ثمة صورة أخرى لنفس الفكرة تذهب إلى أن المعنى لا يكون حاضراً أبداً. بل هو دائماً فى مكان آخر.

ولقد تعلمنا، وبصورة مبسطة من البنيوية، أن معنى كلمة من الكلمات يعتمد فى علاقة تلك الكلمة بكلمات أخرى – أى أن المعنى يكمن بين الكلمات وليس فى العلاقة بين الكلمة والشىء– إننا نعرف معنى كلمة «كلب» فقط بسبب علاقتها بكلمات أخرى ذات صلة بالعلاقة التركيبية والجدولية، وليس بسبب أية صفات كامنة فى الكلمة ذاتها، أى أن المعنى يكمن دائماً فى مكان آخر وليس مضموناً بأى شىء من خارج ذاته، والعالم الذى نراه أمامنا هو من خلق المعانى ومصنوع بواسطتها، إذ ليس هناك من شىء غير المعانى.

إن مفهوم العلاقة يعنى ضمناً وجود شىء ما مدلول عليه، كما يشير مفهوم البنية إلى وجود شىء ثابت ومنتظم. أما اتجاه ما بعد البنيوية فإنه يتخلى عن هاتين الفكرتين، ويقول إن هناك مستوى واحداً فقط وهو مستوى السطح. وليس ثمة أعماق خفية فى الحياة، ومستوى السطح فى صورته الأولية يتسم بالفوضى واللامعنى – أى أنه لا يقر له قرار»[2].

وقد استخدم هؤلاء فى هذا المقام مجموعة من الاستعارات التى تبعث على الحيرة، لوصف

---

(١) تيرى إيجلتون – الرأسمالية المتأخرة والحداثة وما بعد الحداثة، المرجع السابق: ص٢٣.

(٢) إيان كريب – النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس: ص٢٧٤ : ٢٧٥.

هذه الحالة منها (الجسم من دون الأعضاء) على أن تصور الحياة باعتبارها فوضى لا معنى لها، وأنه يتعين علينا إسباغ شكل من أشكال النظام عليها، هو تصور له تاريخ طويل فى الفلسفة الأوروبية وله جذوره بوجه الخاص فى الفلسفة السوفسطائية كما أشرنا من قبل.

وينظر هذا الاتجاه إلى أى نظام قائم على أنه ناتج عن عملية تمايز داخل الفوضى - تذكر أن المعنى يكمن فى العلاقات فيما بين الكلمات - فى اختلافها وتمايزها عن بعضها البعض. وعملية الدلالة هى عملية إظهار هذه التمايزات: «وعندما نقول شيئاً فإننا نضفى على العالم نظاماً مؤقتاً لأننا نقوم بتعريف شىء ما وفقاً لعلاقته بشىء آخر.

والقول كثيراً ما يصفونه بأنه «حدث»، ومصطلح «الخطاب» يستخدم للإشارة إلى مجموعة أقوال أو أحداث ذات صلة ببعضها البعض»[1].

وهذا الاتجاه يقوض بذلك أى حس للنظام فى العالم وهذا هو مصدر الصبغة الفوضوية التى تصطبغ بها معظم كتابات ما بعد البنيوية، وتصبح التعددية فى التأويلات الممكنة نوعاً من المعيار الجمالى فى الفنون، ويغدو التأويل ذاته فى النقد الأدبى عملاً خلاقاً يضاهى فى قيمته العمل الأصلى الذى يقوم بتأويله.

وتشهد ثقافة ما بعد الحداثة أن الرأسمالية المتأخرة قد أدت إلى جعل الذات المعاصرة «شبكة مبعثرة مزاحة عن المركز من التعلقات اللبيدية المفرغة من الجوهر الأخلاقى ومن الجوانية النفسية فهى وظيفة عابرة لهذا الفعل أو ذاك من الاستهلاك أو خبرة وسائل الإعلام أو الموضة»[2].

ولذلك فالرؤية الما بعد حداثية تنظر إلى البراجماتية الاجتماعية على أنها «وحش يتشكل من تداخل شبكات عديدة من أنواع متنافرة الشكل من المنطوقات»[3].

وبحسب ليوتار فإن البراجماتية هى قواعد ذرائعية تعمل على إعادة تشكيل المجموع الاجتماعى بما يتوافق مع استمرار النظام «وفى داخل معيار السلطة لا يكتسب مطلب شيئاً فى المشروعية بفضل كونه قائماً على أساس عناء حاجة غير ملباة. فالحقوق لا تنبع من العناء.. وحاجات أشد المحرومين لا يجب أن تستخدم كمنظم للنظام من ناحية المبدأ. فحيث إن وسائل إشباعها معروفة فعلاً فإن إشباعها الفعلى لن يحسن من أداء النظام بل سيزيد من نفقاته»[4].

ويرى ليوتار أن كل معرفة تعرض بطريقة سردية، حتى المعارف العلمية لا بد أن تستعين

---

(١) المرجع السابق: ص٢٧٦.

(٢) تيرى إيجلتون - مرجع سابق: ص٢٧.

(٣) ليوتار - مرجع سابق: ص١٩٩.

(٤) المرجع السابق: ص١٩٨.

بالقصة إذا ما أريد فهمها بيد أنه يتشكل في وجود أى سرد مرجعى سواء تعلق بالعلوم أو العقل أو أى شيء كان يدعى قدرته على ضمان الحقيقة أو أى سرد جمالي يقدم مقاييس للجمال أو أى سرد أخلاقى يضع معايير للخير.

وهو يرى أيضاً في إشارته إلى ظاهرة ثورة المعلومات أو حوسبة المعرفة «أن السرد المرجعى قد تقوض نتيجة تحول المعرفة إلى رزم جاهزة. فلم يعد ينظر للمعرفة بوصفها قيمة عليا بل بوصفها سلعة لها فائدة و لذا فالمعرفة التى لا يمكن وضعها فى رزم مصيرها الزوال»[1].

واهتداءً بنيتشه، فقد قلب فوكو رأساً على عقب النظرة الدارجة عن العلاقة بين القوة والمعرفة: فلئن كنا اعتدنا على اعتبار المعرفة أداة تمنحنا القوة لفعل أشياء لم يكن باستطاعتنا القيام بها من دونها، فإن فوكو يرى «أن المعرفة هى فى ذاتها قوة نمارسها على الآخرين، لتحديد الآخرين. أى أن المعرفة ما عادت أداة للتحرير وأضحت أداة للاستعباد»[2].

التقدم الإسلامى الأيديولوجى فى الغرب هل هو بعد من أبعاد الصدام أم التلاقى؟

وخلاصة ما سبق أن ما بعد الحداثة «فلسفة لا عقلانية مادية لا تعرف البطولة ولا تعرف المأساة ولا الملهاة... فلسفة تدرك حتمية التفكيك الكامل والسيولة الشاملة، إذ يتم التوصل إلى أن كل شيء نسبى مادى وأن الفلسفة الإنسانية وهم. وأن الاستنارة المضيئة حلم وعبث وأن الواقع فى حالة سيولة حركة (مثل المادة الأولى) وأن ليس ثمة ذات إنسانية متماسكة ثابتة ولا موضوع طبيعى / مادى ثابت متماسك (فهذه كلها مجرد تقاليد لغوية و عادات فكرية وصور مجازية)، وحتى إن وجدت الذات ووجد الموضوع فلن يتفاعلا، إذ لا توجد لغة للتواصل أو التفاعل»[3].

وما نراه هو أننا أمام موقفين إدراكيين لبلوغ النسق الفلسفى الغربى العلمانى مرحلة العجز الكامل عن الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنسانى، بعد إجهاده تماماً عبر مسيرة تطوره الحضارى.

الأول موقف تحايلى يقدم الإلهاء الحسى المتواصل بديلاً عن البحث الفلسفى وبذلك يتم تكريس الوعى الغربى فى اللهاث وراء رغبات تتجدد على الدوام ولا يمكن تلبيتها أبداً وهذا هو الموقف البراجماتى.

---

(١) إيان كريب - مرجع سابق: ص٢٨٠.
(٢) المرجع السابق: ٢٧٧.
(٣) عبد الوهاب المسيرى ـ موسوعة العلمانية.

والثاني موقف جاد صريح مع النفس يعترف بهذا العجز ويستسلم له بما يحمله ذلك من تشرذم ولا جدوى وانهيار، وهذا وهو الموقف المابعد حداثي.

وإذا كان الموقف الأول هو الموقف الأكثر إغراء للجماهير والنخب السياسية والاقتصادية فإن الموقف الأخير هو الأكثر قرباً من جدية العلماء والفلاسفة والعقول المفكرة الغربية على وجه العموم.

وهذا يعنى أنه مع الافتراض الطبيعي بوجود قلقين فى هذا الموقف الما بعد حداثي فإن ذلك قد يدفعهم إلى البحث عن الحقيقة في نسق آخر غير النسق العلمانى وإذا كان النسق الإسلامى هو النسق الوحيد الذى ينافس النسق العلمانى فإن الموقف المابعد حداثي بما يمثله من نقطة نهاية للنسق العلماني قد يكون هو المعبر الذى تنتقل إليه العقول الغربية المفكرة إلى النسق الإسلامى.

وليس شرطاً أن تصل هذه العقول تماماً إلى الموقف المابعد حداثي حتى تنتقل إلى الإسلام ولكن المهم أن تملك من الجدية ما يجعلها ترفض ذلك الموقف البراجماتى الإلهائى ومن ثم يدفعها قلقها هذا إلى التماس البديل فى النسق الإسلامى. وما يجعل الإسلام هو النسق الوحيد المرشح لذلك هو كونه النسق الذى يجمع بين العقلانية والروحانية فى نفس الوقت. أى بين تلبية مطالب العقل والروح معاً حيث أن عقلانيته تتسق تماماً مع غيبياته الواضحة المحددة.

وهذا الذى نقوله هو ما يحدث بالفعل حيث يتقدم الإسلام كعقيدة تقدماً رهيباً فى الغرب مجتذباً في ذلك على وجه الخصوص العقول المفكرة فيه من العلماء والمفكرين والفلاسفة.

والقائمة طويلة فى هذا الإطار لا مجال هنا لذكر الكثيرين منها ولكن ممن اشتهر منهم على كل حال وغدوا من أعلام الإسلام فى الغرب: جارودى وموريس بوكاى ومراد هوفمان.

وكثيراً ما يروى الدكتور زغلول النجار فى محاضراته عن عشرات العلماء الغربيين الذين يعلنون إسلامهم فى المؤتمرات التى تعقد عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم لما يجدونه من تطابق بين ما يقوله القرآن عن حقائق الإنسان والطبيعة وما يجدونه فى العلم. بيد أن التعمق فى إسلام هؤلاء لا بد أن يؤدى إلى إدراك اقتناع هؤلاء أولاً ببساطة العقيدة الإسلامية وعقلانيتها قبل تسليمهم بإعجاز القرآن. وهكذا يقول مراد هوفمان: «إن الإيمان بالإسلام هو الطريق الطبيعى للمفكر الأوروبى».

والحاصل من كل ما سبق أن الإسلام كعقيدة بحتة يمثل خطراً أيديولوجياً على الهوية الغربية بإحرازه تلك الانتصارات المتتالية على الأيديولوجية العلمانية بكافة صورها فى

الغرب. وليس بعيداً مع الاطراد المستمر لهذا الانتصار الأيديولوجى فى المستقبل أن يجد الغرب قادته من المفكرين والعلماء قد صاروا فى غالبيتهم مسلمين الأمر الذى يعنى إنهاء الهوية الغربية تماماً لصالح الإسلام وتحول أبناء الغرب ذاتهم إلى قادة الإسلام فى العالم.

وهذه النقطة على وجه التحديد لها مردود متعاكس لدى كل من الإسلاميين والغرب من حيث النظر إليها على كونها دافع للصدام أم ركيزة من ركائز الحوار والتلاقى.

فالإسلاميون ينبغى أن ينظروا إلى تقدم الإسلام فى الغرب على أنه فى حد ذاته بعد من أبعاد التعايش والحوار مع الغرب بل والأكثر من ذلك أنه يسقط أحد مبررات الصدام مع الغرب والمتعلق بإعاقة الدعوة الإسلامية فى بلاده. ولا يقال فى ذلك إن ثمة معوقات للدعوة موجودة بالفعل هناك لأنه يجب النظر إلى هذه المعوقات قياساً لما هى عليه فى بلاد المسلمين ذاتها. وعلى هذا الأساس فإننى أحسب أن الفرصة التى هيأتها الإنجازات الإنسانية للحضارة الغربية - التى نعترف بها على نسبيتها - كالحرية والديمقراطية للدعوة الإسلامية فى هذه البلاد قد تكون أكبر من الفرصة المهيأة لها فى بلادها.

أما من المنظور الغربى فمما لا شك فيه أن هذا التقدم الإيديولوجى الإسلامى بما يمثله من خطر على الهوية الغربية يعد من هذا المنظور نقطة من أهم النقاط الدافعة للصدام.

الجهاد والدعوة
موقف الإسلام من الآخر بين الدعوة والجهاد

دعوة الإسلام (لا إله إلا الله) تدور حول مضمونين أساسيين هما : إفراد العبودية لله وحده ، وتحرير الإنسان من أية سلطة تحول بينه وبين إقراره بهذه العبودية أو إنكارها .

فالآية ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ لا تعنى فقط رفض الإسلام إكراه الناس على الإيمان بوحدانية الخالق ولكنها تعنى أيضاً رفض الإسلام لأية سلطة تحول بين الإنسان وبين حريته في إقرار هذه العبودية أو إنكارها . وحيث إن الإسلام دعوة للعالمين فإن الهدف الذى يحكم علاقته بالآخر هو إبلاغ دعوته إلى الناس وفى إطار هذا الهدف تأتى المنظومة الإسلامية التى تحدد علاقة المجتمع المسلم بالآخر غير المسلم. فالآخر بالنسبة لنا نحن المسلمين ليس انتماء لجنس أو حضارة مغايرة فكما تقول الآية : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ كل بنى آدم لا فرق بين مسلم وسواه وكذلك ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف : «كلكم لآدم وآدم من تراب» و«الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

وكل ما يهدفه المسلم من الآخر بحسب (المنظومة الإسلامية) هو الهداية فكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها»، و«لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم» .

ولجوء المسلمين إلى القوة - بحسب ما يفرضه دينهم - لا يكون إلا عندما تكون هى سبيلهم الوحيد لإزالة العوائق التى يضعها الطواغيت للحيلولة بينهم وبين دعوة الناس إلى الهداية أو عندما يعمل هؤلاء الطواغيت على إكراههم هم أنفسهم على ترك دينهم وكل ذلك فى حدود الاستطاعة ووفق شروط قصوى تجعل من استخدام القوة هو الحل الوحيد للخروج من توابيت الاستعباد الأرضية وليس الحل المفضى إلى ما هو أسوأ .

ونستطيع من هذا المدخل السابق أن نتبين المنطلق الأساسى لفكرة الجهاد فى الإسلام .

فحقيقة الجهاد فى الإسلام تتباين مع اتجاهين يشيعان عنه . الأول يذهب إلى أن الجهاد فى

الإسلام هو مقاتلة الكفار حتى إعلانهم الإسلام أو الموت .

وهذا الاتجاه هو ما كان يردده المستشرقون عادة عن الإسلام بقصد التشنيع عليه . ويبدو أن الدكتور أيمن الظواهرى - كما يفهم من كتاباته- ذهب إلى نفس الموقف دوه مبالاة بما يعنيه ذلك من تنفير لغير المسلمين .

والاتجاه الثانى يذهب إلى أن الجهاد فى الإسلام لا يرتبط إلا بحالة ضرورة الدفاع عن المسلمين والمجتمع الإسلامى وهو المذهب الذى نادى به الشيخ محمد عبده وينشط الكثيرون الآن من دعاة ترويض الإسلام على ترويجه .

بيد أن ما توافق عليه المفكرون الإسلاميون فى العصر الحديث هو أن الجهاد شرع لإزالة السلطات التى تحول بين الناس وبين دعوة لا إله إلا الله) وراشدهم فى ذلك هو قول الصحابى الجليل ربعى بن عامر لقائد الفرس رستم حين سأله لماذا جئتم إلى هنا ؟. فقال له : جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلما سأله : وماذا تطلبون ؟

قال له : الإسلام.

قال : فلو لم نجبكم ؟

قال : فخلوا بيننا وبين الناس ندعوهم إلى الله .

قال : فإن لم نفعل ؟

قال : الجزية .

قال : فإن لم نفعل؟

قال : الحرب .

إذن فالمسألة تدور حول هدف أساسى هو بلوغ الناس الدعوة إلى الله وأن تكون حرة فى خيارها سواء آمنت بهذه الدعوة أو لم تؤمن، ومن ثم فإن السلطات التى تعمل على إعاقة ذلك يجب إزالة رهبتها من خلال إجبارها على دفع الجزية أو بإزالتها تماماً من خلال الحرب . فذلك هو المقصود من كون أن الهدف من الجهاد هو جعل كلمة الله هى العليا .

بيد أن المشكلة تكمن فى التعامل مع النصوص بشكل جزئى وهو ما يتحقق عنه قدر كبير من الالتباس خصوصاً بالنسبة لقضية الجهاد، لأن النصوص الكثيرة التى وردت عن الموضوع

فى القرآن أتت مواكبه لمسيرة الرسول الجهادية والتى استمرت حوالى عشرة سنوات ومستجيبة لما تتطلبه الوقائع التفصيلية التى خاضها الرسول وصحابته من أحكام . هذا غير ما تشتمل عليه الآيات من توجيه معنوى للمؤمنين .

ولذلك فهناك ثلاثة أنواع من الآيات فى هذا الموضوع :

* آيات تشتمل على قواعد عامة فى العلاقة بين المسلمين والكفار.

* آيات تتعلق بالأحكام الخاصة بالجهاد فى وقائعه المختلفة .

* أحكام تتعلق بالتوجيه المعنوى للرسول والمؤمنين .

والخطأ الذى يحدث أن يأخذ البعض أحكام الجهاد والموقف من الآخر (الكفار) من بعض الأحكام التفصيلية فى القرآن .

فإذا أردنا أن نلتمس القواعد العامة التى تحكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الكفار علينا أن نذكر قاعدتين أساسيتين .

* القاعدة الأول : هى حرية العقيدة، وذلك لقوله تعالى «لا إكراه فى الدين» وعلى الرغم من أن المعنى هنا كونى ويتحدث فى شئون العقيدة ومن ثم لا يمكن نسخه حيث لا نسخ فى أحكام العقائد فإن قوله تعالى : «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» . هو قول حاسم لا يحتمل أدنى احتمال للنسخ لأن الشطر الأول من الآية يتحدث عن أن الله نفسه لم يشأ ذلك فكيف يجوز لغيره أن يشاء ما يخالف مشيئته، وهكذا يأتى الاستنكار على أن يفكر الرسول صلى الله عليه وسلم مجرد التفكير فى ذلك فى شطر الآية الأخير .

ولا يعقل بأى شكل من الأشكال أن يأتى استنكار الله فى القرآن لهذا الأمر العقائدى بكل هذا الحسم ثم يأتى البعض حاملاً حديثاً يتعلق بواقعة من الوقائع ليقول لنا إن هذا الحديث نسخ الآيتين ! إن مثل هذا الكلام لا ينقض الآيتين فقط وإنما ينقض المعنى العام المقصود من الدين كله والذى يقوم على التكليف وحرية الإرادة والحساب فى الآخرة .

* القاعدة الثانية : هى التفرقة بين المحاربين وغير المحاربين من الكفار كما جاء فى قوله تعالى فى سورة الممتحنة :

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين

وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون».

فهاتان الآيتان تمثلان القاعدة الأساسية في التعامل مع الكفار التي يجب أن ينظر للأحكام المتعلقة بالوقائع الجزئية الواردة في الكثير من الآيات الأخرى على ضوء هديها.

والآيتان تفرقان بين نوعين من القواعد ينطبقان على نوعين من الكفار:

القاعدة الأولى: وتنطبق على الكفار الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من ديارنا وهؤلاء لم ينهانا الله أن نبرهم ونقسط إليهم.

القاعدة الثانية: فتنطبق على الكفار الذين قاتلونا في الدين وأخرجونا من ديارنا وظاهروا على إخراجنا أو فعلوا معنا ما يماثل تلك الأفعال. فهؤلاء ينهانا الله عن موالاتهم مجرد الموالاة و من يفعل ذلك يكون من الظالمين.

والقاعدة المفترضة التي ينبغي على المسلمين أن يعاملوا الكفار بعامة على أساسها هي القاعدة الأولى أي قاعدة البر بالكفار والقسط إليهم ما لم يثبت العكس أي ما لم يثبت أن الفئة من الكفار التي نحن بصدد الحكم عليها لم تقاتل المسلمين أو تؤذيهم في دينهم. فإذا ثبت على هذه الفئة أنها فعلت ذلك حكم عليها بالقاعدة الثانية (قاعدة عدم الموالاة) وكذلك أحكام الجهاد الأخرى ولكن دون أن يعمم ذلك على غيرها من الكافرين.

والدليل أن القاعدة الأولى هي القاعدة المفترضة أساساً في التعامل مع الكافرين أن الله رتب أحكام القاعدة الثانية على الفعل وليس على عدم الفعل «الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم»، ومن ثم فهي استثناء من الأولى وليس العكس.

وعلى ضوء ما سبق يفهم ببساطة خصوصية الأحكام الواردة في مثل قوله تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مَنًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها».

وقوله تعالى: «واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل».

فالأحكام الورادة في هذه الآيات لا تتعلق بالكافرين عامة وإنما بالكافرين المحاربين الذين تنطبق عليهم القاعدة الثانية ويكون من الظلم الشديد والافتئات والتشنيع على الإسلام أن يزعم البعض تعلق هذه الأحكام بالكفار الذين تنطبق عليهم القاعدة الأولى أي على الكفار بعامة ابتداء، فهذا يعني تطبيق الحكم على غير محله وليس دليل ذلك مخالفة هذا التطبيق

للقاعدة الأساسية التى تفرق بين الكفار المحاربين وغير المحاربين فقط وإنما يوجد الدليل أيضاً فى نص كل آية بنفسها، ففى نهاية الآية الأولى يأتى قوله تعالى «حتى تضع الحرب أوزارها» أى أن هناك حرباً قائمة بالفعل كانت لها الأسباب التى أدت إليها. وفى نهاية الآية الثانية يأتى قوله تعالى: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم». أى أن الاعتداء من هؤلاء الكافرين على المؤمنين كان سابقاً للحكم.

وإذا قلنا إن قاعدة البر بالكفار والقسط إليهم هى التى تنطبق على الكفار بعامة إلى أن يثبت العكس فإن ذلك لا يرتبط بعهد أمان وإنما هذه قاعدة أساسية مفترضة مع الآخرين من الكفار وإنما يتطلب عهد الأمان حدوث الاحتكاك والتنازع فيكون عهد الآمان هو القاعدة التى تحكم العلاقة بينهم وبين المسلمين بعد نشوب هذا الاحتكاك والتنازع.

وفى ظل القواعد السابقة فإننا نخالف ما ذهب إليه الدكتور أيمن الظواهرى أو بعض مناصريه من إباحة قتل الكفار من الغربيين دون تفرقة بين مدنيين أو غير مدنيين. وأن العلاقة بيننا وبينهم يحكمها الإسلام أو القتال ويكفينى الإشارة هنا إلى أن ذلك يتناقض تماماً مع ما ذهب إليه الشهيد سيد قطب الذى يجله الظواهرى فيما ذهب إليه فى كتابه (الإسلام والسلام العالمى) ومن ثم فعليه الرجوع إلى الكتاب فإما أن يسلم به وإما أن نستمع إلى نقده.

١٣

الملا عمر

رمز براءة الحلم الذبيح

الذين قدموا طالبان قربانًا للإله الأمريكى

تمهيد :

وعلى الرغم من دراستنا فى أهمية الفنون من الناحية الإسلامية (نظرية الفن الإسلامى) لكننا لم نعرف أبدًا أن هناك حضارة واحدة فى التاريخ اعتبرت التقدم فى هذه الفنون معيارًا حضاريًّا أهم من توفير الأمن والعدل والفضيلة ؟! كما أننا لم نعرف أبدًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم جعل من التقدم فى الفنون معيارًا للإسلامية أهم من العقيدة الإسلامية نفسها ؟!! أو جعل هذا التقدم هو معيار المرجعية الإسلامية ذاتها حتى يكون ذلك مبررًا أن يقدم هؤلاء الإسلاميون طالبان قربانًا للإله الأمريكى؟!!

كم هو ممرور وبشع ومخز كل هذا الزيف ؟.

بدأ مشروع هذا الكتاب منذ أكثر من عام مضى. وكنا نتوقع تماماً بحسب نظريتنا الواردة فيه حدوث ما حدث وما هو أكثر منه بيد أن الحق يقال أننا كنا نحتمل بلوغ طرفي النزاع إلى حالة الصدام الحتمى بعد نحو عقدين من الزمان ولكن التصورات العقلية المحددة لما يمكن أن يتطور إليه الواقع شيء والانفجارات الناجمة عن التوترات المحتقنة شيء آخر. وهكذا حدث ما حدث.

ومع ذلك فإننا نرى تقديم هذا الفصل على حالته التى كان عليها منذ عام، وفى نهايته يأتى تناولنا للأحداث الأخيرة.

عولمة الحرب ضد الإسلاميين.. كل النيران تتجه صوب وسط آسيا

ما الذى يجمع بين الغرب والصين وروسيا؟ إن فرقاء الدنيا يجتمعون الآن على شيء واحد؛ هو القوى الإسلامية الناهضة فى وسط آسيا فمن داخل تلك المنطقة تصدر كل الأخطار التى تهدد الجميع. هذا فى المدى القريب أما على المستوى الاستراتيجى فالأمر أكبر من ذلك كثيراً فماذا لو تحققت الآمال ونجحت مساعى إسلاميى تلك المنطقة فى الاستقلال والوحدة والنهضة؟

يبدو أن الأمر من هذا المنظور أكبر من تحمل القدرة على تصوره. إذن فليس هناك بد من الحصار العالمى الذى تتحقق فيه العولمة السياسية والعسكرية بأعظم صورها إلى الدرجة التى تفوق من الناحية الواقعية ما حدث من حصار عالمى للعراق فى حرب الخليج الثانية والذى قاده الغرب بينما وقف الروس والصينيون منه موقف المناوئ غير المكترث.

إن رأس ابن لادن المقيم فى أفغانستان التى تطلبها أمريكا بأى ثمن هى نفسها التى يطلبها الروس وغيرهم بأى ثمن أيضاً.

وقد تجد فى الصفحة الواحدة من جريدة الأهرام أو الحياة اللندنية الخبرين منشورين معاً، أحدهما يطلب رأس بن لادن من جانب أمريكا والآخر يطلبه من جانب روسيا.

دخل الإسلام فى هذه البلاد فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وتوطدت أركانه فيها على يد القائد قتيبة بن مسلم فى أواخر القرن الأول الهجرى.

ورغم أن الإسلام دخل إلى بلاد ما وراء النهر بواسطة القادة العسكريين وجيوشهم

المتكونة من البدو والمزارعين الذين انتقلوا إلى هذا الإقليم، لكن من الخطأ القول أن الإسلام قد فرض على السكان، فالإسلام لم ينتشر فى آسيا الوسطى بالقوة، فالدين الجديد انتشر بين السكان بواسطة التجار المسلمين الذين انتقلوا إلى هذه المناطق فى فترة الفتح الأولى. وكان أول الدعاة المسلمين الذين وصلوا إلى آسيا الوسطى من الصوفية، ومما ساعد على ترسيخ الإسلام فى الذهنية المحلية قدرته على التشرب بالأعراف الاجتماعية، وقد اندمجت آسيا الوسطى مع الخلافة العربية الإسلامية فى وقت لم يتوطد فيه الإسلام بعد. وساهم فى انتشار الإسلام هناك علماء الدين الإيرانيون، الذين عاشوا فى إيران ثم فى آسيا الوسطى. ولم يمنع الإسلام الأديان الأخرى ولم يحظرها وتعامل مع أتباعها بتسامح. كما ساعد الإسلام وطور عملية اندماج الناس وبناء البلدان المركزية، وأعطى أوضاعاً أفضل لتطوير الجماعات الأثنية، وأغنى الثقافة من خلال القيم الخالدة الأساسية للقرآن التى تبنتها المجتمعات فى آسيا الوسطى.

غزا جنكيزخان تركستان واحتلها عام ١٢١٩ حتى نهاية القرن الثالث عشر. وحكمت آسيا الوسطى من قبل حكام غير مسلمين، وأصبح الدين الإسلامى ليس ديناً رسمياً. وتغير الوضع خلال حكم الخليكاد، فقد أسلم الحاكم (خازان خان) وتبنى المذهب السنى، واتبع مثاله فى منغوليا، حيث جرى بناء الجوامع فى منغوليا وخاصة فى منطقة تبريز التى تعتبر عاصمة مقاطعة خليكاد. وعاد الإسلام ليصبح ديناً رسمياً فى عهد الحاكم (كيباك خان) (١٣٢٦ - ١٣١٨م) وأنشأ هذا الحاكم روابط قوية مع المراكز الثقافية الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر. وازدهر الإسلام وانتشر فى آسيا الوسطى بشكل كبير فى فترة انتشار المذهب الشيعى بين الأتراك والإيرانيين.

تميزت الأوضاع السياسية فى آسيا الوسطى بعدم الاستقرار، بسبب غارات البدو الرحل على الجيش المنغولى، مما أضعف سيطرة المنغوليين على أجزاء منها إلى حين تأسيس إمبراطورية تيمور لنك المنغولية فى كافة أنحاء آسيا الوسطى ابتداء من عام ١٣٣٦ حتى عام ١٤٠٥م، فقد أسس تيمور لنك إمبراطوريته فى كل مناطق ما وراء النهر فى القرن الرابع عشر. كان تيمور على طغيانه الشديد حاكماً مسلماً يرفع الراية الإسلامية ويظهر رغبة كبيرة فى نشر الإسلام بين قبائل البدو. ودعم نشاط الدعاة المسلمين بينهم.

وما لا يعرفه الكثيرون أن موسكو نفسها وكل الأراضى الروسية ظلت تحت الحكم الإسلامى المغولى لأكثر من قرنين حتى تم إخراج المسلمين منها على يد إيفان الرهيب عام ٨٥٥هـ/ ١٤٨٠م. وسياسة الإبادة الشاملة التى اعتاد قادة الكرملين اتباعها تجاه المسلمين هى

سياسة قديمة موغلة فى القدم منذ أن بدأت على يد إيفان الرابع أو (إيفان الرهيب) كما سماه المسلمون والذى كان يضع المسلمين بين خيارات ثلاثة إما أن يهجروا ديارهم أو دينهم أو الإبادة.

طالبان: بؤرة النار.. من هم ومن أين جاءوا؟

هم مجموعات من الشباب من طلاب العلم الشرعى الذين شاركوا فى الجهاد الأفغانى ضد الشيوعيين ثم عادوا بعد انتهاء الحرب إلى التفرغ للعلم والدراسة ثم كان أن اندلع الصراع بين قادة الفصائل الأفغانية - كما هو معروف - بعد الاستيلاء على العاصمة الأفغانية كابول وتحريرها من الحكم الشيوعى وتسبب هذا الصراع فى خراب كبير وفوضى شاملة سقط خلالها ما لا يقل عن ثلاثين ألف قتيل ونحو مائة ألف جريح بخلاف من شردوا وهجروا ولم تنجح كل الجهود والوساطات فى الوصول إلى نهاية لهذا الصراع.

ولم تفلح أيضاً الصيغ المقترحة لتقاسم السلطة بين الرفقاء الذين غدوا فرقاء! حيث حلت الأثرة محل الإيثار، وأثبتت الأيام أن قوة المؤثرات القبلية والمذهبية، كان لها دفع أكبر من قوة دفع الجهود الإصلاحية، ولهذا أجهضت محاولات الصلح. وبدا شبح التقسيم يهدد أفغانستان، بعد أن سكنتها أشباح أخرى تمثلها الحرب الأهلية والمجاعات والأزمات والمؤامرات الداخلية والخارجية، بل إن خطراً آخر برز فى الآفاق ظل يتهدد أفغانستان، هو عودة السيطرة الأجنبية فى أثواب جديدة، بل لم يعد مستبعداً أن تعود الشيوعية نفسها بعد أن استعاد أذنابها عافيتهم، بعدما أنعشتهم روائح الدخان والنار والدمار!

ومن رحم الأزمة وعنفوانها ولدت الحركة فخطفت الأضواء وغيّرت الأجواء.. ولدت حركة الطلاب لتكون صرخة ميلادها احتجاجاً تاماً على ما وصلت إليه الأمور. جاء الوليد ليقول لكل من ساهموا فى إخراجه وميلاده العسير:

أن كفوا.. قفوا.. انتهوا..!

واندفع طلبة العلوم الإسلامية فى مدينة قندهار إلى إعلان مقاومة الفساد والشيوعيين والأحزاب معاً فى ربيع الثانى عام ١٤١٥هـ.

وكان أول بروز إعلامى لحركة الطلبة فى منتصف شهر نوفمبر من عام ١٩٩٤م فى مدينة (قندهار) العاصمة الملكية القديمة، تلك المدينة التى تفلّت زمامها ليصير إلى أيدى السرّاق.

ولنترك الآن الملا عمر يتحدث بنفسه عن البداية كما جاءت فى حديث بثته إذاعة صوت

الشريعة في قندهار الناطقة باسم حركة طالبان:

«كنت أدرس في مدرسة (ببلدة سنج سار في قندهار) على حوالي ٢٠ من زملائي الطلاب، فسيطر الفساد على وجه الأرض، واستشرى القتل والنهب والسلب، وكان الأمر بيد الفسقة والفجرة، ولم يكن أحد يتصور أنه من الممكن تغيير هذا الوضع وإصلاح الحال، ولو فكرت أنا أيضاً وقلت في نفسي **(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)** لكفتني هذه الآية ولتركت الأمر لأنه لم يكن في وسعي شيء، لكنني توكلت على الله التوكل المحض، ومن يتوكل على الله هذا النوع من التوكل لا يخيب أمله أبداً.

لعل الناس يتساءلون متى بدأت هذه الحركة؟ ومن كان وراءها؟ ومن يمولها؟ ومن يوجهها ويديرها؟ وأقول: بداية الحركة أنني طويت الكتب في المدرسة في «سنج سار» وأخذت معي شخصاً آخر وذهبنا مشياً على الأقدام إلى منطقة «زنجاوات»، واستعرت من هناك دراجة نارية من شخص اسمه «سرور» ثم ذهبنا إلى «تلوكان».. هذه هي بداية الحركة، وأخرجوا كل تصور غير هذا عن أذهانكم.

فبدأنا نزور الطلاب في المدارس وحلقات الدرس في صباح ذلك اليوم، وذهبنا إلى حلقة درس يدرس فيها حوالي ١٤ شخصاً فجمعتهم في دائرة حولي وقلت لهم: إن دين الله يداس تحت الأقدام، والناس يجاهرون بالفسق، وأهل الدين يخفون دينهم، وقد استولى الفسقة على المنطقة كلها يسلبون أموال الناس ويتعرضون لأعراضهم على الطرق العامة.. يقتلون الإنسان ثم يسندونه إلى حجر على قارعة الطريق، وتمر به السيارات ويرى الناس الميت ملقى على قارعة الطريق ولا يجرؤ أحد أن يواريه التراب.

قلت لهم: لا يمكن الاستمرار في الدراسة في هذه الظروف، ولن تحل هذه المشاكل بالشعارات المجردة، نريد أن نقوم نحن الطلبة ضد هذا الفساد، إن أردتم العمل لدين الله حقيقة فلنترك الدراسة. وأصارحكم القول بأنه ما وعدنا أحد أن يساعدنا بروبية واحدة حتى تظنوا أننا سنوفر لكم الطعام، سنطلب الطعام والمساعدة من الشعب.

قلت: إن هذا ليس عمل يوم ولا أسبوع ولا شهر ولا سنة، بل سيأخذ وقتاً طويلاً.. هل تستطيعون القيام بذلك أم لا؟ وكنت أشجعهم وأقول لهم إن هذا الفاسق الجالس في مركزه مثل القدر الأسود لشدة الحر (وكانت تلك الأيام في فصل الصيف شديدة الحر) يحارب دين الله علانية، ونحن ندعي أننا من أهل دين الله ولا نستطيع أن نقوم بعمل شيء لنصرة شرعه.

قلت لهم: إننا إن فتحنا منطقة سندافع عنها، ثم لا تعترضوا لعدم وجود دراسة أو لعدم

توفر المال والسلاح.. فهل تستطيعون القيام بهذا العمل أم لا؟ فلم يوافق أحد من هؤلاء الـ١٤ على القيام بهذا العمل، وقالوا يمكن أن نقوم ببعض الأعمال أيام الجمعة، فسألتهم من سيقوم به في الأيام الأخرى؟ أشهد الله على أن الحقيقة هي هذه، وإنني سأشهد بذلك أمام الله عز وجل يوم الحشر. هذه الحركة نتيجة للتوكل المحض، لأنني لو قست على هذه الحلقة باقي المدارس والحلقات لعدت إلى مدرستي، لكنني وفيت بالعهد الذي كنت قطعته على نفسي لله تعالى فعاملني بما ترون، فذهبت إلى حلقة درس أخرى وكان فيها حوالي ٧ طلاب، فعرضت الأمر عليهم كما عرضت على طلاب حلقة الدرس الأولى فاستعد الجميع للعمل.

هؤلاء كلهم أمة واحدة، لم تكن بينهم فروق الشباب والشيخوخة أو الطفولة والشباب أو الذكورة والأنوثة، لكن هذا العمل كان مبنياً على حكمة من الله فأوقعني منذ بدايته في الامتحان، فتجولنا على هذه الدراجة إلى صلاة العصر على المدارس وحلقات الدرس حتى استعد ٥٣ شخصاً من أهل التوكل، فعدت إلى مدرستي وقلت لهم تأتون غداً في الصباح، البداية.. إن العمل بدأ قبل أن تمضي على الفكرة ٢٤ ساعة، وكان أحد أصدقائي يصلي بالناس، فلما صلى بهم صلاة الفجر قال أحد المأمومين: إنني رأيت الليلة في المنام أن الملائكة دخلت إلى «سنج سار» وكانت أيديهم ناعمة فطلبت منهم أن يمسحوني بأيديهم (للتبرك).

وطلبنا في صباح الغد الساعة العاشرة سيارتين من «الحاج بشر» (أحد تجار المنطقة) فأعطانا سيارتين سيارة صغيرة وسيارة شحن كبيرة، فنقلنا هؤلاء الطلاب إلى منطقة «كشك نخود» وانضم إلينا آخرون، ولما كثر العدد استعرنا الأسلحة من الناس فكانت هذه هي بداية هذه الحركة حتى استمرت» أهـ.

* هل كان قادة المجاهدين القدامى على معرفة بالأفراد البارزين في حركة (طالبان) أم أن هؤلاء - كما يشاع - نكرات مجهولون لا يعرف لهم أصل ولا انتماء؟

- الحقيقة أن كثيراً من قادة المجاهدين المعروفين قد أثنوا - في مبدأ الأمر - على قادة الحركة باعتبار أشخاصهم بل قد راهن الكثير منهم على أن يضموهم إلى صفوفهم أو أن يستفيدوا منهم على الأقل.

فحكمتيار الذي يشاركهم في الانتماء - حاول استمالتهم مظهراً الود لهم ولكنهم لم يشاركوه تلك المشاعر، بل رأوا فيه مسئولاً أساسياً عن الدمار الذي حاق بأفغانستان بعد الحرب!.

أما أحمد شاه مسعود فقد كف عنهم في البداية متجمداً - لا حباً فيهم - بل بغضاً في حكمتيار ولعلهم يشاركونهم في التخلص منه. وأما الشيخ سياف - وهو من أصدق القادة

لهجة فيما نظن - فقد أثنى عليهم أشخاصاً لا حركة وقد سئل عن (طالبان) فى حديث صحفى أجرته معه جريدة الحياة (٧ / ٢ / ١٤١٧هـ) : فقال : «قادتها معروفون لدينا» وقصارى ما أخذه عليهم عدم استقلالية قرارهم ولكنه قال أيضاً لمجلة الإصلاح عندما سألته عنهم : «هم أحبابنا ولازالوا على صلة بنا وبعضهم فى المواقع المرموقة فى قيادة الطالبان يصارحوننا بأنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون» (الإصلاح: ١٥ / ٢ / ١٤١٧هـ) ولكن الشيخ سياف كان يشارك القادة الآخرين نظرة الاستهانة بقدرات تلك الحركة فى بدايتها حتى إنه عندما سئل فى المجلة نفسها عن مدى تهديد طالبان للعاصمة - قبل دخولها قال : «أعتقد أنهم ليسوا على مستوى الاستيلاء على العاصمة». أما ربانى فكان على معرفة جيدة بقادة (الطالبان) وقد صرح بذلك فى بداية الأمر فقال : «تعاونا مع طالبان منذ البداية وقدمنا لهم كل الدعم غير أن هذا التنظيم تخلى عن مبادئه الأصلية».

أما يونس خالص فكان منذ البداية متعاطفاً مع حركة الطلبة، بل إنه شاركهم عملياً فى مساعيهم لتوحيد البلاد تحت حكومة واحدة، وخاصة عندما طلبت منه حركة طالبان أن يتولى تأمين العاصمة كابول، عندما حشدوا أكثر قواتهم صوب مزار الشريف فى المحاولة الأولى لفتحها.

فالحاصل هنا أن الزعماء البارزين فى حركة طالبان كانوا معروفين لدى الزعماء البارزين من قادة المجاهدين القدامى، وهذا مهم فى نفى صفة النكارة عنهم، والتى يتعلق بها منتقدوهم ليصفوهم بعد ذلك بما هو أسوأ كوصفهم بأنهم عملاء لباكستان وأمريكا.. أو من الشيوعيين القدامى، أو أصحاب توجهات علمانية خفية.. إلخ !!

مسيرة الحركة فى توحيد أفغانستان

كان لقادة حركة الطلاب نظرة ثاقبة فيما يتعلق بعلاج مشكلة الصراعات فى أفغانستان، وتتلخص نظرتهم فى ضرورة تخليص البلاد من القوى والعناصر المتسببة فى استمرار الشقاق ! إذن لا بد من توحيد ولايات أفغانستان من أقصاها إلى أقصاها تحت قيادة موحدة لا عنصرية ولا قبلية ولا مذهبية، وقد تبلورت هذه النظرة وتحولت إلى هدف ثابت بعد النجاحات التى أحرزتها الحركة بإخضاعها لولايات عديدة لسيطرتها بعد قندهار، وقد لمسوا من جموع الشعب الأفغانى ترحيباً بهذا التوجه ! فالناس قد سئموا من الخلافات والعداوات والمواجهات التى لا يدفع ثمنها الباهظ إلا البسطاء والفقراء من أرزاقهم ودمائهم وأرواحهم. ورأى هؤلاء البسطاء فى حركة الطلاب أملاً يلوح فى الأفق، فانحازوا إلى صفهم، وكان أهالى

كل ولاية يحدثون غيرهم عن أحوال ولايتهم بعد مجيء الطالبان، حيث عم الأمن، وعادت التجارة، وانعدمت القلاقل والفتن التي كانت تحدثها العصابات المسلحة في كل مدينة، وكان شباب الطلاب عندما يقدمون إلى ولاية من الولايات يقدمون بين أيديهم وفوداً من علماء الدين، ليطلبوا من زعماء القبائل النزول لحكم طالبان، حتى لا تزهق الأرواح أو تزداد الفتن، ثم يعقب تلك الوفود، قدوم الجنود رافعين المصاحف بأيمانهم والسلاح بشمائلهم، فكان الصلحاء من الناس تتعلق قلوبهم بالمصاحف رغبة، أما غير الصلحاء فكانت ترتعد فرائصهم من السلاح رهبة. وتتالت فتوحات حركة الطلاب، حتى دانت لهم المدن والولايات وسيطروا خلال عام واحد على ما يقرب من ثلث أراضي أفغانستان!.

كل هذا، والقادة الكبار يرون فيهم حركة طارئة، ونبتة طرية، يدفعها حماس فوار لن يلبث أن يفتر، وتجربة قليلة قصيرة لن تلبث أن تخفق.. وكل الأطراف سائرة فيما هي ماضية فيه غير عابئة بهذه (السحابة) المارة، حتى الأمم المتحدة، ظلت ماضية في خططها لتسويات تمكّن للقوى الغربية في أفغانستان، عن طريق عناصر من غير الفصائل، والفصائل بدورها ظلت ماضية فيما يشبه لعبة الكراسي الموسيقية، تتناوب التحالفات والتعاهدات.. وتتقلب في الولاءات والعداوات.

وفي سبتمبر من عام ١٩٩٥م انتهت الحرب الأهلية، بين حكمتيار ورباني، تلك الحرب التي كانت عجباً في انتهائها، كما كانت عجباً في ابتدائها، حيث عاد المصطرعون من حيث بدأوا، فقد تصالح حكمتيار بعد خراب الديار مع أحمد شاه مسعود (القائد العسكري لرباني) وعلل حكمتيار قبوله للصلح بقوله: «في الواقع لقد بدأوا يقدمون لنا - يقصد رباني وحكومته - تنازلات أكثر مما كنا نطالبهم به أثناء وجودنا في جهارسياب»! ولكن تنازلات رباني لم تكن هي في الحقيقة السبب في المصالحة والتحالف فيما يظهر، بل كانت منازلات (الطالبان) هي السبب والمحرك الرئيسي لهذا الانقلاب المفاجئ، فحكمتيار الذي كان يمطر كابول بوابلات النيران، ولم يستطع أحد صده ولا رده أخرجته حركة قوات طالبان - من معاقله في جنوب كابول، حيث كان يتمركز في (جهارسياب).

وغدت قوات الطلبة رقماً صعباً يتهدد كل القوى الرئيسة في أفغانستان، فبعدما طرد حكمتيار من (جهارسياب) تحركت قوات طالبان إلى أكبر المدن الواقعة تحت سيطرة رباني بعد كابول وهي مدينة (جلال أباد) فأسقطتها بعد قتال خفيف مع القوات الحكومية في (٢٥ / ٤ / ١٤١٧هـ الموافق ٩ / ٩ / ١٩٩٦م) أما العميل العتيد (دوستم) فقد تعجل تسوية الخلاف مع الحكومة الائتلافية الجديدة لينسق معها في مواجهة (طالبان) وكان قد تم إشراك

دوستم في منصبين وزاريين في حكومة حكمتيار.

ولكن طالبان لم تترك لغرمائها فرصة لالتقاط الأنفاس، فحكمتيار واصلت طالبان مطاردته في معقله الجديد في (ساروبى) وبالفعل تم لطالبان السيطرة على معقله الثاني، وظلت قوات طالبان تتعقب المدن التي كان يسيطر عليها رباني، حتى لم يعد يسيطر، قبل فتح كابول - إلا على خمس ولايات من أصل ثلاث وثلاثين ولاية. ثم انتقلت قوات طالبان إلى مدينة (كونار) بعد أن استدعى (سميع الله) أمير الجماعة السلفية طلاب جماعته من باكستان لقتال (الطالبان) وتم لقوات طالبان دخول مدينة (كونار) وأخرجوا منها سميع الله الذى كان وزيراً أيضاً في وزارة حكمتيار.

فتح كابول

ظلت الولايات الكبرى تتساقط الواحدة تلو الأخرى في أيدى مقاتلي (الطالبان) ولكن العاصمة كانت لا تزال في أيدى التحالف الحكومى بزعامة رباني، إلا أن عين الحركة كانت على العاصمة وهي تزحف من حولها في كل جانب، وظلت الأطراف كلها تراهن على الاحتفاظ بالعاصمة، بكل ما يعنيه ذلك من التمتع بمركز القوة الأكبر في البلاد، ولكن قوات الطلبة، استجمعت قواها، وحفزت عزائمها، ثم توجهت بكثافة كبرى نحو العاصمة في ١٤ / ٥ / ١٤١٧هـ الموافق ٢٧ / ٩ / ١٩٩٦م وتمكنت من دخولها في ذلك اليوم دون مقاومة كبيرة[١].

لقد تعمدت وسائل الإعلام الغربية توجيه كافة الاتهامات البشعة لطالبان بداية من التشكيك في انتماءاتها إلى وصمها بالوحشية والهمجية ووصولاً إلى اتهامها بالمسئولية عن ترويج الجانب الأعظم من تجارة المخدرات في العالم. وباتت تتردد تلك الاتهامات في العالم أجمع وكأنها مسلمة من المسلمات، ونعرض للكاتب إقبال أحمد الأستاذ الجامعي المقيم بواشنطن جانباً من هذه الاتهامات.

يقول الكاتب: إذا كان لنا أن نستعير تعبيراً من ونستون تشرتشل، فإن انتصارات حركة طالبان تمثل «لغزا مغلقا بطلسم! ويجد المرء أن لهذه القصة الغريبة ثلاثة أوجه جديرة بالاهتمام: الأول أن هذه الحركة، التي برزت منذ سنتين كواحدة ليس إلا من الميليشات «الإسلامية» المتصارعة في أفغانستان، تمكنت بسهولة تثير التساؤل من إحراز انتصارات كبيرة. الوجه الثاني أنها عندما تتمكن من السيطرة على منطقة ما فإنها تمارس سلطتها

(١) المعلومات السابقة الواردة عن أفغانستان تم استخلاصها من عدة أعداد من مجلة البيان ومن موقع طالبان على الإنترنت في ذاك الوقت.

بوحشية قل نظيرها، فى التاريخ الإسلامى. وثالثاً، هناك ترحيب الحكومة الأمريكية بحركة طالبان، على رغم ادعاء واشنطن الدائم بالدفاع عن حقوق الإنسان واعتبارها «الأصولية الإسلامية» خطراً على السلام العالمى. ما هى اللعبة خلف هذه المفارقات؟.

لم يكتف الكاتب بذلك بل أضاف: يتسم قادة طالبان بالجهل والتزمت، وليست لهم أية مهارة فى التفاوض والمساومة. وهناك شائعات عن دور أمريكى فى دعم طالبان. ودعمت هذه الشائعات زيارة وزيرة الخارجية الأمريكية المساعدة روبن رافيل إلى قندهار مركز طالبان فى نيسان (أبريل) الماضى واجتماعها هناك إلى قادة الحركة. إلا أن السؤال الذى يطرحه المراقبون فى إسلام آباد هو: ما الذى يدعو أمريكا إلى مساعدة «الأصوليين المتشددين» هؤلاء؟ وأيضاً، ما الذى يدعو طالبان للقاء هذه الامرأة الأجنبية السافرة»؟ أما إيران فهى تتهم واشنطن علناً (وإسلام آباد سراً) بمساعدة الحركة. وفيما تنفى إسلام آباد التهمة، فإن من الصعب، فى عمليات سرية كهذه، العثور على أدلة قاطعة نفياً أو إثباتاً.

من أين جاءت طالبان؟

هذا التساؤل قد أجبنا عليه فى الصفحات السابقة ولكن يبرز الحديث الآن عن دور المخابرات الأمريكية والباكستانية فى تصاعد القوة الطالبانية، كما أن هناك العديد من التساؤلات الأخرى التى تشغل الإسلاميين بوجه حول حقيقة الاتهامات التى ذكرناها سابقاً لحركة طالبان. وفى محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات ذهب الكاتب فهمى هويدى إلى أفغانستان ليعايش واقع الشعب الأفغاني فى ظل حكم طالبان وسجل انطباعاته عن ذلك فى سلسلة مقالات بجريدة الشرق الأوسط عام ١٩٩٨ وانتهى إلى الآتى:

أنه فى داخل أفغانستان ثمة اتفاق بين أغلبية الذين تحدثت إليهم على أن لباكستان دوراً بارزاً فى تدعيم الحركة والأخذ بيدها، لكنهم يتحفظون على فكرة «إنشاء» باكستان للحركة. ثم إنهم لا يعرفون شيئاً عن دور للمخابرات المركزية فى العملية، والذين لا يستبعدون ذلك الدور يقولون إنه لا بد أن يكون قد تم من خلال المخابرات الباكستانية.

وذكر الأستاذ هويدى أن المخابرات الباكستانية انتبهت إلى أهمية طالبان بعد عملية إنقاذ قافلة قندهار التى تحدثنا عنها نقلاً عن مجلة البيان فقد كانت تلك القافلة تحت قيادة كولونيل من المخابرات الباكستانية اسمه السلطان أمير.

إذن فالحركة قامت ومضت فى طريقها بعيداً عن أى تعاون وتلقاها الناس بالقبول كطوق نجاة من نيران الفصائل المتناحرة وما تخلف عنها من شيوع عصابات السلب والنهب وقطع

الطريق. فلا عيب إذا تلقت الحركة المساعدة بعد ذلك مادامت تلك المساعدة لن تثنيها عن توجهاتها وإنما هو نوع من تلاقى المصالح.

إلى أى مدى من الممكن أن يكون الخلاف بين الإسلاميين مشروعاً؟.

الذين قدموا طالبان قرباناً للإله الأمريكى

تلك هى الإشكالية التى يفرض علينا مواجهتها الواقع البشع والخزى الذى نعيشه الآن حيث تمارس أعتى القوى المادية فى الأرض (أمريكا) شتى أشكال التنكيل بآلاف المسلمين فى أفغانستان وتعد العدة لملاحقة أمثالهم فى دول أخرى.

هل من الممكن فى ظل هذا الواقع أن تبارك بعض الفصائل الإسلامية تلك الممارسات البشعة ضد الطلبانيين ومن معهم من المدنيين لا لشىء إلا لأن «هذه الحركة بدلاً من أن تنشغل بتعمير بلادها الخربة خرجت للبحث عن عدد من تماثيل بوذا لتدميرها وكابرت أمام نصائح علماء المسلمين بأن تكف عن هذا السفه وبدلاً من أن تشغل عقولها بالمدارس والجامعات لم تر سوى فرض اللحية والبرقع وتحريم الموسيقى والتليفزيون والسينما»؟! [1].

قبل أن نجيب على السؤال الكبير المذكور سالفاً، لابد أن نتوقف أولاً عند تلك المآخذ السابقة، ونتساءل: هل تلك المآخذ هى التى تشكل أهم عناصر التطبيق العملى للمفهوم الطلبانى للإسلام (فطلبان لم تدع يوماً أنها تقدم مشروعاً حضارياً) أم أن هناك الكثير من الإيجابيات الأكثر أهمية التى يجب ذكرها للحكم الطلبانى مثل نشر العدل والفضيلة والأمن بين الناس؟!..

إننا نقر أن إصرار طالبان - وليس قرارها فى حد ذاته - على تدمير تماثيل بوذا هو الذى كان يجب أن تحترز منه. وهو نفس الأمر الذى ينطبق تقريباً على أمور أخرى مثل تحريم الموسيقى ومعاقبة حالق اللحية.

(أما موقف طالبان من العلم فأكذوبة مختلقة فهم أنفسهم طلبة علم ولم يوقفوا تعليم النساء إلا انتظاراً لتغيير المناهج العلمانية بمناهج إسلامية).

ولكن مع ذلك يجب التفرقة بين إدانة أخطاء الطلبانيين وبين إدانة حكمهم بوجه عام ومباركة تنكيل الأمريكيين بهم وبمن معهم من المدنيين وتجاهل الجوهر الإسلامى الأساسى الذي قام عليه حكمهم وما نشروه من عدل وأمن وفضيلة لتبرير تلك المباركة.

---

(١) د. صلاح عز، جريدة الحياة، ٦ ديسمبر.

فمعيار الأبيض والأسود هو معيار خاطئ للتطبيق على أى اتجاه فى العالم فلماذا يتم تطبيقه الآن على طلبان فى ظل التسويق السياسى لأمريكا من جانب بعض الإسلاميين وهو الأمر الذى أبى الانزلاق إليه المنصفون من الغرب أنفسهم حيث كتبت صحيفة الأوبزرفر البريطانية (نقلاً عن الأهرام: ٦ ديسمبر) «إذا كان سقوط طالبان قد أثار فرحة الغرب فأخذت صحفه ووسائل إعلامه تتحدث عن الحرية التى تنتظر الأفغان والحقوق التى استعادتها المرأة الأفغانية وصور النساء وقد غيرن ثيابهن ورفعن الشادور وانطلقن فى الشوارع باحثات عن فرصة عمل - كما لو كانت فرص العمل متوافرة لا تجد من يبحث عنها!! - إذا كان الغرب قد هلل لكل هذا وذاك فإنه يكون قد نسى أو تناسى أن سقوط طالبان سيؤدى إلى فراغ سياسى من شأنه أن يجر البلاد إلى حالة من الفوضى والانهيار والسرقة والنهب والاغتصاب. ربما تناسى أن طالبان هم الذين استطاعوا أن يقضوا على كل ما شهدته أفغانستان أثناء حكم أمراء الحرب بعد خروج الروس.

فبالنسبة للباشتون فى جنوب أفغانستان فإن طالبان لم تكن أبداً تعنى لهم الاضطهاد وإلغاء حقوق المرأة لأن حياتهم ببساطة شديدة لا تتضمن مثل هذه المعانى التى يحلو للغرب الحديث عنها والتشدق بها بل على العكس فإن أبناء قبائل البشتون من الجنوب نعموا فى ظل حكومة طالبان بالخلاص من الحروب وحكم العصابات المسلحة الذى انتشر بعد خروج السوفييت من كابول».

ومن الإنصاف أيضاً ما ذكرته الصحفية الإنجليزية إيفون ريدلى التى أطلقها الطلبانيون قبل الحرب من أن الطلبانيين قضوا على زراعة الأفيون فى الأيام الأخيرة وكانوا قد وجدوها منتشرة فى البلاد حين وصولهم إلى الحكم وذكرت من مآثرهم أيضاً أن الغرب سرب لهم بالباطل سراً أنها جاسوسة وذلك لتغريهم بإيذائها. لكن الطلبانيين كانوا واعين للخديعة.

ومن الإنصاف أيضًا ما ذكره أحد السياسيين الأجانب الذى كان ثانى أثنين رأيا الملا عمر من أنه يشبه النساك القدامى . ومن المعروف أن الملا عمر كان يتفقد سير العدل فى إمارة طالبان وهو يتجول بدراجته النارية .

وبدلاً من أن يتخذ صلاح عز (صاحب الاتهامات السابقة) هذا الموقف المنصف يدافع عن انتقاد الإخوان لحركة طالبان قائلاً: «ألا نكون شياطين خرساء إذا سكتنا عن هذا الضلال الذى يفرض زوراً باسم الإسلام».

فإذا كان سكوتنا على أخطاء الطلبانيين يجعلنا شياطين خرساء فتُرى ماذا يكون حكم الفصائل الأفغانية ذات الانتماءات الإخوانية (مثل الفصائل التابعة لعبد رب الرسول سياف

وربما التابعة لربانى أيضًا) فى استمرار تحالفها مع الفصائل الأخرى التابعة لقوات الشمال والتى ذبحت الرجال واغتصبت النساء فى كابول ومزار الشريف سواء كانوا من الأسرى أو المذنبين؟ أم أن الفقه المتعمق للتوفيقيين سواء كانوا من بين فصائل الإخوان أو من بين الفصائل التى انشقت عنها (لا لشيء إلا لبذل جهد أكبر فى هذا الاتجاه التوفيقى ولإناطة نفسها بالقيام بهذا الدور) هو طرح إسلام فارغ من أى مضمون ولا يحمل سوى مجموعة من الشعارات ذات القدرات التسويقية لدى الغرب مثل الكرامة والحرية والديمقراطية وهى شعارات لا تجد لها تطبيقاً عملياً لا عند الغرب ولا عند من يسوقون إسلاميتها إرضاءً للغرب أو تقليلاً لغضبه.

ويا ترى ماذا يكون حكم المتاجرين بالإسلام الذين وجدوا فى حجة التخلف الحضارى لطالبان منقذهم الوحيد لتسويق أنفسهم لدى الأمريكان فوق جثث الطلبانيين وأجساد نسائهم المغتصبات .

وباسم الإسلام غدت طالبان قربانًا يشارك فى ذبحه كل من يريد أن يتقرب من الإله الأمريكى أو يقلل من غضبه . وهكذا شارك فى تلك الجريمة البشعة - كل بطريقته - الحكام والإخوان وتجار الإسلام والإيرانيون الذين أعماهم التعصب ضد الطلبانيين وهم الذين ملأوا أذاننا صراخًا وشكوى من تعصب الطلبانيين ضدهم ، وكانت الحجة الوحيدة لكل هؤلاء فى كل ذلك هى التخلف الحضارى للطلبانيين مستندين على موقفهم من الموسيقى والفنون ومثل ذلك .

وعلى الرغم من دراستنا فى أهمية الفنون من الناحية الإسلامية (نظرية الفن الإسلامى)[1] لكننا لم نعرف أبداً أن هناك حضارة واحدة فى التاريخ اعتبرت التقدم فى هذه الفنون معيارًا حضاريًا أهم من توفير الأمن والعدل والفضيلة ؟! كما أننا لم نعرف أبداً أن محمداً صلى الله عليه وسلم جعل من التقدم فى الفنون معياراً للإسلامية أهم من العقيدة الإسلامية نفسها ؟!! أو جعل هذا التقدم هو معيار المرجعية الإسلامية ذاتها؟!!.

كم هو ممرور وبشع ومخز كل هذا الزيف ؟

لقد كانت المشكلة الحقيقية للملا محمد عمر هى أنه كان مثالياً حالماً يعيش فى عالم البراءة والفضيلة وتنقطع الصلات بينه وبين الواقع المعاش ولم يكن يملك القدرات الاجتهادية التى تستطيع تفعيل عالمه المثالى مع هذا الواقع، ومن ثم استسلم لمصيره فى براءة تامة وتحمل

---

(١) كتاب لنا على الإنترنت : موقع إسلام أون لاين - قضايا معاصرة .

مسئولية ما نسب لأسامة بن لادن لمجرد إفتاء العلماء فى بلاده بحرمة تسليمه خصوصاً أنه لم يكن أحد من غثاء السيل الذى حوله فى العالم الإسلامى ليقف معه أمام الخطر والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وحقاً ما كان يجوز تسليمه بن لادن لمحكمة دولية ولكن كان يجب فى ظل تلك الظروف الرهيبة أن يتحمل بن لادن المسئولية عما ينسب إليه وحده (أى دون الملا عمر على وجه التحديد) خصوصاً أنه كان يتوقع الكثير من ذلك فى ظل صراعه مع أمريكا بدلاً من أن تضيع دولة ويذبح حلم. ولقد وجدنا بعد كتابة هذا الكلام الدكتور أيمن الظواهرى نفسه فى الكتاب المنسوب له (فرسان تحت راية النبى) يدعو المجموعات الإسلامية الصغيرة التى يعوِّل عليها الدور الأكبر فى مواجهة الأمريكان إلى عدم توريط الدول الإسلامية الناشئة مثل إمارة طالبان والشيشان فى تحمل مسئوليتها . فلماذا إذن لم يعمل بذلك هو وأسامة بن لادن فيستقلان من أنفسهما عن طالبان بعد توجيه الأمريكان الاتهامات لهما ؟!.

قد يقال فى ذلك إن القرار الأمريكى للقضاء على حكم طالبان هو قرار مسبق أيًا كانت الأحداث. أقول نعم هو كذلك لكن من الواضح جداً أن مواقف الإسلاميين هناك عجلت الصدام وأجهضت الدولة الفتية قبل أن يشتد عودها والله أعلم ماذا كان يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ لكن المشكلة تكمن فى القصور الفادح لهذا الاتجاه من الإسلاميين فى وعى العلاقة بين المثال والواقع واعتماده على الإخلاص وحده فى نصرة الإسلام وهذا مالم يكن يفعله الرسول نفسه ﷺ المؤيد من الله ولكنه كان يتدبر أمر الواقع بعقلية قائد محنك. وقد أنزل الله على رسوله نفسه وصحابته قوله تعالى: «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين» هذا فى أقصى درجات التدبير والإخلاص وهو ما فسره كثير من المفسرين بأن النسبة بين المسلمين والكفَّار فى الفارق العددى لا تكون أقل من ذلك لتحقيق الانتصار (ومن الطبيعى أن يقاس على ذلك النسبة فى فارق العتاد) أى أن القرآن نفسه يعلمنا أن هناك علاقة حتمية بين المثال والواقع ولكننا لا نعمل بذلك فضاعت دولة طالبان وقبلها الشيشان.

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فتوى القرضاوى

جاء على لسان الشيخ القرضاوى فى فتواه الشهيرة :

سألنى كثير من الإخوة الذين قرءوا الفتوى التى حررها الأخ الدكتور محمد سليم العوا ، ووقّعت عليها مع المستشار طارق البشرى ، والدكتور هيثم الخياط ، والأخ فهمى هويدى ، والخاصة بالمسلم الذى يعمل فى القوات المسلحة الأمريكية ، وهى فتوى خاصة به ولمن كان فى مثل حاله . فلا ينبغى أن تعُمَّم ، والواجب فى الفتوى مراعاة : الزمان والمكان والعرف والحال ، فليست مجرد تقرير مبدأ نظرى ، بل تنزيل الحكم الشرعى على واقعة معينة فى ظروفها وإطارها وحجيتها ، فلا تعدوها إلى غيرها ، إلا ما كان مثلها فى كل العوامل المؤثرة فى الحكم .

وأحب أن أؤكد هنا بوضوح : أن الإسلام قد حرم على المسلم أن يواجه أخاه المسلم بالسلاح ، واعتبر ذلك من أعمال الكفر ، وأخلاق الجاهلية ، فقال صلى الله عليه سلم : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» . وقال : «لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض» ، وقال : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار» قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟! قال : «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه» ، وهذه كلها أحاديث صحيحة متفق عليها .

بل حرم الرسول - صلى الله عليه وسلم - على المسلم أن يشير إلى أخيه المسلم بسلاحه (مجرد إشارة) لا جاداً ولا مازحًا .

وهنا يبرز سؤال : المسلم الذى يكون مجنداً فى جيش ، لا يملك فيه إلا طاعة رؤسائه وتنفيذ أوامرهم التى يصدرونها إليه ، وليس من حقه أن يقول : لا . أو : لمَ ؟ وفق الأنظمة العسكرية المعروفة فى العالم اليوم ، فإذا كان جيش دولته هذا يحارب دولة مسلمة ، وهو جندى فى هذا الجيش ، فماذا يصنع ، وهو مكره على أن يتحرك بحركة الجيش ، إذ هو فيه مجرد آلة فى ترس كبير ؟

والذى يتجه إليه النظر الفقهى هنا : أن المسلم إذا أمكنه أن يتخلف عن هذه الحرب بطلب إجازة أو إعفاء من هذه الحرب ، لأن ضميره لا يوافق عليها ، أو نحو ذلك ، فالواجب عليه أن يفعل ذلك ، حتى لا يتورط فى مواجهة المسلم بغير حق . وكذلك إذا استطاع أن يطلب العمل

فى الصفوف الخلفية لخدمة الجيش ، لا فى مباشرة القتال ، فهذا أخف .

هذا ما لم يترتب على موقفه هذا ضرر بالغ له ، أو لجماعته الإسلامية التى هو جزء منها ، كأن يُصنَّف هو وإخوانه فى مربّع الذين يعيشون فى الوطن ، وولاؤهم لغيره . وقد يكون فى هذا التصنيف خطر على الأقلية الإسلامية ومصيرها ، ووجودها الدينى والدعوى . وقد يؤدى بالجهود الدعوية والتربوية الهائلة التي بُذلت لعشرات السنين من أجل تقوية الوجود الإسلامى وتثبيته ، واعتبار المسلمين جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم ، يجب أن يندمجوا فيه حضاريًا ، ولايذوبوا فيه دينيًا ، فلا يجوز أن يتصرفوا تصرفًا يجعلهم مشبوهين أو مشكوكًا فيهم ، بحيث يعتبرهم المجتمع العام "طابوراً خامسًا" .

ولا ينبغى للأفراد أن يريحوا ضمائرهم بالتخلف عن الحرب إذا كان ذلك سيضر بالمجموعة الإسلامية كلها ، فإن القاعدة الشرعية : أن الضرر الخاص يُتحمَّل لدفع الضرر العام ، وحق الجماعة مقدم على حق الأفراد .

وفقه التعارض بين المصالح والمفاسد من أهم أنواع الفقه ، الذى سميته (فقه الموازنات) ، وهو فقه يفتقده الكثير من المسلمين ، فلا يجوز أن يخضع العلماء لفقه العوام ، الذين يُغلِّبون فقه الظواهر على المقاصد . وإذا اضطر المسلم للقتال مكرها تحت ضغط الظروف التى ذكرناها ، فينبغى له أن يبتعد بقدر ما يمكنه عن القتل المباشر ، وأن يشارك فى الحرب - إذا شارك - وهو كاره منكر لها بقلبه ، كما هو شأن المؤمن إذا عجز عن تغيير المنكر بيده أو بلسانه ، فإنه يغيره بقلبه - أى بالكراهية والنفور - ، وذلك أضعف الإيمان .

فهذا سر موافقتى على الفتوى التى جاءت من أمريكا ، والتى لم يفهم أغوارها - للأسف - كثيرمن الإخوة الذين ينظرون إلى الأمور من السطوح لا من الأعماق . ﴿إن أُريدُ إلا الإصلاح مَا استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود : ٨٨)[١] . والله أعلم

مناقشة فتوى القرضاوى

من الجدير بالملاحظة والانتباه والمؤاخذة تصريحات ومواقف الشيخ القرضاوى بصدد الأحداث الأخيرة كفقيه من أبرز الفقهاء المجتهدين فى هذا العصر ولأنه يُعد - فيما هو ظاهر على الأقل - ممثلاً للمرجعية الفقهية لجماعة الإخوان المسلمين خصوصًا أن تصريحاته وفتاويه

---

(١) الفتوى منقولة عن موقع إسلام أون لاين على الإنترنت.

اتسمت بقدر أكبر من الوضوح وعدم المراوغة بالنسبة لقادتها السياسيين .

فعلى سبيل المثال فإن قول الشيخ القرضاوى بقبول تسليم بن لادن لمحكمة دولية لا يعنى لدى سامعيه على الأقل سوى قبول محاكمة بن لادن أمام محكمة ممثلة من دول أخرى غير إسلامية بحيث لا تشكل الشريعة الإسلامية مرجعيتها . ولكن الخطب الأكبر لا يقف عند تصريح كهذا ولا حتى عند منطوق الفتوى التى أجاز من خلالها شيخنا الجليل أن يقاتل الجندى الأمريكى المسلم إلى جانب القوات الأمريكية فى أفغانستان ولكن فى الحيثيات التى استندت عليها الفتوى فالقول بأن الجندى المسلم مكره على ذلك وإلا تعرض لفقد وظيفته أو حتى سجنه وأن ذلك يقوم من باب فقه الموازنة بين الأضرار يجعل المرء يتساءل : هل يبلغ فقدان الوظيفة أو حتى التعرض للسجن بضعة أعوام درجة من الضرر يمكن المقارنة بينها وبين الضرر الواقع عند مشاركة المسلم للغير فى قتال المسلم والذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن قتاله كفر» . مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه الدول الغربية قد بلغت درجة من التمسك بمنجزاتها الحضارية الإنسانية لا تسمح معها بالإضرار بالمسلمين الأصلاء من أبنائها إلى درجة بالغة لمثل هذه الأسباب من الناحية القانونية على الأقل .

ولكن الأعجب من ذلك هو ترتيب الفتوى على الضرر البالغ الذى قد يصيب جماعة هذا الجندى المسلم «كأن يصنف هو وإخوانه فى مربع الذين يعيشون فى الوطن وولاؤهم لغيره» . وقد يكون فى هذا التصنيف خطر على الأقلية الإسلامية ومصيرها ووجودها الدينى والدعوى وقد يؤدى بالجهود الدعوية والتربوية الهائلة التى بذلت لعشرات السنين من أجل تقوية الوجود الإسلامى وتثبيته واعتبار المسلمين جزءاً لا يتجزأ من مجتمعهم يجب أن يندمجوا فيه حضارياً ولا يذوبوا فيه دينياً فلا يجوز أن يتصرفوا تصرفًا يجعلهم مشبوهين أو مشكوكًا فيهم بحيث يعتبرهم المجتمع العام «طابوراً خامساً» فهذا الكلام يثير العديد من التساؤلات التى ينبغى ألا يصدر بعضها عن المسلم أصلاً .

فهل يجب الحفاظ على الوجود الإسلامى فى الدول الغربية حفاظًا كميًا وشكليًا حتى ولو تعرضت الأسس الإسلامية نفسها للضياع . وهل يجب الدفاع عن الجهود الدعوية والتربوية الهائلة التى بذلت لعشرات السنين حتى ولو تم التضحية بمفهوم المرجعية الإسلامية ذاته بوضع مفهوم القومية الغربى والانتماء للإسلام موضع المفاضلة ؟ أم الدفاع عن الأسس الإسلامية واعتبار ما يتعرض له الوجود الإسلامى هناك عند ذاك هو من باب المحنة والابتلاء ؟ .

وما الذى يعنيه القول بأنه يجب على المسلمين أن يندمجوا فى الغرب حضاريًا ولا يذوبوا فيه دينيًا خصوصًا عندما يصدر هذا من فقيه مجتهد بذل عشرات السنين من عمره لإفهام

المسلمين والعالم أجمع أن الإسلام دين وحضارة وفى الوقت الذى تتنامى فيه دعوات الفكر فى أمريكا ذاتها إلى التعددية الثقافية ؟.

إننى أقر تمامًا أننا نمر بمرحلة ما يقال فيها لا يقال فى غيرها وأن الفقه الذى يجب أن نرتكز عليه الآن هو فقه المحنة ولكن هل يعنى ذلك أن يكون نتاج هذا الفقه هو التراجع عن المقومات الأساسية التى تستند إليها مشرعية وجودنا الفكرى والحضارى أم أن الأمر على أفضل الظنون قد يمثل قدراً من التقية المستحدثة على أفهامنا ؟.

والأخطر من كل ما سبق أنه جاء فى نص الفتوى الأولى التى حررها سليم العوا ووقع عليها الشيخ القرضاوى قول يوصى فيه العوا بتغيير المسلم لنيته عند ارتكاب الفعل المحرَّم بنية فعل مباح حتى يغدو الفعل بذلك حلالاً . وهو الأمر الذى يتطابق تمامًا مع فكرة إرادة الاعتقاد فى الفلسفة البراجماتية الأمريكية (والتى يمكن للقارئ أن يعود إليها فى الفصل المخصص لها فى هذا الكتاب وهو الأمر الذى يتناقض تمامًا مع العقيدة الإسلامية التى يأتي الاعتقاد فيها مطابقًا للحقيقة الإيمانية الأصيلة فى ذاتها ولا تأتى الحقيقة الإيمانية تبعًا لإرادة الاعتقاد الشخصية كما فى الفلسفة البراجماتية. ونظراً لخطورة هذا الموضوع فإننى أأجل شرحه فى كتاب قادم يُكرِّس خصيصًا لمثل هذه المواضيع بإذن الله.

١٤

المشروع الحضارى الإسلامى

والطريق الثالث بين الجهاد والإخوان

تمهيد :

إن وضع الأسس النظرية للمشروع الحضارى الإسلامى يعوق تحول الحكم الإسلامى إلى شعار بلا مضمون يتيح لبعض التيارات السياسية الساعية إليه إلى المساومة على أسسه بلا ضابط يردعها لأن فقدان هذه الأسس والمضامين يجعل السعى إلى إقامة الحكم الإسلامى يؤول عند الضغط والمساومة إلى السعى إلى إقامة حكم أشخاص التيار الإسلامى الساعين إلى ذلك دون إقامة الحكم الإسلامى نفسه (النموذج الأربكانى الذى انمحت فيه الكثير من معالم الحكم الإسلامى على سبيل المثال) .

يبدو أن المتغيرات العالمية المتلاحقة فى العقدين الأخيرين خلّفت مشهداً دراماتيكيًا يصعب تأريخه بالنسبة إلى حركة تطور الفكر الإسلامى. فالمفكرون الذين كانوا يلوحون بأن المشروع الحضارى الإسلامى هو قيد المشيئة أصبح أقصى ما يطمحون إليه الآن هو البرهنة على إمكان إنتاجه دون التجاسر على الشروع فى ذلك فعلاً.

وما جعل الموقف أكثر دراماتيكية هو ترافق الإرهاصات الأولى لتلك المتغيرات مع رحيل المفكرين الإسلاميين العظام من أمثال أبى الأعلى المودودى ومحمد باقر الصدر وتقى الدين النبهانى ومالك بن نبى الذين حملوا هم هذا المشروع ووضعوا اللبنات الأولى فى تأسيسه، فأسفر المشهد عن مفكرين تقصر قدراتهم على استكمال المشروع الذى أراد به أسلافهم مواجهة عالم محدد نسبيًا يواجهون تحديات جسامًا يفرضها عالم شديد التغير والتحول، فالنسبية المطلقة التى يفرضها واقع العولمة تمثل عائقًا كبيراً أمام الإمكانات الإبداعية الكامنة لدى أية خصوصية فكرية.

ومن ناحية أخرى فقد استطاعت ضغوط الآليات المتعاظمة للعولمة إغراءً أو قهراً توظيف الفئة الغالبة من مفكرى الثقافات المختلفة ليكونوا مجرد أدوات يتم استخدامها فى صنع التسويغات التلفيقية لتلك الثقافات للتوافق فى النهاية مع المضامين الفكرية لتلك النسبية المتعولمة.

وعلى هذا المسار يتم الآن استقطاب العديد من المفكرين الإسلاميين من أجل الاجتهاد فى إعادة إنتاج توفيقية لأطروحات متناقضة وربط مساراتها الفكرية بوشائج عامة تفقدها مقوماتها الحقيقية. فالاجتهاد الفكرى المعولم لا يتطلب سوى القدرات التأويلية للتكيف مع ما هو قائم فعلاً وهو الأمر الذى يتوافق مع السهولة المنتجة للربح التى هى إحدى سمات العولمة.

وعلى عكس ذلك الفكر التساومى فإن الكلفة الإنتاجية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الباهظة التى يقتضيها الاجتهاد الفكرى المضاد الذى يحتمه المضمون الإسلامى المناقض للمضمون النفعى للعولمة تمثل عائقًا ضخمًا أمام الطموحات الخاصة لبعض المفكرين الإسلاميين النابغين لتقديم هذا المشروع. ومن ثم كان الاكتفاء بالترديد المستمر للدعوة إلى التجديد عوضًا عن القيام بالتجديد نفسه أو إعادة التشكيل الجمالى للمقدمات النظرية إلى

المشروع الحضارى بدلاً من تقديم المشروع.

وفى هذا الإطار يتم سوق أشد الأفكار الغربية شذوذًا عن منظوماتنا العقائدية والحضارية لمجرد التدليل على موسوعية المفكر وقدرته التجديدية فى الوقت الذى تكاد تفتقد فيه الإشارة إلى أية مقولة فكرية مستمدة من تلك المنظومة ويتم الاستدلال بمقولات كانط وهيجل وماركس وفيبر ودور كايم، بل وهيدجر ودريدا، بينما لا يأتى ذكر أعلام الفكر الإسلامى إلا لمامًا.

من ناحية أخرى فإن الاتجاهات الكلاسيكية للحركة الإسلامية تحولت إلى أنماط ذات ميكانيزم خاص، الأمر الذى يبعدها كثيراً عن الإبداع الفكرى.

فعلى سبيل المثال فإن أقصى ما يشغل الإخوان الآن بعد المواجهات والضغوط السياسية المتوالية هو الإبحار بدقة بين ألسنة النار التى تحيط بالحركة الإسلامية من كل جانب ابتغاء النجاة وليس الوصول إلى الشاطئ.

كما أن تنشيط الوعى الفكرى لدى كوادر الإخوان يناقض مع قواعد الانضباط الشديدة التى يتم بها إلزام هذه الكوادر من قبل قادتها حتى يسهل قيادهم للعمل إلى تحقيق الأهداف السياسية لهؤلاء القادة.

بينما دفع سيد قطب الجماعات الجهادية بعيداً عن دائرة الاجتهاد الفكرى للمشروع الحضارى الإسلامى بتبنيه لمقولة قيادة الحركة الإسلامية لزمام المجتمع الإسلامى أولاً قبل الاستغراق فى إنتاج أية أطروحات نظرية، كما أشار إلى ذلك فى كتابه «معالم فى الطريق». ومن ثم يتم تفريغ طاقات هذه الجماعات فى الصدامات المتتالية مع السلطات دون أن تبدى اكتراثًا كبيراً بصنع التراث الفكرى التجديدى الخاص بها الذى يسعى إلى وضع معالم المشروع الحضارى الإسلامى الذى يُفترض أنها تجاهد من أجله.

وعلى مسار آخر نجد التيارات السلفية تعيش فصامها الخاص بين ما ترفضه عقائديًا وما تمارسه بالفعل فعلى رغم تمثلها كنقيض حتمى للفكر العلمانى إلا أنها فى واقعها العملى تعيش حال الانفصال العلمانى بين ما هو شعائرى وبين ما هو حياتى دنيوى حيث يتم الاستغراق العلمى الإبداعى فى إخراج التصنيفات الضخمة فى تفاصيل الشعائر التعبدية أو سوق الأدلة الجديدة لمساندة أحد الآراء الخلافية القديمة.

بيد أنه يمكن القول أن العقدين الأخيرين قد شهدا تطوراً كبيراً فى التيار السلفى يتمثل فى نهوض حركة تجديدية داخل هذا التيار تستوعب متغيرات العصر وتقيم اجتهاداتها بصدد

قضاياه على نفس أسسها الأصولية السلفية فى نفس الوقت.

وغاية ما نستطيع الإشارة إليه هنا هو الحديث عن ملامح العلاقة بين الاجتهاد الفكرى من أجل تقديم المشروع الحضارى الإسلامى كتوجه يجب اقتداؤه وبين السلوك الحركى للتوجهات الإسلامية المختلفة.

فعلى الرغم مما شرحناه فى موضعه من الكتاب من الترابط العضوى بين الإيمان والحكم الإسلامى مما يجعل إقامة هذا الحكم هو الهدف الأساسى للحركات الإسلامية إلا أن هذا الحكم ليس مجرد إطار أو شعار بلا محتوى أو مضمون فالمسألة لا تتوقف على المثال الإسلامى المجرد للحكم ولكن على الاجتهاد الفكرى فى العمل على تطبيق هذا المثال على الواقع المعاصر، ومن ثم فإن السعى إلى إقامة هذا الحكم لا يمكن أن يكون سعيًا حقيقيًا إلا من خلال تقديم هذا المشروع الحضارى أولاً.

وفضلاً عن أن تقديم الفكر على العمل هو إحدى سنن الله فى الأرض فإن تقديم المشروع الحضارى أولاً يؤمِّن الحكم الإسلامى نفسه من تعرضه للانهيار الوشيك إذا جاء غير مستوعب لواقع الناس ومقتضيات أحوالهم فتحدث الجفوة والاستنكار فهذا مما يقتضيه قول الرسول ﷺ فيما معناه: «حدِّثوا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟».

فإذا كانت محادثة الناس تقتضى معرفة ماذا تكون عليه عقولهم حتى لا يكذَّب الله ورسوله، فكيف لا يقتضى حكم الناس معرفة أحوالهم. ليس هذا فقط بل إن تطبيق الأحكام دون معرفة الأحوال يؤدى إلى قطع العلاقة بين الحكم الشرعى ومناسبة تطبيقه فيطبق حكم ما فى الموضع الذى يجب أن يطبق فيه حكم آخر قد يكون مناقضًا له مما قد يؤدى إلى ارتكاب الكثير من المظالم باسم الإسلام نفسه.

ومن ناحية أخرى فإن مصالح الناس فى كل قطر من الأقطار من الصعب عزلها عن المصالح العالمية للأقطار الأخرى التى تتشابك معها، هذا غير ما يرتبط به قيام الحكم الإسلامى من مواجهة لمؤامرات القوى العالمية المعادية للإسلام التى تصل عادة إلى الحروب، فكل ذلك يوجب حتمًا استيعاب متغيرات الواقع العالمى ونظمه واتجاهاته وآلياته، الأمر الذى يعنى أن الاعتقاد بأن إقامة الحكم الإسلامى لا يتطلب إلا الوصول المباشر إلى سلطة هذا الحكم اعتمادًا على وجود النصوص التى تم تطبيقها فى عصر الخلافة الراشدة، هو اعتقاد ساذج وأن العزلة المفروضة على النص المقدس، اعتقادًا بأن قداسته هى الضمانة الوحيدة لقدرته على التطبيق، هى تكذيب لله ورسوله.

فتفعيل النص المقدس بإقامة العلاقة بينه وبين الواقع المتغير هو الواجب الأول على الاجتهاد المعاصر. فالاجتهاد ليس مجرد استنباط الحكم الصحيح من المصادر الأصولية المختلفة ولكن قد يكون الشق الأكثر صعوبة فى الاجتهاد هو إدراك المناسبة بين هذا الحكم والواقع المراد به.

وكل ذلك ينبهنا إلى مدى خطورة استيعاب أحوال الناس وأفهامهم والواقع العالمى واتجاهاته المختلفة واستخلاص الرؤى والأحكام الإسلامية المناسبة لكل ذلك أو بمعنى أدق تجسيد المثل الإسلامية على الواقع الفعلى المتغير وهو الأمر الذى يمثله المشروع الحضارى الإسلامى.

على جانب آخر فإن وضع الأسس النظرية للمشروع الحضارى الإسلامى يعوق تحول الحكم الإسلامى إلى شعار بلا مضمون يتيح لبعض التيارات السياسية الساعية إليه إلى المساومة على أسسه بلا ضابط يردعها لأن فقدان هذه الأسس والمضامين يجعل السعى إلى إقامة الحكم الإسلامى يؤول عند الضغط والمساومة إلى السعى إلى إقامة حكم أشخاص التيار الإسلامى الساعين إلى ذلك دون إقامة الحكم الإسلامى نفسه (النموذج الأربكانى الذى انمحت فيه الكثير من معالم الحكم الإسلامى على سبيل المثال) حيث يمكن الادعاء حين ذلك بأن ما يقومون به من ممارسات هو الحكم الإسلامى المعاصر مادامت صورة هذا الحكم مفقودة لدى الجماهير مدعومين فى هذا بقوة الحكم نفسه ومدعومين أكثر بقوة ادعاء إسناده إلى الشرعية الإسلامية، الأمر الذى لا يعنى خروج المخالف لهم على حكمهم فقط وإنما على الشرعية الإسلامية ذاتها مما يمكنهم من البطش به خصوصاً أن بعض تلك الحركات الإسلامية المساومة تكون عادة على درجة من القسوة فى تعاملها مع الإسلاميين تناظر الدرجة التى تكون عليها من التساهل مع القوى الكبرى المعادية للإسلام إن لم تكن تفوقها.

ليس هذا فقط بل إن هذا المشروع الحضارى الإسلامى يمنح الفرصة للقفز الأمريكى إلى سدة الحكم باسم الإسلام نفسه وذلك من خلال نموذج الإسلام الأمريكى والتغطية على كل ذلك بإطلاق ضوء الإعلام الزائف الذى يخفى الحقائق، فمادام أن النموذج الحقيقى مفقود فإن كل بدائل الزيف قابلة للوجود.

وهكذا فإن كل ما سبق يحتم على الحركة الإسلامية بكل تياراتها إذا أخلصت العمل لله حقاً أن تقدم المشروع الحضارى أولاً قبل أية خطوة أخرى فى سبيل قيام الدولة الإسلامية، ليس هذا فقط بل والعمل بأقصى طاقة لإعلام هذا المشروع إلى الجماهير بهدف تكوين قاعدة عريضة منها تدعو إلى هذا المشروع وتدافع عنه وتكون حارسه الحصين بعد ذلك عند التطبيق حتى لا يكون الأمر مجرد تجمعات غوغائية يمكن سوقها كالشياه إلى الذبح من قِبَل طلاب

السلطة أو من قِبَل القوى المعادية للإسلام تحت شعار الحكم الإسلامى نفسه.

وكل ذلك يجعلنا نعلم مدى المسئولية المناطة على الحركة الإسلامية فى هذا الاتجاه لأن التجديد الفكرى الذى يقتضيه المشروع الحضارى الإسلامى هو صناعة ثقيلة تستلزم درجات عظمى من العمل والمثابرة ولا يقل عن ذلك العمل والمثابرة اللذين يستلزمهما صناعة هذه القاعدة العريضة من الجماهير الحارسة لهذا المشروع الحضارى الإسلامى وهو الأمر الذى يعكس لنا مدى حجم التطورات التى لابد أن تطرأ على الحركة الإسلامية المعاصرة إذا جعلت وجهتها النهوض بهذا المشروع.

ولا يعنى النهوض بهذا المشروع الحضارى إبطال كل جهود الحركة الإسلامية فى اتجاه أهدافها الأخرى ولكن ما أقصده هنا هو أن يكون هذا النهوض الهدف الرئيسى الذى تتمحور جهودها حوله وتشحذ طاقاتها فى اتجاهه فلا تبددها فى سبيل تحقيق أهداف أخرى تأتى أولوياتها فى مرحلة تالية له.

ولأن العبودية لله هى الغاية الأساسية للإسلام سواء تجسد ذلك فى إقامة الحكم الإسلامى أو تجسد فى طاعة الله والدعوة إلى دينه دون الحكم عند فقدان القدرة على إقامته فإنه ينبغى الحفاظ على قواعد هذه العبودية فى كل مراحل العمل الإسلامى وعدم تعريضها لأى شكل من أشكال المساومة تحت ادعاء العمل للوصول إلى الحكم الإسلامى وهذا يعنى إبراز الجوانب المختلفة للمشروع الحضارى الإسلامى وإبراز مدى اختلافاتها بل وتناقضاتها مع الأنظمة القائمة وتحمل ما قد يقتضيه ذلك من مسئوليات وتضحيات مع الحفاظ فى نفس الوقت على كل سمات الدعوة بالتى هى أحسن وذلك انطلاقًا من عقيدة الولاء والبراء فى الإسلام، وليس تملق الأنظمة والقوى المعادية للإسلام بإظهار الادعاء الكاذب بمدى ضآلة الفروق أو انعدامها بين النظام الإسلامى والنظم القائمة.

فهذا التوجه الذى تنشط فيه الكثير من الحركات الإسلامية الآن يمثل تناقضًا رئيسيًا مع عبوديتنا لله فنحن علينا أن نقيم هذه العبودية ونحافظ عليها سواء استطعنا إقامة الحكم الإسلامى أو لم نستطع ونتحمل قدرنا فى سبيل ذلك أما التفريط فيها تحت ادعاء العمل من أجل إقامة الدولة الإسلامية فهذا محض ادعاء كاذب واتجار بالإسلام نفسه.

وكل ما أرجوه أن يكون النهوض بهذا المشروع الحضارى الإسلامى الذى أسميه هنا الطريق الثالث بين الطريق الصدامى للجهاديين والطريق السياسى للإخوان هو التوجه الأساسى لكل الحركات الإسلامية أيًا كانت توجهاتها ومسمياتها بما فى ذلك الجهاد والإخوان أيضًا.

١٥

الفكر الأمريكى ما بعد أحداث سبتمبر
مناقشة فوكوياما وهنتنجتون فيما كتباه بعد هذه الأحداث

تمهيد :

أصل المشكلة مع الغرب الأمريكي ليس في هذه الجماعات التي يصفونها بالأصولية وإنما في مشكلة كون الإسلام يجعل من الحكم والإيمان كيانًا عضويًا واحدًا ومن ثم فإن تطبيق المبدأ العلماني الغربي بالفصل بين الدين والحكم لا يعني فقط القضاء على الحكم الإسلامي وإنما يعني القضاء على الإسلام ذاته وما الصراع بين هذه الجماعات والغرب الأمريكي إلا بعض تجليات هذه المشكلة .

نستطيع القول إن المفكرين الغربيين أكثر صدقًا لدرجة كبيرة من علمانيي العالم الإسلامي المسيطرين على وسائل الإعلام فيه في تفسير دوافع الصدام بين الغرب والإسلام، وإن كانت مقولاتهم تأتي بقدر كبير من المناورة والخلط في الأوراق ولكنها تدور حول الحقائق الأساسية في النهاية بينما هؤلاء العلمانيون خصوصًا ذوي الجذور الماركسية منهم يستفزهم إلى درجة الحنق مجرد الحديث عن أن للإسلام دورًا حقيقيًا في مجرى الأحداث والصراعات القائمة لأن مجرد اعترافهم بذلك يقوض فكرهم المعلن الإقصائي الذي يردد دائمًا أنه ليس للدين إلا دور هامشي في الحياة وأن التجليات الواقعية لفاعلياته المعاشة ليست سوى تداعيات لظروف مادية (اقتصادية عادة) تزكيها أوهام الجهلاء من الإسلاميين الظلاميين .

وهذا ما يتسق مع سطحية هؤلاء العلمانيين من ناحية ومع دورهم الفكري الزائف المرتبط بأهداف نفعية في الأساس. وإمعانًا منهم في الزيف والتبجح وقلبًا للحقائق غالبًا ما يرجعون مقولات المفكرين الغربيين عن الدور الفاعل للإسلام في هذه الأحداث إلى أهداف خاصة للمخابرات الأمريكية أو الغربية بوجه عام.

أما بالنسبة للمفكرين الغربيين فإن ضغوط المشاكل الناجمة عن الصراعات القائمة بين الإسلام والغرب لا تحتمل هذا القدر من المكابرة والزيف فضلاً عن أن الإنجازات العقلية للحضارة الغربية التي نقر بقيمتها الكبيرة لا تسمح قواعدها للقادة من مفكريها بممارسة مثل تلك السلوكيات المعبرة عن الانحطاط الفكري .

وسوف نناقش هنا الأفكار التي عبر عنها اثنين من أهم هؤلاء المفكرين عن الموضوع بعد أحداث سبتمبر .

فوكوياما: هدفهم العالم المعاصر.

يقول فوكوياما في مقاله (هدفهم العالم المعاصر)[1]: «هنالك في الحقيقة أسباب للاعتقاد بأن المؤسسات الغربية تلقى قبولاً كبيرًا لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية إن لم نقل جميعها وهذا لا يعني نفي العلاقة التاريخية بين كل من الديمقراطية والرأسمالية مع المسيحية أو حقيقة أن الديمقراطية تملك جذورها الثقافية في أوروبا فكما أشار الفلاسفة من

(١) مجلة النيوزويك: عدم ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١.

أليكس دى توكفيل وجورج هيجل إلى فريدريك نيتشه فإن الديمقراطية الحديثة نسخة علمانية للمبدأ المسيحى فى المساواة الإنسانية عالميًا».

وما يسترعى الانتباه هنا هو إشارته إلى ارتباط الديمقراطية الحديثة بالعلمانية فالمساواة الإنسانية من الوجهة المسيحية حتى فى صيغتها الحالية لا يمكن أن تتغاضى عن الفروق القيمية المرتبطة بالدين داخل هذه المساواة الإنسانية . ولكن العلمانية وحدها هى التى تتغاضى عن تلك الفروق . . بل وتحتمها وإن كانت المسيحية الغربية تعطى مساحة أكبر لإعمال هذا الفصل العلمانى بين الدين والحياة من خلال تطبيق «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله» .

من ناحية أخرى فإنه يشير إلى ارتباط الرأسمالية بالعلمانية أيضًا (وهو ما سيتأكد على امتداد المقال) وذلك لأن الرأسمالية تتطلب تفريغ المجتمعات من القيم المعيقة للحركة القائمة على مبدأ الربح والخسارة (وهو المبدأ الذى يقوم على أساسه هرم العلاقات القيمى فى المجتمعات الرأسمالية والذى يتوافق فى نفس الوقت مع النسق البراجماتى الفلسفى) وهذا التفريغ لا يمكن تحقيقه إلا من خلال إعمال مبدأ العلمانية وبناء على ذلك يتم إقصاء كل المذاهب أو الإيديولوجيات القادرة على التدخل ومن ثم فإن العلمانية هى الجذر الأساسى للمنظومة الغربية سواء فى منظورها الفلسفى (البراجماتى) أو الاقتصادى (الرأسمالى) أو السياسى (الديمقراطى) ومن خلال هذا المبدأ تتم محاكمة الإسلام بل والعمل على إجباره على الرضوخ.

ولأن المهم هو النمو الاقتصادى كما يقول فوكوياما فإن «الحضارة ـ المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية والتقاليد الثابتة ـ هى الحلقة الأخيرة والأضعف فى مسلسل التحول» . وهذا ليس سوى محض ادعاء ينطلق من منحى خاص بالغرب فى المرحلة الأخيرة يتم تعميمه على الشعوب الأخرى ، ولذلك يتم التحول مباشرة إلى المبدأ الأساسى «أصبح الفصل بين الدين والدولة أحد مكونات الحداثة المعاصرة بالضبط بسبب الحاجة إلى السلم الاجتماعى» إن تعليل ذلك بالسلم الاجتماعى محض أكذوبة ولكن الأجدر القول أنه ما يتوافق مع متطلبات حركة السوق .

لكن هذا الفرض سيتحول إلى مسلمة يتم من خلالها مصادرة كل المذاهب والإيديولوجيات ومحاكمتها على أساسها وعلى هذا فسوف يتسائل فوكوياما عن أى تلك الثقافات العالمية التى سوف يمكنها مقاومة هذا المبدأ حيث يقترح منطق الحداثة هذا «أن القيم الغربية ليست نتاجًا حضاريًا اعتباطيًا للمسيحية الغربية لكنها تجسد مسارًا عالميًا أكبر

والسؤال الذى نحتاج لطرحه عندئذ هو : هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث ؟» .

لقد أجاب فوكوياما عن هذا السؤال من قبل فى كتابه (نهاية التاريخ) أنه الإسلام هو العائق الوحيد أمام هذا المسار . وهو هنا أيضًا بعد مرور أكثر من عشر سنوات يجيب أيضًا : «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة» .

لو علق على ذلك العلمانيون عندنا لكابروا وقالوا : هذا كلام مغرض يستهدف وضع الإسلام فى صدام مع الغرب وأن الإسلام دين متسامح يقبل الاتساق مع القيم الغربية وإنما المسألة تتعلق بالمصالح الغربية النفطية وغير النفطية والتى يزج بالإسلام من أجلها فى حلبة الصراع السياسى بينما الإسلام أبعد ما يكون عن التدخل فى مثل تلك الأمور.

وهذا ما سوف يردده القادة السياسيون الغربيون كبوش أو تونى بلير بشكل آخر، فسوف يدعون أنهم يرفضون مثل هذه الدعاوى وأن صراع الغرب ليس مع الإسلام وإنما مع الجماعات الإرهابية فقط وأنهم يدركون أن الإسلام يرفض الإرهاب ويعاديه وهى مقولات لا يقصد منها سوى عزل جماهير المسلمين عن حقيقة حربهم الفعلية ضد الإسلام من ناحية والتأكيد على الترويج على شكل محدد للإسلام يعلنون عن ترحيبهم به وهو إسلام سلبى مفرغ من محتوياته (عقائده وشرائعه وقيمه) ويمكن التلاعب به حسبما يتوافق مع مصالحهم .. الخلاصة إسلام براجماتى .

ولكن من المنطلق الفكرى البحت وعلى الأساس التفسيرى للحداثة الذى ربط فيه فوكوياما بينها وبين العلمانية فإنه يكون صادق تمامًا فيما ذهب إليه فى ذلك مثل أغلب المفكرين الغربيين الذين يتعرضون لنفس الموضوع .

بيد أن الخلط يأتى من جهة فوكوياما حين يقول بعد ذلك : «ومع كل الحنكة التى تتمتع بها المجتمعات الإسلامية فإنها يمكن أن تتبجح بوجود ديمقراطية عاملة واحدة فقط (تركيا) وهى لم تشهد أى [هكذا فى الأصل] أو مناطق فى العالم ستقاوم ، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث» .

والخلط هنا هو أن تركيا أو بقول أدق السلطات التركية التى قادها كمال أتاتورك من زمن مضى حين قبلت الحداثة العلمانية (وليست الديمقراطية حتى بمفهومها الغربى فحكومة العسكر التركية أبعد ما تكون عن ذلك) لم تعد بعد ذلك دولة إسلامية بل هى شىء آخر غير هذا وهذا ما يعلنه العالم الإسلامى أجمع .

وحين يحدد فوكوياما موطن الخلاف بين الإسلام والحضارات الأخرى الذى يؤدى إلى عدم قابليته للحداثة العلمانية يقول : «يختلف العالم الإسلامى اليوم عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم . فهو وحده ولد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة ترفض لا السياسات الغربية فحسب ، بل المبدأ الأكثر أساسية للحداثة : التسامح الدينى» .

هنا يحدث قدر من الإلتفاف حول المسألة لأن هذه الحركات الأصولية وليدة شيء واحد هو ما فرضه العالم الغربى على العالم الإسلامى من علمانية قهرية تفصل الدين عن قواعد الحياة وتقصى الحكم الإسلامى بعيداً عن التطبيق خصوصاً فى تركيا دولة الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى . فكان حتمياً أن ينتج عن ذلك تلك الحركات التى تستهدف إقامة هذا الحكم فى الواقع من جديد ومن ثم كان الصدام بينها وبين الغرب الذى يقف بالمرصاد للحيلولة دون عودة الحكم الإسلامى .

فأصل الخلاف ليس فى هذه الجماعات وإنما فى مشكلة كون الإسلام يجعل من الحكم والإيمان كياناً عضوياً واحداً ومن ثم فإن تطبيق المبدأ العلمانى الغربى بالفصل بين الدين والحكم لا يعنى فقط القضاء على الحكم الإسلامى وإنما يعنى القضاء على الإسلام ذاته وما الصراع بين هذه الجماعات والغرب إلا بعض تجليات هذه المشكلة .

أما حكاية التسامح الدينى هذه فهى مسألة نسبية بين الحضارات وإنما المقصود بها من المنظور الغربى العلمانى هو الإمحاء الدينى بمعنى محو معالم الأديان والتميزات الخاصة بها .

يستطرد فوكوياما بعد ذلك فيكشف حقيقة الحرب القائمة وهو يقول : «وعليه فإن هذه ليست ببساطة حرباً على الإرهاب كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم وليست المسألة الحقيقية كما يجادل الكثير من المسلمين هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين أو نحو العراق - إن الصراع الأساسى الذى نواجهه لسوء الحظ أوسع بكثير وهو مهم ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين بل لمجموعة أكبر كثيراً من الراديكاليين الإسلاميين ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الدينى جميع القيم السياسية الأخرى إنها الأصولية الإسلامية التى تشكل الخلفية لحس أوسع من المظالم أعمق بكثير وأكثر انفصالاً عن الحقيقة من أى مكان آخر» ولو اتخذ فوكوياما الدقة أكثر لقال أنها حرب على جميع المسلمين الذين يعون حقيقة هذا الارتباط العضوى بين الإيمان والحكم فى الإسلام ولا يهم قوله بعد ذلك «وأكثر انفصالاً عن الحقيقة بعد ذلك» لأن هذا لا يعبر إلا عن الرؤية الغربية لا غيرها للحقيقة .

ويبدو أن فوكوياما للاعتبارات السياسية التى لا تسمح بالاستمرار فى هذا القدر من

الصراحة يلتجئ بعد ذلك للمناورة فيقول : «لهذا الشكل الجديد من الأصولية الإسلامية جاذبية هائلة لأنه يزعم أنه يشرح فحوى خسارة القيم والارتباك الحضارى اللذين ولدتهما عملية التحديث ذاتها وعليه فإنه قد يمكن توضيح الأمور بالقول إن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة ولكنه صراع ضد الفاشية الإسلامية أى العقيدة الأصولية غير المتسامحة التى تقف ضد الحداثة والتى انبعثت حديثًا فى أجزاء عديدة من العالم الإسلامى» .

ثم يوجه فوكوياما أصابع اتهامه بعد ذلك للمملكة العربية السعودية «فثروات العائلة السعودية المالكة اختلطت بمصالح الطائفة السلفية الوهابية منذ سنوات عديدة فقد سعت الأولى للحصول على الشرعية والحماية من رجال الدين عن طريق ترويج الوهابية لكن الحكام السعوديين قدموا استثمارات جديدة هائلة لترويج مفهومهم الخاص للإسلام فى الثمانينات والتسعينات وخاصة بعد محاولة الاستيلاء على الحرم المكى الشريف عام ١٩٧٩ التى تم إجهاضها ويمكن تصنيف الفكر الوهابى بسهولة على أنه إسلامية فاشية» .

وما يبرز من الكلام السابق أن الغربيين ليس لديهم قدر من التسامح مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة ويريدون حذفها كاملة فالمساعدات المادية التى تقدمها الحكومة السعودية - بل والعائلات السعودية وليس مجرد فقط العائلة الحاكمة - للعالم الإسلامى ليست مجرد مَنْ أو امتداد نفوذ وإنما هى تطبيق للواجب الإسلامى والمفهوم الإسلامى للمال الذى يعنى ارتباطه بمصالح المسلمين فى كل أقطار الأرض وليس بدولة من الدول ومن هذا المنظور فإن هناك من الإسلاميين من يرون أن السعوديين يفعلون أقل مما هو مطلوب منهم.

لكن الأمريكيين الآن على وجه الخصوص يريدون التضييق على السعوديين فى قيامهم بهذا الدور.

أما تصنيفه للفكر الوهابى ـ الذى يواجه هجومًا غربيًا كبيرًا فى هذه المرحلة ـ بأنه إسلامية فاشية فهذا مجرد إطراد لوصمهم لكل ما يأبى الارتداد عن حقيقة الارتباط العضوى بين الإيمان والحكم فى الإسلام بالفاشية ومشكلة الفكر الوهابى أنه يؤصل تمامًا لهذا الارتباط العضوى ويركز عليه.

ثم يدافع فوكوياما عما ينسب للغرب من مظالم سياسية واقتصادية أدت إلى تعاظم العداء الإسلامى له فيقول : «إن المجتمعات الخارجية من خلال المنظمات الدولية كالبنك الدولى ما فتئت تقدم المساعدة للدول الإسلامية منذ البداية كما فعلت الولايات المتحدة فى تعاملاتها الثنائية مع دول مثل مصر والأردن ومع ذلك كان القليل جداً من هذه المساعدة مثمراً لأن

المشكلة الأساسية هي مشكلة سياسية في العالم الإسلامي نفسه ففرص الإصلاح الاقتصادي والسياسي كانت دائماً موجودة لكن عدداً قليلاً من الدول الإسلامية وجميع الدول العربية بشكل خاص تبنت نوع السياسات التي تبنتها دول مثل كوريا الجنوبية وتايوان وتشيلي أو المكسيك لفتح بلدانها على الاقتصاد العالمي ووضع أسس التنمية المستدامة ولم تتطوع أي حكومة عربية للتخلي عن السلطة لمصلحة الحكم الديمقراطي كما فعلت الملكية الأسبانية بعد الدكتاتور فرانكو أو الوطنيين في تايوان أو الدكتاتوريات العسكرية المختلفة في الأرجنتين والبرازيل وتشيلي بغيرها من مناطق أمريكا اللاتينية ولم تكن هناك لحظة واحدة في أي من الدول الغنية بالنفط في الخليج استخدم فيها ثراؤها لتأسيس مجتمع صناعي مستقل بدل خلق مجتمع يقوم على أصحاب الدخول الفاسدين الذين تحولوا مع مرور الوقت تدريجياً إلى متعصبين إسلاميين هذا الفشل وليس أي شيء فعله العالم الخارجي أو لم يفعله هو السبب الجذري في ركود العالم الإسلامي» .

ولن نرد على ما سبق بما يقوله مثلاً خبراء معهد الغذاء وسياسة التنمية الأمريكية «فرانسيس مورلايية وجوزيف كوينز وديفيد كينلي» عن دور هذه المساعدات الأمريكية في دعم الفساد والاستبداد (وللقارئ أن يطلع على كتابهم: أمريكا وصناعة الجوع). ولكن سنرد عليه بما قاله مارتن إنديك السفير الأمريكي السابق في إسرائيل وأحد موجهي السياسة الأمريكية الحاليين . يقول مارتن إنديك عن موقف الأمريكيين من الفساد والاستبداد في الدول الإسلامية : «في الماضي ساد إدراك بأن ديناميات التغيير في المجتمعات التقليدية يمكن أن تفضي إلى زعزعة الاستقرار . وطرحت واشنطن الخيار إما بين الفساد أو الفوضى . واختارت مساندة حكومات فاسدة لأنها خشيت من سوء عاقبة البديل على المصالح الأمريكية»[١] .

والخلاصة مما سبق أن أمريكا والغرب بوجه عام هما اللذان يدعمان أنظمة الفساد والاستبداد للمحافظة عليها خوفاً من البديل الإسلامي الذي لا يسمحان بوجوده وهو الأمر الذي تترتب عليه تلك المظالم التي تؤجج العداء للغرب. فليست مشكلة ابتعاد الدول الإسلامية عن ركب التقدم ترتبط بأي علاقة مع الإسلام ولكنهاترتبط في الأساس بالموقف الغربي الذي يعيق هذا التقدم من خلال دعمه لأنظمة الفساد والاستبداد خوفاً من البديل الإسلامي.

وبعد كل ما سبق يكون السؤال هو : كيف يستشرف فوكوياما معالم مستقبل الصراع بين

---

(١) تهذيب العرب على الطريقة الأمريكية – مقال: جريدة العربي المصرية ٦ يناير ٢٠٠٢.

أمريكا والإسلاميين؟ إنه يراهن على القوة أولاً فى حسم هذا الصراع بإسكات الإسلاميين إلى الأبد «إن القوة لها شأن كبير ، فالفاشية الألمانية لم تنهار بسبب التناقضات الأخلاقية الداخلية ، بل ماتت لأن ألمانيا احتلت وتحولت إلى أنقاض بفعل قصف جيوش الحلفاء» ومن ثم فهذا هو الحل مع الإسلاميين فمادام لا فائدة من تخليهم عن عقائدهم برضوخهم للعلمانية وتنازلهم عن الحكم الإسلامى فليس هناك حلاً إلا إبادتهم.

وهكذا ينتقل فى صراحة أكثر إلى الاحتمال المستقبلى الثانى من وجهة نظره «على المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة خاصة فما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية والتسامح الدينى» وأعتقد أنه واضح هنا أشد الوضوح فى جعله قبول المجتمعات الإسلامية للعلمانية هو مهربها الوحيد من الدمار.

ثم لا يفوِّت الفرصة فى الهجوم على الحكم الإسلامى «فالحكم الدينى الإسلامى جذاب للناس فى حالته التجريدية فقط. أما بالنسبة إلى أولئك الذين أجبروا فعلياً على العيش فى ظل مثل هذه النظم فى إيران أو أفغانستان مثلاً. فقد عانوا ديكتاتوريات خانقة لا يملك زعماؤها كالآخرين حلولاً لكيفية التغلب على الفقر والركود». وإذا كان الأمر هكذا فلماذا لا يتركوننا فى حالنا لإقامة هذا الحكم أم أنهم يخافون علينا من الركود والفقر؟!.

لكن فوكوياما يدعى عن الإيرانيين أنه «قد تحولت هتافات (الموت لأمريكا) السابقة إلى نداءات (نحن نحبك يا أمريكا) حتى فى الوقت الذى كانت فيه القنابل الأمريكية تتساقط على طالبان فى الجارة أفغانستان».

وهذا تزييف فعلى وطالبان هذه التى ملأوا الأرض صراخاً حول بشاعة حكمها وفرت لأفغانستان ما لم تتمتع به فترات طويلة من تاريخها من الأمن والعدل والفضيلة لكن الغربيين تركوا كل ذلك ولم يأبهوا إلا بتحريم طالبان للموسيقى وحلق اللحية أما مشاكل الفقر والركود فالأولى أن يخاطب بها الغرب الأمريكى الذى يفرض الحصار السياسى والاقتصادى على تلك الحكومات الإسلامية ويزج بها فى حروب تستهلك اقتصادها وليس لها أى حيلة فى دفعها.

أما بالنسبة لإيران فعلى الرغم من كل المؤامرات الغربية التى حاقت بها ، فأشهد أننى قد عشت بها شهراً كاملاً. فشاهدت بها نهضة شاملة ومن المعروف أن النمو الاقتصادى الإيرانى يتراوح بين ٥٪ ، ٦٪ ومن المعروف أيضاً مدى ما بلغته إيران من قوة عسكرية فى عهد الحكم الإسلامى وقد كنت أسأل الشباب فى كل مكان: الندوات، الجامعات، الحوزات العلمية فى حرية كاملة سواء كانوا محافظين أو إصلاحيين أو غير ذلك عن موقفهم من الحكم الإسلامى

القائم فكانت تتراوح الإجابات بين القبول به والرغبة فى التجديد فى إطاره باستثناء قلة من الشباب العلمانى الذى يرفض كل شيء سوى اللحاق بالغرب وهؤلاء هم الذين تظاهروا منادين نحبك يا أمريكا وتظاهر فى مقابلهم عشرات الألوف من الشباب يقودهم وزيرين من الإصلاحيين هما وزيرا الثقافة والداخلية على ما أذكر منددين بالهجوم الأمريكى على أفغانستان.

وأخيراً ينهى فوكوياما مقاله بقوله: «إن الصراع بين الديمقراطية الليبرالية الغربية والفاشية الإسلامية ليس صراعاً بين نظامين حضاريين يتمتعان بقابلية البقاء نفسها» فإذا كانت المرجعية الإسلامية التى يصفها بالفاشية والتى استمرت لأكثر من أربعة عشرة قرناً ليست لها قابلية البقاء فى مقابل الرأسمالية الغربية المستحدثة منذ قرون قليلة فلماذا كل هذا القلق من تلك المرجعية التى سوف تظل مستمرة فى الضمائر مهما فرض الغرب سطوته على الحكومات.

صمويل هنتنجتون

كان صمويل هنتنجتون أكثر المفكرين الغربيين صراحة فى رصده حتمية الصراع بين الغرب والإسلام وذلك لأن المشكلة على حد قوله فى كتابه الشهير (صدام الحضارات): «لا تتعلق فقط بالأصوليين الإسلاميين وإنما بالإسلام ذاته». و هو يتحدث فى مقاله الأخير (زمن حروب المسلمين)[1] عن أن ا لحروب القائمة الآن أغلبها إما بين المسلمين وغيرهم وإما بين بعضهم بعضاً «ووفق المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية، فإن ٣٢ نزاعاً مسلحاً كان دائراً فى عام ٢٠٠٠، وشمل أكثر من ثلثى هذه النزاعات مسلمين، إلا أن المسلمين لا يشكلون سوى خمس سكان الأرض». وهو يذكر بأن الأمر ليس سهلاً بل يشكل خطراً مصيرياً لأن اعتداءات ١١ سبتمبر قد كشفت «وجود شبكته الإرهابية العالمية التى لديها خلايا ربما فى ٤٠ دولة وتتمتع بخبرات كثيرة وبموارد تسمح لها بالتحضير لاعتداءات متزامنة ومخطط لها بدقة. كما أنه وللمرة الأولى أيضاً، ضربت الشبكة بفاعلية كبيرة للغاية داخل الولايات المتحدة. فأبرزت أعمالها إمكانية اللجوء فى الاعتداءات إلى أسلحة كيميائية وبيولوجية واحتمال أبعد باستعمال الأسلحة النووية. فها هو زمن حروب المسلمين قد بلغ أمريكا».

ثم يعدد هنتنجتون أسباب هذه الحروب فيرجعها إلى الأسباب التالية:

«أولاً: كان أحد أبرز التطورات الاجتماعية والثقافية والسياسية فى العقود الأخيرة بروز

---

(١) مجلة النيوزويك: عدد ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١.

وعى إسلامى وحركات وهوية إسلامية فى صفوف الشعوب الإسلامية فى كل مكان تقريباً. وهذا الانبعاث الإسلامى يأتى بمعظمه كردة فعل على موجة الحداثة والعولمة وهو بناء بشكل كبير من نواح عدة. وقد تحركت المنظمات الإسلامية لتلبى حاجات أعداد متزايدة من المسلمين فى المدن وذلك عبر تقديم الدعم الاجتماعى والارشاد الأخلاقى والرعاية الاجتماعية والخدمات الصحية فضلاً عن التعليم ومساعدات البطالة وكلها خدمات لا تؤمنها غالباً الحكومات الإسلامية فضلاً عن ذلك يشكل الإسلاميون فى العديد من المجتمعات الإسلامية المعارضة الأساسية لحكومات قمعية للغاية وقد ولد هذا الانبعاث الإسلامى عدداً صغيراً من المتطرفين يزودون الإرهاب وحروب العصابات ضد غير المسلمين بالمتطوعين».

وعلى الرغم من موافقتنا على هذا السبب فى مجمله إلا أننا نريد أن نوضح أن الانبعاث الإسلامى ليس مجرد رد فعل على موجة الحداثة والعولمة وإنما هو بقول أدق تجسيد ثائر للإلتزام الإيجابى بالإسلام بمعناه الشمولى على ما يتعرض له من تحديات وأخطار.

«ثانياً: فى شتى أرجاء العالم الإسلامى ولا سيما فى صفوف الغرب هناك شعور كبير بالظلم والامتعاض والحسد والعدائية تجاه الغرب وغناه وقوته وثقافته. وهذا الشعور وليد أسباب كثيرة لا سيما الإمبريالية الغربية وسيطرتها على العالم الإسلامى خلال معظم سنوات القرن الـ ٢٠ كما أنه وليد سياسات غربية معينة بينها العمليات الأمريكية ضد العراق منذ عام ١٩٩١ والعلاقة الوطيدة المستمرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل وبصورة عامة أكثر فإن هذا الشعور هو ردة فعل الشعوب الإسلامية على حكوماتها الفاسدة وغير الفعالة والقمعية وعلى الحكومات الغربية التى يرونها تساند هذه الأنظمة».

وهذا كلام صحيح فى مجمله.

«ثالثاً: إن الانقسامات القبلية والدينية والعرقية والسياسية والثقافية داخل العالم الإسلامى تثير العنف بين المسلمين. كما تعزز هذه الانقسامات العنف بين المسلمين وغير المسلمين لأن مجموعات وحكومات إسلامية مختلفة كما فى ا لمملكة العربية السعودية وإيران تتنافس فيما بينها لترويج الإسلام كما تراه هى. وقد دعمت مجموعات إسلامية تقاتل غير المسلمين من البوسنة حتى الفلبين وإذا سيطرت دولة أو دولتان على العالم الإسلامى وهذا ما لم يحصل منذ نهاية السلطنة العثمانية ستخفف وتيرة العنف بين المسلمين وعلى الأرجح بين المسلمين وغير المسلمين».

وهذا أيضًا صحيح ولكن بشرط واحد هو أن يتم إقامة الحكم الإسلامى فى هذه الدولة السيادية المفترضة أو هاتين الدولتين السياديتين المفترضتين لأنه بدون ذلك لن تكون هناك

جدوى من هذه السيادة الشمولية على تهدئة المسلمين الثائرين من أجل إقامة هذا الحكم. والسؤال المطروح الآن هل من الممكن أن يسمح الغرب بقيام مثل تلك الدول السيادية فى العالم الإسلامى ومن ثم خلق منافس استراتيجى له حتى ولو كان بإمكانه فض الغالب الأعم من النزاعات القائمة وتحقيق التعايش السلمى فى العالم؟.

الإجابة التى يعلمها الجميع هو عدم قدرتنا على الاعتقاد بذلك. بيد أنه فى الحقيقة فإن هنتنجتون يحمد على إشارته تلك بأن قيام تلك الدولة الإسلامية الموحدة كفيل بتحقيق هذا التعاش السلمى وهو إقرار من أحد أقطاب الفكر الغربى يدفع تهمة العدوانية عن الإسلام ويضع الغرب فى موقف محرج ويخفف كثيراً من غلواء هنتنجتون نفسه الذى ذهب فى كتابه المشار إليه إلى أن حدود الإسلام حدود دموية.

«رابعاً: تصادف الانبعاث الإسلامى مع معدلات ولادة مرتفعة فى معظم الدول الإسلامية مما أدى إلى انتعاشه. وهذه المعدلات أدت إلى «فورة فتية» مع أعداد كبيرة من الشباب بين سن الـ١٦ والـ٣٠ وغالباً ما يتمتع الرجال المنتمون إلى هذه الشريحة بمستوى ثانوى وتقنى وجامعى من التعليم وهم بمعظمهم عاطلون عن العمل ويهاجرون إلى الغرب وينضمون إلى منظمات أصولية وأحزاب سياسية وينضمون بأعداد صغيرة إلى جماعات عسكرية إسلامية وشبكات إرهابية. إن الشبان هم المرتكبون الرئيسيون للعنف فى كل المجتمعات. وهم موجودون بأعداد كبيرة فى المجتمعات الإسلامية».

والحقيقة أننا لا نرى أن هناك ارتباطاً ذا تأثير كبير بين زيادة معدلات الولادة بين المسلمين وتعاظم المد الإسلامى ولكن يبدو أن إلحاح المفكرين الغربيين على ذكر هذا السبب (وقد ذكره فوكوياما فى مقاله المشار إليه ويذكره غيره من المحللين الغربيين أيضًا) يعبر عن مخاوف خاصة لدى الغرب بوجه عام من ازدياد أعداد المسلمين الأمر الذى يصنع لهم تفوقاً حاسماً فى أحد الأبعاد الاستراتيجية فى مواجهة الغرب. وهذا ما يجعلنا نمتعض كثيراً من إلحاح الأجهزة الحاكمة عندنا على الدعوة إلى تحديد النسل.

ويتخذ هنتنجتون من ردود الفعل على أحداث سبتمبر شواهد على نظريته فى صدام الحضارات «إن بذور صدام عام بين الحضارات باتت منثورة. فردود الفعل على أحداث سبتمبر وردة الفعل الأمريكية جاءت وفقاً لمنظور حضارى. إذ أن حكومات الدول الغربية وشعوبها تعاطفت بشكل كاسح مع الولايات المتحدة وكانت داعمة لها. وأعربت عن التزامها بالانضمام إلى الحرب ضد الإرهاب. ويصح ذلك بشكل خاص على بريطانيا وكندا واستراليا وهى مجتمعات تشاطر أمريكا الثقافة الأنجلوساكسونية وقد سارعت فى إشراك قواتها

العسكرية في هذا المجهود الحربي. كما أعرب الألمان والفرنسيين إلى جانب شعوب أوروبية أخرى عن دعمهم الشديد ووقفوا إلى جانب أمريكا وتبنوا قضيتها. وقد رأوا في الاعتداءات على أمريكا اعتداءات على أنفسهم وهي نظرة لخصتها صحيفة لوموند الشهيرة حين كتبت في عنوان رئيسي لها «كلنا أمريكيون» وظهرت كذلك في إعلان البرلينيين في إشارة إلى خطاب الرئيس كيندى «كلنا نيويوركيون».

ولكن مشكلة المشاكل لدى هنتنجتون هو تجاهله للسبب الأساسي الذى ذكرناه سابقاً للصدام بين الإسلام والغرب أى وقوف الغرب كعائق للحيلولة دون إقامة الحكم الإسلامي ومن ثم استمرار الغضب الإسلامي لاسترداد حقيقة إيمانهم التي لا تتحقق إلا بإقامة هذا الحكم.

وتجاهله لهذا السبب المحورى هو الذى أدى إلى تحول حديثه عن احتمالات الوفاق في المستقبل إلى حديث غير واقعي حيث يقول: «وسينتهي زمن حروب المسلمين حين تتغير أسبابه أو يتم تغييرها». لأن رهن زوال الصدام بزوال الأسباب التي قدمها هو أمر في الحقيقة لن يغير كثيراً في الواقع الفعلي مادام أن ذلك السبب الحقيقي يتم تغافله ومن ثم استمرار وجوده وبالتالي استمرار الدافع الأساسي للصدام. وبذلك ينهي هنتنجتون مقاله ببعض التفاؤل الساذج أو المصتنع باحتمال انخفاض حدة الصدام في المستقبل نظراً لأن المؤشرات الديموغرافية تعكس صورة أكثر تفاؤلاً:

«فقد كانت معدلات الولادة في عدد كبير من البلدان الإسلامية آخذة في الهبوط بشكل كبير لا سيما في البلقان إلا أنها تبقى مرتفعة في بعض الدول الإسلامية مثل المملكة العربية السعودية. إلا أنه وبحلول عام ٢٠٢٠ سيتقلص عدد الشباب المسلم وعندها سيكون من المنطقي أن يضمحل زمن حروب المسلمين ليخلفه عصر جديد تسيطر عليه أشكال أخرى من العنف بين شعوب الأرض».

والمشكلة التي تعترضنا عادة عن مناقشاتنا لهنتنجتون أن ما يقوله عن التناقض بين الإسلام والغرب الأمريكي هو حقيقي جداً في الأغلب الأعم منه بيد أنه يقدم ذلك على أنه يعد في ذاته مبرراً لاعتداء الغرب على الإسلام .

مراجع الكتاب المباشرة مرتبة بحسب ورودها فى الأصل تقريباً

- القرآن الكريم.
- أمريكا والإسلام النفعي: محمد إبراهيم مبروك - طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- صدام الحضارات: صمويل هنتنجتون - طبعة سطور الثانية.
- الإسلام الأصولي في وسائل الإعلام الغربي من وجهة نظر أمريكية: إدوارد سعيد وبرنارد لويس.
- الإسلام والغرب: أيان ليسر وجراهام فوللر - مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- الإسلام وخرافة المواجهة: فريد هاليداى - مكتبة مدبولي.
- نهاية التاريخ وخاتم البشر: فرانسيس فوكوياما - مركز الأهرام للترجمة والنشر.
- المسلمون والعولمة: د. يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة.
- الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط: كمال الهلباوى - مركز الإعلام العربى.
- كشف الغمة: د. سفر الحوالى - موقع السلفيين على الإنترنت.
- مواقع متعددة للجهاديين على الإنترنت.
- موقع حزب التحرير على الإنترنت.
- حديث العزة - آية الله خامئنى - نشر إيران.
- العدالة الاجتماعية فى الإسلام: الرئيس السابق هاشمى رافسنجانى - نشر إيران.
- الفردوس الأرضى: د. عبدالوهاب المسيرى - دار الشروق.
- موسوعة العلمانية: د. عبدالوهاب المسيرى - لم تنشر بعد.
- موجز تاريخ العالم: هـ. ج/ ويلز.
- قصة الحضارة: ول ديورانت - الهيئة العامة للكتاب (الموسوعة الكاملة).
- حكمة الغرب: برتراند رسل - عالم المعرفة (الكويت).
- الإلياذة: هوميروس.
- الأوديسة: هوميروس.
- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم - دار النهضة المصرية.
- حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين: محمد إبراهيم مبروك - الدار القومية للنشر.
- ابن رشد وفيلم المصير: محمد إبراهيم مبروك - مركز الحضارة العربية.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د. عبدالوهاب المسيرى - دار الشروق.
- العهد الجديد والعهد القديم.
- معالم تاريخ الإنسانية: هـ. ج. ويلز - الهيئة المصرية للكتاب.
- محاضرات فى النصرانية: محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى.
- عيسى المسيح والتوحيد - محمد عطا الرحيم.
- الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث: موريس بوكلى - دار المعارف.
- الإمبراطورية الرومانية - م.ب. تشارلز ورث - الهيئة العامة للكتاب.
- فلسطين أرض الرسالات الإلهية: جارودى - دار التراث.
- بينات الحل الإسلامى: يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة.
- الإسلام دين المستقبل: جارودى.

- التفكير فريضة إسلامية: عباس محمود العقاد - مكتبة مصر.
- الفصل فى الملل والأهواء والنحل: الإمام ابن حزم - دار الكتب العلمية.
- درء التعارض بين العقل والنقل: الإمام ابن تيمية - دار الكتب العلمية.
- مجموعة الرسائل: الإمام حسن البنا - دار شهاب.
- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه: الإمام المودودى - الدار السعودية.
- أضواء جديدة على الحروب الصليبية: د. سعيد عبدالفتاح - الهيئة العامة للكتاب.
- الإسلام على مفترق الطرق: محمد أسد - صوت الحق.
- فلسطين أرض الرسالات الإلهية: جارودى - دار التراث.
- اثنين اثنين: أنيس منصور - دار الشروق.
- المستقبل لهذا الدين: سيد قطب - دار الشروق.
- الفلسفة الغربية (الجزء الثالث): برتراندرسل - الهيئة العامة للكتاب.
- العقيدة والمعرفة: زيغريد هونكه.
- حقيقة العلمانية: د. يحيى هاشم فرغل - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- الإسلام والمسيحية: أليكس جورافسكى - عالم المعرفة.
- قيم الحياة فى الإسلام: محمد شديد - دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- الفلسفة الحديثة: يوسف كرم - دار المعارف.
- رواد الفلسفة الحديثة: ريتشارد شاخت - الهيئة العامة للكتاب، وكذلك طبعة مهرجان القراءة للجميع.
- الدين والسياسة فى الولايات المتحدة: مايكل كوربت وجوليا ميتشل كوربت - دار الشروق.
- الثقافة الأمريكية: جاى ويلسون آلن.
- البراجماتية: وليم جيمس - دار الكاتب العربى.
- فلسفتنا: باقر الصدر.
- الإسلام والفلسفات المعاصرة: د. مصطفى حلمى.
- كبرى التقنيات الكونية: سعيد رمضان البوطى - دار الفكر.
- الفلسفة المعاصرة: د. زكريا إبراهيم - مكتبة مصر.
- صعود وهبوط القوى العظمى: بول كيندى - دار الصباح.
- الصراع على القمة: لسترثارو - عالم المعرفة - الكويت.
- تفكيك أمريكا: رضا هلال - دار الشروق.
- ماذا يريد العم سام: نعوم تشومسكى - دار الشروق.
- حفارو القبور: جارودى - دار الشروق.
- أمريكا طليعة الانهيار: جارودى - دار الشروق.
- المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة: جفرى بارندر - عالم المعرفة - الكويت.
- الفكر الشرقى القديم: جون كولر - عالم المعرفة - الكويت
- القانون الإسلامى وطرق تنفيذه: أبو الأعلى المودودى - المختار الإسلامى.
- الانقلاب الإسلامى: أبو الأعلى المودودى.
- الحكومة الإسلامية: أبو الأعلى المودودى - المختار الإسلامى.
- الأمة الإسلامية وقضية القومية: أبو الأعلى المودودى.

- التفهيمات : أبو الأعلى المودودى.
- معالم فى الطريق : سيد قطب ـ دار الشروق.
- الإسلام هو الحل : جمال البنا ـ دار الفكر الإسلامى.
- ٢٥ عاماً فى جماعة الإخوان : حسن أيوب.
- الغرب والشرق الأوسط : برنارد لويس ـ المختار الإسلامى.
- مبادرة وقف العنف : قادة الجماعة الإسلامية ـ التراث الإسلامى.
- حرمة الغلو فى الدين : قادة الجماعة الإسلامية ـ التراث الإسلامى.
- تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء : قادة الجماعة الإسلامية ـ التراث الإسلامى.
- النصح والتبيين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين : قادة الجماعة الإسلامية ـ التراث الإسلامى.
- الحصاد المر : أيمن الظواهرى ـ الإنترنت.
- سلسلة المقالات المأخوذة عن كتاب (فرسان تحت راية النبى) المنسوب لأيمن الظواهرى ـ جريدة الشرق الأوسط.
- كتب أخرى للجهاديين : الإنترنت.
- أيمن الظواهرى الذى عرفته : منتصر الزيات.
- أساسيات المشروع الإسلامى : د. عبدالحميد الغزالى ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- تفسير البيضاوى.
- تفسير الظلال : سيد قطب.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير القرطبى.
- صحيح البخارى.
- رياض الصالحين : الإمام النووى.
- مجموعة التوحيد : ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب.
- معارج القبول : حافظ بن أحمد حكمى.
- شرح العقيدة الطحاوية : العز الحنفى.
- الجهاد : أبو الأعلى المودودى.
- الإسلام والسلام العالمى : سيد قطب ـ دار الشروق.
- فخ العولمة : بيتر مارتين وهارولد شومان ـ عالم المعرفة ـ الكويت.
- ما العولمة : بول هيرست وجراهام طومبسون ـ عالم المعرفة ـ الكويت.
- الإسلام والعولمة : محمد إبراهيم مبروك وآخرون ـ الدار القومية للنشر.
- ما بعد الحداثة ـ عدة مؤلفين، ترجمة أحمد حسان ـ قصور الثقافة.
- النظرية الاجتماعية : إيان كريب ـ عالم المعرفة ـ الكويت.
- البنيوية وما بعدها : جون ستروك ـ عالم المعرفة ـ الكويت.
- دوريات الحياة اللندنية.
- دوريات مجلة البيان اللندنية.
- دوريات الأهرام.
- دوريات النيوزويك.

الفهرس

المؤلف

- **محمد إبراهيم مبروك**
- **صدر له :**

١ ـ أمريكا والإسلام النفعي

٢ ـ علمانيون أم ملحدون

٣ ـ تزييف الإسلام

٤ ـ كن قويًا بالإيمان

٥ ـ الصراع حول المادة وجوهر الحياة

٦ ـ مواجهة المواجهة

٧ ـ موقف الإسلام من الحب

٨ ـ أنت أعطيت البراءة لقاتلينا (ديوان شعر)

٩ ـ الإسلام والعولمة (مع آخرين)

١٠ ـ البديل الإسلامى العالمى

١١ ـ موقف الفكر الإسلامى من ابن رشد وفيلم المصير (مع آخرين)

١٢ ـ حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين : جزء أول

١٣ ـ حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين : جزء ثان

١٤ ـ نظرية الفن الإسلامى (انترنت)

١٥ ـ الإسلام والغرب الأمريكى.

- **كتب تحت الإعداد للطبع**

١ ـ المساومة على الإسلام (الإسلام العلمانى والإسلام الأمريكى)

٢ ـ نصرة الدين بتصحيح المفاهيم

٣ ـ موقف الإسلام من الأراضى الزراعية

٤ ـ بينى وبينك أمريكا (رواية)

٥ ـ دمى على يديك (شعر)

٦ ـ من أجل من أهدرت دمَكْ (شعر)

٧ ـ الصراخ ضحكًا (شعر)

٨ ـ كليوباترا (آلام أنطونيو البشعة) (شعر)

٩ ـ خمسة دواوين من الشعر ، والنزيف لم يقف (شعر)

١٠ ـ الرحيل والذبيح (شعر)

١١ ـ أثقل من نيران الأرض ذاكرتى (شعر)

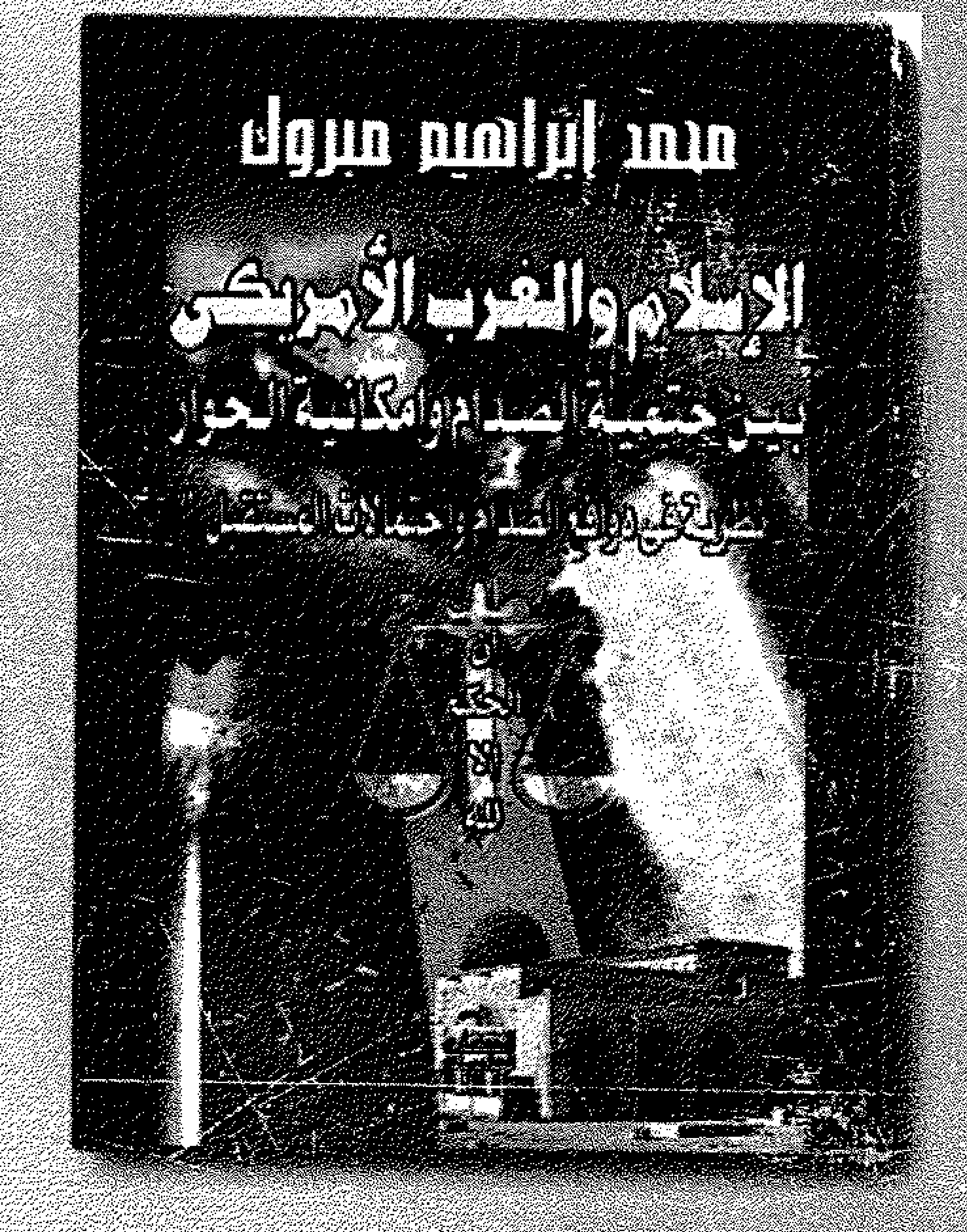
١٢ ـ صنعت من حياتى قصيدة عشق لك (شعر)

١٣ ـ الجنون والحلم (قصص قصيرة).

ناصرية الناصرية الفانية — جورج المصري
أسرار وخفايا ثوار يوليو — محمد متولي
برلنتي والمشير (القصة الحقيقية) — محمد متولى/ سيد زهران
براءة سياسية — أحمد شرف
النبي الخاتم : هل وجد ؟ ومن يكون ؟ — د. جمال الحسيني أبو فرحة
إشكالية ترجمة معاني القرآن الكريم — د. سعيد اللاوندى
هل في القرآن أعجمي ؟ — د. على فهمي خشيم
الهندسة الوراثية في القرآن أسرار الخلق والروح والبعث — هشام كمال
الحركة الإسلامية في مصر — صالح الورداني
الكلمة والسيف "محنة الرأى فى تاريخ المسلمين" — صالح الورداني
عبود الزمر .. حوارات ووثائق — أحمد رجب
عيسى المسيح والتوحيد — محمد عطا الرحيم — ترجمة: عادل حامد
الحكومة والسياسة في الإسلام — ترجمة : سيد حسان
الوجيز في بداية التكوين — عبد العزيز محمد ، مصطفي الخولي
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده — تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة — مجدي رياض
علمني يا أبي (حوار حول رسالة الصلاة) — حسن سليمان
قيثارة السماء "الشيخ محمد رفعت" — محمود توفيق
حروب المشايخ — أحمد الدسوقي
الناس والجن/السحر فى القرآن/العلاج بالقرآن — سمير فراج
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور (تراث) — د. أحمد الصاوي
رمضان .. زمان — د. أحمد الصاوي
النقود المتداولة في مصر العثمانية — د. أحمد الصاوي
النقود الإسلامية في مصر — د. رأفت النبراوي
"Word 97" — م . أحمد ظريف المعانى
"Word 2000" — م . أحمد ظريف المعانى
"Excel 2000" — م . أحمد ظريف المعانى
"Visual basic 6" — م . أحمد ظريف المعانى
أمن وحماية البيئة — خالد القاسمي / وجيه البعيني
الجريمة البيئية — خالد شوكات
الفيلم والمعمل — د. عفت عبد العزيز
التشريح الجمالي أساسيات تمثيل جسم الإنسان فى الفنون التشكيلية. محمد محمد المفتى
أنت وقواك الخفية — د. محمد لطفى حسن
الإبر الصينية في العلاج والتخدير — د. لطفي سليمان
الصوت والضوضاء — د. مصطفي عبد المطلب
المواد شبه الموصلة ودورها — د. مصطفي عبد المطلب
الأعشاب الطبية — د. موسى الخطيب
طعامك طريقك إلى صحتك — د. نجدي إبراهيم
تعليم الموسيقى والعزف على آلة الأورج — محمد كريم
ما هي السينما — صلاح أبو سيف
فكر وإبداع .. إصدار علمي محكم — د. حسن البنداري
هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه
الخطابة عند الخوارج — أحمد بدران

التوجهات النقدية فى رواية عودة الروح — أحمد بدران
أثر الإسلام في الأدب الإسباني — ترجمة د. حامد أبو حمد، وآخر
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية — أحمد الأحمدين
عبد الله البردوني .. حياته وشعره — د. أحمد عبد الحميد
الإنسان والفكرة — أحمد المهنا
قراءة المعاني في بحر التحولات — أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم
المشهد القصصي — إدوار الخراط
القصة والحداثة — إدوار الخراط
مغامر حتى النهاية — إدوار الخراط وآخرون
اللغة والشكل — أمجد ريان
تاريخ وأدب ومجتمع (دراسات فى الأدب الإسباني الحديث) ترجمة د. باهرة عبد اللطيف
من حديث الشعر والشعراء — د. جميل علوش
ثقافة البادية — حاتم عبد الهادى
الصنعة الفنية فى التراث النقدى — د. حسن البندارى
جدلية الأداء التبادلي — د. حسن البندارى
سيميولوجيا العمل الدرامي — ترجمة : د. خالد إبراهيم سالم
بيلاتكيث وروح الحداثة — ترجمة : . خالد حسين كاكى
تقاسيم نقدية — زينب العسال
أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية — سليمان الحكيم
رواد الأدب العربي في السعودية — شعيب عبد الفتاح
البواكير فى القصة القصيرة — شوقى عبد الحميد
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة — د. صلاح الراوى
إنتاج الدلالة الأدبية — د. صلاح فضل
منهج الواقعية في الإبداع الأدبي — د. صلاح فضل
تأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى — د. صلاح فضل
تجليات فى الحب الإلهي — د. عادل الألوسى
الحياة الصوفية وتقاليدها فى الموروث الشعبي العربي — د. عادل الألوسى
الجواهر والأحجار الكريمة فى التراث والحضارة العربية — د. عادل الألوسى
حدود الأدب المقارن — ترجمة د. عبد الحكيم حسان
نقد وشعر وقص — د. عدنان الظاهر
أعلام في الأدب العالمي — على عبد الفتاح
هيمنجواي .. حياته وأعماله الأدبية — د . غبريال وهبة
الصولجان والقلب (دراسة نقدية لمسرح سعد الله ونوس) — د. فاروق أوهان
محمد مندور شيخ النقاد — فؤاد قنديل
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة — مجدى إبراهيم
التحليل النفسي للأدب — د. محمد حسن غانم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب
السرد فى مواجهة الواقع (فصول من القصة السعودية) — محمد قطب
أبو رجل مسلوخة — محمد مستجاب
التشريح الجمالي أساسيات تمثيل جسم الإنسان فى الفنون التشكيلية. محمد محمد المفتى
ابن عروس : السيرة .. اللوحات .. النصوص — محمود الهندى
الهندسة الصوتية الإيقاعية فى النص الشعرى — د. مراد مبروك
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل — ممدوح القديرى

إصداراتنا تشمل : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - أدبية (رواية ، قصة ، شعر ، مسرح) - مترجمة - علمية - جامعية - دراسات - معارف عامة - تراث - أطفال ، خدمات إعلامية وثقافية .



هذا الكاتب وهذا الكتاب :

الكاتب هو المفكر الإسلامى المتمرد محمد إبراهيم مبروك صاحب الكتابات الشهيرة بقدرتها على إثارة الجدل والتى من أبرزها : - أمريكا والإسلام البراجماتى (النفعى)

- حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين
- موقف الإسلام من الحب بين الرجل والمرأة
- كن قويًا بالإيمان
- نظرية الفن الإسلامى.

وهو مفكر مستقل يجمع بين السلفية والتجديد ويوصف بأنه يمثل المدفعية الثقيلة للإسلاميين فى مواجهة العلمانيين ويتجاوز مع ذلك أطروحاتهم التقليدية ويطرح مشروعًا إسلاميًا بديلاً.

وهو يؤصل فى هذا الكتاب لنظرية إسلامية مقابلة لما يطرحه هنتنجتون فى صدام الحضارات، وفوكوياما فى نهاية التاريخ. ويمضى مع نظريته أينما اتجهت به دون مخاوف أو محاذير، الأمر الذى يقحمه فى اشتباكات متعددة فى اتجاهات تتداخل فيها الأديان والمذاهب والفلسفات والتيارات الإ المختلفة التى يغوص فى أصولها وتطوراتها التاريخية وص الإيديولوجية وتفاعلاتها الواقعية ليخلص من كل ذلك إل كونية تكشف الحقائق الكامنة وراء الصراعات العالمية وتعمل فى نفس الوقت على تحقيق الغايات الإسلامية التى تتلاقى مع الطموحات الإنسانية الأصيلة.

